



الواقف

الواقف

محمد على رفاهى

رجال ومواقف

الكتاب الثانى

الطبعة الاولى

اكتوبر سنة ١٩٧٧

القاهرة

تصدير

بقلم الأستاذ الجليل زكي المهندس
رحمه الله

لقد كان من اعز الأمانى التى تعجيش فى صدرى ، أن أرى فى المكتبة العربية دراسة جادة ممتعة ، تعالج حياة كثير من زعماء مصر والعرب ، الذين سيطروا فى مشرقهم وفى مغربهم ، تاريخ الوطن العربى الحديث ، من علماء وساسة وقادة ورجال اعمال ، وأن تصور لنا هذه الدراسة ما عاناه هؤلاء العظماء من صعاب ، وما احتملوه من مشاق ، حتى وصلوا الى ما وصلوا اليه من عظمة وسؤدد ومجد ، فأننى اعتقد أن مثل هذه الدراسة ، هى أنفع الدراسات للباحثين والمؤرخين ، وأجدى على الشباب نفعا ، من كثير من الكتب التى يشغلون بها اوقات فراغهم .

إن كثيرا من شبابنا يشتهى النجاح من أيسر سبله ، ويتمنى الشهرة والمجد بغير ثمن ، ولكن مثل هذه الدراسة لحياة عظماء مصر والعرب ، خليفة بأن تبين للشباب ، أن النجاح وليد العمل الدائب الجاد ، وأن الحياة لا تعطى شيئا بلا مقابل .

ولقد عرفنا عن عظماء الغرب ، حرصهم الشديد على تدوين سيرهم فى حياتهم ، لتنتشر بعد وفاتهم ، حتى تكون نبراسا لبني اوطانهم ، يوقظ من همهم ، ويقوى من املهم ، وينير لهم الطريق فى مستقبل ايامهم .

ومما يحزن ، أن جل - إن لم يكن كل - عظمائنا لا يعنيه من حياتهم الحافلة ، سوى الدنيا العريضة التى يعيشون فى رحابها ، فلا يكون واحد منهم سيرته ، ولا يملأ على أحد ابنائه أو أحفاده ، تفاصيل تدرجه فى عمله حتى بلغ ذروة المجد والعلا . . . نعم لم يحفل واحد منهم بتاريخه أو بسيرته وبتاريخ وطنه فى عشرات السنين التى قضاه على أرضه قبل أن تضمه فى باطنها ، فانشاوا ، دون أن يدروا ، صعابا أمام المؤرخين لهذه الأمة العربية ولرجالها الأفاضل . . وهكذا رأينا كم تتطلب كتابة السير من نقص ، وكم تتطلب من تحرر ، وكم تتطلب من تنقيب مضن مرهق شاق .

اعود فأقول ، انه كان من أعز أمانى ، أن أجدراسة جادة ممتعة لحياة
عظماء مصر والعرب ، حتى وافانى ولدى وتلميذى وصديقى ، الأستاذ
محمد على رفاعى بكتابه هذا الذى أسماه ((رجال ومواقف)) ، فاذا هو
كتاب بحقق الأمنية التى تمننتها نفسى ، ويشفى غلة فى صدرى .

والصديق الأستاذ رفاعى ، صحافى قديم ، صادق الرواية ، وأديب
كبير عزيز المسادة ، وباحث محقق مدقق ، ولو اعنت نفسه وأرهفها ، فى
سبيل الوصول الى الحقيقة خالصة مبرأة من الريب والشك . ولعل آخر
ما أذكره من إنتاجه التاريخى الأدبى ، كتابه النفيس ((الجامعة العربية
وقضايا التحرير)) فقد تحلى بالصدق وبالأمانة ، وبدقة التحسرى
والتنقيب .

وهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم لقراء العربية ، هو جزء اول من
أجزاء سوف تصدر تباعا أن شاء الله ، يختص كل جزء منها بجملة من
السيرة ، لا ينظر فى جمعها معنا الى صلة بذاتها ، بل على أنها قطعة من تاريخ
أمة واحدة هى الأمة العربية ، ثم على أنها قطعة من كفاح مشترك ، هو
الكفاح من أجل تحقيق أمانى الأمة العربية .

وهذا الجزء الأول يضم سيرا أربع ، لكافحين أربعة : منهم اثنان لهما
الصفة الحاكمة ، واثنان لهما الصفة الاجتماعية . أما عن الأولى فستقرأ
سيرة حاكمين عظيمين ، هما الأمير عبد الله السالم الصباح ، أمير الكويت
الراحل ، والملك محمد الخامس ، ملك المغرب السابق . وأما عن الثانية
فستقرأ فيها سيرة اجتماعيين ، أحدهما محمد على علوية باشا ، وثانيهما
الشيخ عبد العزيز جاويش .

وسير الحاكمين ، لا سيما فى هذه الظروف التى تحياها الأمة العربية ،
موزعة بين جهاد جهاد : جهاد من أجل الشعب المحكوم ، وجهاد من أجل
الأمة العربية جمعاء ، إذ لا انفصال للجهاد الأول عن الجهاد الثانى ، وقد
أحسن المؤلف الحصيف فى الحديث عنهما كل الاحسان .

وسير الاجتماعيين ، أعنى المصلحين الاجتماعيين ، تتوزع اغراضا ، وهى
مع هذا التوزع ، تكاد تتصل هدفا . وما من مصلح اجتماعى يكاد لا يشارك
فى اغراض شتى ، مع تخصصه فى غرض بذاته . فلقد خص محمد على علويه
باشا نهجه الإصلاحى ، بمبادئ الإصلاح الاجتماعى ، وأن لم يبعد فى كثير
من مراحل حياته الطويلة عن ميدان السياسة . وخص الشيخ جاويش
نهجه الإصلاحى فى ميادين التربية والتعليم والدين ، وهو مع هذا ، قد
شارك بقلمه المجاهدين السياسيين ، محاربة المستعمر ومناهضته .

ولقد كانت صفة تلميذنا الأستاذ محمد على رفاعي ، الدأب المتصل في أثر الحقائق ، يجمعها ويدرسها ويستوعبها ، ولكم تنبات له صغيرا - وهو بعد في دار العلوم - بما سينتهي اليه امره كبيرا ، وان هذا الاستيعاب ، وذلك الدأب وراء التقصي ، لا بد أن ينتهيا بصاحبهما ، الى أن يكون ذلك المؤرخ الذي يزف لقراء أمته ، حصيلة ما جمع ، على نمط حق مدروس .

واني اذ أقدم هذه الصفحات ، أقدم صفحات صادقة مخلصه ، لا امت فيها ولا عوج ، ولا جور فيها عن القصد . . صفحات دبجتها براعة مؤرخ مخلص للحق ، مخلص للتاريخ . وما أزكى كاتبها وما كتب ، ولكني اترك تلك الصفحات الحافلة ، تحدث ، الى حديثها عن اصحابها ، حديثنا آخس عن الذي خطها ، وعن نفسه في جمعها ، غير جائر ولا مائل ، ولا مصانع ولا مجامل .

وليس التوفر على مثل هذا العمل ، لا سيما اذا كان عملا يتناول سيرا مليئة بالجهد ، مزدحمة بالنضال . . بالامر اليسير ، اذا كان مشروطا بتوخى الحق ، وابتغاء النصفة .

كان الله لك ايها التلميذ النجيب والأستاذ الجليل ، في عملك هذا ، الذي نرجو أن يكتمل ، كي يجتمع للقارئ العربي ، من سير أبطاله وعظمائه ، بهذا القلم الصادق ، صفحات ، يعيش على ما فيها من خير وهدى ، كريما ، عزيزا ، معتزا بعروبته ، معتادا بارومته .

زكى المهندس

هذا الكتاب

بقلم الباحث المحقق

الأستاذ الكبير إبراهيم الأبياري

هذا كتاب جليل يترجم لأربعة من رجال اجلاء هم :

- ١ - عبد العزيز بن سعود .
- ٢ - سعد زغلول .
- ٣ - طلعت حرب .
- ٤ - عبد المجيد اللبان .

ولا أريد أن ادخل في تراجم هؤلاء الرجال الاجلاء ، فما أنا بمستطيع أن اضيف شيئا . فالكتاب راوية حجة ، ومؤرخ ثبت للقرن الذي نعيشه ، ثم هو الى هذا كله له نظرات جامعة ، وصلات موثقة .

والمؤرخ اذا كان معاصرا ، انضم الى ما وقع عليه غيره ، ما يقع عليه هو ، وانتهى من هذا وذاك ، الى تجربة ذاتية ، كان هو مالك زمامها .

من اجل هذا كان جل ما يكتبه المؤرخون المعاصرون عن أحداث معاصرة ، فيه الكثير من الحق ، وفيه الكثير من التجربة ، وفيه الكثير من الراي الصحيح ، ان برئوا من الهوى فيما يحكمون به على ما يشاهدون ، ولم يحملوا الاحداث غير ما تحتمل ، ثم اذا استوعبوا ولم يجتزئوا بما يتفق وميولهم ، صادقين عما لا يتفق وتلك الميول .

ومؤرخنا لا شك جد في الاستيعاب . ينبئك عن هذا كل ثبت وضعه بعد كل ترجمة أو بين سطورها ، فهو قد وفي كل ترجمة من هذه التراجم حقها من الاستيعاب ، ثم هو يعد هذا قد أضاف الى هذا الاستيعاب ما وقع عليه هو ، وحين اكتملت له المادة استوى له الحكم ، وما تجده - كما أرى - في حكم من الأحكام التي حكماها ، أملى عن هوى أو ميل . وقد كان بودي أن اسوق هنا حكما وحكما لادلل على ما أقول ، ولكن سوق

الحكم وحده لا يكفي دليلا ، بل لا بد من سوق ما قيل له وما قيل عنه ، وفي سوق هذا كله اكثر لا تتسع له مثل هذه الكلمة ، من أجل هذا اجتزىء بهذه الاشارة ، تاركا للقارىء ان يقرأ الاحكام التى حكم بها مؤرخنا ، ما سيق لها وما سيق عنها ، وانا واثق انه منته الى ما انتهيت اليه فى الحكم على المؤلف .

هذا ولن يفوتنى ان اضيف ان فى هذا القدر الذى ضمه المؤلف ، الى ما اخذه عن غيره ، غنية قل ان نظفر بمثلها الا عند مثله ، ممن لهم غرام بالجمع ، وتتبع الاحداث حيث تكون من مصادرها السليمة .

وانا مؤمن ان هذه التراجم الاربعة بما اجتمع فيها للمؤلف ، سوف تكون مرجع كل دارس ينشد الاخبار الجامعة أولا التى لا يند عنها شيء ، ثم ينشد الرأى السليم ثانيا .

ولقد عرفت المؤلف منذ مطلع شبابه ونحن طلبه فى دار العلوم ، فأنست فيه هذه النزعات كلها ، وكأنه خلق ليكون بعد ، ذلك المؤرخ الملحوظ .

عرفته مفرما بتقصى حقائق الاحداث السياسية والاجتماعية التى تجرى من حولنا . وكنا ونحن فى مطلع حياتنا ، نعيش أحداثا سياسية واجتماعية حافلة ، وكان منا من يشارك فيها بوجدانه ، ومنا من يشارك فيها بعقله ، ومنا من يشارك فيها بهذين معا ، وكان مؤلفنا من هؤلاء الذين شاركوا فيها بوجدانه وعقله ، وكان هؤلاء الجامعون للصفتين معا قلة قليلة ، وكان هو على رأس تلك القلة القليلة . لهذا ضاق بالتدريس ، لأن الانتظام فى سلوكه كان قيادا له يحول بينه وبين الحركة الحرة المطلقة ، يجرى هنا وهناك ، يؤكد بعقله ما يحس به وجدانه . وكان لا بد له من أن يشهد الأمور ويقابل الرجال ، ولكنه كما قلت ، لا يعيش بوجدانه وحده ، ولكنه يعيش بعقله مع وجدانه ، فكان لا بد له من أن يرضى عقله بما يرضى به وجدانه .

من أجل هذا كنا نراه بيننا حجة ، وكنا نرجع اليه فى الكثير من أمرنا ، وكنا نجد عنده من العقل ، ما تقوم به وجداننا أو نضبطه .
وكم كنا نجلس اليه نستمتع ما يعز على أمثالنا معرفته ، وكم كان يقص علينا من أحداث السياسة والكبراء ، ما يصعب على أمثالنا بلوغه .

وأخيرا أثر الصحافة على التدريس ، فلم يلج له بابا ، وسلك سبيله فى ساحتها ، مكلا ما بدأه من سيره فيها وهو لا يزال طالبا ، وهكذا تركنا نمضى فى سبيلنا فى التدريس ، ومضى هو فى سبيله « فاذا نحن شيء ، واذا هو شيء آخر ... واذا هو كما أراد لنفسه ، ذلك الصحافى الصادق ،

والراويّة الحجّة ، والمؤرخ الثبت . . . وإذا هو صاحب كتابين في تراجم الأبطال ، أحدهما صدر منذ حين غير بعيد ويضم جملة من أجلاء الرجال ، ثم هذا الكتاب الذى يضم جملة أخرى منهم ، وإذا الكتابان يدلان على جهد عظيم ، كان مطلع شبابه يدلنا على أنه سوف يكون صاحبه .

فحمد الله إذ لم يكذبني ظني ، ولم يضلني حدسي ، ورأيت محمدا الزميل القديم والصديق الحميم ، كما قدرت له : الراوية الحجّة ، والمؤرخ الثبت .

ابراهيم الابيارى

١ - تفضل الأخ الكريم والزميل القديم والصديق الحميم ، الأستاذ الكبير ابراهيم الابيارى ، بكتابة هذه الكلمة الضافية ، مقدما بها الكتاب وصاحبه ، مما أشكره عليه أجزل الشكر ، وأحفظه له يدا بيضاء ، أضمها الى أياديه البيض - ولا يحصيها عد - التى قدمها الادب والتاريخ .

وابراهيم الابيارى هو قمة من قمم مدرسة تحقيق التراث العربى - وهم يعدون على أصابع اليد الواحدة - فقد حقق وحده نحو ستين كتابا من كتب هذا التراث ، فى مقدمتها « تجريد الأغاني » وشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وسعة الاطلاع ، كبار أدباء العالم العربى ، قبل كبار أدباء مصر ، وفى مقدمتهم المرحوم الأمير مصطفى الشهابى رئيس الجمع العلمى العربى فى دمشق ، ثم المرحوم الدكتور طه حسين .

هذا عدا نحو أربعين مؤلفا فى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى .

وكان الابيارى أول مدير لأول مركز ثقافى إسلامى أنشأته مصر فى مدريد ، فى الأربعينات ، فنجح فى ادارته نجاحا جعله كعبه الأسبانيين ، ورسم له منهاج عمل ، هو الذى يسير عليه اليوم كل من يتولى امره .

وكان آخر عمل له « مستشار وزارة الثقافة والارشاد » وقد غمر ادارتها الثقافية بفيض من علمه وأدبه .

ولعلى لا أذيع سرا إذا قلت انه صاحب رسائل نال بها بعض حكامنا درجة « الدكتوراه » ، ولم يخطوا فيها حرفا ، بل ولا صلة لدراساتهم بموضوعها ، فان الذى اختاره هو ابراهيم ، وكان هو مؤلف الرسالة من ألفها الى يائها ، وكان الحاكم هو الفائز بدرجة الدكتوراه !!!

غفر الله لابراهيم ، ورضى عنه .

مقدمة المؤلف

عندما فكرت في وضع هذه السلسلة من الكتب التاريخية ، وعندما لفت الكتاب الأول منها ، متضمنا سير : الشيخ عبد الله السالم الصباح مؤسس دولة الكويت الحديثة . والملك محمد الخامس ملك المغرب الذي وقف مع شعبه مطالبا باستقلال بلاده ، وذاق في سبيل هذا الجهاد عذاب لنفى والتشريد ، فما لان جانبه ، وظل مكافحا مناضلا يده في يد الشعب حتى نال وطنه استقلاله . ومحمد على علوبة باشا المحامي المصرى الكبير الذى لعب دورا خطيرا وهامسا على المسرح السياسى المصرى والمسرح العربى ، مناصرا قضية فلسطين منذ الثلاثينات ، مضحيا بماله وبراحته بوقته الثمين ، حتى قبضه الله اليه فى عام ١٩٥٨ . والشيخ عبد العزيز جاويش صاحب القلم الجبار فى محاربة الاستعمار ، والمسلم الورع التقى ، المجاهد فى منفاه الاختيارى ، والدائد عن الحق ، بعزيمة لا تهن لا تكل ...

أقول : عندما أصدرت الكتاب الأول من هذه السلسلة ، متضمنا سير هؤلاء الأبطال ، ما توقعت أن يلقى من الأقبال والاستحسان والرضا ، للقى من القارئ العربى فى مصر وفى غيرها من الاقطار العربية ، فقد غدت طبعته الأولى والثانية فى اشهر قليلة لا تجاوز ثلاثة .

ولهذا أحمد الله وأشكره على هذا التوفيق ، واستزيدة عز وجل عون والرعاية ، حتى اكمل حلقات الكتاب العشر ، تضم كل حلقة سير ربعة من العظماء بحق ، الذين اشترطت على نفسى شرطين لكتابة تاريخهم : أول ان اكون قد عرفت من أؤرخ له واتصلت به وخبرته عن قرب ، الثانى أن يكون قد ترك اثرا فى وطنه ، لا يمحوه الزمان ، ولا يبعده عن اذهان ، نسيان أى نسيان .

يضم هذا الكتاب الذى بين يديك : سيرة أربعة من الأبطال : أولهم ملك عبد العزيز آل سعود « أسطورة القرن العشرين » ، فقد غزا الرياض ربعين رجلا ، وأنشأ مملكة عظيمة ووطدها ، حتى غدت اليوم ، هى أولى بين زميلاتها فى المحيطين العربى والاسلامى ، ولها صوت مسموع فى

العالم . وثانيهم سعد زغلول وقد تحدثت عن تاريخه كمحام ، وكيف ارتفع بالمحاماة من العار الى الفخار ، وهي صفحة لم يقرأها انسان بعد ، عن هذا الزعيم العظيم . وثالثهم محمد طلعت حرب مؤسس بنك مصر وشركاته ، وواضع أساس الاستقلال الاقتصادى لمصر وللشرق العربى . ورابعهم الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الاسكندرية الذى أعاد اليها مصريتها بعد ما كانت ملكا للأجانب .

وفى تاريخى لهؤلاء الأبطال ، أبلل غاية الجهد ، فى ان ابث للقارىء تاريخ وطن البطل منهم ، من خلال تاريخه هو ، لتكتمل الصورة أمام عينيه ، وليتعرف على الحياة التى كان يحيها هذا البطل ، ويحيها معه وطنه .

ولا أريد ان اصف ما لاقيت من عنت ومشقة فى كتابة تاريخ ابطالنا ، فهم لم يتركوا ما ينم على اعمالهم ، ولم يحدثوا قريبا منهم عما صنعوه لأوطانهم . لهذا رجعت الى مراجع كثيرة وعديدة ، حتى لقد قرأت فى سبيل تدوين تاريخ الملك عبد العزيز وحده ، نحو خمسين مرجعا ، تصيدتها من هنا ومن هناك ، واخذت منها ما وثقت انه الصحيح لا مريية فيه ، لبعجى تاريخى له ، مرجعا دقيقا يعتمد عليه الباحثون والدارسون .

هذا الى مذكرات شخصية لى ، عاونتنى فى عملى هذا اجل معاونة ، فلكل من هؤلاء الأبطال دور لى معه ، يتمثل فى المعرفة الشخصية أحيانا ، وفى القرب والصلة الوثيقة أحيانا اخرى .

ولقد كنت اود أن أضمن هذه المقدمة ، كلمة عن الصحافة والصحافيين والذين يتجرون باسم سعد ، بناسبة كتابتى فصلا عنه فى هذا الكتاب ، وعن « المدرسة الحديثة » التى أحدثوها فى الصحافة المصرية ، لأبين بالدليل القاطع ، وبالبرهان الساطع ، أنها مدرسة تضليل وبهتان واثارة وتزييف ... مدرسة هدمت جميع المثل المقدسة فى الصحافة المصرية ، التى كانت تتوخاها ، قبل احترافهم لها واقحام أنفسهم على ميدانها . وساعدنى فى اثبات ضلال هذه « المدرسة الحديثة » وتضليلها ، رجلان فاضلان : أما أولهما فهو الصديق القديم الأستاذ الدكتور سيد محمد باشا ، أول رئيس لأول جمعية سرية لقتل الانجليز الفت فى سنة ١٩١٩ . مد الله فى عمره ، وهو اليوم ومن زمان بعيد رئيس لجنة الترجمة والتأليف والنشر .. أما ثانيهما فهو قطب العروبة ، عبد الرحمن عزام باشا رحمه الله وطيب ثراه ، فقد أمدنى كل منهما بالدليل المادى على هذا التضليل .

ولقد كان يطلق على صحافة هذه المدرسة الحديثة ، « صحافة القصر » ، لأنها كانت تسبح بحمد ربه ، فاطلقت عليه ، دون جميع الصحف المحترمة الصادقة الأخرى ، « الملك الصالح » ، و « العامل الاول » ، بل لقد عهدت الى رسام عالمي هو « دافيد رايت » يرسم لوحات لبعض أعضاء الاسرة المالكة ، تزين بها غلاف إحدى مجلاتها ، كما فعلت مثلاً في العدد ٨٤٦ الصادر من تلك المجلة في ١٠ يناير من عام ١٩٥١ ، وكتبت تحت الرسم : « صاحبة السمو الملكي الأميرة فائقة - بريشة الرسام العالمي « دافيد رايت » - رسمت بتكليف خاص من المجلة » وهي بهذا مزهوة فخورة .

وإذا « الملك الصالح » ، يصبح في نظر هذه « المدرسة الحديثة » ، بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، الملك الفاجر الفاسد الفاسق العرييد ، ولم تدع رذيلة أو وصفا شائنا أو عارا تجلله به ، إلا تبرعت باغداقه عليه وعلى أسرته ، بل وعلى أحزاب مصر كلها .

كنت أود أن اكتب كلمة عن هؤلاء الضالين ، لكني آثرت أن اترك امرهم الى كتاب أضعه الآن عن الصحافة المصرية ، بعد ما ظللت عاملا في ساحتها المقدسة نصف قرن ، نزيها ، شريفا ، صادقا ، صريحا ، معتزا بكرامتي ، حفيظا على كرامة صناعتي ، مما قد دفعني الى أن أرفض معاشا استثنائيا شهريا قدرته لجنة المعاشات الاستثنائية لثلاثين من قدامى الصحفيين ، وأنا منهم ، قدره ثلاثون جنيها فقط ، لأن في هذا التقدير الهزيل ، مهانة للصحافة ولى ، في الوقت الذي قدرت فيه هذه اللجنة لمئات ، مائة جنيها في الشهر ، وسخت الدولة على ٩٩ ضابطا من ضباط الجيش ، منهم من اتهم في قضايا قلب نظام الحكم ، ومنهم من اتهم بتعذيب المواطنين حتى الموت ، فقررت لكل منهم مائة وخمسين جنيها في الشهر ، لهذا رفضت هذا المعاش المهين ، وأرسلت الى وزير التأمينات - مند سنتين - أقول له : اننى أرفض هذا المبلغ الحقير الضئيل ، ولتصدق به الدولة على يتيم أو فقير أو ذليل .

وكنت الوحيد من الثلاثين صحافيا الذى رفض هذا المعاش الاستثنائي لقد تخرج على يدي في نصف القرن هذا زملاء كرام يحتفلون اليوم مناصب قيادية في بعض الصحف ، ومنهم من كان نقيباً للصحافيين ، مما سأفصله في الكتاب ان شاء الله .

بل ان من هؤلاء القادة ، من عمل معي وهو طالب في المدارس الثانوية ، ومنهم من كان طالبا في الجامعة .

وسيكشف الكتاب عن سوءات كثيرين ، وسيفضح خطيئات كثيرين .
وسيسجل جهل كثيرين - وهؤلاء جميعا هم اليوم ملء السمع والبصر - مما
سيحدث دهشة وهزة بالفتين عند القارئ المصرى والقارئ العربى .
عندما تقع عين أحدهما على ما سأقدمه من دلائل مادية - من صنعهم هم
ومن أقدامهم هم - على مآثمهم ومنكراتهم وجهلهم ، فان السكوت عما
يجرى الآن فى جنابات من ساحة الصحافة المصرية ، هو ، فى نظرى ،
خيانة عظمى للرسالة المقدسة لهذه الصناعة الشريفة ، لانه يطمس كثيرا من
الحق ، ويبرز كثيرا من الباطل ، مما يدع أبناء هذا البلد الأمين ، مخدوعين
مضللين ، جاهلين بما يجب أن يعرفوه من حقائق ، تزيف لهم عن عمد ،
حتى يشبوا وهم فى جهلهم يعمهون .

وهل هناك جريمة فى حق الوطن ، أخطر من العمل على تضليل أبنائه ،
والأخذ بأيديهم الى متاهات الزيف والبهتان ؟

* * *

لقد احتفلت فى هذا الأسبوع - الأسبوع الأخير من سبتمبر -
بانقضاء نصف قرن على اشتغالى بالصحافة ، وأنا والحمد لله ، لا أملك
دراجة ، لا سيارة فارهة ، ولا أملك دارا ، بل أسكن بالاجرة ، ولا أملك
جنيها واحدا فى مصرف ، مما لا يعرفه الصحافيون الناعمون فى هذا العهد .
زادهم الله من فضله .

أنا لا أزهى بماضى النقى المشرف ، ولا أفاخر مثلا بأبنى أنا الذى توليت
إصدار جريدة « المصرى » فى بدء انشائها فى أكتوبر من عام ١٩٣٦ ، فكانت
أول صحيفة مصرية حديثة التبويب ، حديثة الأسلوب ، حديثة الإخراج ،
تعنى بالخبر قبل المقال ، واستحدثت فيها أبوابا نقلتها عنها الصحف التى
صدرت بعدها مع مسخ وتضليل ، فكانت « المصرى » الرائدة الأولى للصحافة
المصرية اليومية الحديثة ، الى ان اغتيلت غدرا فى مارس سنة ١٩٥٤

ولست قائل هذا ، ولكن صاحبه هو الزميل والصديق القديم الأسناذ
حسين أبو الفتح ، شقيق المرحوم الأستاذ محمود أبو الفتح صاحب
« المصرى » ، وصاحب التاريخ المجيد فى خدمة القضية المصرية فى
ثورة ١٩١٩ ، حينما كان مع الوفد المصرى فى باريس ، وكان يقتر على
نفسه ، ويطلع مذكرات منه الى رؤساء وفود الدول فى مؤتمر الصلح ،
يشرح فيها قضية مصر ، وحققها فى الاستقلال والحريية ، حتى أفسس ،
وعاد ذات ليلة ، فاذا غرقتة موصدة ، وعليها ورقة من صاحبة المسكن ،

قالت له فيها : انها لن تفتح له الا اذا دفع اجرة الغرفة ، لانه تأخر كثيرا في دفعها ، فعاد الى الشارع ، وقضى ليلته نائما على الارصفة تحت وابل من المطر ، وبين عاصفة شديدة من الصقيع القاسى .

اقول : أن صاحب القول الذى رويته هو الأستاذ حسين أبو الفتح ، فضى به الى الصديق العزيز العلامة ، الأستاذ الدكتور ابراهيم صالح المستشار بمحكمة النقض اليوم ، فقد قال له :

— اذا كان محمود أبو الفتح ومحمد التابعى وكريم ثابت ، قد انشأوا « المصرى » بمالهم ، فان الذى أنشأه وأسدره ووطده امام « الاهرام » العتيذة ، فى أقل من شهرين ، هو محمد على رفاعى ، بخبرته وجهوده وإخلاصه لفته ، وحسن ادارته لتحريره ، وسديد توجيهه لمعاونيه .

انى اليوم قانع بحياتى التى احيهاها فى وطنى وكاننى غريب عنه ، لا اشعر بأحد ، ولا يشعر بى أحد ، أعكف على كتابة التاريخ ما وسعتنى كتابته ، وهذا فضل من الله عظيم ، فى هذا الزمان اللئيم .

لقد صدرت هذا الكتاب الثانى ، بكلمة طيبة تفضل بها على استاذى الجليل المرحوم الأستاذ زكى المهندس ، وكنت قد صدرت بها الكتاب الاول .

أما سبب تصديرى هذا الكتاب الثانى بها ، فهو تلبية لرغبة ابدائها لى ، رحمه الله ، ووعده بتحقيقها ، وهى أن تكون كلمته الطيبة هذه ، تصديرا لكل حلقة من هذا الكتاب ، ثم أوصانى بأن أحمل نسخة من كل كتاب من هذه السلسلة ، الى كريمته الفاضلة ، السيدة صفية المهندس مديرة الاذاعة ، أعزها الله وزادها من توفيقه .

وبعد : فانى لأمل ان أكون عند حسن ظن القارىء ، فيستمتع بقراءة تاريخ شائق لم يسبقنى اليه كاتب أو مؤرخ ، فان رضى عن صنعى ، فقد تحقق املى ، والا فقد ارضيت نفسى ، بما قدمت من سيرة عطرة خدمة للتاريخ ، وللادب وللعلم وللأجيال القادمة .

محمد على رفاعى

(س)

موضوعات الكتاب

- الملك عبد العزيز آل سعود
اسطورة القرن العشرين ٥
- سعد زغلول المحامي والفلاح
سما بالمحامة من العار الى الفخر ١٣١
- محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر
علم نفسه الاقتصاد ١٥٩
- الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الاسكندرية
أعاد اليها مصريتها ٢٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الملاک عبدالعزیز آل سعود

أطورة القرن العشرين

« ما هذا الذي خلق من القلة كثرة ،
ومن الضعف قوة ، ومن الدل عزا ، ومن
الموت حياة ، واخرج من الصحراء شرذمة
كانت اعظم مثل في العظمة والاحسان
والعلم والحضارة ؟
« فتسن ما استطعت ، وفكر ما قدرت
وقلب حوادث التاريخ كما تشاء ، فلن
تجد الا شيئا واحدا ، وأمرا فلدا
. . لن تجد الا سرا يرجع
اليه كل ما عرفت . . وعمادا استقل بكل ما وصفت . . الايمان المتين ،
والخلق الصالح . .
« ان في ذلك لعبرة »

هذه كلمات صادقة قالها بعد درس وتأمل ، وتحليل وتبصر ، الدكتور
عبد الوهاب عزام ، في الصفحة الحادية والخمسين بعد المائة ، من كتابه
الفريد في نوعه « الأوابد » ، في فصل صغير عقده فيه ، اتخذ له عنوانا
« مدرسة الصحراء » .

والدكتور عبد الوهاب عزام من الأدباء المصريين العمالقة ، الذين درسوا
تاريخ العرب ، ماضيه وحاضره ، قديمه وحديثه ، ونالت الجزيرة العربية
من اهتمامه وبحوثه وتحرياته ، اعظم نصيب من جهوده ، لا سيما في الفترة
التي قضاها سفيرا لمصر في جدة ، حتى لقد اخترق « الربع الخالي » في
محاولة منه لكشفه ، بعد ما أحجم عن هذه المحاولة كثير من الرحالة العالميين
والذين عرفوا الدكتور عبد الوهاب عزام ، شهدوا له بالصدق في الحديث ،
وبالتأني في الحكم ، وبالبعد عن المبالغة والخيال ، فكان واقعيا طوال حياته ،
فلم يقل : استاذنا كان ، أم عميدا ، أم سفيرا ، أم رحالة ، الا صدقا وحقا
وعدلا .

كان من عادة المغفور له محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر
وشركائه ، ان يقيم مادبة افطار في يوم من أيام شهر رمضان من كل عام ،

في داره الرحبة بالعباسية ، لجميع موظفي البنك ، ويدعو اليها من يشاء من خلائه ومن عملاء البنك ، فكانت جلستي في مأدبة ذلك العام - عام ١٩٢٨ - الى مأدبة جمعت الدكتور عبد الوهاب عزام ، واحدى خريجات الجامعة الجميلات ، ممن كان لهن اسم رنان ، في مجامع الادب وغير الادب ، في ذلك الزمان .

قالت الفتاة الجميلة : لا ادري ، ماقيمة راي الملك ابن سعود في حل قضية معقدة كقضية فلسطين ، وهو رجل بدوي لم ينل من الثقافة والمعرفة والتجربة ، قسطا يؤهله للحكم الصائب ، ويوحى اليه بالرأي السديد ؟ كان هذا في عام ١٩٢٩ كما قلت ، حين دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر في لندن يضم العرب واليهود ، للبحث عن حل لقضية فلسطين ، وشهده من الدول العربية ممثلون عن : مصر والعربية السعودية والعراق والاردن واليمن وزعماء فلسطين .

واسفر المؤتمر عن مشروع وضعت به الحكومة البريطانية « كتابا ابيض » كان الملك عبد العزيز اول من قبلوا به ، وحذا حذوه رئيس وزراء مصر محمد محمود باشا ، وجمال الحسيني عن زعماء فلسطين .

كان هذا الكتاب الابيض مشار نقاش وأخذ ورد في الصحف .

فماذا رد الدكتور عبد الوهاب على الفتاة الجامعية الجميلة ؟

قال لها في هدوء كعادته ، لكن بلهجة فيها نبرة أستاذ يماثب تلميذه على حكمه على الأشياء قبل الدرس والبحث والتمحيص :

— هل رايته يا آنسة ؟ هل استمعت اليه في جدل أو في نقاش أو في بحث قضية ؟ انه بدوي لم يتعلم كما تقولين . نعم انه لكذلك ، لكن عقل هذا البدوي ، وسع خبرات الحياة كلها . . لقد ذاق مرها وحلوها . . وعاشر الخفير والأمير . . والصغير والكبير . . والوضيع والرفيع ، فتعلم في مدرسة الحياة دروسا هي أعظم ما يمكن ان يتلقاه انسان ذكي واع حصيف . لقد بنى مملكة بأربعين رجلا فقط ، هي الآن - ولما يمض عليها أهوام كثيرة - في الصف الاول بين مثيلاتها التي قامت من أكثر من قرن من الزمان .

ولم يرق هذا الدفاع الحق ، فتأنا الجميلة ، فاصطنعت حركات من شفيتها ورأسها ، تشف عن تكذيبها له ، أو في القليل ، عن مبالغة في دفاعه عن ابن سعود . .

فما كان أسرع الى النهوض للانصراف غاضبا ، فعدوت خلفه أهديء من خاطره ، ولمحنا صاحب الدار ، محمد طلعت حرب باشا ، من بعيد ، وهو جالس الى مائدته مع كبار من ضيوفه ، فأسرع يسد عليه الطريق ،

ودعاه الى الجلوس الى مائدته ، وقد استقبله الجالسون اليها جميعا وقوفاً ،
ومنهم الوزير . والمسؤول الخطير ، والموظف الكبير (١)

كيف بنى عبد العزيز بن سعود مملكته العتيقة بأربعين رجلاً كما قال
الدكتور عزام ؟ وكيف ذاق مر الحياة وحلوها ؟ وما هي الدروس التي
لقننها له الحياة ، وما كان لثله ان يميها في مثل بيئته ؟

الحق ان حياة هذا الملك العربى ، حلقات متصلة من الوقائع والحروب ،
والبؤس والنعمى ، والفقر والغنى ، والشقاء والسعادة . فلو أنك تقصبتها

(١) ولد الدكتور عبد الوهاب عزام بالشوبك الغربى بمحافظة الجيزة فى عام ١٨٨٣ ،
ونشأ نشأة دينية ، فحفظ القرآن الكريم فى سفره ، والتحق بالأزهر ، ومنه انتقل الى
مدرسة القضاء الشرعى ، وخرج فيها فى عام ١٩٢٠ ، وكان أول دفعته فاختير مدرسا بها ،
وفى الوقت نفسه كان يدرس فى الجامعة المصرية القديمة ، فحصل منها على الليسانس
فى عام ١٩٢٣ ، واختير فى ذلك العام اماما فى مفوضية مصر فى لندن ، وهناك التحق بمدرسة
اللغات الشرقية بجامعة لندن ليدرس فيها الفارسية ، ونال منها فى عام ١٩٢٨ درجة
الماجستير من رسالة فى « السوف عند فريدالدين العطار » . وعاد الى القاهرة ليعمل
مدرسا بالجامعة المصرية وقد حصل منها على الدكتوراه فى الادب الفارسى فى عام ١٩٣٢ ،
ثم عين استاذاً ورئيساً لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية ، فعميدا لكلية الاداب فى
عام ١٩٤٥ .

وقد شغل مناصب سياسية هامة ، منها انه كان سفيرا فى باكستان ، ثم سفيرا فى المملكة
العربية السعودية .

ومن ترجماته من الفارسية : « بيسام مشرق » و « ضرب الكليسم » و « ديوان
الاسرار والرموز » لمحمد اقبال .

ومن مؤلفاته : « مدخل الشاهنامة العربية للبندارى » و « مهد العرب » و « محمد
امبال » و « موع عكاظ » و « الشوارد » و « الاوابد » و « ذكرى ابي الطيب من الف
عام » و « رحلات عبد الوهاب عزام » .

ومما حققه : « الشاهنامة » التى نقلها الى العربية ، و« ديوان المتنبى » و« مجالس
السلطان النورى » و « مجالس صاحب بن عباد » .

وقد حرسب الجامع اللغوية العربية الثلاثة على ضمه اليها ، فاختير عضوا مراسلا
بالجمعين العلميين العربيين فى دمشق وفى بغداد ، واختير عضوا يجمع اللغة العربية
المصرى فى عام ١٩٤٦ .

وقد قال عنه الدكتور طه حسين فى حفل تايينه فى سنة وفاته (١٩٥٩) : « بفضل
عبد الوهاب عزام استقر لتدريس اللغة الفارسية واللغة التركية بجامعة القاهرة ،
وانتقل منها الى جامعات اخرى ومعاهد اخرى للتعليم . وبفضل عبد الوهاب عزام اخذنا
نعرف ادب الغرب ، ونعرف من آثارهم وامورهم شيئا غير قليل » .

وأردت ان تقف عليها سنة بسنة ، لأعيالك تفصيك ، ولوجدت نفسك في
مناهة لا اول لها ولا آخر .

لقد قرأت سيرته في أكثر من خمسين كتابا ومرجعا ، فوجدتني أمام
متناقضات من الروايات . . كل كاتب اختار ما رأى - أو ظن - أنه الصحيح
. . والحق أنهم جميعا يرهقون الباحث ، ويكدون ذهن القارئ ، ويفرقونه
في تفاصيل لا شأن له بها ، وعدم ذكرهم لها لا يسىء الى سيرة الرجل
العطرة ، ولا يبغضه حقه ، أو ينزل به عن مكانته العالية بين الملوك
المصلحين .

وسأجيبك ما لقيت ، وسأبتعد بك عن مزلق تزهك في تتبع تاريخ
عبد العزيز الحافل ، معتمدا على مصادر أثق بصحتها ، وعلى مذكرات
شخصية لى ، الى جانب ما اخترت من المراجع والمؤلفات العديدة .

سأروى لك من تاريخه الجليل والخطير ، ثم نرى معا : كيف استطاع
هذا الرجل العظيم ، أن يؤسس ملكه ويوطده على دعائم من الحق والهداية
والخلق القويم ، والايمان واليقين .

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في مدينة الرياض في شهر
ذي الحجة من عام ١٢٩٧ هـ (ديسمبر عام ١٨٨٠ م) في الوقت الذي دب
فيه النزاع بين عميه : عبد الله بين فيصل وسعود بن فيصل ، وانتهى هذا
النزاع - أو الصراع - بينهما ، بزوال دولة سعود التي أسسها وجعل
عاصمتها « الدرعية » راعيا الأكبر محمد بن سعود ، بعد حروب ووقائع
بينها وبين خصومها الذين خشوا اتساع رقعتها حتى شملت امارة نجد كلها ،
وبعد تزايد اتباعها وتكاثر انصارها ، والتفافهم حول ما نادى به شيخ نجدى ،
هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) ، في أوائل القرن الثامن عشر (حوالى
عام ١٧٢٥) ، من الرجوع الى الدين الحق ، والأخذ بكتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم ، وترك البدع والباطيل التي ادخلت على الاسلام
وليسست منه في شيء . . أى الحرص على أداء العبادات الشرعية كما وردت
عن النبي عليه الصلاة والسلام ، بلا زيادة أو نقصان . . فلا لجوء في الشدة
الا الى الله جل شأنه ، لا الى الأولياء والأنبياء ، ولا رجوع الى الأوثان
ببناء قباب على القبور . . وغير هذا من البدع التي كانت شائعة في نجد ،
وفي ما جاورها من الامارات والمقاطعات .

(١) ولد في سنة ١٧٠٣ هـ وموت في سنة ١٧٩١ هـ .

اليك سورة مما كانت عليه نجد في تلك الأيام ، كما صورها المؤرخ العربي « ابن غنام » في كتابه « روضة الأفكار » ، لتقدر عظم الرسالة التي نهض بها محمد بن عبد الوهاب ، ولقى في سبيل نشرها وترسيخها ، العنت والارهاق ، كما لقيهما وبلقاها المصلحون ، من قبل ومن بعد ، ولتعرف اى خدمة جليلة اداها محمد بن سعود امير « الدرعية » للاسلام ، حين اواه ونصره واخذ بيده ووقف بجانبه . بل نستطيع ان نقول بلا حرج او مبالغة ، انه لولا ابن سعود ، ما كتب لدعوة هذا الشيخ النجدي ابن عبد الوهاب ، النجاشي والديوب ، ولولا التقاء ابن عبد الوهاب وابن سعود ، لما كانت اليوم في الجزيرة العربية ، مملكة عزيزة الجانب ، رفيعة المكانة ، في الصف الاول من دول العالم العربي والعالم الاسلامي معا .

قال ابن غنام : « كان غالب الناس في نجد وفي الاحساء ، وفي غيرهما من البلدان العربية ، غارقين في الرجس . منهمكين في الشرك ، يتبعون ما زينت لهم الاهواء والشياطين ، وتركوا كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يعبأوا بالدين الصحيح ، لانه امرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وهم لا يستطيعون ان ياتمروا بامرهم وينتهوا بنهيهم ، فنفسهم مرضى ، وعقائدهم فاسدة ، فعدلوا عن عبادة الله وحده ، الى عبادة الصالحين والاولياء ، وجدوا في الاستغانة بهم في النوازل والخطوب ، واقبلوا عليهم يطلبون قضاء الحاجات والمطالب .

« واستغناق طبعهم ، وفقد ادراكهم وتمييزهم ، حتى اعتقدوا في الاحجار والاشجار انها تضر وتنفع ، وهبوا اعمالا يعجز ان يقوم بها الادميون ، بل يعجز الانبياء والمرسلون . كما اعتقدوا فيها التصرف التام والحياة والقداسة ، فكانوا ياتونها في كل حين يتبركون بها ويتمسحون ، ويطلبون منها ما يريدون » ،

ثم اخذ ابن غنام يعدد بعض الامثلة على ما قال ، فاستطرد قائلا :
- « في بلدة « الغدا » ذكر النخل المعروف ب « الفحال » ، ياتي اليه الرجال والنساء زرافات ووحدا ، ويفعلون عنده من الافعال المنكرة ، مالا يقبله الانسان ذو الضمير الحى ، والدوق السليم . . يرتكبون عنده المنكرات ، ويصلون له ويتبركون اا وتاتي المرأة التي لم يتقدم اليها المخاطبون ، فتماثقه وتقول في بكاء ولوعة واحتراق : « يا فحل الفحول : ارزقنى زوجا قبل الحول » ، ثم تأخذ في افواء بعض الشبان ، حتى اذا اصطادت واحدا منهم وتزوجت به ، خيل اليها ان ذلك من عمل فحل الفحول !!

« وفي « الدرعية » جبل بسفحه غار كبير ، يزعم الجهلاء انه لفتاة حسناء ندعى « بنت الأمير » يحجون اليه ويستغيثون بها ، اعتقادا منهم ان الفتاة من اولياء الله الصالحين ! وسبب هذا الاعتقاد الزائغ ، ان « بنت الأمير » خرجت ذات يوم تقضى حاجة لها ، ولما كانت بالقرب من الجبل ، ابصر بها نفر من الثبان ، فاستهواه جمالها ، فاقرب منها يريد ان يعبت بشرفها ، ولكن الفتاة زاهدة تؤثر الموت على العار ، فدعت الله ان ينجيها من الفجرة الفاسقين ، وما اتمت دعاءها الحار الا وانفلق في الجبل غار ، دخلت فيه واعتصمت به !!

« ويزعم المبطلون ان رجلا في « الخرج » أعمى ، كان يقطع الغياض سيرا على قدميه ، من بلده الى « الدرعية » وغيرها ، والى اقاصى نجد ، من غير قائد ، لا يتعب ولا ينى ، ولا يصطدم بصخر او شجر ، ولا يقع في هوة ، ولا يسقط الحيوان المفترس الدنو منه ، ولا للصوص ايضا ، مع انه كان ذا مال ، لانه كان يجمع الخراج والزكاة من الناس ، كما انه لا يتوه في الصحراء !! لماذا كل ذلك ؟ لانه من اولياء الله الصالحين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! حتى اذا مات عكفوا على قبره وعبدوه ، اعتقادا منهم انه ولي ، وهذه كلها من كراماته ، فلولا كرامته وولايته وصلاحه وتقواه ، لما استطاع ان يضرب في الصحراء ، من غير ان يضل ، ولا يناله اذى او ضرر » .

وقد كتب الأستاذ أحمد أمين في كتابه « زعماء الاصلاح » وفي الصفحة العاشرة منه ، عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته ، فقال :

« وقد رأى - أى ابن عبد الوهاب - في الحجاز وفي رحلاته الى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، ان التوحيد الذى هو مزية الاسلام الكبرى قد ضاع ودخله كثير من الفساد .

« فالتوحيد أساسه الامتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التى يسير عليها ، والمشرع له ، وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ، ولا فى حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ، لانه تعالى ليس فى حاجة الى عون أحد مهما كان من المقرين اليه ، وهو بيده الحكم وحده ، وهو الذى بيده النفع والضرر وحده لا شريك له . فمعنى « لا اله الا الله » ، ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم وفقا لما وضع من قوانين ، الا هو . وليس فى الوجود من يستحق التعظيم والعبادة ، الا هو . وهذا هو محور القرآن : « قل يا أهل الكتاب تعالوا

الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا ، فقولوا اشهدوا باننا مسلمون .» .

« ويظهر ان محمدا بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية . فاعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله ، يكتبها ويدرسها . وفي المسحف البريطاني بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب .

« ولانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الاسلام الاول من عادات وتقاليد : فلا اجتماع لقراءه مولد ، ولا احتفاء بزياره قيسور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا اقامة اذكار يتغنى بها ويرقص ، ولا تحمل يتبرك به ويتمسح ، ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم ، وهو ليس غير احوال حنبلية لا تضر ولا تنفع .

« بل هذا مخالف للاسلام الصحيح ، يجب ان يزال ، ويجب ان نعود الى الاسلام في سمائته الاولى وطهارته ونقاته ووحدايته ، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك . فلا اله الا الله ، معناها كل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات ، كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات - وما في « البردة» من مثل قوله :

يا اكرم الخلق ما لي من الود به سواك ، عند حدوث الحادث العمم

ونحو ذلك ، اقوال فاسدة كاذبة ، فلا التجاء الا الى الله ، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة الا عليه .

« لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحسه ، يرون ان ضعف المسلمين اليوم ، وسقوط نفسيتهم ، ليس له سبب الا العقيدة . فقد كانت العقيدة الاسلامية في اول عهدها صافية نقية من اى شرك ، وكانت « لا اله الا الله » معناها السمو بالنفس عن الاحجار والاثان ، وعبادة العظماء ، وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق .

« لم ينظر محمد بن عبد الوهاب الى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه في اصلاحه الى الحياة المادية ، وانما اتجه الى العقيدة وحدها فعنده ان العقيدة والروح هما الاساس ، وهما القلب ، ان صلحا ، صلح كل شيء ، وان فسدا ، فسد كل شيء .» .

وكتب الدكتور طه حسين عن هذه الدعوة الوهابية ، خلال بحث له عن « الحياة الادبية في جزيرة العرب » ، فقال كما ورد في كتاب « آل سعود » مؤلفه الاستاذ احمد على ، في الصفحة الرابعة والعشرين منه :

« . . . على أن الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب ، لا يستطيع أن يهمل حركة عنيفة ، نشأت فيها في أثناء القرن الثامن عشر ، فلفت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب ، واضطر أن يهتم بأمورها . . . هذه الحركة هي حركة الوهابيين التي أحدثها محمد بن عبد الوهاب ، شيخ من شيوخ نجد ، نشأ في بيت علم وفقه وقضاء ، فسخط عليه الناس ، وانتشر مذهبه ، فانقسموا فيه قسمين ، فكان له أنصار ، وكان له خصوم ، وتعرضت حياته آخر الأمر للخطر ، فأخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ، ليجيروه ويحموا دعوته ، حتى انتهى به الأمر إلى « الدرعية » ، وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود ، فأجاره وبايعه على المعونة والنصرة . ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد مذهباً رسمياً يعتمد على سياسية تؤيده وتحميه ، بل تنشره في أقطار نجد ، بالدعوة اللينة حيناً ، وبالسيوف والحرب في أكثر الأحيان .

« وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة ، نشأت في جزيرة العرب دولة سياسية عظم أمرها واشتد خطرها ، حتى أشفق منها الترك أشد الأشفاق فقاوموها ما وسعتهم المقاومة ، فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين ، وكان أمرهم إذ ذاك إلى محمد علي الكبير ، فنجح المصريون في إضعاف هذه الحركة وإزالة هذه الدولة الجديدة ، ورد أمرائها إلى ما كانوا عليه من قبل .

« ولا بد من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد ؛ لنعرف ما هو ، وما مبلغ تأثيره في الحياة العقلية العربية ، في هذا العصر الحديث .

« أن هذا المذهب جديد وقديم معا : جديد بالنسبة للمعاصرين ، ولكنه قديم في حقيقة الأمر ، لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية . هو الدعوة إلى الإسلام ، كما جاء به النبي خالصاً لله وحده ، ملغياً كل واسطة بين الله والناس . هو أحياء للإسلام ونظهير له مما أصابه من نتائج الجهل ، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب ، حتى أصبح الدين أسماً لا معنى له ، فأراد ابن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفافة المشركين ، قوماً مسلمين حقاً ، على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً .

« أن الذي يعيننا من هذا المذهب ، أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب ، وقد كان هذا الأثر عظيماً خطيراً من نواح مختلفة : فهو قد أيقظ النفس العربية ، ووضع أمامها مثلاً أعلى ، أحبته وجاهدت في سبيله بالسيوف والقلم وباللسان . وهو قد لفت المسلمين جميعاً إلى جزيرة العرب » .

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد عن هذه الدعوة ، في كتابه « الاسلام في القرن العشرين » :

— « ظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، انه لقي في رسالته عننا ، فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع . ومن العنت اطلاق الناس على الجبل ، والتوسل بما لا يضر ولا ينفع ، والنماس المصالح بغير اسبابها . وايمان المسالك من غير أبوابها . وقد جاء على البادية زمان كانوا يتكلمون فيه على التعاويد والتمايم وأضاليل المشعوذين والمنجمين ، ويدعون السعى من وجوهه ، توسلا باباطيل السحرة والدجالين . حتى الاستسقاء ودفع الوباء . فكان حقا على الدعاة ان يصرفوهم عن هذه الجهالة . وكان من اثر الدعوة الوهابية ، انها صرفتهم عن اللون من البدع والخرافات » .

فلنكتف بهذا القدر من الحديث عن ابن عبد الوهاب ودعوته ، لنمضي في سبيلنا . . .

بسبب الدفاع عن الدين الحق من خلال هذه الدعوة ، ويسبب الحرب الأهلية بين أبناء سعود وحدهنه ، ضاعت الدولة التي انشاها محمد بن سعود في نجد وجعل عاصمتها « الدرعية » كما رايت ثم اتسعت رقعتها من بعده ، فشملت الاحساء والرياض ، ودانت لهم نجد كلها ، وامتد نفوذهم الى عسير ، والى عمان ، والى مكة ، واشتبكوا في حروب ضارية مع والى مصر محمد على الكبير ، ومع ابيه طوسون و ابراهيم بأمر من الحكومة العثمانية ، خشية امتداد نفوذها الى ولاياتها ، وهزمهم المصريون ، ثم اتردوها منهم في عهد حفيد من آل سعود ، ثم ولى الرياض في عام ١٣٠٦ هـ الأمير عبد الرحمن — والد الملك عبد العزيز — فاستمرت الحرب بينه وبين آل الرشيد نحو عامين اى الى عام ١٠٣٨ هـ (١٨٩٠ م) حتى كانت بينهما موقعة فاصلة في « المليدة » هزم فيها عبد الرحمن ، بعد أن طوى ابن الرشيد نجدا بلدا بعد آخر ، فخضعت له كلها ، ووجد عبد الرحمن ان حياته في الرياض في ظل حكام كاوا عمالا لوالده بالأمس ، مستحيلة ، فغادرها في العام التالي (١٣٠٩) الى الاحساء ، ثم الى قطر ، ثم الى البحرين ثم الى الكويت ، فاستقر فيها مع أسرته ، في حمى الشيخ مبارك الصباح .

واذ هو في الاحساء ، اوعزت الحكومة العثمانية الى واليها عليها ، عاكف باشا ، ان يفاوضه في عودته ، فارسل اليه الوالى ، الدكتور زخور عازار اللبناني الجنسية ، فعرض عليه :

- ١ - ان يكون اميرا على الرياض .
 - ٢ - ان يكون تحت ولاية الحكومة العثمانية .
 - ٣ - ان يعترف بسيادة الباب العالي عليه .
 - ٤ - ان يدفع شيئا من المال ، كالخراج ، اعلانا لخضوعه .
 - ٥ - ان تتمهد الدولة العثمانية بحمايته ، وباعطائه المال والسلاح .
- فرفض الامام عبد الرحمن هذه الشروط بكبرياء وابداء ، فقد رأى من الخيانة ان يركن الى اجنبى ، وان يقبل منه المساعدة النى تقيده وتقييد بلاده ، فان العربى المخلص لامته ولوطنه ، ربما يكون عدوا لآخيه ، لكنه ازاء الاجنبى الدخيل ، يد قوية واحدة مع يده (١) .

لقد عانى عبد الرحمن وأسرته ، وفي مقدمتهم ابناه عبد العزيز ومحمد وابن أخيه عبد الله بن جلوى ، من الشدة والحاجة والعسر ، مالا يطبق عليها صبورا ، الا كل ذى قلب كبير عامر بالايمان . . انه ظل شهورا مشردا فى بقاع نجد ، مستثيرا عشائرها وقبائلها ضد آل الرشيد ، فكانت جميعها تصرفه عنها ، وترده عن مضاربيها فى لباقة بعد حسن لقاء ! فلم يجد من يسعه الا قبائل «المرّة» - بضم الميم وتشديد الراء - فى الربع الخالى ، وهى المنطقه الممتدة فى القسم الشرقى من شبه الجزيرة ، لا يجرؤ على ارتيادها الا من كان بها خبيرا . وهى فى الوقت نفسه لا تصلح لاقامة طويلة ، فغادرها متنقلا بين الاحساء وقطر والبحرين ، واخيرا القى عصاه فى الكويت ، واستقر به النوى فيها .

كان عبد العزيز - وقد أشرف على سن الشباب - يتحدث عن الأيام السود التى قضاها فى «المرّة» مع أسرته ، مزهوا مبتهجا ! وكان سامعوه من الكويتيين يتسمون ابتسامات الاعجاب والتعجب وهم يستمعون اليه ، فان أفراد قبائل «المرّة» فى نظرهم شياطين مرده ، تتراءى أخيلتهم فى جوف الصحراء . ومنطقتهم التى يعيشون فيها ليس فيها ماء يصلح للشرب ، وما فى آبارها من الماء شحيح مالح مر المذاق لا يصلح لشرب الحيوان . وهسم لا يتجاوزون حدود موطنهم الا مرة واحدة فى العام ، يزحفون فى خلالها الى واحات النخيل فى «جبرين» بالشمال الشرقى من الربع الخالى ، فيجنون الثمار ، ويتزودون منها بمؤونة العام كله ، وهناك يستقبلون التجار الوافدين اليهم من نجد والاحساء ، لمقايضتهم على الجمال والجلود ، مقابل القليل مما يحتاجون اليه فى حياتهم من سلاح وعتاد وقماش ، مكتفين من الملابس بالقليل الذى يستر أجسادهم التى ألقت حر الصيف وقر الشتاء ،

(١) كتاب «سقر الجزيرة» للاستاذ احمد عبد الغفور عطار - الجزء الاول -

ثم ينسحبون الى موطنهم السحيق ، فيتوزعون جماعات تضرب خيامها حول بشر أو مستنقع آسن ، يروون ظلماً الجمال، ويستندرون النوق، ليشركوها بعد ذلك تطوف بالمناطق كما تشاء بين كتيان الرمال، باحثة عن غذاء لها ، وهيهات أن تجده ، ثم تعود بعد خمسة أيام أو ستة من تلقاء نفسها ، الى موارد المياه لتتروى من جديد . اما البشر من « المرة » فيروون ظلماًهم بحلب النوق ، ويتغذون بالبلح ، وبما يقتنصونه من الحيوانات كالارانب وغيرها ، فاذا نفذ العشب ، رحلوا الى منطقة أخرى ، وهكذا . . رعاية الماشية من شأن النساء ، والصيد وغزو العجيران الذين هم أسعد منهم حالا ، عمل الرجال . . هذه هي الحياة التي كان يحيها قبائل « المرة » ، وشاركهم فيها - بعد العز والسلطان - الامام عبد الرحمن واسرته المكنوبة .

روى عبد العزيز وهو يافع ، انه اضطر الى المساهمة في « عملية جراحية » خطيرة لواحد من أفراد هذه القبائل ، اثر اصابته برمح في معدته ، فارسلوا بضعة رجال يبحثون في الصحراء عن نوع كبير من النمل ، له فكان غليظان ، فعادوا ومعهم نحو ثلاثين نملة ، وشرع « الجراح » العجوز في اجراء العملية ، بعد ما مدد الجريح على الرمال حتى لا تبدو منه حركة ما ، ثم اذابوا كمية من زبد الجمل في وعاء أضمرت تحته النار ، وكشف « الجراح » عن موضع الإصابة ، وهو يتمم بالتعاون ، بينما كان على عبد العزيز ان يطرد الذباب بقطعة من الجلد يلوح بها في الهواء باستمرار ، وكان على أخيه محمد وعلي ابن جلوى ، ان يمسكا بالجريح الذي كان يتلوى من الألم ، دون أن تصدر عنه آهة أو أنة . اما « الجراح » فقد صب بعض الزبد المغلى على الجرح ، ثم شق بطن الجريح بطعنة واحدة ، ومد يده فأخرج المعدة من جوفه وتناولها لعبد العزيز ، الذي كان عليه في الوقت نفسه ، ان يضغظ على طرفي الجرح ليقترب بينهما ، بينما كان آخر يقدم الى « الجراح » نملة بعد أخرى ، يجعل كل واحدة منها تعض طرفي الجرح بفيكيها ، ثم يهرس جسمها بابهامه ، فيظل الفكك والراس ضاغطة على الطرفين ، وعندئذ تبدأ عملية « الخياطة » في الجرح الى أن تنتهي فنقل جدار البطن بعض الاشواك الكبيرة ، ويصب الزبد فوقه من جديد ، ثم يضمده بقطعة من القماش . وقد شفى المصاب تماما بعد أسابيع ، وأصبح فيما بعد من اتباع عبد العزيز ، ورئيسا لحرسه الخاص (1) .

هي دروس من الصبر والعزم ، تلقاها عبد العزيز من حياته بين أولئك القوم الذين وصفت لك حياتهم ، فالف قسوة الطبيعة ، واعتاد تحمل الجوع والعطش ، ولزمته المشقة ، وصحبه عذاب الآلام الحرمان والتشريد .

(1) كتاب « عبد العزيز » للمستتر داكوربت فون ميكوش - ترجمة الدكتور أمين

ولكنه الى هذا العذاب وتلك المشقة ، حلق ركوب الخيل والجمال في جوف الصحراء ، وتعلم من القوم الكر والفر والهجوم والدفاع ، بعد ما اشترك معهم في بعض غزواتهم ، وعرف مسالك الصحراء ومجاهلها ومناهاها وما يصلح للمأوى منها ، فاكتمل له من هذا كله ، ومن حياته المتواضعة مع والده في الكويت ، بدنانير يسيرة كانت تجريها عليهم الحكومة العثمانية ، وبعمون مشكور من الشيخ مبارك الصباح ، شيخ الكويت . . من هذا كله ، اكتملت له عقلية ناضجة ، وبنية قوية صلبة ، ساعدته على الصمود في وجه حدائن الزمان .

وإذا كانت هذه الحياة الخشنة قد سلحته بسلاح حاد ، فان اباه كان قد سلحه بسلاح حاد آخر ، هو سلاح الدين الحق والحرص عليه ، فقد عهد به والده الى فقيه « الخزرج » ليلقنه القرآن الكريم ، وبعد أن ائتمه قبل ان يبلغ العاشرة ، أسلمه الى عالم من أسرة ابن عبد الوهاب ، ليلقنه علوم الدين الصحيح ويفقهه فيها ، فأتقن علوم التوحيد والتفسير والتاريخ والآداب . زيادة على هذا كان والده يحرص على مرافقته له في مجالس اصداقائه واشراكه معهم في المحاوراة الدائرة بينهم ، ليعتاد الصراحة والجرأة في الحديث وبلغ من حرصه على أن ينشئ ابنه النشأة الحسنة التي يريد لها ، متحليا بالشجاعة والاقدام ، أنه كان يشركه في بعض حروبه ، فقد صحبه معه في معركة بينه وبين ابن الرشيد ، وكانت سن عبد العزيز لم تجاوز الثانية عشرة بعد ، فاعتلى جملا ومن خلفه أحد عبيده ، واستطاع أن يقتل برمحه محاربا من الأعداء . .

وفي جميع هذه الصحبة ، كان الامام عبد الرحمن يفلدى في ابنه عبد العزيز الروح الدينية ، ويفرس في قلبه حب التضحية والجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ، ويذكره بالعهد الذي تم بين جده محمد ابن سعود وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، من العمل على نشر عقيدة السلف ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

سلاح جديد آخر ، تسلب به عبد العزيز وهبو في الكويت ، هو سلاح الامام بطرف من سياسة الدول الغربية . . فقد كان الشيخ مبارك الصباح معجبا بالامير الشريد عبد العزيز ، مقدرًا ذكاه وفطنته ، فقربه اليه وأدناه منه ، وأجلسه الى يمينه في مجلسه اليومي الحافل ، الذي جرت التقاليد في بعض الامارات العربية على عقده في ضحى كل يوم ، ليسمع الامير أو الحاكم من رعاياه شكاياتهم ، فيقضى فيها بنفسه قبل أن يفض مجلسه . فكان

الكويتيون يرون هذا الفتى طويل القامة عريض المنكبين الى يمين اميرهم ،
فيسألون : من هذا الفتى ؟ فيجيبه الجواب : له ابن سعود .

وهكذا عرف واشتهر . .

وكان عبد العزيز حريصا كل الحرص على ألا يفوته مجلس من هذه
المجالس ، فيظل مستمعا صامتا ، مفكرا متأملا . ومن هذه المجالس عرف
بعض الأوربيين من القناصل ووكلاء الشركات ، جاؤوا لاستقصاء أمر او
استكمال معلومات عنه ، وكان مبارك من ناحيته يتيح الفرصة للأمير الصغير
حضور جلسات خاصة يناقش فيها أمور أمارته ، جلت أم صفرت ، وكان
أهمها يوم ذلك ، صراعا بين الألمان والروس ، يريد كل فريق أن يمكن لنفسه
من الكويت .

كان الألمان في مفاوضات مستمرة مع الترك ، ليمدوا خطا حديديا تجاريا
يصل خط الأناضول ببغداد ، مارا عبر البلاد العربية حتى الخليج العربي ،
حيث ينفذ الى البحر ، ولما كانت البصرة الواقعة عند ملتقى دجلة والفرات
غير صالحة لجعلها الميناء الذي ينتهي عنده الخط ، فقد وقع اختيارهم على
الكويت لتكون نهاية هذا المشروع الضخم .

أما الروس فكاثوا - في محاولتهم الوصول الى منفذ على البحر في أية
بقعة كانت - قد أخذوا يوسعون مناطق نفوذهم في إيران ، فوضعوا أقدامهم
على الساحل الإيراني حتى الخليج العربي ، واتخذوا منها قاعدة لعدد من
بؤارجهم الحربية ، مظهرا لسيطرتهم وقوتهم . وفي الوقت نفسه وضعوا
مشروعها لخط حديدي يمتد من الكويت عبر البلاد العربية الى البحر المتوسط ،
أو بعبارة أوضح ، الى المنطقة التي كانت محط آمال الانجليز (١) .

قال الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في كتابه « صقر الجزيرة » في
الصفحة ١١٩ من الجزء الأول :

- « . . قال الألمان ، وقال الروس . ولكن الشيخ مبارك ينظر من كعب
ضاحكا مستهزئا ، حفيّا عن كل دقيق وجليل ، ويرى ولده عبد العزيز - كما
كان يدعو - تقلبات السياسة وأحاييلها ، وما ينجم عنها من الخصومة
والشقاق بين الحكومات ، ويقفه على ما يدور بين الدول من أجل المصلحة ،
والوسائل التي اتبعها في تفريق كلماتها ، وإيقاعها في الورطات ، وجعل اليأس
بينها شديدا ، أضعافا لقواهم حتى يسود ، بعد أن يضرب بعضها ببعض ،

(١) المصدر السابق - ص ٣٩ .

وهو آمن بعيد عن الأذى . فتعلم عبد العزيز كثيرا من المبادئ السياسية ، وحذق لغتها المرنة ووسائلها المختلفة وأساليبها المتنوعة ، وتسنى له الاتصال بممثلى الدول والتحدث اليهم والاحتكاك بهم ، فانكشف له الزيف والصحيح ، والردىء والجيد ، وعرف الحلول الصحيحة لكثير من المشاكل ، ومن ثم تدرج في طريق الكمال ، وكانت عبقريته الباهرة الناضجة ، تعينه أجمل العون على ادراك الأمور ادراكا صحيحا ، وفهما فهما جيدا .

ولكن ، هل أنسى فتانا الطموح الدكى ، ما لقيه في سنى التشرذم من شقاء وبلاء في رحيله من بلد الى بلد ، حتى أوى مع أسرته أخيرا الى الكويت ... هل أنساه ما يجده في الكويت من تقدير أميرها مبارك الصباح له وتقريبه منه ، وعيشة الكفاف التى يعيشها مع آله ، بعد نفاذ المال وذهاب العز والجاه .. هل أنساه كل هذا ، مسقط رأسه « الرياض » ؟

لقد سألته مرة الشيخ عيسى آل خليفة حاكم البحرين في ذلك الاوان :

— أمقامك في قطر خير ، أم مقامك في البحرين ؟

فأجابه على الفور بصراحة اليافع طيب السريرة ، خالص النية ، صادق

الضمير :

— لا هنا ولا هناك ...

قال الشيخ متعجبا : اذن أين المقام الخير ؟

قال : الرياض ، الرياض خير مقاما ...

ان روح العلا ، ونزعة الامارة والسلطان تغليان في صدره ، وانه ليعبد الساعات والليالى والايام ، بعد أحد عشر عاما في المنفى الاختيارى ، منتظرا ذلك اليوم الذى يعيد فيه الى أسرته مجدها وعزها وسلطانها .. كثيرا ما شوهد على شواطئ الكويت وحيدا مفكرا . وفيه يفكر الا في الوطن السليب وطن آبائه وأجداده ؟

لقد كان يحدث أصدقاءه من الكويتيين أحاديث ملؤها العزم والتصميم ، وكان يسرع الى حيث تحط القوافل رحالها ، قادمة من جوف الصحراء ، ليتزود من أصحابها بما يريد من أخبار ومعلومات .. لقد كان مشهورا في الكويت كلها بالدكاء والجد ، تحوطه مهابة ويجف به وقار ، وهو لم يبلغ العشرين بعد ، أضفتهما عليه قامته المسرفة في الطول ، حتى لتبلغ المترين أو أقل قليلا ، ولهذا كثيرا ماتفوق على قرنائه من الكويتيين في الالعاب

الرياضية التي ألفها البدو ، فاذا فرغوا من اللعب ، عاد الشاب الفارع الى تفكيره ، وسرح ببصره في الفضاء وكأنه يسأل مولاه في علاه :

— متى أعود الى الرياض ؟

وفجأة حانت الساعة المرجوة ، وحل اليوم المرتقب . .
لقد أغرت الحكومة العثمانية ابن الرشيد ، بالشيخ مبارك شيخ الكويت ،
لانه مكن للانجليز من السيطرة على امارته ، بعقد معاهدة مع الحكومة
البريطانية - معاهدة ١٨٩٩ - على غرار المعاهدات أو الاتفاقيات التي عقدها
مع شيوخ امارات الخليج . وكان ابن الرشيد يحلم بالاستيلاء على الكويت ،
لأن فيه دعما لامارته في نجد ، فتصبح اماره قوية تسندها الحكومة المركزية
وهي الحكومة العثمانية ، وعندئذ - اذا تحقق حلمه - يرحل عنها الامام
عبد الرحمن وأسرته ، فيفقد آل سعود آخر أمل لهم في المحاولة للعودة الى
سلطانهم الذي أخذ منهم قسرا .

وبدأ ابن الرشيد يجهز جيشا كبيرا من قبائل « شمر » المترسين
بالحرب وبالقتال ، لهذه المهمة الخطيرة . وعلم مبارك الصباح بالأمر ، فسخط
من خزانته الملبئة بالذهب ، على بعض القبائل المجاورة ، وفي مقدمتها قبيلة
« العجمان » كثيرة العدد ، الضاربة بين نجد والكويت ، وقد عرفت بتمرد
على كل حاكم لا ييسط لها يده ، وباستعدادها اندائم للقتال مع من يجيد
البلد ويمنيها بالفنيمة النفيسة . كذلك استمال الشيخ مبارك قبيلتي
« الضفير » و « المنتفق » الضاربتين في الشمال نحو الفرات ، وبعض القبائل
التي عرف كرهها الشديد لآل الرشيد ، ثم رأى أن يشارك معه آل سعود ،
فاذا انتصر على ابن الرشيد ، عادوا الى امارتهم . . وجار صديق حليف
مثلهم ، خير وآمن من جار سوء شرير كابن الرشيد ، صنيعه الترك في المنطقة
العربية .

كان دور عبد العزيز في هذه المعركة ، هو أن يقود جماعة تمتطي النوق
السريعة ، لاثارة أهل نجد والاستيلاء على الرياض اذا أمكن ، مهددا بذلك
ابن الرشيد من الخلف . . اذن لقد قربت ساعة العمر التي ظل يترقبها ويحلم
بها ، الساعة التي يعود فيها الى الرياض منتصرا ، مجددا ما انقضى من عز
مندثر .

... والتحم الجيشان في « الصريف » - بين « حائل » عاصمة ابن الرشيد
وبين الكويت - واقتتل الفريقان اقتتالا ضاريا ، أسفر في نهايته عن انتصار
ابن الرشيد ، لان قبيلة « العجمان » خذلت مبارك ، وجدت في الفرار عند

مآرات الرؤوس تتطاير في الهواء ، وتبعتها القبائل المرتزقة ، فلم يكن امام مبارك وعبد الرحمن الا الانسحاب الى الكويت ، ، بما بقي معهما من الجيش الذي اصطنعه مبارك بماله وذهبه .

اما عبد العزيز فقد استطاع ان ينفذ بتلك الجماعة التي تقدمها ، الى داخل نجد ، واستقبل يترحيب من القبائل التي مر بها في طريقه ، وأعلنوا له استعدادهم للانقضاء على ابن الرشيد ، ثم أخذ يدنو من العاصمة ، من الرياض ، وليس فيها سوى حامية ضعيفة يمكن قهرها . الا ان انباء معركة « الصريف » وانتصار ابن الرشيد فيها ، عمت أنحاء نجد ، فاستبد الخوف والفرع بالجماعات التي كانت قد انضمت الى عبد العزيز ، ورات انقاء لعقوبة ابن الرشيد ، اعتفال عبد العزيز وتسليمه اليه . الا ان الله جل شأنه ، كان معه ، فلم يدره فردا ، فانجاه منهم ، وعاد الى الكويت ، جائعا ، مهلهل الشياب (١) .

انقضى عام على واقعة « الصريف » ، والالم يعتصر فؤاد عبد العزيز ، والامل يزين له المستقبل الياسم الزاهر ، رغم ما لقي ويلقى من قسوة الدهر ، انه مؤمن بالله الايمان كله ، مؤمن بحق آله في العودة الى وطنهم الايمان كله . . . مستحيل ان يززع هذا الايمان الراسخ الوطيد ، او ينال منه ، « سحابة صيف عما قليل تفتح » .

كان لعبد العزيز شقيقة تحتل من قلبه مكانة سامية ، وأدرك انها تشاركه آلامه وآماله ، فأسر اليها انه معتزم ان يعيد الكرة لغزو الرياض ، فشدت من عزمه ، ودعمت الله أن يكون معه في معركته القابلة ، معركة الحق والعدل . فلما فاتح اباه في الأمر ، حاول أن يثنيه عنه ، مسميا اقدامه عليه «مغامرة» لا تحمد عقباها . . فلما وجدته هاقدا العزم ، دعا له بالتوفيق والنصر . . . لكن الأمير الفتى خاوى الوفاض ، ليس معه سلاح ولا مال ، فكيف السبيل اليهما ؟

ولى وجهه شطر مبارك الصباح ، واستعانه فاعانه . . زوده بثلاثين بندقية وبأربعين جملا ، فحمد الله واستنصره ، وبدأ مسيرة الغزو بهذه المعونة المباركية ، وبأربعين رجلا اختارهم من أسرته ومن هوالها .

وسار على بركة الله ، في ليلة ظلماء من ليالى نهاية عام ١٩٠٢ م . . طواهم ظلام الصحراء ، ومر بمضارب قبيلة « المعجمان » فهاجمها ، واستولى على

(١) المصدر السابق - ص ٥٠ .

ما عندها من مؤن ، انتقاما منها لخذلانها مبارك في معركته مع ابن الرشيد ، ووصل الى مضارب قبيلة «شمر» انصار ابن الرشيد ، فهاجمها وأدبها ، واستمر في تقدمه حتى اقترب من « حائل » ، بعد ان نشر الرعب والدعوى والفرع في القبائل التي مر بها ، بل وفي القوافل التي كانت معتزلة اتخذها طريقها الى هدفها .

وعبثا حاولت عيون ابن الرشيد وارصاده ان تصل اليه ، فقد تعلم من قبائل « المرة » الكثير عن حرب الصحراء ، وبوسائل الاحتماء في اخايدها. وكهوفها ، ، بل وفي رمالها اذا لزم الامر !!

على العكس ، انضمت اليه قبائل « سبيع » و « بنى مرة » و « السهول » وغيرها ، انتصارا له من جهة ، ومن جهة ، أخرى وهي الأهم ، ابتغاء الفهم والكسب من الغنائم ! فلما وصل الى « حرض » كان جيشه مؤلفا من نحو الف وخمسمائة مقاتل ، مضوا يغيرون على القبائل المجاورة الموالية لابن الرشيد ، كقبائل « مطير » و « الدواسر » و « قحطان » ، غانمين ما عندها من زاد وعتاد ، ثم يعودون الى الاحساء حيث اتخذوا من بطاحها مستقرا ومقاما .

فماذا يفعل ابن الرشيد ؟

لجأ الى حلفائه الترك ، راجيا منهم ان يفلقوا الاحساء - وهي ولاية تركية - في وجه هذا الغازي الشاب الذي أفض مضجعه وأقلق راحته .

فلجأ الى حلفائه الترك ، راجيا منهم ان يفلقوا الاحساء - وهي ولاية تركية - في وجه هذا الغازي الشاب الذي أفض مضجعه وأقلق راحته . فلبوا الرجاء ، فلم يعد عبد العزيز يستطيع اجتياز حدودها كما كان يؤمل . . وانتظر الامير الفتى شيوب الثورة التي كان يرجوها من النجديين على ابن الرشيد ، ولكنهم وقفوا منه موقفا سلبيا غير مبالين به وبحركته ، فمالهم وله ، وهم مطمئنون الى حياتهم التي يحيونها ، فلا يهم اذن ، احكمهم ابن الرشيد او ابن سعود !!

وتحرك ابن الرشيد ، فشدت الحراسة في الطرق والدروب ، واقام في كل قرية حامية مسلحة من سكانها ، فاذا لم يقبلوا الفها من جنوده ، واطلقا جواسيسه يرقبون حركات عبد العزيز ويتنصتون اخباره ، ثم خصص جائزة مالية كبيرة لمن يأتيه برأسه . .

وسدت المنافذ في وجه عبد العزيز ، والمؤونة في نقصان ، وهذا الجيش الذي جمعه من القبائل الساعية الى الغنيمة أولا واقبل كل شيء ، بدأ يتفرقا ويتسلل أفراده ، مخلفينه وحده في الصحراء ، فلم يبق معه غير المؤمنين به وبما أقدم عليه ، أولئك هم الأربعون رجلا الذين غادر بهم الكويت . . وهل هؤلاء الأربعين يمكن غزو الرياض ؟

لقد طال الوقت به ، وهو في مكانه هذا ، وعلى حاله السيئة هذه ، أيعود
الى الكويت مرة أخرى ، فيشمت العدو ، ويسئ الى سمعة آله الأمجاد ؟

فقيم كان الخروج ؟ ولم كانت المفامرة اذن ؟

لا . . . لن يكون . وفيما هو كذلك مع رفاقه ، أقبل عليهم فارسان
موفدان من أبيه اليه ، يحملان رسالة يرجو منه فيها ان يعود سالما ، ما دام لم
يأذن الله ان يعود منتصرا غانما . .

وغشيه هم ويأس . ايعصى والده ويمضى فيما استعان الله عليه ، او
يعطيه ويعود حزين القلب مهيض الجناح ، خافض الرأس ذلة وانكسارا ؟

مرة أخرى : لا ، لن أعود الى الكويت ، سأمضى في طريقي الى غزو
الرياض . . قولا لوالدي اننى منقلد ما عزمت عليه ، فليدع الله ان يقف
بجانبى .

وما ان غاب الفارسان عن الأعين ، حتى جهز عبد العزيز رفاقه للمسير ،
قوصلوا بعد ثلاثة أيام الى واحة « جبرين » في أطراف الربع الخالى ، حيث
تقوم بضعة اكواخ من الطين ، يقطنها قليل من البدو لخراسة النخيل اندى
تملكه قبيلة « المرة » فى الواحة ، وهى منطقة يعرفها عبد العزيز خير المعرفة ،
حينما سكنها مضطرا مع أسرته ، قبيل رحيلهم الى الكويت .

وفكر فى حيلة يضل بها ابن الرشيد ، فتظاهر بالخصام دب بينه وبين
أخيه محمد وابن عمه ابن جلوى ، ووادوا فمثلوا ان هذا الخصام اشتد
بينهم ، حتى دفعهم الى التلويح لبعضهم بعضا بالسيوف ، ثم تفرقوا ، كل
منهم مع فريق من الأربعين رجلا ، بعد ما اتفقوا على الاجتماع فى مكان معين
قريب من هذا المكان الذى مثلوا فيه الخصام أمام أهل الواحة . وشاع نبا
الخصام ، وان الجمع قد تفرق من حول عبد العزيز ، فتخطى عنه اخوه وابن
عمه ، وبقي وحده طريد الصحراء بائسا بائسا .

ونجحت الحيلة ، وابتهج ابن الرشيد بما سمع عن أفول نجم خصمه
الشاب العنيد ، فشرح الحاميات المسلحة التى كان قد أقامها فى القرى ،
واستعاد من بعضها جنوده الى عاصمته « حائل » . . وظل عبد العزيز مع
وجاله خمسين يوما حيث هم ، فى أشق أنواع الحياة ، فلا غداء لاحدهم سوى
تمر أو تمرتين فى اليوم ، فاذا سباق اليهم الحظ السعيد غزالا أو أرنبيا ،
اقتنصوه وأكلوا لحمه نيئا ، حتى لا توجه نار الوقود الانظار الى مكانهم .
وبعد هذه الأيام الخمسين السوء ، اتفقوا على ان يبدأوا غزوتهم بمهاجمة حاكم

المدينة ، فيقتلوه ، فاذا سال دمه امام اعين جنوده في حامية حصنها ، سلموا صاغرين مدحورين . . بعد هذا يصبح احتلال المدينة نفسها امرا هينا ، لا عسر فيه ولا مشقة .

واخذ الغزاة القلائل في السرى ، وغاب القمر في طيات السحب ، ودنا عبد العزيز ورفاقه من الرياض ، ولم يبق بينهم وبينها سوى ساعات قليلة ، وهم يغدون السير فرحين مستبشرين متهللي الاسارير ، وكانهم لم يلقوا في مسيرتهم الشاقة هذه عنتا ولا رهقا ، واستقبلوا عيد الفطر (شوال عام ١٣١٩ هـ - ١٩٠٢ م) حول بئر ، فلبثوا عندها للراحة ، ليتبلفوا ببعض من النمر ولحم غزال نىء ، ثم واصلوا السير الى بئر « ضلح الشعب » ، حيث تبدأ واحة من النخيل ممتدة مسيرة ساعة ونصف ساعة الى ضواحي الرياض ، وعندها ابقى عبد العزيز الجمال في حراسة عشرين رجلا ، امرهم باللحاق به اذا ارسل في طلبهم ، فان لم يرسل اليهم بعد اربع وعشرين ساعة من مغادرته لهم ، فليعودوا الى الكويت ليلتقوا والده انه : إما قتل أو أسر .

وعلى الاقدام سار عبد العزيز مع العشرين رجلا الباقين الى نهاية واحة النخيل ، وفي الطريق اقتطعوا جذع نخلة ليتسلقوا عليه سور المدينة ، ومضى مع ابن عمه وستنة من الرفاق ، مخلفا زملاءهم بقيادة اخيه محمد ، لكي يحميهم عند الاقتضاء ، فاذا اتقطعت أخباره عنه الى صباح اليوم التالي ، فليعد هو الآخر الى الكويت .

. . وانصت عبد العزيز ، فلم يسمع صوتا لسائر ، سوى صوت الحراس وهم ينادون بعضهم بعضا ، حتى لا تأخذ أحدهم غفوة تحول بينه وبين اداء واجبه ، فاذا اطمأن هؤلاء الحراس الى يقظتهم جميعا ، لاذوا بالصمت والدفام فقد كانت الليلة من ليالى ديسمبر القارصة اوى فيها الأهالى الى دورهم هربا من البرد الشديد ، مما زاد في اطمئنان عبد العزيز ، فتسلق ومن معه سور المدينة في غفلة من الحراس والسكان الدافئين ، فلم يشعر بهم أحد ، وساروا حذرين مخترقين مسالك المدينة ودروبها ، حتى وقف بهم امام منزل صغير في نهاية درب صغير ، طرق بابيه ، فسمعوا صوت امرأة هلعنة جزعة ، تسأل :

— من الطارق في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فقال عبد العزيز : نحن من رجال الامير عجلان ، نريد شراء ابقار منك . . .

فأجابت المرأة من الداخل : اذهب من هنا ، فليس في البيت بغي .
انت تريد الفساد ، ولا تريد ابقارا . . .

فقال : لا والله ...

قالت : أهذا وقت بيع وشراء ؟ أبعد منتصف الليل تطوف بالحي طواف من يريد أمرا نكرا مغلفا بالبيع والشراء ؟ اذهب يا رجل ..
قال لها عبد العزيز بحزم : أريد صاحب الدار وكفى ، وليأتني الآن ،
فاذا لم يطع ، فاني أخشى أن يقتله الأمير صباح غد ...

... وفتح الباب بعد هنيهة من التردد ، عن رجل زنجى ... انه
« جويسر » العبد السابق من عبيد آل سعود ، وقد اعتقه الامام
عبد الرحمن قبل أن يفادر الرياض ، وعرف العبد سيده ، ففتح له
ولمراقبته الباب عن آخره ، ليلجوه الى داخل البيت وسط سرور أهل
الرجل وذويه ، وعلم منه عبد العزيز ما أراد من معلومات عن حاكم المدينة
« عجلان » ، ثم غادروا الدار متسلقين سطحها الى أسطح الدور المجاورة ،
حتى ساقتهم أقدامهم الى دار مجاورة لدار الحاكم ، فهبطوا اليها ،
وأوثقوا ساكنيها العجوزين بالحبال ، وأغلقوا دونهما الباب ، ثم تسلقوا
جدارها الى سطح دار الحاكم ... وبحذر ، وبهدوء ، شديدتين ، هبطوا
الى فنائها مغافلين الحراس ، فأوثقوهم أيضا بعد ماكموا افواههم
وحبسوهم في حجرة قصية ، وعندئذ سمعوا لغطا وهممة صادرين من
غرفة قريبة ، فافتحهما عبد العزيز وابن عمه ، فاذا هما في غرفة نوم قد
تمدد في سريرها امرأتان ، هما « قطيبة » زوجة عجلان واختها ، فطمأنهما
أن لا خطر عليهما اذا هما لزمنا الصمت . وعلم من الزوجة أن زوجها
يبست في الحصن المواجه للدار ، وأنه يفادره اليها قبيل الشروق بلحظات ،
ثم أغلق الباب عليهما وعلى الباقيات من النساء في الدار ، وأرسل في طلب
أخيه محمد ومن معه من الرجال ، وافترشوا جميعا فناء دار الحاكم في
انتظاره للقضاء عليه ، بعد ساعات قليلة قضاها المتربصون في تناول قليل
من زادهم ، وفي احتساء قهوتهم ، والكل يقظ الحواس لاي لمسة أو همسة
خشية الفجاءة ...

وعلا صوت المؤذن في المدينة داعيا الى صلاة الفجر ، فأم عبد العزيز
رفاقه ، وأتموا صلاتهم ، ورددوا أدميتهم ، وتلا كل منهم ما تيسر من آي
الذكر الحكيم ، وصحت المدينة ، وأستيقظ أهلها ، وأرسلت الشمس
خيوطا ذهبية من أشعتها ، فهب رجالنا وقوفا متاهبين وقد سلوا سيوفهم
خلف باب الدار ، وهو مواجه لباب الخضن ، يقصل بينهما ممر طويل
اتخذ مربضا لخيول الحاكم ، اعتاد أن يمتع عينيه بمنظرها وهو يتريض فيه

برهة ، ثم يذلف الى زوجته ليوقظها ويتناول معها قهوة الصباح وطعام الافطار ... بعدئذ يمضى الى عمله .

اليوم ، هو الرابع من شوال من عام ١٣١٩ . وفي اول لحظات من نهاره فتح حارس الحصن كوة صغيرة في الباب الكبير ، خرج منها عجلان متجها الى مريض الخيل ، فاسرع اليه عبد العزيز والسييف في يمينه ، ومن حوله رجاله يبغون قتله ، لكنه عدا طالبا النجاة في الحصن من الكوة التي خرج منها ، فجدبه عبد العزيز من قدميه ، وعاجله ابن جلوى بطعنة من خنجر فاخطاه وجاوزه الى الباب فاستقر فيه ، ولا يزال في مكانه الى اليوم ، رمزا للذكرى يوم الغزو المقدس ... لكن عجلان القوي ، افلت من يدي عبد العزيز ونفذ كالسهم الى الداخل ، فأطلق عليه حينئذ ابن جلوى - وهو من اشهر الرماة - رصاصة جندلته ، وسقط يتخبط في دمه ، فأجهز عليه ، وفصل رأسه عن جسده ، وترك جثته نهبا للذباب والطيور .

في هذه الاثناء ، أو في هذه اللحظات الخاطفة ، دارت معركة بالرصاص بين الغزاة وبين حراس الحصن ، قتل فيها بعض هؤلاء ، وأسر الباقون ، ثم ضربت اعناقهم من بعد ...

وبعث عبد العزيز مناديه ، ليعلم في الناس الخبر العظيم ، فوقف على منصة عالية في سوق المدينة ، وصاح مبشرا :

- الحكم الله ، ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن بين الفصيل السعود وذهلت الرياض ، وهى بين مصدقة ومكذبة ، ثم سادها البشر وظللتها البهجة ، وهرعت الوفود الى منقدهم من حكم الطاغية عجلان ، يمطرون وجهه بالقبل الدالة على اخلاصهم لآل سعود ، ويعلمون بيعته لهم ، يسألون من سالمه ، ويعادون من عاداه ، وهم بينهم بقامته المديدة ، يملأ عطفه الزهو بالحق ، وتنطق أساريه بشكر الله عز وجل .

ثم تحدث اليهم ، فحضهم على الخير والصلاح والصبر ، ونصحهم بالا يقتلوا عدوا جاء مستسلما ، ولا يؤذوا الشيوخ والنساء والاطفال ، وحرهم من انتهاك الحرمات ، وسفك الدم بغير حق .

وفي المساء أشعلوا النار أمام الدور ، وفي الميادين نحروا الذبائح ، قرى للضيوف الذين جاؤوا مهئين من القرى المجاورة ، وأضاءت المدينة كلها المصابيح والشموع ، فبدت قطعة من نور وهاج .

ان ذلك اليوم المشهود الأغر ، يوم ٢ من ديسمبر من عام ١٩٠٢ الذى دخل فيه عبد العزيز الرياض غازيا ، هو السطر الأول فى تاريخ هذا الرجل العظيم ، كما يعتبر غزو الرياض ، حجر الاساس فى بناء هذه المملكة العتيقة التى أسسها على تقوى من الله ورضوان .

الاي بعد هذا العمل فى الأساطير التى نقرأها فى كتب الأولين ، من الرواة والمحدثين ، من الرومان واللاتين ؟

ولو شئت أن أتابع تاريخ هذا الغازى الفريد فى نوعه ، يوما بيوم ، لأضناني التتبع . فليترفق بى القارىء ، وليتقبل منى مشكورا ، أن أجمل له فتوحاته ، حتى دان له الحجاز كله ، وأصبح « ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما » ، ثم « ملك المملكة العربية السعودية » .

فى تلك السنة التى فتح فيها الرياض ، فتح « شقراء » و « ترمداء » و « الروضة » وسائر مدن سدير .

وفى السنة التالية فتح « عنيزة » و « بريدة » وسائر مدن القصيم . وفى سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) كانت معركة « البكيرية » و « الشنانة » .

وفى ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ هـ (١٤ أبريل سنة ١٩٠٨ م) قتل عبد العزيز ابن الرشيد أقوى خصم له ولأسرته .

وفى ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٣١ (١٢ أبريل سنة ١٩١٣) احتل الأحساء .

وفى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧ (١٩١٩) كانت معركة « تربة » المشهورة التى قضى فيها على جيش الملك حسين بن على ملك الحجاز ، وكان بقيادة ابنه الأمير عبد الله (الملك عبد الله ملك شرق الأردن فيما بعد) .

وفى ٢٩ صفر سنة ١٣٤٠ (٢ نوفمبر سنة ١٩٢٢) ، سقطت « حائل » آخر معاقل آل الرشيد ، وبهذا دانت نجد كلها لعبد العزيز بن سعود .

وفى ٧ صفر سنة ١٣٤٣ (سنة ١٩٢٤) استولى على الطائف ، قاعدة حكومة الشريف حسين .

وفى ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤) احتل جيشه من « الاخوان » مكة المكرمة سلما ، بعد أن جلت عنها الحكومة الهاشمية .

وفى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، استولى على المدينة المنورة .

وفي ٢٣ من الشهر نفسه ، استولى على جده . . .

وبهذا انتهى حكم الشريف حسين وبنيه من الحجاز .

من هذه الفتوح ، أود أن أخص بالذكر ، فتحه الأحساء ، فمنه يتضح كيف كان عبد العزيز يقبل التحدي من المتكبرين المتجبرين ، وكيف كان سبحانه وتعالى ينصره عليهم ، لأنه يدفع عن حق ، وهم يدفعون عن باطل . لقد اشتهر إقليم الأحساء بالخصب والنماء وجودة مزروعاته ، وغزارة عيون مائه القريبة من سطح الأرض ، ولكنه كان مصدر اضطراب وقلق لما حوله من الإمارات ، إذ كان وكرا للصوص وقطاع الطرق ينهبون أموال التجار ، ويفتصبون بضائع القوافل ، ويقتلون أصحابها والمرافقين لها . ومع أن الإقليم ولاية تركية ، إلا أن حكامه من الترك كانوا ضعافا لا سلطان لهم ، ولا حول ولا قوة ، بينما جيران سكان الأحساء من أهل نجد ينعمون بالطمأنينة والأمن .

وعلم جمال باشا السفاح ، الوالي التركي على بغداد ، أن ابن سعود ينوي أمرا للأحساء ، وهي في منطقة نفوذه ، فأرسل إليه ليوافد مندوبا عنه لمفاوضته فيما يريد من هذا الإقليم ، فأوفد ابن سعود مندوبه ، وإذا بجمال السفاح يبادره بقوله :

— ان ابن سعود لا يعرف مقامه ، فإذا كان لا يقبل ما تعرضه عليه الحكومة التركية ، فان باستطاعتي اختراق بلاد نجد من الشمال إلى الجنوب بطابورين فقط ! !

وعاد المندوب لينقل إلى عبد العزيز ما سمع من المبرور المتجبر ، جمال السفاح ، فقال له ابن سعود :

— لا عليك . . انتظر . سوف نؤدبه باذن الله .

ثم كتب إلى وكيله في بغداد ، عبد اللطيف المنديل باشا ، رسالة كلفه إبلاغها إلى جمال ، وقد قال له فيها :

— سنقصر لكم الطريق ان شاء الله قريبا .

وقد تم له بعد ذلك فتح الأحساء (١) .

كذلك حينما أرسل إلى الشريف حسين في مكة ، يدعو إلى الاتفاق على الحدود بين نجد والحجاز ، في رسالة مؤدبة مهذبة ، خاطبه فيها كما يخاطب الابن أباه ، أرسل إليه حسين يقول له :

(١) كتاب « صقر الجزيرة » للاستاذ عبدالغفور مطار - الجزء الاول - ص ٢٥٢ .

- يا ابن سعود : انك بكتابتك هذه ، اما أن تكون سكرانا أو مجنوننا -
لا تعلم لاي أمر قمنا ، وای غرض نبغى ؟

وحفظها له ابن سعود ، وتحدها ، حتى اجلاه وأجلى أسرته كلها
من الحجاز .

أعود الى فاتح الرياض بقلة من الرجال ، لا بجيش لجب ، ولا بعناد .
وهيب ، فاقول انه أرسل الى ابيه والى أسرته فى الكويت ، فلحقوا به ،
ولم يقبل الاب ما عرضه عليه الابن البار ، من تولى الامارة ، فأصبح عبد
العزیز أميرها ، لكنه ما كان لينفذ أو يبرم أمرا الا بعد مشورة
أبيه الجليل .

كان يقول عن والده : « انه كان يعاملنى كأننى أنا الوالد وهو الولد »
وما رأيت قط معاملة كهذه بين الآباء والأبناء » .

وكما كان يوم ٢ ديسمبر من عام ١٩٠٢ ، يوم دخل عبد العزيز مدينة
الرياض مستردا لها ، يوما تاريخيا لن ينسى ، فان يوم ٥ ديسمبر من عام
١٩٢٥ (٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤) ، يوم غادر الشريف على ابن
الشريف حسين ، جدة مستسلما لعبد العزيز ، ومسلما المدينة له ، ليكمل
فه بذلك احتلال الحجاز كله . . . ان هذا اليوم هو الآخر ، يوم تاريخى .
لن ينسى . . . لقد حاصر عبد العزيز يومذاك جدة حصارا شديدا ، ولم
يشأ مهاجمتها حرصا على أرواح ساكنيها من الأجانب ، ووجد الشريف
على نفسه فى مأزق شديد : فالأرزاق عن المدينة ممنوعة ، ورواتب الجند
موقوفة . فأرسل وسطاء الى عبد العزيز ليحملوه على المفاوضة فى صلح
يرضى كلا منهما : أرسل أمين الريحانى الكاتب اللبنانى المشهور ، والمستر
قيلبى وكان لا يزال تاجرا فى جدة ، وطالب النقيب باشا من أعيان العراق .
ثم حسين العوينى التاجر اللبنانى الكبير ، وقد أصبح بعد ذلك رئيسا
لوزراء لبنان عدة مرات . . .

فقال عبد العزيز للريحانى - وهو مسيحي - بصراحة :

- ان المشكلة اسلامية ، ولا يحلها غير المسلمين .

وقال للتاجر فيلبى :

- ليس من المصلحة أن تكون وسيطا فى هذه المسألة الاسلامية -

وقال للنقيب باشا :

- لا فائدة من الوساطة . على الشريف على أن يتخلى عن جده -

وقال مثل هذا للحاج حسين العوينى .

لكن الشريف على لم يياس ، فأرسل الى عبد العزيز وزير خارجيته
قواد الخطيب باشا ، فوجد من الفاتح المعتز بنفسه ، المؤمل فى نصر من الله ،
ناصرارا على أن يفادر الشريف جدة ، فليس هناك مفر من تخليه عنها .
كان عبد العزيز قد أرسل وهو محاصر مكة المكرمة ، رسالة الى
الشريف ، قال له فيها :

— ان الحرمين الشريفين ليسا ملكا لأحد ، لكن الاشراف ، وعلى
الأخص والدكم ، اعتبروا الحجاز ملكا خاصا . ولقد عانى المسلمون جميعا
وأهل نجد خاصة ، الأمرين من سوء معاملته . نحن لا نريد الا تحرير
الحجاز للمسلمين وللعالم الاسلامى (١) .

فأرسل اليه الشريف على يطلب « جلاء النجديين عن الاراضى الحجازية
المحتلة ، والا فنستردها بالسيف ، وأنا مضطر الى الاصطلاء بنار الحربية
بلا شفقة ولا رحمة » .

فرد عليه عبد العزيز قائلا فى تواضع :

— « اذا كنتم تحبون السلام وحققن الدماء ، فأخلوا الحجاز ، وانتظروا
حكم العالم الاسلامى ، فان اختاركم أو اختار غيركم ، فنحن نقبل حكمه
بكل ارياح . أما اذا بقيتم فى أرض الحجاز ، فان مسؤولية ما يقع من
الحوادث ، تقع على فيرنا » . . .

وأخيرا لم يجد الشريف على الا أن يوسط الانجليز ، عليهم يفلحون مع
هذا الغازى العنيد . فدعا اليه المستر جوردون نائب المعتمد البريطانى فى
جده ، وأبطفه رغبته فى توسطه بينه وبين عبد العزيز فى التسليم ، لكن
بشروط ، هى :

١ — اعلان عفو عام عن الموظفين الملكيين والعسكريين والاشراف ، وكل من
والى الحكومة الحجازية — حكومة ابيه — أو ناصرها من المنفيين
وأهل القبائل ، وتأمين ارواحهم وأموالهم .

٢ — ترحيل جميع الضباط والجنود الذين جىء بهم من الاقطار العربية
الى اوطانهم ، مع تأمين نفقاتهم ومصاريف سفرهم ، وأن يوزع عليهم
خمسة آلاف جنيه ، مكافأة لهم ، بنسبة معتدلة .

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب — ص ٧٩ .

٣ - تأمين سائر الموظفين على وظائفهم ، وعدم اخراج احد منهم من عمله .
الا بجنحة أو بسبب معقول .

٤ - سريان الشروط السابقة على جميع السكان والموظفين والضباط
والجنسود الموجودين في ينبع ، ما عدا المكافاة النقدية قاتهم .
لا يدخلون فيها .

٥ - الاحتفاظ بممتلكات العائلة الهاشمية في الحجاز ، لأصحاب الحقوق .
فيها ، وعدم الاعتداء عليها أو مصادرتها .

واستقبل الفلاح المنتصر ، المستر جوردون ، وقبل الشروط مرجحة
بها ، لأنه انسان أولا ، ولأنه ثانيا ، ليس فيها ما يخالف خلقه ومبادئه
وتقاليدته التي ورثها عن اجداده ولقنها له أبوه . وأقر معاهدة التسليم ،
بعد ما وقعها المهزوم الشريف على ، في أول جمادى الثانية . وفي اليوم
الرابع منه ، وصلت البارجة البريطانية « كورن فلور » ، فحملته الى
العراق ، لينزل ضيفا على أخيه فيصل .

أما عبد العزيز فقد قصد الى جدة ، ودخلها وسط اطلاق المدافع ،
يظللها العلم النجدي ، واستقبل قناصل دول بريطانيا وروسيا وفرنسا
وايطاليا وهولندا ومصر وايران . وقد ناب عنهم قنصل ايطاليا - وكان
يجيد العربية - في تهنئته بنصره ، وشكره على حقن الدماء ، بقبوله تسليم
الشريف على المدينة بلا حرب أو قتال .

وكذلك ملك عبد العزيز الحجاز جميعه ...

وبعد ظهر يوم الجمعة ٨ يناير ١٩٢٦ ، أقيمت حفلة بيعته على
الحجاز ، في مكة أمام باب الصفا ، فألقيت خطب التهنئة والترحيب بين
يديه ، ورفع اليه المواطنون بيعتهم مكتوبة وموقعة من أعيانهم ، وفيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، نبأيك
يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود ، على أن
تكون ملكا على الحجاز ، على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،
وما عليه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، والسلف الصالح ، والأئمة الأربعة
رحمهم الله ، وأن يكون الحجاز للحجازيين ، وأهله هم الذين يقومون بإدارة
شؤونه ، وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز ، والحجاز جميعه تحت
رعاية الله ، ثم رعايتكم » .

فكتب في نهاء هذه البيعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، الى اخواننا الموقعين .
أسماءهم :

« سلام عليكم وبعد ، فقد أجبناكم الى ما طلبتم ، ونسأله سبحانه
او تعالی ، المعونة والتوفيق للجميع » .

ثم رد على الخطاب بكلمة ضمنها المبادئ التي اعتمزم السير على هداها ،
هو ورعاياه معا ، فقال :

— أسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل ، وهذا كذا ، وهذا كذا .
... فكل رجل مهما بلغ من المنازل العلیسا ، اذا لم يخش الله ويطلبه
مرضاته ، فلا اثر له ولا لعمله . فمتى تركنا الشهوات وهجرنا المحرمات ،
وعبدنا الله على بصيرة ، لا قينا الخير كله . وهل جاء البلاء للناس الا من
اتباع الشهوات ، شهوات النفوس التي فيها خراب الدين والدنيا ؟ لذلك
ادعوكم الى الدين ، والى اتباع آثار السلف الصالح ، واتخاذ الصراحة في
القول ، والاخلاص في العمل ، وترك الرياء والملق . . . فمتى اتفق العلماء
والأمراء على أن يستتر كل منهم على الآخر ، فيمنح الأمير الرواتب ،
والعلماء يدلسون ويتملقون ، ضاعت أمور الناس ، وفقدنا ، والعياذ بالله ،
الآخرة والأولى .

« لم يفسد الممالك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم ، والعلماء وأعاونهم ،
وانى ، والله ، لا أود أن أكون منهم .

« ان التمدن الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا ، مرجبا به
وأهلا . أما التمدن الذي يؤذينا في ديننا وأعراضنا وشرفنا ، فوالله لن
نرضخ له ، ولن نعمل به ، ولو قطعت منا الرقاب .

« أيها الاخوان : انى أحمد الله الذي جمع الشمل وأمن الاوطان ، وان
لكم على ، عهد الله وميثاقه ، اننى انصح لكم ، كما انصح لنفسي ولاولادى ،
وأحبكم في الله ، وأعاديكم فيه » .

وفي مساء اليوم نفسه ، ألفت « هيئة التأسيس » لبحث المسائل
الأربع التالية :

١ - وضع اسم لرئيس حكومة الحجاز .

٢ - وضع ترتيب لتحديد العلاقة بين نجد والحجاز .

٣ - تعيين شكل الحكومة ، والبحث في الموقف الذي يجب أن يكون دولياً .

٤ - تعيين شكل العلم والنقود .

فاتفقوا على أن يلقب رئيس حكومة الحجاز بـ « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتهما » .

ونشرت جريدة « أم القرى » - المعبرة عن رأى الحكومة - النظام السياسى ، أو « دستور الحجاز » الذى أصدره عبد العزيز فى ٢١ صفر سنة ١٣٤٥ (٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٦) ، الخصة فيما يلى :

القسم الأول - مملكة الحجاز بحدودها المعروفة ، هى وحدة غير قابلة للتجزؤ ، وهى مملكة دستورية اسلامية ، لها استقلالها الداخلى والخارجى ، وعاصمتها مكة ، ولغتها الرسمية العربية .

القسم الثانى - تلقى مقاليد ادارة المملكة الى جلالة عبد العزيز الاول نجل عبد الرحمن آل فيصل آل سعود . ويجب عليه أن يحترم الشريعة الاسلامية ، بمزاولة اوامر ونواهي كتابه تعالى (القرآن) والسنة ، وعادات الصحابة والسلف الصالح .

ويعين جلالتة نائبه العام والمديرين ورؤساء الخطط فى الدولة ، ويكون موظفو المصالح المختلفة مسؤولين تجاه النائب العام ، ويكون الملك مرجعه .
القسم الثالث - تشتمل خطط الدولة على ستة اقسام هى : الأديان ، والداخلية ، والشؤون الخارجية ، والمالية ، المعارف ، والجيش .

ويدخل فى قسم الداخلية : الأمن العام ، والبريد ، والبرق ، والصحة والبلديات ، والأشغال العامة ، والتجارة ، والزراعة ، والصنائع ، والمعادن ، وجميع المؤسسات الخاصة . ويكون النائب العام مرجع هذا القسم .

وتنشأ ادارة الحج برياسة النائب العام ، وهى تتناول مديرى الخطط يعاونهم اشخاص اكفاء يمينهم الملك فيما بعد . ولهذه الادارة سلطة تامة للاهتمام بجميع الشؤون المتعلقة بالحجاج وبالحج . ويضع النائب العام قراراتها موضع الاجراء ، بعد موافقة الملك عليها .

ويحتوى قسم الشؤون الخارجية على أربع ادارات : سياسية ، وادارية ، وقنصلية ، وقضائية . ويكون الملك مرجعه رأساً . الا أن الادارتين الادارية والقنصلية ، تتلقيان التعليمات من النائب العام .

ويتألف قسم المالية من أربع ادارات : المالية ، والودائع ، ودخل الحكومة ، ورسوم الجمارك . وتكون جميعها مرتبطة بالنائب العام .

ولا يكون في قسم المعارف الا ادارة واحدة ، يكون مرجعها النائب العام . وسيوضع فيما بعد برنامج التعليم ، ويوضع موضع الاجراء . ويكون التعليم الاولى مجانيا في جميع المملكة .

القسم الرابع - ينشأ في العاصمة مجلس كبير (مجلس أشورى) يتألف من النائب العام ومستشاريه ، ومن ستة اعيان اكفاء يعينهم الملك . ومن خصائص هذا المجلس أن يجتمع مرة في كل اسبوع ، وأكثر من مرة اذا اقتضى الأمر ذلك ، برياسة النائب العام أو أحد مستشاريه ، ويصدر قراراته باكثرية الاصوات . ويمكن أن يحضر مدير و الخطط مباحثاته حين يكون البحث ذاترا على مصالح خططهم . وتصبح قراراته مرعية الاجراء ، بعد موافقة الملك عليها .

ويكون في كل من جدة والمدينة مجلس ادارة يتألف من القائمقام ومعاونيه ومديرى المصالح المحلية وأربعة من الدوات المحليين ، يعينهم الملك ، وتكون له الوظائف نفسها التى للمجلس الكبير . ويعين أعضاء المجلس لسنة واحدة .

ويكون لكل ناحية ، ولكل قرية ، ولكل قبيلة ، مجلس يعنى بالشؤون المحلية ، ويتألف من الموظفين ، ومن الدوات المعينين .

القسم الخامس - يتألف تفتيش المالية العام من رئيس وثلاثة أعضاء يعينهم الملك ، ويكون مرجعهم النائب العام ، وتكون لهم السيطرة على مالية الدولة ، ولا يعمل شيء من دون ترخيص منهم ، ما عدا القرارات الملكية (١) .

وتتابعت الحوادث ، وتواتت السنون والأعوام ، فرأى عقلاء البلاد أن هناك نقصا يجب تداركه ، هو في تسمية الملك نفسه ، فلا حجاز ، ولا نجد ، ولا ملحقات ، أمام أمة واحدة ، دينها واحد ، متفقة في العادات والتقاليد والمنازع والأهواء والأمانى ، فالجتمع أقطاب الأمة في مكة ، وأبرقوا الى الملك ، برغبتها بجميع طوائفها . في توحيدها ، فأجابهم بموافقتهم على هذه الرغبة النبيلة الوطنية ، وأصدر مرسوما في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ (١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢) باطلاق اسم « المملكة العربية

(١) كتاب « الاسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية » للكاتب الفرنسى اوجين يونغ - ص ١٩١ .

السعودية» على جميع أجزاء الوطن فيشمها جميعا ، على أن ينفذ اطلاق هذا الاسم الجديد بعد أربعة أيام من صدور المرسوم ، أى من يوم ٢٣ سبتمبر .

وفي اليوم نفسه أمر الملك بإجتماع مجلس الشورى لاختيار من يصلح لولاية العهد ، فاجتمع في ١١ مايو سنة ١٩٣٣ ، وأصدر قراره في هذا الشأن ، وقد جاء به :

« أما بعد ، فان حضرة صاحب الجلالة وليكننا العادل الموفق ، الناصر للسنة ، قانع البدعة ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، أيده الله وأمد في عمره ، وأدام تأييده ، ونصره ووفقه الى طامته ورضائه . . . رأى بعين الحكمة الساهرة على راحة رعاياه ، والعاملة على تثبيت دعائم هذا الملك العربي الوطيد ، وتشديد أركانه ، وادامة تسلسله ، أن يجيب طلب رعاياه ، ويوافق على تعيين شكل واضح ثابت لولاية العهد ، كما ورد في أمره الكريم الصادر في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م ، وأن يعقد البيعة لولاية العهد ، على من كان مستجما للشروط الشرعية المرعية . هذا ولما كان حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ، النجل الأكبر لحضرة صاحب الجلالة ، قد تحلى بكافة الأوصاف الشرعية الواجب توفرها فيمن يخلف ولي الأمر ، أمد الله في عمره ، وقد اشتهرت عدالته وصفاته المتأخرة بين الجميع ، فاننا ، عملا بالمأثور من المبايعات ، نبأيعه وليا لعهد المملكة العربية السعودية ، نبأيعه على السمع والطاعة على كتاب الله وسنة رسوله . وقد أخذنا هذه البيعة على أنفسنا لسموه ، وعلقناها بأعناقنا ، ونشهد الله على ذلك ، وهو خير الشاهدين » (١) .

وظل عبد العزيز هو الحامل عبء تسيير دفة الأمور في مملكته الفتية ، حتى كان يوم ٩ أكتوبر من عام ١٩٥٢ - أى قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى بنحو شهر - فرأى أن يأخذ الحكم في المملكة بمبدأ المسؤولية الوزارية فأصدر في هذا اليوم مرسوما تشريعيًا جاء في مادته الأولى :

١ - « يؤلف مجلس وزراء تحت رئاسة ولدنا الأمير سعود ولي عهد المملكة والقائد الأعلى للقوات المسلحة . ويتألف المجلس من جميع وزراء

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبدالحميد الخطيب - الجزء الثاني - ص ١٥ .

الدولة المكلفين بارادة ملكية بادارة شؤون الوزارات المعطاة لهم ، للنظر في شؤون الدولة خارجية كانت أم داخلية ، ليقرر بشأنها ما يراه موافقا لمصلحة البلاد لأجل عرضه علينا (٢) .

فلندع « ملك المملكة العربية السعودية » آخذا في تنظيم شؤون الحكم في مملكته ، ولنر آثاره في مجالات شتى ، وهي آثار ناطقة بإيمانه بما يعتقد ، إيمانا سنده الدين القويم ، والخلق الكريم .

لقد ظل ابن سعود عدة سنوات في عزلة تامة عن العالم الخارجى ، لكن دخوله الأحساء والقطيف ، جعله يشرف على الخليج العربى ، ومنه بدأ اتصاله بالبريطانيين ، فعقدوا معه معاهدة في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ على غرار معاهداتهم مع أمراء الخليج ، ثم ألفت في ١٧ سبتمبر ١٩٢٧ ، وحلت محلها « معاهدة جدة » وفيها اعتراف من « بريطانيا العظمى » - بومذاك - باستقلاله ، وهذا نصها :

« جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وامبراطور الهند ، فريق أول .

(٢) في سنة ١٩٣٠ أصدر عبد العزيز أمرا الى نجله الثانى الامر فيصل بتولى الشؤون الخارجية للدولة ، فظل يمارسها حتى ببيع ملكا في ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٨٤ - ٢ نولمبر سنة ١٩٦٤ ، فوجه الى العلماء والأمراء والحضور في حفل كبير اقيم احتفالا بمبايعته ، كلمة قال فيها عن سياسة الدولة الخارجية :

- « .. ولسنا في حاجة الى تكرار الاساس الذى تسر عليه سياستنا الخارجية، لنحن منذ أسس هذه الدولة بانها ، وواضح اساس نهضتها ، المغفور له الملك عبد العزيز، قد البتنا في المجال الدولى إيماننا بالسلام العالمى ، ورغبتنا في تدميمه وتقويته ونشره في ربوع العالم . وكنا ولا نزال نعمل ذلك بوحى من تعاليم ديننا وثقاليدنا العربية الاصيلة . واننا نؤيد في سبيل ذلك نزع السلاح وتجنيب البشرية مخاطر الاسلحة الفتاكة . وندعو الى حرية تقرير المصير لكل الشعوب ، وحل المنازعات الدولية بالوسائل السلمية المرتكزة على الحق والعدل .

« ومن اهداف سياستنا الخارجية المعروفة ، التعاون الى اقصى الحدود مع الدول العربية الشقيقة ، وتنفيذ مقررات مؤتمرات القمة العربية ، والسعى الى تحرير جميع اجزاء الوطن العربى التى لا تزال تحت نير الاستعمار ، والسير مع الدول الاسلامية في كل ما يحقق للمسلمين عزتهم ورفعة شأنهم ، ونؤيد ميثاق جامعة الدول العربية وندعمه ونسند ، ونؤيد ميثاق هيئة الامم المتحدة ، ومقررات مؤتمر باندونج ودول عدم الانحياز » - كتاب « فيصل العظيم » للاستاد امين سعيد - ص ٩١ .

« جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، فريق ثان . »

« يرغبان في توطيد دعائم العلاقات الودية بينهما وضمان مصالحهما .
وقد قررا عقد معاهدة ودية واتفاق ، وعينا مفاوضين لهذه الغاية .
فصاحب الجلالة البريطانية عين السر جلبرت فلكنهام كلايتون ، وجلالة
ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما عين صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن
عبد العزيز نجله ونائبه في الحجاز . »

« وبعد ما فحص سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز والسر جلبرت
فلكنهام كلايتون أوراقهما الرسمية ، المخول اليهما بموجبها تفويض تام ،
ووجداها قانونية ، اتفقا على المواد الآتى نصها :

« المادة الأولى : يعترف صاحب الجلالة البريطانية باستقلال بلاد
صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، استقلالا تاما مطلقا . »

« المادة الثانية : بين صاحب الجلالة البريطانية وجلالة ملك الحجاز
ونجد وملحقاتهما ، سلام وصدافة ، وكل من المتعاقدين الساميين يعاهد
على المحافظة على حسن العلاقات بالأخر ، وعلى بذل الجهود بكل ما لديه
من الوسائل لكي لا يدع بلاده تستعمل قاعدة لأعمال غير شرعية ، وموجهة
لبلبلة السلام والسكينة في بلاد الأخر . »

« المادة الثالثة : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على المحافظة
على الحجاج المسلمين الذين من الرعايا البريطانيين ، أو من المشمولين
بحمايتهم ، ويسهل لهم الوسائل التي يتمتع بمثلها الحجاج الآخرون ،
ويصرح بأنهم سيكونون راعين في حمى الأمان ، هم ومقتنياتهم في أثناء
اقامتهم في الحجاز . »

« المادة الرابعة : يوافق جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على أن
أموال الحجاج المذكورين الذين يلقون منيتهم في بلاده ولا يكون لهم فيها وكلاء
شرعيون ، ترسل الى المتعمد البريطاني في جدة ، أو الى أى موظف كان ،
يفوض اليه المتعمد المشار اليه تسلم هذه الأموال ، بحيث يعاهد هذا
الموظف على تسليمها للورثة الشرعيين للحجاج المتوفين ، مع الاحتفاظ
بعدم تسليم هذه الأموال الى المتعمد البريطاني ، الا بعد انتهاء المعاملات
المطلوب انهاؤها في المحاكم ذات الاختصاص ، وبعد دفع الرسوم المنصوص
عنها في انظمة الحجاز ونجد . »

« المادة الخامسة : يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية
الحجازية والنجدية لجميع رعايا جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، »

حين يكونون في بلاد صاحب الجلالة البريطانية ، أو في البلدان المشمولة بحماية جلالتة . ويعترف أيضا جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما بالجنسية البريطانية لجميع رعايا صاحب الجلالة البريطانية وجميع الذين يتمتعون بحماية جلالتة ، حين يكونون في بلاد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، اذ أن من المقرر أن مبادئ الحق الدولي المعمول بها بين الحكومات المستقلة ، تكون محترمة .

« المادة السادسة : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على المحافظة على العلاقات الودية والسلمية ببلاد الكويت والبحرين وسواحل عمان ، فان لحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، علاقات بها تقرر في معاهدات .

« المادة السابعة : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على التعاون مع صاحب الجلالة البريطانية ، بكل ما لديه من الوسائل ، لالقاء النخاسة .

« المادة الثامنة : يصادق كل من الفريقين الساميين على هذه المعاهدة ، ويتم تبادل المصادقة حالما استطاع ذلك ، وتصح مرعية الاجراء حين يتم تبادل المصادقة ، وتظل معمولا بها سبع سنين تبتدىء من تاريخها ، واذا لم يشعر أحد الفريقين المتعاقدين الساميين ، الآخر ، قبل انقضاء السنين السبع المذكورة بستة أشهر ، بنيته على الغاء المعاهدة ، بقيت هذه المعاهدة مرعية الاجراء ، ولا يعتبر انتهاء مدتها قبل انقضاء ستة أشهر على تاريخ اشعار أحد الفريقين الآخر ، برغبته في فسخها .

« المادة التاسعة : يبطل عمل المعاهدة المقودة بين صاحب الجلالة ، البريطانية ، وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما (حين كان سلطان نجد والبلاد التابعة لها في ذلك العهد) في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ ، من تاريخ المصادقة على هذه المعاهدة .

« المادة العاشرة : حررت هذه المعاهدة باللغتين : الانجليزية والعربية ، باعتبار النصين قانونين . واذا وقع خلاف على تأويل شيء من نصوص هذه المعاهدة ، اعتبر النص الانجليزي حاسما للخلاف .

« المادة الحادية عشرة : تعرف هذه المعاهدة باسم « معاهدة جدة »

« وفقت في جدة في يوم الجمعة ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ م الموافق لليوم الثامن عشر من ذى القعدة سنة ١٣٤٥ هـ » .

التوقيع

جلبرت فلكنهام كلايتون فيصل عبد العزيز السعود

ومع هذا فإنه الى سنة ١٩٣٢ لم يكن للملك عبد العزيز وزير مفوض في لندن .

ولم ينشئ علاقة دبلوماسية مع أمريكا الا في ٤ مايو سنة ١٩٣١ .
الملك فؤاد في مصر لم يعترف به ، ولم تعترف مصر به الا بعد وفاة ملكها في عام ١٩٣٦ .

فلماذا لم يعترف الملك فؤاد به ؟

كان فؤاد متتبعا خطوات عبد العزيز ، وجلا من أن ينادى بنفسه خليفة للمسلمين أو ملكا عليهم ، كما فعل الشريف حسين من قبل في آخر أيامه في الحجاز ، وفؤاد يمهد الطريق ليصبح صاحب هذا اللقب ، بعد الغاء تركيا الخلافة .

وعبد العزيز لا مطمح له الا اخراج شعبه من الظلمات الى النور ، وتوفير وسائل العيش الكريمة ، ثم هو يرجو الخير للعرب أجمعين ، ويمد يد المودة الى جيرانه من الملوك والأمراء .

فلا يريد أن يكون خليفة للمسلمين ، أو ملكا عليهم .

وما أن افتتح أول برلمان مصرى في ١٥ مارس من عام ١٩٢٤ ، حتى أرسل برقية الى ملك مصر يهنئه فيها بالعهد الجديد السعيد ، ولم يكتف بهذا بل أرسل الطبيب المصرى الدكتور عبد الهادى خليل طبيب النكية المصرية ، بحمل تحياته الى الملك فؤاد ، مع رجاء ، أن ينظر ملك مصر الى الحجاز الذى يعانى من عسر شديد ، فيرسل الى أهله « شيئا » من أوقاف الحرمين الشريفين لاعانة المستحقين من أهلها . . وعاد الرسول من القاهرة ، يحمل أطيب الأمانى وأجزل الشكر ، والهواء يصفر في حقيقته !!

فاذا بايع الحجازيون عبد العزيز ملكا على الحجاز في ٨ يناير من عام ١٩٢٦ ، غضب فؤاد ، لأن في هذا نقضا لعهد قطعه عبد العزيز على نفسه ، بأنه سيدعو المسلمين الى مؤتمر يقررون فيه مصير الحجاز ونوع الحكم فيه .

لكن عبد العزيز يقول في برقية منه الى رسوله في مصر : « ان اليهود المتكررة منا للعالم الاسلامي لم نخالفها ، ودعونا العالم الاسلامي دعوات عامة ودعوات خاصة متكررة ، فلم يصل اليها جواب من أحد في تلبية دعوتنا . . ان أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد يلزموننا قبول البيعة ، فطلبنا منهم التريث الى ان يجمع المسلمون أمرهم ، فاجابونا : انك أعطيتنا الحرية في اختيار حاكم لنا ، وهذا حق لنا لا يشاركنا فيه أحد ، ونحن لا نبغي بك بديلا . ومع ذلك توقفنا قليلا عن الجواب ، فبلغ أهل نجد توقفي ، فقامت قيامتهم على ، وأعلنوني أن حربهم في الحجاز لم تكن الا لحفظ استقلال الحجاز ، ومنع أي تدخل أجنبي فيه ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وليعمل في هذه البلاد بشرع وسنة الله ورسوله ، ولتأمين الطريق ، ولنع الالحاد من الحجاز » .

في تلك الايام عقد في القاهرة « المؤتمر الاسلامي العام للخلافة » ، في اليوم الأول من ذى القعدة من عام ١٣٤٤ م - مايو سنة ١٩٢٦ ، للنظر في أمر الخلافة ، وتولى رئاسته شيخ الأزهر الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي رحمه الله ، فلم يلب عبد العزيز الدعوة اليه ، فلم يرسل اليه مندوبا .

فشل المؤتمر وانفض ، مؤجلا جلساته الى أجل غير مسمى ، لان مندوبي الاقطار الاسلامية التي لبث الدعوة اليه ، لم تقتنع بكفاءة الملك فؤاد في تحمل أعباء الخلافة - وكان قد بث الدعوة لاستنادها اليه - ولأن - كما قال بعضهم يومذاك - خليفة المسلمين يجب ان يكون مستقلا استقلالاً تاما ، والملك فؤاد تربيع على عرشه بمساعدة الانجليز ، وبإلادته محتلة بجنودهم ، فكيف يكون خليفة للمسلمين ؟

ياذل المسلمين اذا أصبح فؤاد خليفة . . قالها لى يومها المرحوم الشيخ على سرور الزنكلوني من كبار علماء الأزهر ، وكان من أشد المعارضين للدعوة الى أن يكون فؤاد خليفة للمسلمين .

وقد ظهر في تلك الاونة كتاب لقاض شرعي جليل ، هو المرحوم الشيخ على عبد الرازق عنوانه « الاسلام وأصول الحكم » اثبت فيه أن الخلافة ليست من اصول الحكم في الاسلام ، فحوكم أمام هيئة من كبار العلماء ، وجرده من شهادة العالمية ، وعزل من وظيفته ، وأحدث هذا الحكم الجائز هزة في الوزارة القائمة بالحكم (١) ، ولا أرى داعيا للافاضة في موضوع

(١) في ٣ مارس سنة ١٩٤٧ تولى الشيخ على عبد الرازق وزارة الاوقاف في وزارة محمود فهمي النقراشي باشا الثانية وانعم عليه برتبة الباشوية .

قضية هذا الكتاب ، فليس هنا مجالها ، إنما هذه إشارة عابرة ، أردت أن أسجل بها أن علماء دين من المصريين ، كانوا ضد الدعوة الى أن يكون فؤاد خليفة للمسلمين ، الى جانب مندوبى الاقطار الاسلامية .

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد - موضوع الخلافة - ما ذكره الشيخ حافظ وهبة في كتابه « خمسون عاما في جزيرة العرب » وفي الصفحة ١٣٦ منه عن مقابلته الملك فؤاد في ذلك الحين ، وقد كان رسول عبد العزيز ، للتفاوض في جميع ما يتعلق بشؤون الحج وتسهيل وسائله للحجاج المصريين ، وكانت المقابلة قبيل عقد مؤتمر الخلافة المشار اليه . قال حافظ وهبة :

« وصلت الى مصر ، فقابلت الملك فؤاد في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وأبلغته بما حملنى سلطان نجد - لم يكن عبد العزيز قد بويع ملكا على الحجاز بعد - من اطيح الاماني والامال لملك مصر وشعب مصر ، وأنه يمد يده للتعاون مع أخيه ملك مصر ، وأنه اذا كان ملك مصر يرغب في تحمل إعباء الخلافة ، فسلطان نجد يسره أن يرى ملك مصر خليفة للمسلمين ، اذ وافق المسلمون على ذلك ، وهو أول من يوافق على ذلك ، كزعيم من زعماء المسلمين .

« فارتاح الملك فؤاد لذلك ، وقال : « انى لا ارغب في الخلافة ، فقد عرضها على سعد باشا - يقصد سعد زغلول - ولكنى رفضت » !! ثم أشار الى جميع ملوك وسلاطين المسلمين ، وغمز كل واحد منهم بما يعده عن الخلافة ، أما لتشيعه كشاها إيران وامام اليمن ، وأما لانه وهابى ، أى متطرف . - يقصد الملك عبد العزيز - فكان هذا منه إشارة خفية الى أنه أحق ملوك المسلمين بالخلافة » .

كل ما فعله هذا المؤتمر الذى عقد بالقاهرة لينصب الملك فؤاد خليفة على المسلمين ، ففشل ، هو أنه أرسل برقية الى عصبة الأمم - مثل هيئة الأمم المتحدة اليوم - والى الحكومة الفرنسية ، والى صحافة العالم ، قال فيها :

« تلقى مؤتمر الخلافة الاسلامى العام المعقود في القاهرة برياسة شيخ الأزهر ، بقرقيات تنبئ عن الفطائع المرتكبة في الشام عاصمة الخلفاء الامويين ، ومدينة الاسلام الرابعة المقدسة ، فقد حرقت فيها المساجد ، وذبح الأبرياء ، وشيوخا ونساء واولادا .

« وعليه قرر المؤتمر أن يحتج على هذه الفظائع لعصبة الأمم وللحكومة الفرنسية ، وللرأى العام فى العالم أجمع ، وأن يطلب باسم الانسانية انصاف سوريا الشهيدة ، المستنجدة بالعالم كله » .

* * *

بعد أن بويع عبد العزيز ملكاً على الحجاز ، تعهد بعقد مؤتمر فى مكة ليقرر فيه المؤتمر نوع حكومة الحجاز ، وأسس استقلالها السياسى والاقتصادى والعسكرى ، « على أن يكون استقلالها الادارى تحت اشراف العالم الاسلامى ، ليطمئن الى صحة قولنا : اننا لا نقصد بانقاذ الحجاز والتسلط عليه ، المعنى الذى كان معهوداً فيه » .

وامام هذه البيعة ، عدل عن عقد المؤتمر : « واضطرت الى قبول البيعة ، ولم أر لى عنها أية مندوحة ، لأننا آل سعود ، لسنا ملوكاً مستبدين ، ولا حكاماً شخصيين ، بل نحن فى بلادنا مقيدون بأحكام الشرع ، ويرأى أهل الحل والعقد . ولم تكن تلك الدعوة الشخصية الى عقد المؤتمر بعذر شرعى يبيح لى مخالفتهم ، واذا أنا خالفتهم بغير حجة شرعية يقبلونها ، فانهم لا يطيعوننى ، وفى ذلك من الفساد مالا يخفى » .

ثم عاد ورأى الدعوة الى عقد مؤتمر ثان ، دعا اليه الحكومات الاسلامية : « على اننى رأيت أن قبول البيعة ، والعمل مع أهل البلاد بمقتضاها ، لا بمقتضى القلب والقوة ، لا يمننى من الاستفادة من رأى أهل العلم والبصيرة من العالم الاسلامى ، لذلك وجهت الدعوة الثانية الى عقد هذا المؤتمر » .

ثم استرسل فى رسالته الى المؤتمرين قائلاً :

« انكم تشاهدون بأعينكم ، وتسمعون بأذانكم ، ممن سبقكم الى هذه الديار للحج والزيارة ، أن الأمن العام فى جميع بلاد الحجاز ، حتى بين الحرمين الشريفين ، بدرجة الكمال التى لم يعرف مثلها ولا ما يقرب منها منذ قرون كثيرة ، بل لا يوجد ما يفوقها فى أرقى ممالك الدنيا نظاماً وقوة ، والله الفضل والمنة . ففى بحبوحة هذا الأمن والحرية التى لا تتقيد الا بأحكام الشرع ، ادعوكم الى الائتمار والتشاور فى كل ما ترون من مصالح الحجاز الدينية والعمرانية (١) » .

(١) من معالم الملك عبد العزيز التى يتحدث عنها العالم باعجاب ، استقرار الأمن فى مملكته ، مما ليس له مثل فى العالم . وسرى القارىء فى صفحات قادمة ادهاباً فى هذا الموضوع .

وقد اجتمع هذا المؤتمر في يوم ٢٦ من ذى القعدة من عام ١٣٤٤ ،
وعقد اثنتى عشرة جلسة لم يتفق فيها المجتمعون على شيء ، وبدأ بعض
الوفود في الاستعداد للعودة الى بلاده ، فوجه الملك اليهم بيانا قال لهم فيه :

« ايها الاخوان : أرجو الا تضيع الفرصة الباقية ، قبل ان تستفيد
البلاد المقدسة منكم ، حتى يجيء الحج القادم ، وقد شعر المسلمون
الوافدون انكم قمتم بواجبكم نحو هذه البلاد . وبهذه المناسبة أقدم لكم
خطتنا السياسية لهذه البلاد ، لترشدونا ان أخطانا ، وتؤيدونا ان أصبنا :

١ - اننا لا نقبل أى تدخل أجنبى فى هذه البلاد الطاهرة ايا كان نوعه .

٢ - اننا لا نقبل امتيازاً لأحد دون أحد ، بل جميع الوافدين لهذه البلاد
يجب أن يخضعوا للشريعة الاسلامية .

٣ - ان بلاد الحجاز يجب أن يوضع لها نظام حيادى خاص ، لا تحارب
- بكسر الراء - ولا تحارب - بفتحها - ويجب أن يضمن هذا الحياد
جميع الحكومات الاسلامية المستقلة .

٤ - النظر فى مسائل الصدقات والمبرات من سائر الأقطار الاسلامية ،
ووجوه صرفها وانتفاع البلاد المقدسة منها » .

بعد هذا البيان ، عقد المؤتمر ست جلسات أخرى ، دون أن يصلوا
الى رأى حاسم فيما وضعه الملك امامهم من خطته السياسية .

وانفض المؤتمر دون الوصول الى رأى فى نوع الحكم فى بلاد الحجاز ،
فأصبح عبد العزيز السيد المطاع ، فى هذه البقاع ، مؤيداً من الحجازيين
الذين بايعوه طائعين مختارين .

اعل من أروع آثار قيام عبد العزيز بفزوته المباركة للحجاز ، هو أن
يرغب الشعب الأعزل من السلاح ، الى ملكه فى التنازل عن عرشه ، مما
لم يحدث فى العالم العربى من قبل ، بل ولم يحدث من بعد الى اليوم ،
فلا يسع الملك الا تلبية الرغبة « بكل ارتياح » .

حدث هذا عندما ذاع خبر تراجع جيش الشريف حسين الى « بازان »
وتصميم الرجل على مقاتلة جيش ابن سعود فى شوارع مكة ، وحول جدران
الكعبة اذا اضطر اليها ، كما قال فى برقية منه الى معتمده فى مصر السيد
عبد الملك الخطيب : « قابل المندوب السامى الانجليزى ، وأبلغه اننا نعتبر

اعتداء ابن سعود علينا ، هو من جانب الانجليز ، واني سأتولى الدفاع
بنفسي عن مكة ، ولو حول جدران الكعبة ، وأحملهم مسؤولية ذلك امام
العالم الاسلامي .

وذاع خبر هذه البرقية وشاع حتى وصل الى مكة ، فدب الذعر في
نفوس أهلها ، وتملكهم رعب وخوف وهلع ، وشرعوا في الهرب الى جدة .
أما اغنياؤهم فكانت قبلتهم : مصر ومصوع واسمرة وسوريا والملايو والجزائر
وبور السودان . وهكذا استفحل الأمر وتفاقم ، ولم يبق في مكة من ذوى
الجاه واليسار ، سوى عدد يسير جدا آثروا البقاء الى جانب مواطنهم
يشجعونهم على المقام في البلد المقدس ، فلا يتركونه هكذا خرابا يبابا .
والف بعض أعيان جدة « الحزب الوطنى الحجازى » ، وعقدوا ، ومنهم
بعض كبار الموظفين ، عدة اجتماعات امتدت عشرات الساعات ، تدارسوا
فيها الأمر من جميع وجوهه ، وانتهوا الى أن يرسلوا البرقية التالية الى
الملك حسين في مكة في ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ :

« صاحب الجلالة المعظم : بما أن الشعب الحجازى بأجمعه واقع الآن
في الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع ، وعجز الحكومة عن صون
الأرواح والأموال ، وبما أن الحرمين الشريفين خاصة ، وعموم البلاد
مستهدفة لكارثة قريبة ساحقة ، وبما أن الحجاز بلد مقدس يعنى أمره
جميع المسلمين ، . . لذلك قررت الأمة نهائيا طلب تنازل الشريف حسين ،
وتنصيب ابنه الشريف على ، ملكا على الحجاز فقط ، مقيدا بدستور
ومجلسين وطنيين . فنرجو التكرم بتنفيذ هذه الرغبة ، لتضيفوا هذه
المكرمة الى سابق خدماتكم للاسلام والأمة » .

فرد عليهم في اليوم نفسه بالبرقية التالية :

« جدة - الحزب الوطنى الحجازى

« لا بأس ، قبلنا التنازل بكل ارتياح ، اذ ليس لنا رغبة الا في سكينه
البلاد وراحتها وسعادتها . فالآن عينوا لى مأمورين من هنا يتسلمون البلاد
بكل سرعة ونحن نتوجه في الحال . اذا تأخرتم ووقع حادث فأنتم المسؤولون،
والاشراف عندكم كثيرون ، فارسلوا واحدا منهم أو من سواهم . وعلاوة
على هذا ، اذا قبل منكم « على » الأمر ، فعينوه رأسا » .

وأرسل الى معتمده في القاهرة ، عبد الملك الخطيب ، برقية قال له

فيها :

« إن أصحابك (يعني الانجليز !!) لم يرضهم أن أكون على الملك ،
ورغبوا في تعيين ابننا علي ، فلا بأس . اعتمدوا ما ياتيكم منه (١) » .
لقد عز عليه أن يعترف بأن شعبه هو الذي طلب اليه التنحي لمصلحة
الوطن ، فعزاه الى الانجليز !!

وبعدها سافر الى العقبة ، مخلفا البلاد وراءه لابنه علي ، عله يستطيع
الصلح مع عبد العزيز ، والابقاء على الحجاز في أيدي الاشراف ، فرفض
عبد العزيز مثل هذا الصلح اذ كان اساسه ان يتوارث أبناء الملك حسين ،
حكم الحجاز ، وكان ما كان من تسليمه للفتاح المنتصر في يوم ٥ ديسمبر
سنة ١٩٢٥ ورحيله الى العراق كما سبق القول .

لقد نال حسين الذل في نهاية عمره ، وما كان اغناؤه عنه ، لو اصاح
السمع وأطاع عبد العزيز من أول الأمر ، اذن لشعبه تشييعا كريما .
أي ذل وأية مهانة أشد واقسى ، من ان يجيء اليه وهو في العقبة -
بعد ما أهملت « عصبة الأمم » استغاثته بها - في صباح يوم ١٦ يونيو
سنة ١٩٢٥ ، قائد المدرعة البريطانية « دلهي » وبأمره بالاستعداد للسفر
غدا الى الجهة التي اختيرت له ، فاذا ابي فستتخذ معه تدابير اخرى
لترحيله ، فطلب أن تسير المدرعة به الى حيفا أو يافا ، ليقضى في أيهما
بقية عمره ، فرفضت لندن طلبه ، « وعليه أن يسافر الى قبرص » .

عندئذ قال حسين : « أنا مستعد للسفر الى المريخ اذا ارادت بريطانيا،
وما دامت تريد ارسالي الى قبرص ، فأنا لا أعارض ، لأن المسألة مسألة
قوة ، لكني اطلب امهالي يومين اثنين ، أعد نفسي فيهما للسفر » .

فرفض قائد المدرعة ، فطلب أن يسافر على باخرته العربية « الرقمتين » ،
فرفض القائد كذلك . وسافر حسين من غده الى قبرص ، وعلى المدرعة
البريطانية « دلهي » ، كما أراد الانجليز له .

ومما لا تنساه له مصر في أيام حكمه ، أنه منع حجاجها من أداء الفريضة
المقدسة ، ومنع البعثة الطبية المصرية من أداء واجبها الانساني نحو الحجيج ،
ورفع اسم ملك مصر من على كسوة الكعبة .

وما اتبعه مع الحجاج المصريين ، اتبعه مع سائر الحجاج من جميع
بقاعهم ، وفي مقدمتهم النجديون ، بعد موقعة « تربة » حتى أسخطهم

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الثاني - ص ٥٦ .

عليه ، غفر الله له ، فقد كان حاكما اتبع هواه فأضله ، ولم يستعن بمن حوله ليستشيرهم ، ويشركهم معه في ادارة البلاد .

فهل كان عبد العزيز حاكما ديكتاتوريا هو الآخر ، حتى استقام له الامر ؟ .

لو قال مؤرخ بهذا ، لكان مزيفا للتاريخ مضلا ..

لقد كان من خصائص عبد العزيز ، أنه لم يكن مستبدا برأيه ، لأنه كان مؤمنا بالشورى ، مقدرنا نعمها للمحكومين ، مطبقا في هذا ما جاء بالقرآن الكريم : « وأمرهم شورى بينهم » ، ناهجا نهج الرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام .

اننا نراه قبل الاقدام على فتح الاحساء ، يستشير اولى الحل والعقد ونراه قبل دخول مكة ، يعقد مجلسا للعلماء لاستفتائهم في أمر هذا الدخول ، فيقولون له : لا يجوز دخول الحرم الشريف بقصد القتال . فظل حائرا ، حتى افتحمها قائدا جيشه : ساطان بن بجاد ، وخالد بن نوى ، سلما لا حربا ، في يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م (١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ) ، فدخلها محرما دخول العبد الخاضع ، لا الملك الفائح ، واستقبله أهلها مرحبين ، مهللين ، مكبرين ، وباعوه .

ثم نراه يؤلف مجالس استشارية في سائر المدن الهامة (« قراراتها نافذة على الحكام الاداريين ، بما لا يتعارض مع الدين » ويقول لهم : « تجدون بعض الحكومات تؤلف مجالس استشارية ، لكن كثيرا منها يكون وهميا ، تؤلف ليقال أن هناك مجالس وهيئات للشورى ، والحقيقة أن العمل والرأي لواحد فقط ، في حين أنه ينسب الى المجموع كدبا وزورا . أما أنا فلا أريد مثل هذه المجالس الوهمية ، أريد مجلسا حقيقيا ، يجتمع فيه أعضاؤه ، باذلين جهدهم لتحري المصلحة العامة . لا أريد أوهاما ، انما أريد حقائق » .

ثم هو رجل لا يفرض رأيه على أحد ..

عند ما دخل مكة المكرمة ، خطب في أهلها ، فقال :

— « ان الامور كلها بيد الله ، وان الله قد ضرب الأمثال في القرآن ، ولم يترك شيئا لتأديبنا الا ذكره في كتابه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي من احبه فقد أحب الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، يأخذ نفسه بأداب القرآن الذي نزل به أمين السماء جبريل ، على أمين

الأرض محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن مسلما عنده ذرة من عقل ، وعرف ما جاء في كتاب الله ، الا قدر هذه الآداب حق قدرها ، ورأى أن الخير كل الخير في اتباع الهدى الحكيم . وأنتم تعلمون أن نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام ، ما جاء إلا ليدلنا على طريق الخير ، ويبين لنا السبيل الأقوم .

« لقد أشاع الترك منا كثيرا ، وقالوا في جملة ما افتروه علينا ، اننا لا نصلى على محمد ، واننا نعد الصلاة عليه شركا بالله . نعوذ بالله ، نعوذ بالله من ذلك . . أو ليست الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، ركنا من أركان الصلاة لا تتم الا بها ؟ ويقولون اننا ننكر شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . معاذ الله أن نقول هذا ، وانما نطلب من الله أن يشفع فينا نبينا » من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه « ، بل ندعو الله أن يشفع فينا الولد الصغير ، ونقول : « اللهم اجعله فرطاً لأبويه ، وشفيعاً مجاباً » ، ولا نطلب الشفاعته من الطفل .

« وأما محبة الأولياء والصالحين ، فمن ذا الذي يبغضهم منا ؟

« فان كان هذا مقبولاً عندكم فتعالوا نتبايع على كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

فصاح الحاضرون : كلنا نبايع ، كلنا نبايع . .

فقال لهم عبد العزيز : قولوا لنا بصريح القول : ما عندكم ؟

قالوا : ما عندنا غير هذا . .

فقال : اعيلدكم بالله من التقية . لا تكتموننا شيئاً .

فقال أحد العلماء : اننا نريد أن نجتمع بعلماء نجد ، فنتباحث في

الاصول والفروع ، ونقر ما نتفق عليه ان شاء الله .

قال عبد العزيز على الفور مبتهجا مسرورا : جميل . .

قال العالم : اذا أردنا المناظرة مع علماء نجد ، فيقتضى أن يعرف كل

منا طبيعة الآخر ، حتى اذا أقيمت الحججة عليه ، أذعن بدون سخط أو غضب .

قال عبد العزيز : ما دام المرجع كتاب الله ، فلا سخط ولا غضب .

واجتمع علماء مكة وعلماء نجد ، وتباحثوا في الاصول والفروع كما

قال العالم المكي ، فتبين أن ما يدعو اليه « الوهابيون » ، هو الحق الذي

دعا اليه كافة الأئمة ، وصرحت به جميع المذاهب ، وانتهوا الى :

- ١ - أن عقيدة السلف الصالح أسلم ، وهى التى يجب أن تتبع .
 - ٢ - أن أركان الاسلام الخمسة معروفة ، فمن جحد ركنا من هذه الأركان ، فهو كافر يستتاب ، فاما تاب والا قتل .
 - ٣ - أن دعاء غير الله لجلب المنافع ودفع المضار ، وعبادة غير الله ، ولو بقصد التقرب من الله ، كفر .
 - ٤ - أن البناء على القبور ، واتخاذ السرج عليها ، واقامة الصلاة فيها ، بدعة محرمة فى الشرع .
 - ٥ - أن من يسأل الله بجاه أحد من خلقه ، مبتدع ، مرتكب جرما .
وأصدر العلماء من الفريقين بيانا ذيلوه بأسمائهم جميعا ، قالوا فيه أن كل ما يلداع عن الوهابيين ، ما هو الا مجرد دعاية لا نصيب لها من الصحة وقد اخترعه المفرضون بقصد تفريق الكلمة ، وتمزيق شمل العرب .
- ثم وجه عبد العزيز بيانا الى أهل الحجاز أعلن فيه الغاية من مجيئه الى وطنهم ، وأوضح الخطة التى يريد أن تسير فى ضوءها البلاد المقدسة المنهاج نفسه ، اتبعه فى المدينة المنورة بعد استسلامها ، فقد وجه شيخ قضاتها ، الشيخ عبد الله بن بليهد ، باسم عبد العزيز ، الى علمائها بعض الأسئلة ليجيبوا عنها ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ما قول علماء المدينة المنورة ، زادهم الله فهما وعلما ، فى البناء على القبور واتخاذها مساجد ؟ هل هو جائز أم لا ؟ واذا كان غير جائز ، بل ممنوع منهى عنه نهيا شديدا ، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا ؟ واذا كان البناء فى أرض مسبلة كالبقيع ، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه ، فهل هو غصب . يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم ، أم لا ؟ وما يفعله الجهال عند الأضرحة من التمسح بها ودعائها مع الله ، والتقرب بالذبح والنذر لها ، وإيقاد السرح عليها ، هل هو جائز أم لا ؟ وما يفعل عند حجرة النبى صلى الله عليه وسلم من التوجيه اليها عند الدعاء وغيره ، والطواف بها وتقبيلها والتمسح بها ، وكذلك ما يفعل فى المسجد الشريف من الترخيم والتلذكير بين الأذان والاقامة ، وقبل الفجر ويوم الجمعة ، هل هو مشروع أم لا ؟ »

« أفتونا ماجورين ، وبينوا لنا الأدلة المستند اليها . »

« لا زلتم ملجأ للمستفيدين » .

بماذا أجاب علماء المدينة المنورة ؟

قالوا : « اما البناء على القبور فهو ممنوع ، اجماعا لصحة الأحاديث الواردة في منعه ، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه ، مستندين في ذلك الى حديث على رضى الله عنه ، اذ قال لابی الهياج : « الا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته » رواه مسلم .

« وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها ، فممنوع مطلقا ، وإيقاد السرج عليها ممنوع أيضا ، لحديث ابن عباس : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن .

« وأما ما يفعله الجهال عند الأضرحة من التمسح بها والتقرب لها بالديع والتندر ودعاء أهلها مع الله ، فهو حرام ممنوع شرعا ، لا يجوز فعله أصلا .

« وأما التوجه الى حجرة النبي صلى الله عليه وسلم عند الدعاء ، فالأولى منعه كما هو معروف من معتمدات كتب المذهب ، ولأن أفضل الجهات جهة القبلة . وأما الطواف بها والتمسح بها وتقبيلها ، فهو ممنوع مطلقا . وأما ما يفعل من التذكير والترخيم والتسليم في الأوقات المذكورة فهو محدث .

« هذا ما وصل الى فهمنا السقيم ، وفوق كل ذى علم عليم » .

والرجل العظيم حريص على أن يكون عمله في وضح النهار ، لا تشوبه شائبة أو تعلق به ريبة ، فقد خشي أن يقال أن فتوى علماء المدينة المنورة ، كانت بضغط منه أو تأثير ، لهذا أبرق الى وزارة الداخلية المصرية يرجو استفتاء علماء الأزهر ، في أمر زيارة القبور والتمسح بها وتقبيل أحجارها ، وشرب الدخان ، وسماع الموسيقى .

فأرسلت اليه بردهم في ١٢ مايو سنة ١٩٢٦ ، وقد جاء به :

« . . . أما ما يتعلق بزيارة القبور ، فنقول انها مندوب اليها شرعا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : كنت نهينكم عن زيارة القبور ، إلا فزوروها » . وكان صلى الله عليه وسلم يزور قبور المسلمين ببيق الفرقد ويقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأنا ان شاء الله بكم لاحقون . أسأل الله لى ولكم العافية » . وكان يزور شهداء أحد على رأس كل حول

ويقول : « السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . ونقل عن القهستاني ما نصه : قال في الأحياء : والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدير القبلة ، مستقبلا وجه الميت وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ولا يقبله ولا يمسه . وبين الفقهاء جملة مما يكره عند زيارة القبور ، ثم أجملوا ذلك بقولهم : « وكذا كل ما لم يعهد من فعل السنة » ، وهي قاعدة كلية ينبغى تطبيقها على أى فعل لم يعهد في السنة ، وقد مثلوا له بالمس والتقبيل . ومعلوم انه لم يعهد من فعل السنة ، الطواف بغير الكعبة .

« أما ما يتعلق بشرب الدخان ، فنقول : انه لم يكن موجودا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا في عهد خلفائه الراشدين ، ولا في عهد الصحابة والتابعين لهم باحسان ، ولا في زمن الأئمة المجتهدين ، وإنما حدث في القرون الأخيرة ، واختلف العلماء فيه اختلافا كثيرا . فمنهم من قال بحرمة ، عملا بحديث أحمد ، المروى عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر ، وقال انه ان لم يكن مسكرا كان مفترا » . وجنحوا مع هذا الى نهى ولى الأمر عنه . والقواعد الفقهية تقضى بأن ولى الأمر لو نهى عن مباح لمصلحة دينية ، حرم . ومنهم من ذهب الى انه مكروه ، نظرا لما فيه من الضرر الظاهر للأبدان واضاعة الأموال . ومنهم من لا يرى انه مفتر فقال باباحته ، أخذا بالقاعدة العامة ، وهى ان الأصل في الأشياء الإباحة أو التوقف ، ورد على من قال بالحرمة أو بالكراهة ، بأنهما حكمان شرعيان لا يشتان الا بدليل ولم يوجد . والذي يظهر أن أعدل الأقوال ، هو القول بالكراهة ، فينبغى تركه ، وعدم الاصرار على تعاطيه ، فان الاصرار على الصغار ، يقلبها كبائر .

« وأما الموسيقى فحكمتها من جهة الإيقاع والاستماع ، حكم اللهو واللعب ، وهو الكراهة التحريمية . فان فقهاءنا نصوا على كراهة كل لهو ، كالرقص والسخرية والتصفيق وضرب الأوتار من الطنبور والبربط والرباب والقانون والمزمار والصنج والبوق ، فانها كلها مكروهة تحريما ، ولم يستثن من ذلك الا ضرب الدف في الأعراس والأعياد الدينية ، والا ملاعبة الرجل زوجته ، وتأديبه لفرسه ، ومناضلته لقوسه » .

وقد أمضى هذه الفتوى الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد الرحمن قراة مفتى الديار المصرية .

وبعد :

فلنقرأ معا صفحات مشرقة من تاريخ هذا الملك العظيم .

انه لما يزين تاريخ عبد العزيز ويشرفه ، ويضعه في المكان الاسمى بين ملوك العرب ورؤسائهم ، موقفه الفريد الخالد من قضية فلسطين . فقد اتسم بالاخلاص لها ، وبالحرص على هذه الأرض الحبيبة السلبية أن تعود الى أهلها ، وأن يطرد منها أولئك الصهيونيون الأفاقون الذين اغتصبوها منهم ، بعون من الانجليز ومن الأميركيين معا . لقد كان صريحا كل الصراحة في لقاءاته مع زعيمى هاتين الدولتين الكبيرتين اللتين أعانتا اللصوص الباغين ، على سرقة وطن وتشريد شعبه ، في عصر تناديان فيه بأنهما نصيرتا الحق والعدل ، وما أبعدهما عنهما .

كان أول تصريح للملك عبد العزيز عن فلسطين ، هو ما نشرته له مجلة « العالمين » الانجليزية ، وترجمته جريدة « المصرى » ونشرته في يوم ٨ نوفمبر من عام ١٩٣٨ ، قال فيه :

— « ان « تصريح بلفور » اعظم ظلم ارتكبه بريطانيا . وهل يمكن تصور كارثة اعظم من أخذ اراضى العرب ومساكنهم غصبا وتسليمها الى آخرين ؟ وكيف تلوم أوروبا ، ألمانيا وغيرها على اخراج اليهود من أوطانهم ، حيث هم أقلية ، ولا تلوم نفسها على السعى في اخراج العرب من بلادهم ليستكنها اليهود ؟ اما من جهة وعود الانجليز للعرب وعهدهم لهم ، فانهم لم يعطوهم أرضا جديدة سوى أرضهم ومساكن آبائهم وأجدادهم من قبلهم . وقد استوطن العرب تلك الأراضى بعد أخذها من الرومانيين ، مئات السنين ، من غير منازع لهم في حقوق ملكيتها » .

فلما سأله محرر المجلة :

— « وماذا تكون خطتك اذا قررت بريطانيا تقسيم فلسطين ، وانشأت دولة يهودية ، وطلبت اليك الاعتراف بها » ؟

أجابته : « الجواب عن ذلك بسيط ظاهر . ان العرب كثير ، والاسلام ذو عدد . واذا أبى العرب الاعتراف بالدولة اليهودية ، فبالطبع أنا معهم ومنهم . واذا اتفقوا على هذا الاعتراف ، فانى أبقي وحدى على رأى ، وهو عدم الاعتراف بها . وكل أحد يعلم تمام العلم أن عملا مثل هذا — أى الاعتراف — لا يطابق دينى ، ولا هو يلائم الموقف الذى أجدنى فيه » .

أرأيت الصراحة الصادقة التي يواجه بها عبد العزيز اخوانه ملوك العرب ورؤساءهم؟ انه سيبقى وحده بعيدا عنهم ، اذا هم اعترفوا بالدولة اليهودية ، اذا قامت . . .

فاذا حملت برقيات وكالات الأنباء العالمية أن الحكومة الأميركية موافقة على تقسيم فلسطين ، أرسل في يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، الى رئيسها روزفلت يقول له :

« لقد ظهر لنا من البيان الذي نشر عن موقف أميركا ، أن قضية فلسطين قد نظر اليها من وجهة نظر واحدة ، هي وجهة النظر الصهيونية ، وأهملت وجهات نظر العرب . وقد رأينا من آثار الدعاية الصهيونية واسعة النطاق ، ان الشعب الأميركي الديمقراطي ، وقد ضلل تضليلا عظيما ، أدى الى اعتبار مناصرة الصهيونية على سحق العرب في فلسطين ، عملا انسانيا ، في حين أن مثل ذلك ظلم فادح ، موجه ضد شعب آمن مستوطن في بلاده ، كان ولا يزال يُنق بعدالة الرأي العام الديمقراطي في العالم عامة ، وفي أميركا خاصة » .

وبعد تنفيذ من جلالته لآراء بعض الصهيونيين ومشايخهم ، ختم رسالته بقوله :

« ان عرب فلسطين بافخامة الرئيس ، ومن ورائهم سائر العرب ، بل وسائر العالم الاسلامي ، يطالبون بحقوقهم ، ويدافعون عن بلادهم ، ضد دخلاء عليهم وعليها . ومن المستحيل اقرار السلام في فلسطين ، ما لم ينل العرب حقوقهم ، ويتأكدوا أن بلادهم لن تعطى لشعب غريب افاق ، تختلف مبادئه وأغراضه وأخلاقه ، عنه كل الاختلاف » .

وفي ٢٩ مارس من عام ١٩٤٣ ، زار مندوب مجلة « لايف » الأميركية ، الملك عبد العزيز ، مستطلعا رأيه في قضية فلسطين ، فقال له :

« أحب أن تطلعوا على ما عندي في هذا الموضوع لتوضحوه للشعب الأميركي الصديق ليفهم الحقيقة :

« أولا : اننى لا أعلم أن لليهود أمرا يبرر مطالبتهم بفلسطين ، لأن فلسطين كانت من قبل البعثة الحمديّة بقرون ، لبنى اسرائيل ، وقد تسلط عليهم الرومان في ذلك الوقت وقتلوهم وشتموا شملهم ، ولم يبق اثر لحكومتهم فيها ، ثم استولى العرب عليها من الرومان وملكوها من ألف وثلاثمائة سنة وكسور ، وهى من ذلك الوقت بيد المسلمين . ومن هذا يظهر أنه ليس لليهود حق في دعواهم هذه ، لأن جميع بلدان العالم تقلبت عليها شعوب تملكها وصارت وطننا لهم لا منازع لهم فيه ، فلو أردنا تطبيق

نظرية اليهود ، لوجب على كثير من شعوب العالم المستقرة أن ترحل من بلادها ، وفلسطين من ضمن هذه البلاد .

« ثانيا : ان تشبث اليهود بهذه البلاد خطأ ، لأن في ذلك ظلما للعرب وللمسلمين ، ولأنه يورث الفتن والقلاقل بين المسلمين وأصدقائهم الحلفاء . واذا كان اليهود مضطرين الى محل يسكنونه ، فان بلاد أوربا وأميركا وغيرها أوسع وأخصب من فلسطين ، وانهم لمصالحهم . أما سكان فلسطين القدامى من اليهود ، فمن رأى ان يتفق العرب مع أصدقائهم لحفظ مصالحهم ، على شرط ألا يعمل اليهود أعمالا تنشأ منها مشاغبة وفتن لا تكون في صالح الجميع ، وأن يعطوا ضمانا بكفالة الحلفاء ، بالأا يسعوا في شراء أملاك العرب ، التي هي حياتهم ، بما لهم من قدرة بالأموال الطائلة ، لأجل تنفيذ مقاصدهم ، لأن في ذلك ضياعا ومضرة لأهل فلسطين ، ويسبب لهم الفقر والاضمحلال » .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية في ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، حاول هتلر زعيم ألمانيا وموسوليني زعيم إيطاليا ، أن يجذبا اليهما ، وأن يضمهما الى صفيهما ، وأن يعلن الحرب على الحلفاء ، بأذنين له وعدهما « الصادق » بأنه بعد النصر - أي نصرهما على أعدائهما الحلفاء - سينصبانه ملكا على العرب أجمعين !

لكن الرجل العظيم يرد رسلهما على أعقابهم خاسرين ، مؤكدا لهم أن مصلحة شعبه ووطنه أمانة في عنقه وفي ذمته ، فهي فوق كل شيء ، ولا يعنيه أن يكون ملك العرب أجمعين ، انما الذي يعنيه أن يجنب شعبه ووطنه ويلات هذه الحرب ، ولن يتحقق هذا الا بحياده بين الفريقين المتحاربين . ذلك ان الأسطول الانجليزى يمد بلاده بالمؤن ، فاذا ضرب عليه حصارا لمصلحة الألمان والاطليان ، أمات بلاده من الجوع والحرمان . واذا وقف هذا الأسطول الانجليزى دون وصول الحجاج الى جدة لأداء فريضة الحج ، فعلى أى مورد يعيش أهل الحجاز (١) ؟

(١) لقد اعترف الملك عبد العزيز بفضل بريطانيا على بلاده في اثناء تلك الحرب في خطاب القاہ في وفود كبار الحجاج في مادبة اقامها لهم في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، فقال : « اننا لنذكر مع الشكر للحكومة البريطانية ما بلدته من المساعدات ، ولولا الله ، لم مساعدة الحكومة البريطانية بالمؤن والارزاق ، لما امكن ان يجد المسلمون هذا الرخاء في هذا الوادى غير ذى الزرع . واوقارنا حال هذه البلاد في الحرب الحاضرة ، وحالها في الحرب العالمية الاولى ، لوجدنا الفرق كبيرا جدا . وهذا من فضل الله . ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

لقد صارع مبعوثي هتلر وموسوليني والحلفاء بحياده هذا ، وعبثا حاول الحلفاء معه ما حاوله هتلر وصاحبه ، فرفض طلبهم اليه ان يعلن الحرب عليهما ، ولم ينجح معه مندوبو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية روزفلت ، عندما زاروه في الرياض ، في اقناعه بالتخلي عن حياده ، وظل متمسكا برأيه الشديد هذا ، فمنع كل دعاية اجنبية تتسائل الى بلاده ، وأمر باحراق منشورات هذه الدعاية ومجلاتها فور وصولها الى جدة ايا كان مصدرها . هذا من ناحية . ومن الناحية الأخرى ، رفض عودة وزير ألمانيا المفوض « الدكتور جويا » الى جدة لاستئناف عمله ، بعد اعلان الحرب ، وقد كان غائبا عنها يومها .

لكن روزفلت وتشرشل - رئيس الوزارة البريطانية طوال سنوات الحرب - عندما قابلاه في مصر - كما سيحيى - فاتحاه في أمر اعلانه الحرب على ألمانيا وإيطاليا واليابان - وكانت الحرب قد أوشكت أن تضع أوزارها - وأفهماه ان من شروط الانضمام الى هيئة الأمم المتحدة التي ستنشأ عقب انتهاء الحرب ، اعلان الحرب على هذه الدول الثلاث - دول المحور - فأصدر بلاغا رسميا عقب عودته من لقائهما في مصر ، الى جدة ، هذا نصه :
— —

« ان الحكومة العربية السعودية أصبحت ابتداء من أول مارس سنة ١٩٤٥ ، في حالة حرب مع ألمانيا وإيطاليا واليابان ، وذلك باستثناء الاماكن المقدسة ، فهي لا تزال على حيادها ، لا تحارب ولا تحارب » .

فلما عقد مندوبو الدول التي أعلنت الحرب على دول المحور بجانب الحلفاء ، اجتماعا في « ليك سكس » بسان فرانسيسكو في ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٥ ، لوضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، كان سمو الأمير فيصل رئيس وفد بلاده في الاجتماع .

ومما يذكر بهذه المناسبة أن الملك عبد العزيز رفض الانضمام الى « عصبة الأمم » التي انشئت بعد الحرب العالمية الأولى ، عندما زين له بعض مستشاريه الانضمام اليها ، لايمانه بعدم فاعليتها .

لقد قدر له الانجليز والأميركيون حياده ، المغلف بالتعاطف مع بريطانيا وأمريكا وحلفائهما ، وان لم يظهره على الملأ ، فرغب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، المستر روزفلت ، والمستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية ، في أن يتعرفا على هذا الرجل الفريد ، ذي الرأي الشديد ، وأن يقفا على رايه في قضية فلسطين ، وأعربا له عن رغبتهما هذه ، فلباهما لهما دون تردد .

وللمرة الثانية يركب البحر في حياته (فقد ركب في المرة الأولى حينما جمع الانجليز بينه وبين الملك فيصل الأول ملك العراق على ظهر البارجة « لوين » في سنة ١٩٣٠ ، في محاولة منهم لتسوية أزمة الحدود بين بلديهما ، ولتسليم الشائر فيصل الدويش الى ابن سعود) اذ أرسل اليه روزفلت المدمرة الأميركية « أوجست » لتقله من ميناء جدة الى مياه البحيرات المرة في قناة السويس ، حيث كان ينتظره في الطرادة الأميركية « كوفيرى » في ١٤ فبراير سنة ١٩٤٥ . ووصل الملك ، واستقبله مضيفه استقبالا عظيما ، وأعجب الرئيس الأميركي بالملك العربي اعجابا لا حد له ، فقال له :

– اننى ارى اليوم أكثر مما سمعت . لقد كنت أود أن اجتمع بك قبل اليوم .

وبدأ الحديث ، في جو يسوده الصداقة والراحة ، وتناولا ما بين بلديهما من روابط ، ثم تناولا قضية فلسطين ، فدلل عبد العزيز على عدالتها ، فسأله روزفلت النصيحة فيما يراه بشأن هجرة اليهود الذين جلاوا عن أوطانهم في أوروبا ، فقال له على الفور :

– يعود هؤلاء اليهود المبعدين عن بلادهم ، ليعيشوا في البلدان التي أخرجوا منها . أما اليهود الذين دمرت أوطانهم تدميرا تاما ، والذين لا تواتيهم الفرص لأن يعودوا للعيش في أحضانها ، فيجب أن يمنحوا أماكن يعيشون فيها ، في أراضى دول المحور التى اضطهدتهم .

ومما قاله الملك لروزفلت يومذاك :

– ان العرب يختارون الموت على أن يسلموا بلادهم لليهود ، وان أمل العرب قائم على كلمة الشرف التى قالها الحلفاء لهم .

فقال روزفلت انه يود أن يؤكد لجلالته انه لن يقدم على عمل أى شىء يساعد به اليهود ضد العرب ، وانه لن يتحرك أية حركة عدائية ضدهم . وانتهى اللقاء ، وصدر عنه بلاغ سعودى نوه بالموضوعات التى بحثت فيه .

وركب الملك سيارة مصرية فارهة من سيارات القصر الملكى كانت بانتظاره ، وسط موكب حافل من راكبي الموتوسيكلات ، ميمما شطر الفيوم ، ليجتمع بالزعيم البريطانى تشرشل ، في فندق « أوبرج الفيوم » .

وفي اليوم التالي لوصوله - يوم الجمعة ١٦ فبراير سنة ١٩٤٥ - زاره الملك فاروق وبصحبته عبد الرحمن عزام بك (كان يومذاك سفيرا بوزارة الخارجية ، ثم اختير امينا للجامعة العربية عند قيامها بعد أسابيع ، وأنعم عليه برتبة الباشوية) واجتمع بهما اجتماعا طويلا بحثوا فيه شؤوننا شتى وسجل بلاغ رسمي سعودي ، هذا الاجتماع أيضا .

وفي غد - السبت - اجتمع الملك بالمستر تشرشل اجتماعا طويلا ، دار فيه معظم الحديث عن قضية فلسطين ورأى جلالته فيها .

بدأ تشرشل حديثه بقوله :

- الا تعلمون جلالتم أننى اول واضع للسياسة الفلسطينية ، بايجاد وطن قومى لليهود ؟

فقال الملك : لا اعلم ، ولكن الذى أعلمه هو أن فلسطين وطن عربى ، وأنه ليس لليهود حق فى سلخ جزء من الوطن العربى ليكون وطننا لهم . لهم ان يسكنوا كمواطنين مسالمين ، لا طامعين ، ولقد عاشوا قرونا طويلة تحت كنف العرب والمسلمين فى اسبانيا ، وفى شمال افريقيا .

قال تشرشل : انا لا أقصد أن تكون فلسطين لليهود ، ولكنى أقصد ايجاد وطن لليهود فى فلسطين .

فاندفع الملك مبينا له خطر وجود اليهود فى الشرق الأوسط ، فان اطماعهم لا حد لها ، وسيكونون مثار شغب وفساد فى ربوعه ، « وائتسا نعلم أن معظم اليهود الذين يفدون على فلسطين ، شيوعيون » .

وصدر بلاغ رسمي سعودي كذلك عن هذا اللقاء ، بعد أن عاد الملك الى وطنه .

لكن عبد العزيز ، لم يشأ أن يقتصر اقتناعه لروزفلت على الحديث الذى تبادلاه فى مياه البحيرات المرة ، فأرسل اليه رسالة تاريخية فى ١٠ مارس سنة ١٩٤٥ ، أى بعد أقل من شهر من لقائهما ، بسط له فيها تاريخ فلسطين ، ممهدا له بتذكيره « بحق صريح قائم منذ عرف التاريخ ، ويراد الآن القضاء على هذا الحق ، بظلم لم يسجل له التاريخ مثيلا ولا نظيرا ، ذلك هو حق العرب فى فلسطين ، الذى يريد دعاة اليهودية الصهيونية غمطه وازالته ، بشتى وسائلهم التى اخترعوها وبيتوها ،

وعمالوا لها في أنحاء العالم من الدعايات الكاذبة ، وعمالوا في فلسطين من المظالم ، وأعدوا العدوان على العرب ما أعدوا ، مما علم بعضه الناس ، وبقي الكثير منه تحت طي الخفاء . وهم يعدون العدة لخلق شكل نازي فاشستي بين سمع الديمقراطية وبصرها ، وفي وسط بلاد العرب ، بل في قلب بلاد العرب ، وفي قلب الشرق الذي أخلص العمل للقضية الحالفاء في هذه الظروف الحرجة .

« ان حق الحياة لكل شعب في موطنه الذي يعيش فيه ، حق طبيعي ، ضمنته الحقوق الطبيعية ، واقرته مبادئ الانسانية ، واعلنه الحالفاء في ميذاق الأطلنطي ، وفي مناسبات متعددة . والحق الطبيعي للعرب في فلسطين لا يحتاج الى بيانات ، فقد ذكرت عبر مرة لفخامة الرئيس روزفلت وللحكومة البريطانية ، في عدة مناسبات ، ان العرب هم سكان فلسطين منى اقدم عصور التاريخ ، وكانوا سادتها ، والاثرية الساحقة فيها في كل العصور . واننا نشير اشارة موجزة الى هذا التاريخ ، القديم والحديث ، لفلسطين حتى اليوم ، لينبين ان دعوى الصهيونية في فلسطين ، لا تقوم على أساس تاريخي صحيح ... »

« يتبدى تاريخ فلسطين المعروف ، من سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، وأول من توطن فيها الكنعانيون ، وهم قبيلة عربية نزحت من جزيرة العرب ، وكانت مساكنهم الاولى في منخفضات الأرض ، ولهذا سموا كنعانيين . وفي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، هاجر من العراق بقيادة النبي ابراهيم ، فريق من اليهود ، واقاموا في فلسطين ، ثم هاجروا الى مصر ، بسبب المجاعات ، حيث استعبدتهم الفراعنة ، ونزل اليهود مشردين فيها ، الى ان انقذهم النبي موسى من غربتهم ، وعاد بهم الى ارض كنعان . عن طريق الجنوب الشرقي ، في زمن رمسيس الثاني سنة ١٢٠٠ ، او ابنه منفتح سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد .

« واذا سلمنا بنص التوراة ، وجدنا ان قائد اليهود الذي فتح فلسطين ، كان يشوع بن نون ، وهو الذي عبر بجيشه واحتل اريحا من الكنعانيين ، بقسوة شديدة ووحشية ، يدل عليها قوله لجيشه : « احرقوا كل ما في المدينة ، واقتلوا كل رجل وامرأة وكل طفل وكل شيخ ، حتى البقر والغنم ، بحد السيف ، واحرقوا المدينة بالنار وكل ما فيها » (يشوع ١٦ - ٢١ - ٢٤) .

« وقد انقسم اليهود بعد ذلك الى مملكتين : مملكة اسرائيل وقصبتها « السامرة » (نابلس) ودامت ٢٥ سنة ، ثم سقطت في يد « شلمنصر » ملك اشور سنة ٧٢٢ قبل الميلاد ، وسبى شعبها الى مملكته . ثم مملكة يهوذا وقصبتها « اورشليم » (القدس) ودامت ١٣٠ سنة بعد انقراض مملكة اسرائيل ، ثم أبيدت بيد « بنوخدناصر » ملك بابل ، الذي احرق المدينة والهيكل بالنار ، وسبى الشعب الى بابل سنة ٥٨٠ قبل الميلاد ، ودام السبى البابلى مدة سبعين سنة ، ثم عاد اليهود الى فلسطين بأمر « قوش » ملك الفرس . وتلا ذلك ، الفتح اليونانى بقيادة اسكندر المقدونى فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، ودام حكمه فى فلسطين مدة ٢٧٢ سنة . وجاء بعده الفتح الرومانى سنة ٦٣ قبل الميلاد بقيادة « بومبى » ، ودام حكم الرومان فى فلسطين مدة ٧٠٠ سنة . وفى سنة ٦٣٧ ميلادية احتل العرب فلسطين ، ودام حكمهم فيها ٨٨٠ سنة متواصلة . وكانت وصية الخليفة للفاتح : لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ، ولا تعذبوا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا . وسوف تمرن باناس قد فرغوا انفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا له انفسهم » . وقد ذكر هذا ابن الاثير المؤرخ المشهور .

« ثم انتقل الحكم فى فلسطين الى الاتراك سنة ١٥١٧ ميلادية ، فى زمن السلطان سليم الاول ، وظلت فى حوزتهم مدة ٤٠٠ سنة ، وكان العرب سكانها ، وكانوا شركاء مع الاتراك فى حكمها وفى ادارتها . وفى سنة ١٩١٨ احتلها البريطانيون ، ولا يزالون فيها الى الآن .

« ذلك تاريخ فلسطين العربية ، يدل على ان العرب اول سكانها ، سكنوها ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، واستمر سكانهم فيها بعد الميلاد الى اليوم ، وحكموها وحدهم مع الاتراك ١٣٠٠ سنة تقريبا . أما اليهود فلم تتجاوز مدة حكمهم المتقطع فيها ٣٨٠ سنة ، وكلها اقامات متفرقة مشوشة ، ومن سنة ٣٢٢ قبل الميلاد ، لم يكن لليهود فى فلسطين اى وجود او حكم ، الى ان دخلتها القوات البريطانية فى سنة ١٩١٨ .

« ومعنى هذا ان اليهود منذ الفين ومائتى سنة ، لم يكن اهم فى فلسطين عدد ولا نفوذ . ولما دخلها البريطانيون لم يكن عددهم يزيد على ثمانين الفا ، كانوا يعيشون فى رغد وهناء ورخاء ، مع سكان البلاد الاصليين من العرب . ولهذا ، فاليهود لم يكونوا الا دخلاء على فلسطين فى حقب متفرقة من الزمان ، ثم اخرجوا منها منذ أكثر من الفى سنة .

« أما الحقوق الثابتة للعرب في فلسطين ، فتستند :

١ - الى حق الاستيطان الذي استمرت مدته منذ سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، ولم يخرجوا منها في يوم من الايام .

٢ - والى الحق الطبيعي في الحياة

٣ - والى وجود مقدسات لهم فيها

٤ - والى أن العرب ليسوا دخلاء على فلسطين ، ولا يراد جلب أحد منهم من اطراف المعمورة لاسكانه فيها

« أما اليهود فان دعواهم التاريخية هي مغالطة ، ثم ان حكمهم القسري في فترات متقطعة كما ذكرنا لا يمنحهم اى حق في ادعائهم انهم اصحاب البلاد ، لأن احتلال بلد ما ، ثم الخروج منه ، لا يخول اى شعب ادعاء ملكية ذلك البلد والمطالبة به ، وتاريخ العالم ملء بمثل هذه الامثال .

« ان حل قضية اليهود المضطهدين في العالم ، تختلف عن قضية الصهيونية الجائرة . فان ايجاد اماكن لليهود المشتتين يمكن ان يتعاون عليه جميع العالم ، وفلسطين قد تحملت قسلا فوق طاقتها . اما نقل هؤلاء المشتتين ووضعهم في بلاد آهلة بسكانها ، والقضاء على اهلها الأصليين ، فامر لا مثيل له في تاريخ البشرية .

« وانا نوضح بصراحة ، ان مساعدة الصهيونية في فلسطين ، لا يعنى خطرا يهدد فلسطين وحدها ، بل انه خطر يهدد سائر البلاد العربية . وقد اقام الصهيونيون الحججة الناصعة على ما ينوونه في فلسطين ، وفي سائر البلاد المجاورة ، بتأليفهم تشكيلات عسكرية خطيرة . ومن الخطأ ان يقال ان هذا عمل شرذمة متطرفة منهم ، وانه قابل باستنكار من جمعياتهم وهيئاتهم . وانا نقول : ان اعمال الصهيونيين في فلسطين وفي خارجها ، صادرة عن برنامج متفق عليه ، ومرضى عنه من سائر اليهودية الصهيونية ، وقد بدأ هؤلاء اعمالهم المنكرة بالاشياء الى الحكومة التي احسنت اليهم وآوتهم ، وهي الحكومة البريطانية ، فاعلنت جمعياتهم الحرب على بريطانيا ، وألفت لهذا فرقا عسكرية خطيرة ، تملك في فلسطين في الوقت الحاضر ، كل ما تحتاج اليه من الأسلحة والمعدات الحربية ، ثم قام افرادها بشتى الاعتداءات على الأمنين ، كان من افظعها الاعتداء على الرجل الفلد ،

الذى كان ممتلئا بالحب وبالخير لصالح المجتمع ، وكان من أشد من يعطفون على اليهودية المضطهدة ، وهو « اللورد موين » (١) . ومما يدل على أن فعلتهم المنكرة كانت مؤيدة من مجموع اليهود ، المظاهر والمساعي التى قام بها رجال الصهيونية فى كل مكان ، فى طلب تخفيف العقوبة عن المجرمين ، ليجراوا على أمثالها .

« فهذه أفعالهم مع الحكومة التى أحسنت اليهم كل الاحسان ، فكيف يكون الحال اذا أعينوا على تحقيق أغراضهم ، وأصبحت فلسطين بلدا خالصا لهم ، يفعلون فيها وفي جاراتها ما يريدون ؟

(١) يشير جلالته الى حادب كان له دوى عظيم فى مصر وفى العالم كله . ذلك انه فى الساعة الواحدة والربع من بعد ظهر يوم ١٦ نوفمبر من عام ١٩٤٤ ، اطلق شابان يهوديان الرصاص على اللورد والتر موين ، وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط ، وهو بهم إغفاءة سيارته فى حديقة داره بشارع حسن سبرى بالرمالك ، فأسابا سائق السيارة فسقط قتيلًا . اما اللورد فقد اسبب فى صدره وفى عنقه ، فنقل الى مستشفى الانجلو اميركان لاسعافه ، لكنه توفى فى الساعة ٣٠ : ٩ من مساء اليوم نفسه ، وهرب القاتلان بمجلتيهما (بسكليت) . لكن لوزن سابل من حرس الوزارات سودانى الجنسية ، اسمه الامين محمد عبد الله فى الرابعة والعشرين من عمره ، سمع بالحادث وهو فى نقطة وليس الجزيرة ، فانطلق هو بركبته وراء القاتلين ، مسترشدا من المارة عن الطريق التى سلكها فى عربتها ، واستطاع المحاق بهما عند كوبرى بولاق ، وتبش عليهما بمساعدة جندى للمرور وعامل نظافة بعد ما تبادل معهما اطلاق النار ، محاولين قتله ، وساقهما الى قسم بولاق .

وعندما بدأ التحقيق معهما بإشراف ميدالرحمن الطوير باشا النائب العام ، امنعا عن الاجابة من أى سؤال وجه اليهما ، قائلين انهما ان يتكلما الا امام المحكمة عند محاكمتهما . لكن رجال البوليس الانجليز فى محافظة القاهرة استطاعوا حملهما على الكلام . فقالا انهما من المحاربين فى سبيل حرية اسرائيل ، وانهما تسلا الى مصر من فلسطين ، وارتكبا جريمتها نفيديا لتعليمات من هيئة ارهابية يتبعانها . وقال احدهما واسمه « الياهو بنسورى » من تل ابيب : ان سبب القتل سياسى ، وانهما ارسلتا من فلسطين بأمر خاص ، هو قتل اللورد موين .

وقال الثانى واسمه « الياهو حكيم » من حيفا : اننا لا نحارب الحكومة الانجليزية فى فلسطين لانها حكومة سيئة فقط ، فانها فى الواقع حكومة سيئة جدا ، لكن الواقع انها حكومة غريبة من فلسطين ، ولنا الحق فى أن نحاربها ، ولهذا لم نضع فى حسابنا اذا كان اللورد موين رجلا طيبا او غير طيب ، لكننا انبرناه ممثل الحكومة البريطانية الذى يحكم الشرق الاوسط ، وهو لهذا مسؤول عن سوء الحكم ، وعما هو حاصل فى فلسطين .

فلما سألته المحقق : هل تعتقد ان قتل اللورد موين يؤثر فى الحومة الانجليزية او برهبها ، حتى تغير سياستها بالنسبة اليكم ؟

« لو ترك الأمر بين العرب وبين هؤلاء المعتدين ، لربما هان ، ولكنهم محميون من قبل الحكومة البريطانية صديقة العرب !! فاليهودية الصهيونية لم تراع حرمة هذه الحماية ، بل قامت بتدبير حبال الشر ، وبدأتها ببريطانيا ، وأندرت العرب بعد بريطانيا ، بمثلها وبأشد منها . فإذا كانت الحكومة المتحالفة التي تشمر العرب بصدقتها ، تريد أن تشعل نار الحرب والدماء بين العرب واليهود ، فان تأييد الصهيونية سيوصل الى هذه النتيجة . وان أخشى ما تخشاه البلاد العربية من الصهيونية ، هو :

١ - أن يقوموا بسلسلة من المذابح بينهم وبين العرب .

٢ - أن تكون اليهودية الصهيونية من أكبر العوامل في افسادها بين العرب والحلفاء . وأقرب دليل على ذلك ، قضية اليهوديين في مقتل « اللورد موين » في مصر .

قال : المسألة ليست تغيير سياسة ، انما نحن نريد من الحكومة الانجليزية ان تترك فلسطين بالمرّة ، تترك اورشليم (القدس) واتضح في التحقيق ان الجماعة التي يتبعانها هي جماعة « شترن » ، وهو اسم ارهابي اسرائيلي انشأها وظل رئيسا لها ، حتى قتله ضابط بريطاني اسمه مورتون .

وقد استغرق التحقيق معهما الى يوم ٢٠ ديسمبر ، اى شهرا ونصف شهر ، واستغرق من الصفحات ١٢٨ صفحة . وفي هذا اليوم اصدر النائب العام قراره باتهامهما بقتل اللورد موين وقتل سائق سيارته الاومياشي « ارثر هولر » ، عمدا مع سبق الاصرار والترصد ، وبالشروع في قتل الكونستابل الامين محمد عبد الله ، وخاب اثر الجريمة لسبب لا دخل لارادتهما فيه ، وهو عدم احكام الرماية .

وفي يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٤٥ عقدت محكمة الجنايات برئاسة محمود منصور بك لمحاکمتهما ، وندب للدفاع عن اولهما توفيق دوس باشا وهد الفتاح السيد ، ومن ثانيهما المحاميان حسن حسنى بك وحسن الجداوى .

وبعد المرافعة والدفاع ، أصدرت حكمها بماقبة كل منهما بالاعدام ، وفي يوم ٢ مارس صدق رئيس الوزراء محمود نهى النقراشي باشا - بوصفه الحاكم العسكري العام - على الحكم ، وقد نفذ فيهما بعد يومين .

نعود الى اللورد موين فنقول ان رئيس الوزراء ذهب الى السفارة البريطانية معزيا فيه . وفي اليوم التالي شيع جثمانه في جنازة عسكرية مصرية انجليزية مهيبّة ، وابشبه تشرشل رئيس الوزارة البريطانية في مجلس العموم ، واشاد بمصر وببوليسها .

وظلّت الوزارة ترقية الكونستابل الى « كونستابل ممتاز » ، فرأى الملك فاروق ان يرقى الى رتبة « ملازم ثان » علاوة على منحه نوط الواجب الذهبى .

وتبرع النبيل عباس حليم - من الاسرة المالكة - بمائة جنيه ، مفتحا بها اکتئابا شعبيا لكافة الكونستابل الشجاع ، وانهالت التبرعات عليه تقديرا لشجاعته وبسالته .

٢ - أن تمتد مطامع اليهود الى غير فلسطين ، فان ما اعدوه من العدة ، يدل على أنهم ينوون العدوان على جيرانها من البلاد العربية .

٤ - الا يجدوا مانعا للاتفاق مع اى جهة قد تكون معادية للحلفاء وللعرب ، لتنفيذ هذا العدوان ، وقد بدأوا بعدوانهم على بريطانيا ، وهم تحت حمايتها ورحمتها . . . هذا لو تصورنا استقلالهم في مكان ما في فلسطين .

« لا شك ان هذه امور ينبغي اخذها بعين الاعتبار ، في اقرار السلام في العالم ، عندما ينظر في قضية فلسطين . فضلا عن ان حشد اليهود في فلسطين لا يستند الى حجة تاريخية ، ولا الى حق طبيعي ، وانه ظلم مطلق ، فهو في الوقت نفسه يشكل خطرا على العرب وعلى الشرق الأوسط .

« وصفوة القول : ان تكوين دولة يهودية بفلسطين ، سيكون ضربة قاضية على كيان العرب ، ومهددا للسلم باستمرار ، لانه لا بد ان يسود الاضطراب بين اليهود والعرب ، فاذا نفذ سبر العرب في يوم من الأيام ، ويثسوا من مستقبلهم ، فانهم سيضطرون للدفاع عن أنفسهم ، وعن اجيالهم المقبلة ، ازاء العدوان عليهم ، وهذا بلا شك لم يخطر ببال الحلفاء العاملين على سيادة السلم واحترام الحقوق . ولا نشك في أنهم لا يرضون بهذه الحالة المقلقة لسلم الشرق الأوسط .

« وما كنت اريد في هذا المترك العظيم ، ان اشغل فخامتكم ورجال حكومتكم العاملين في هذه الحرب العظمى بهذا الموضوع . وكنت انضل - وانا واثق من انصاف العرب من قبل الحلفاء - ان يستمر سكوت العرب الى نهاية الحرب ، اولا ما نراه من قيام هذه الفئة الصهيونية اليهودية بكل عمل مشير مزعج ، غير مقدرين الظروف الحربية ومشاغل الحلفاء ، حق قدرهما ، عاملين للتأثير في الحلفاء بكل انواع الضغط ، ليحمواهم على اتخاذ خطة ضد العرب ، تختلف عما اعلنه الحلفاء من مبادئ الحق العدل .

« لذلك اردت بيان حق العرب في فلسطين على حقيقته ، لدحض الحجج الواهية التي تدعيها هذه الشذمة من اليهودية الصهيونية ، دفعا لعدوانهم ، وبيانا للحقائق ، حتى يكون الحلفاء على علم كامل بحق العرب في بلادهم ، وبلاد آبائهم واجدادهم ، فلا يسمح لليهود ان ينتهزوا فرصة سكوت العرب ، ورغبتهم في عدم التسويش على الحلفاء في الظروف الحاضرة ، فيأخذوا من الحلفاء ما لا حق لهم فيه .

« وكل ما نرجوه ، هو أن يكون الحلفاء على علم بحق العرب ، ليمنع ذلك تقدم اليهود في أى أمر جديد ، يعتبر خطراً على العرب ، وعلى مستقبلهم في سائر أوطانهم ، ويكون العرب مطمئنين من العدل والانصاف في بلادهم (١) » .

أقد تعمدت نشر نص هذه الرسالة المسهبة التاريخية ، متجاوزاً عن طولها ، لأن فيها كل شيء عن فلسطين : تاريخ مفصل ، دفاع حار ، حق مؤيد بالدليل والبرهان ، حقائق تنبأ بها عبد العزيز ، حدثت في حياته ، وحدثت بعد ذهابه الى مولاه . فهي رسالة شاملة ، أو هي دراسة مستفيضة عن فلسطين وقضيتها وحق شعبها ، لم يسبقه اليها رئيس عربى

رد روزفلت على عبد العزيز برسالة أكد فيها ما سبق أن قاله له من أنه لن يقدم على عمل فيه ضرر للعرب

قال روزفلت في رسالته وقد بعث بها في ٥ ابريل سنة ١٩٤٥ :
« الصديق الطيب العظيم

» تلقيت الرسالة التى بعثتموها جلالتم الى بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٩٤٥ ، التى أشرت فيها الى قضية فلسطين ، واهتمام العرب المستمر بسير التطورات التى تؤثر في تلك البلاد

« اننى مفتبظ لان جلالتمك انتهزتم هذه الفرصة لتوجيه انتباهى الى آرائكم في هذه القضية . وقد منحت عظيم الانتباه الى البيانات التى ضمنتها كتابكم . وانى أيضا للميء الخاطر بالمحادثات التى لا تنسى ، التى جرت بيننا منذ امد غير بعيد ، والتى في اثنائها تهيأت لى الفرصة لادرك أى اثر حى لآراء جلالتمك في هذه القضية

« تتذكرون جلالتمك انه في مناسبات سابقة ، ابلفتكم موقف الحكومة الاميركية تجاه فلسطين ، ووضحت رغبتنا بأن لا يتخذ قرار فيما يختص بالوضع الأساسى في تلك البلاد ، بدون استشارة تامة مع كل من العرب واليهود . ولا شك أن جلالتمك تتذكرون أيضا أنه في خلال محادثائنا الاخيرة ، أكدت لكم انى لن اتخذ أى عمل - بصفتى رئيسا للفرع التنفيذى لهذه الحكومة - يتضح أنه عدائى للشعب العربى

(١) كتاب « الملك المعادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الاول - ص

« وانه لما يسرنى أن أجدد لجلالتكم التأكيدات التى تلقيتموها
جلالتكم سابقا بخصوص موقف حكومتى ، وموقفى كرئيس للسلطة
التنفيذية ، فيما يتعلق بقضية فلسطين ، وان أعلمكم أن سياسة هذه
الحكومة غير متغيرة » .

لكن الموت عاجله فى ١٢ أبريل ، أى بعد أسبوع من ارساله رده على
الملك عبد العزيز ، فلم يمش حتى يرى العرب : أكان صادقا فيما قطعه
على نفسه من عهد للملك العربى ، من انه لن يقدم على عمل فيه عدا
للعرب ، أم أنه كان خادعا ، كما خدع العرب قبله ، رئيس أميركى سابق
له ، هو الرئيس ولسون ، بمبادئه الأربعة عشر التى نصت المادة الثانية
عشرة منها ، على حق الشعوب فى الحرية والسيادة وتقرير مصيرها
بنفسها ، فلم ينل شعب عربى واحد بعد الحرب العالمية الأولى ، التى
أعلن ولسون مبادئه هذه قبيل نهايتها ، استقلاله وحرية ، بل كان
عونا لحلفائه على استمرار استعمارها ، واحتلالهم للشعوب والأقطار
التى شقيت بهم

وأقرب مثل على ذلك ما صنعه ولسون نفسه مع الوفد المصرى
برئاسة سعد زغلول باشا ، فقد سافر الى باريس فى أبريل سنة ١٩١٩
ليقبله ويشرح له عدالة مطالب مصر وحققها فى الاستقلال ، وقدرتها على
حكم نفسها بيد أبنائها ، بعد تضحياتها الجليلة بجانب الحلفاء ، حتى
لقد استشهد من شعبها فى تلك الحرب ٢٠٠.٠٠٠ ر.مصرى ، قاتلوا مع
الحلفاء ، دفاعا عن الحرية التى خنقها خصومهم الألمان والطيان والترك !!
فماذا صنع ولسون صاحب تلك المبادئ الخادمة ، للوفد المصرى ؟
اعتذر عن عدم مقابلة الوفد ، مجاملة للانجليز ، ثم فاجأ الوفد
ومصر كلها فى الشهر نفسه ، بأنه يؤيد احتلال انجلترا مصر ، ووضعها
تحت حمايتها ، تنفيذا لما أعلنته الحكومة الانجليزية يوم اعلان الحرب
فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ . . . !!

بعد وفاة روزفلت ، عرف أنه كان قد اتفق مع الحكومة البريطانية
على ارسال لجنة تحقيق أميركية بريطانية الى الدول العربية ، لمقابلة
ملوكها وزعمائها ، للوقوف على آرائهم فى هذه القضية الخطيرة ، قضية
فلسطين ، واقتراح حل لها ، ثم ترفع ما تجمعه من آراء الى الحكومتين . .
وصلت اللجنة الى الرياض فى ١٩ مارس ١٩٤٦ لمقابلة الملك
عبد العزيز ، وكانت مؤلفة من السرجون سنجلتون رئيسا ، والميجور
ماتنجهام بولور والمستر باسكتر ، عضوين

قال لهم جلالتهم في أثناء المناقشة : ان امر فلسطين يهيمه كثيرا ،
لانه عربى مسلم قبل كل شىء ، والعربى للعربى والمسلم للمسلم .

ثم :

– ان قضية الصهيونية في فلسطين تهيم المسلمين والعرب ، والعداوة
بين المسلمين واليهود ليست وليدة عهد جديد ، انما هى نتيجة عداوة
قديم يرجع الى آلاف السنين

– ان اليهود أعداؤنا في كل مكان ، وهم في كل بقعة يأتون اليها
يفسدون ويعملون ضد مصلحتنا . . ثم قال : وانى لعلى يقين :

أولا : من ان اليهود الصهيونيين لا يدخرون وسعا في احداث
الاختلافات بين العرب ، وبين كل من صديقتيهم بريطانيا وأمريكا .
وهذا ما يتجنبه العرب ولا يريدونه

ثانيا : من أن هجرة اليهود اذا استمرت على ما هى عليه ، وتوسعت
أماكهم في فلسطين ، فيكونون خطرا على العرب كافة ، لان لديهم جميع
الوسائل لامدادهم بالأسلحة وبالمال وبغيرهما . ولا شك في أنهم
سيستعملون هذا ضد العرب ، وهو في الوقت نفسه احراج للبريطانيين .
والدليل على هذا ما رأيتموه في زيارتكم فلسطين : كيف رأيتم حال العرب
وحال اليهود ؟ هل رأيتم اليهود في ترفهم ومساكنهم وسلاحهم وأموالهم
وقوتهم ؟ وهل رأيتم أصحاب البلاد الشرعيين وما هم عليه من الفقر
والعوز ؟ ألم يصرح لكم اليهود بأنهم أصحاب زراعات وأمالك ، وانهم
يعملون ويصاحون ، على نقيض ما يفعله « هؤلاء الأشقياء » ويعنون
بهم العرب ؟

وأردف جلالتهم : اذا رأت اللجنة أن تسأل عن أسباب ذلك شرحتها
لها . انها تتلخص في جملة واحدة ، هى أن العرب هبوا للدفاع عن
بلادهم ، وللمطالبة بحقوقهم ، ولإستعادة ما سلب منهم ، فكيف يتسنى
لهم مباراة اليهود ، وهم ما بين مصلوب على أعواد المشانق ، وسجين
وشريد وطريد ؟ كيف يتسنى لهم أن يتقدموا وهده حالهم ، بينما اليهود
تسهل لهم جميع الوسائل ؟ وكلما تكلم العرب مطالبين بحقوقهم ،
لا يجدون من يعينهم على أمرهم أو يسمع شكواهم . أما اليهود فانهم على
مراى ومسمع منكم أيها الانجليز ، يقتلون جنودكم وكبراءكم ، ويحاربونكم
بشتى الأساليب ، وانتم لا تحييونهم الا باطلاق الرصاص في الهواء ، كان
لم يكن بينكم وبينهم حساب !!!

بعد هذا القول الحق الصريح ، رد رئيس اللجنة ردا عجيبا مضحكا
تقال :

– ان الانجليز متساهلون كثيرا ، وهذا ما يجعل الناس يطمعون فيهم !!
فأفحمه الملك بقوله :

– ان التساهل في بعض الأحيان والأحوال ، يجعل الخطر أعظم ،
والبلية أعم . وأضرب لكم مثلا بانسان تحلق فوق رأسه الطائرات ويده
مغلولة وخالية من السلاح ، وانسان آخر يده طليقة وقابضة على السلاح،
فهل يتساوى الرجلان ؟ تلك هي حال العرب واليهود في فلسطين . اننى
منذ أوجدنى الله ، وصرت أسعى لاستعادة ملك آبائى واجدادى ، ما عرفت
من الدول غير بريطانيا – وكانت صديقتى – رأيت منها ما سرنى ، ورات
منى ما سرها . ولما نشبت الحرب أيدت سياستها وسياسة حلفائها ،
ووفقا منى بأن هذا فى مصلحتى وفى مصلحة العرب جميعا . لهذا كانت
الحكومة البريطانية ، ولا تزال ، راغبة فى أن أسعى للتوفيق بينها وبين
العرب ، منذ بدأت الحرب وحتى انتهائها ، اتقاء لحدوث المشكلات بينها
وبينهم . وكنت أبلد ما فى وسعى لاقتناع اخوانى العرب ، وأنصحهم
بالأ يجعلوا سبيلا لحدوث اختلاف بينهم وبين بريطانيا ، لأن أعداء الحلفاء
هم أعداء العرب ، ويجب علينا الصبر والتروى . ولقد بلغ بى الأمر انى
تحدثت بهذا امام جمع من المسلمين فى مكة المكرمة ، ونصحتهم بأن يكونوا الى
جانب بريطانيا وحلفائها ، لأنها صديقتهم ، وتدافع فى حربها عن حقوقهم
ومصالحهم ، وأن لا يدعوها فى حرج من أمرها . وعلى اثر ذلك تلقى علماؤنا
كتبا ورسائل من علماء المسلمين ، ينتقدون فيها موقفى ، وقاتحنى العلماء
بما تلقوا من شتى الأقطار الاسلامية ، وقالوا لى : انهم لا يتعرضون للمسائل
السياسية ، ولكنهم أعربوا عن عجبهم من معاضدتى لبريطانيا ، فى الوقت
الذى تؤوى هى فيه اليهود ، وتوليهم على فلسطين . فأوضحت لهم الأخطار
التي تستهدف لها اوطاننا اذا انتصر أعداء بريطانيا عليها . فقالوا : هل
تضمن اذا انتصرت بريطانيا ، تعدل عن تأييد اليهود ، ولا تؤويهم فى بلادنا،
وان تعامل العرب فى فلسطين بالعدل ؟ فأجبتهم : أنا لا أضمن لكم أن تفعل
بريطانيا هذا أو ذاك ، ولكن ما أعرفه عن بريطانيا وعودها التى قطعتها
على نفسها ، هو انه اذا لم يقم العرب بأعمال ضدها ، فانها ستعاملهم
بالانصاف

واستمر الملك فى حديثه لأعضاء اللجنة :

– وأذكر لكم أمرا واقعا ، وهو أن الوزير البريطاني المفوض في جدة ، زارني بعد انتهاء الحرب بمدة وجيزة ، وقال لي : ان حكومتى ترى أن حركات اليهود الحاضرة ، ربما كانت من حظ العرب ، فكلما ازدادت حركاتهم ، انكشفت نياتهم ! ورجا منى أن ابدل جهدى لدى العرب بالالتزام الهدوء ، واقنعنى بأن هذا خير لمصلحتهم . فلم ادخر وسعا في هذا السبيل ، الى ان وصلنا الى الموقف الذى نقفه اليوم

لقد وقعت الآن في مازق خطير امام شعبي وجماعى ، وامام العرب والمسلمين . فاذا كانت بريطانيا تريد أن تعدل عن الحق الواضح ، وأن تذهب وعودها في الهواء ، فليس أمامى الا أن أقول للمسلمين : دونكم نفسى ، اقتلونى ، أو انزلونى عن الملك ، لاننى مستحق هذا ، وأنا الذى جنيت عليكم ، وثبطت عزمكم وهمتكم

هذه هى حقيقة موقفى شرحتها لكم بوضوح ، ثم :
– اليهود اليوم قوتهم بالدينار ، ونحن حجتنا بحقنا في فلسطين ، حجة شرعية . بلاد أخذناها من الرومان بالسيف ، قاتلنا دونها وملكنها بعد أن سفكت دماء زكية منا وعزيرة علينا ، فكيف يجيء الينا تاجر ويأخذها بالفلوس ؟ ليس هذا من الانصاف في شيء

– لقد تحدثت مع الرئيس روزفلت حديثا طويلا في قضية فلسطين ، سجلت خلاصته في محضر خاص ، وشهد حديثنا الوزير الأمريكى المفوض في جدة ، واطلعت المستر تشرشل على حديثى مع روزفلت ، وعلى الوعد الذى وعدنى به ، فوعد هو الآخر بأن ينهض بالواجب من ناحيته في مساعدة العرب وعدم الاجحاف بحقوقهم . لقد كان روزفلت يسعى لايجاد مكان لايواء اليهود ، وكان مقتنما بأن فلسطين لا تصلح أن تكون مأوى لهم ، وأن في بلاد اوربا متسعا لهم ، اذ يمكنهم الإقامة في الأماكن التى خلت من الدين ابيدوا من اليهود بسبب الحرب

– الموت خير لنا من قبول هجرة اليهود ، وكل جهادنا لمنع هجرة اليهود الى فلسطين ، حتى لا يملكوا أراضيها

– اذا ارادت بريطانيا أن تحافظ على صلاحها الحسنة بالعرب ، فلتقف الهجرة في الحال ، ولتمنع بيع الأراضى ، فان هذين الامرين هما أساس المشكلات ومنبع الاضطرابات ، ولتعقد مؤتمرا من رؤساء العرب والبريطانيين والأميركيين ، يتفق على الطريقة التى تضمن الراحة والطمأنينة في فلسطين ، ويزيل ما هنالك من خلاف ، حتى يحل محله السلام

– اننا نرى رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، المستر ترومان ، يعلن – وتائيره في هذا الصراع التاريخي معروف – ويطلب دخول مائة ألف يهودى الى فلسطين الضيقة ، باسم الانسانية والرحمة على حساب العرب الضعفاء ، بينما لا يقبل هو في الوقت نفسه ، في وطنه اميركا الواسعة الغنية ، الا دخول ٣٩ ألف نسمة !

– احب أن تكونوا على يقين من أنه اذا استمرت هذه السياسة ، سياسة استمرار الهجرة وبيع الاراضى ومنع العرب من حقوقهم الطبيعية التى وعدوا بالمحافظة عليها ، فان الحكومتين البريطانية والاميركية ، لا تستهدفان لنقمة العرب وحدهم فحسب ، بل انهما ستستهدفان لنقمة كل من يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله ، من عرب وعجم وهند وسند وصين ، وكل مسلم على وجه الكرة الأرضية في مشرق الارض ومغربها وشمالها وجنوبها . والصهيونيون لا يهمهم مصلحة بريطانيا ، ولا مصلحة اميركا ، ولا مصلحة العرب ، لانه لا يهمهم الا مصلحة أنفسهم . ولو قوى اليهود في هذا المكان الدقيق وصارت لهم دولة ، فمن السهل عليهم أن يكونوا في جانب أى قوة تعادى بريطانيا واميركا ، لأن الدين يقاتلون البريطانيين الذين أحسنوا اليهم وآوهم ، وقاموا فى وجوههم في أيام الحرب ، من السهل عليهم أن ينقلبوا عليهم ويتنكروا لهم في اخرج من هذه الاوقات .

وأخيرا زود الملك أعضاء اللجنة بمذكرة اضافية في الموضوع

اننى اطليل في تسجيل رأى الملك عبد العزيز في قضية فلسطين ، لأن دفاعه عنها كلما واتته الفرصة ، هذا الدفاع الصادق الحار ، مغفرة من مفاخره . ولا أذكر ملكا عربيا أو رئيسا عربيا في عصره أو بعد عصره ، بل ما بدله من حجج في سبيل قضية فلسطين ، أو جاهر برأيه مثله صريحا . عاليا ، لأصدقائه من البريطانيين والاميركيين ، محلدا اياهم من عاقبة تأييدهم لليهود الصهيونيين . وليتهم نفذوا آراءه ، ووعوا تحذيره ، اذن لما وصل الحال بهم وبنا الى هذا الموقف السوء .

لم يكتف الملك بهذا ، بل أرسل الى المستر ترومان الرئيس الجديد الجديد للولايات المتحدة الاميركية ، ونصير الصهيونية الأول ، رسالة في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، قال له فيها :

– « ان الصداقة التى تربط بلادى ببلاد الولايات المتحدة الاميركية ، والصداقة التى تأسست بينى وبين الرئيس الراحل ، الرئيس روزفلت ،

والصداقة التي تجددت بيني وبينكم ، تجعلني شديد الحرص في المحافظة على هذه الصداقة وتفديتها ، والعمل على تقويتها بجميع الوسائل الممكنة ، ولهذا تجدونني الح وأكرر في كل مناسبة أشعر فيها بما يخل بصداقة الولايات المتحدة مع بلادى ومع سائر البلاد العربية ، لكى أزيل ما يمكن أن يعرقل هذا الصفاء

« ولقد كتبت للراحل العظيم ولفخامتكم عن حقيقة الموقف في فلسطين والحق الطبيعي للعرب فيها ، وأنه يرجع الى آلاف السنين ، وأن اليهود ليسوا الا فرقة ظالمة باغية معتدية : امتدت في اول الأمر باسم الانسانية ، ثم أخذت تظهر عدوانها الصريح بالقوة والجبروت والطفيان ، مما ليس يخاف على فخامتكم ، وعلى شعب الولايات المتحدة . أضف الى هذا أطماعهم التي بيتوها ، ليس لفلسطين وحدها ، بل لسائر البلاد العربية المجاورة ، ومنها أماكن في بلادنا المقدسة ... »

« لقد دهشت للاذاعات الأخيرة التي تسبت تصريحاً لفخامتكم ، بدعوى تأييد اليهود في فلسطين وتأمين هجرتهم اليها ، بما يؤثر على الوضع الحاضر ، خلافاً للتعهدات السابقة . »

« وزاد في دهشتى أن التصريح الذى نسب أخيراً الى فخامتكم ، يتناقض مع البيان الذى طلبت مفوضية الولايات المتحدة الاميركية في جدة من وزارة خارجيتنا ، أن ينشر في جريدة « أم القرى » على أنه صادر من البيت الأبيض في ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ ، وهو صريح في أن حكومة الولايات المتحدة لم تتقيد بآية فكرة من جانبها لحل مشكلة فلسطين ، وأظهرتكم أملكم بحلها بواسطة المحادثات بين الحكومة البريطانية وبين وزراء خارجية الدول العربية ، وبين الحكومة البريطانية والفريق الثالث ، وأظهرتكم فخامتكم رغبتمكم في اتخاذ تسهيلات في الولايات المتحدة لآواء المشردين وفي جعلتهم اليهود . ولذلك كانت دهشتى عظيمة حين اطلعت على البيان الأخير الذى نسب الى فخامتكم ، مما جعلنى أشك في صحة نسبته اليكم ، لأنه يتناقض مع وعود حكومة الولايات المتحدة ، والتصريح الذى صدر في ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ من البيت الأبيض . »

« وانى لعلى يقين من أن شعب الولايات المتحدة الذى بذل دمه وماله في مقاومة العدوان الفاشم ، لا يمكن أن يسمح بهذا العدوان الصهيونى على بلد عربى صديق ، لم يقترف ذنباً غير ايمانه بمبادئ العدل والانصاف

التي قاتلت من أجلها الأمم المتحدة ، وكان من أركانها الولايات المتحدة ، وكان لفخامتكم - بعد سلفكم العظيم - الجهود العظيم في هذا السبيل .
« ورغبة منى في المحافظة على صداقة العرب والشرق مع الولايات المتحدة ، أوضحت لفخامتكم بهذا البيان ، الظلم الذي يمكن أن يحيق بالعرب اذا بدلت أى مساعدات لهذا العدوان الصهيونى .

« وانى لعلى يقين كذلك ، من أن فخامتكم ومن ورائكم شعب الولايات المتحدة ، لا يمكن أن يقبل أن يدعو للحق والعدل والانصاف ، ويحارب من أجل اقرار هذه المبادئ النبيلة في سائر انحاء الأرض ، ثم يمنع هذا الحق والعدل والانصاف عن العرب في بلادهم فلسطين التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم منذ العصور القديمة » .

وفي ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وافقت هيئة الأمم المتحدة على مشروع بتقسيم فلسطين ، فوقف رئيس وفد المملكة العربية السعودية الأمير فيصل ، على منبر الهيئة ليقول في حزم :

- « لقد أتينا الى الجمعية العامة للهيئة ، يملؤنا الأمل بأن الدول الكبرى والصغرى على السواء ، توجه قصارى جهدها لرفع المستوى الأخلاقى . لقد أتينا الى هنا ملؤنا الأمل بأن جميع الأمم ستخدم وتؤكد حقوق الانسان والعدالة ، وبأن هذه المنظمة ستكون أداة لتحقيق الأمن والسلام الدوليين . وفي الوقت نفسه كان يحدونا الأمل بأن المنظمة ستكون عبارة عن أساس قوى لتحقيق التفاهم المشترك بين جميع الشعوب .

« لقد تعهدنا أمام الله والتاريخ ، بأن ننفذ الميثاق باخلاص وبحسن نية ، وبذلك نحترم حقوق الانسان ، وندفع كل عدوان . ولكن للأسف ، فإن قرار اليوم قد هدم الميثاق وجميع الموائيق التي سبقته .

« لقد شعرنا ، كما شعر الآخرون ، بالضغط الذى جرى على عدة مندوبين في هذه المنظمة ، من قبل بعض الدول الكبرى ، ليكون تصويتهم في صالح مشروع التقسيم . ولهذه الأسباب فإن المملكة العربية السعودية تود أن تسجل في هذه المناسبة التاريخية ، بأنها لا تعتبر نفسها ملزمة بالقرار الذى تبنته الجمعية العامة اليوم ، وبأنها تحتفظ لنفسها بكامل الحق في حرية التصرف ، بالطريقة التى تراها ملائمة لمبادئ الحق والعدالة .

« ان حكومتى تلقى كامل المسؤولية على الأطراف التى عاقت كل وسائل التفاهم والتعاون » .

ثم صرح سموه يومذاك أيضا للصحافيين ، وهو غاضب ، قائلا :
- « هناك أمر واحد لا سبيل الى فهمه أو تسويفه ، ذلك هو تدخل
حكومة الولايات المتحدة في مسألة فلسطين وتأييدها الصهيونيين . كما أنه
لا يمكن فهم الصمت الذي تلوذ به ازاء اعتداء الصهيونيين وأساليبهم
الارهابية .

« فاذا كانت البواعث الانسانية هي التي تدفع الولايات المتحدة الى
هذه السياسة ، فلم لا تفتح ابوابها للاجئين البؤساء ، وهي أغنى وأوسع
وحبايا من فلسطين ، التي اكتظت وابتليت بأولئك المعتدين الغريباء ؟

« وماذا سيكون موقف الولايات المتحدة وشعبها ، اذا جاء برلمان
أحسدى الدول الأجنبية ، وأقر قانونا بفتح الأبواب - أبواب الولايات
المتحدة - أمام هجرة اليهود ، لاجئين وغير لاجئين ، لا لشيء ، الا لأن
الولايات المتحدة ، رغبة ، في امكانها استيعاب الملايين ؟

« الا تنهض الحكومة الاميركية والشعب الأميركي في هذه الحالة ،
وينددان بمثل هذا التدخل ؟

« وما خطب ميثاق الاطلنطي وميثاق هيئة الأمم المتحدة ؟ ان المداد
الذي كتبت به موادهما لم يجف بعد ...

« اننا نرى مندوب الولايات المتحدة يحاول اثاره العالم كله من أجل
المسألة اليونانية (1) ، فما ظنه بفلسطين ؟ هل نسى مبادئ الميثاق أم أنه
ينكرها ؟

(1) عندما ضمت إيطاليا البانيا اليها في نهاية سنة ١٩٣٩ عقب نشوب الحرب العالمية
الثانية ، أعلنت بريطانيا ضمانها لاستقلال اليونان ، وصدت اليونان الحملة التي شنتها
عليها إيطاليا من الأراضي الابالانية ، لكنها لم تستطع مقاومة الغزو الالمانى في أوائل سنة
١٩٤١ الذي انتهى في أواخر مايو من السنة نفسها الى احتلال الالمان جميع الأراضي
اليونانية وكذلك جزيرة كريت ، وهرب ملك اليونان الى مصر فأقام فيها لاجئا . وفي
أواخر سنة ١٩٤٤ انسحبت الجيوش الالمانية من الأراضي اليونانية وحلت محلها الجيوش
الانجليزية ، وأقامت إنجلترا مجلس وصاية على العرش برئاسة رئيس الكنيسة .

وفي ديسمبر ١٩٤٤ وفي يناير ١٩٤٥ قامت اضطرابات شيوعية في اليونان . وفي ابريل
١٩٤٦ جرت فيها انتخابات حرة ، بسلامة استقرار الحالة فيها نوعا ما ، أسفرت عن
امادة الملك جورج الثانى الى عرشه ، لكنه توفى بعد الشهر في عام ١٩٤٧ وخلفه أخوه
الملك بول الاول . الا أن حرب العصابات والاضطرابات الشيوعية اشتعلت مرة أخرى
في البلاد واتسع نطاقها ، مما دفع الولايات المتحدة الاميركية الى امداد الحكومة اليونانية
بالاسلحة ، وبالعتاد الحربى ، للتغلب على هذه العصابات الشيوعية ، وقد أمكن
التغلب عليها فعلا في النهاية بعد قتال مرير .

« انى لأعجب لشعب يمنح الهجرة الى بلده ، ولكنه يفرضها على بلد غيره » .

وأمر الملك عبد العزيز وفده فى هذه الهيئة العالمية السلبية ، بمغادرة نيويورك حالا ، والسفر الى القاهرة للاشتراك فى اجتماع طارىء لمجلس الجامعة العربية . ثم دعا وزير أميركا المفوض فى جدة ، الى مقابلته فى الرياض ، وأعرب له عن استيائه من موقف بلاده . ثم استصدر فتوى شرعية فى ٢٧ محرم سنة ١٣٦٧ من علماء مملكته وقضاها ، بوجود الجهاد على المسلمين جميعا ، ضد اليهود المعتدين على فلسطين . فما أن نشرت الفتوى ، حتى هب الشعب فى المملكة نائرا لفلسطين ، وقصد نوابه - أعضاء مجلس الشورى - الى القصر الملكى فى جدة ، وقابلوا ولى العهد الأمير سعود ، وعرضوا عليه استعداد الأمة لبلد النفس والنفس فى سبيل فلسطين ، تحت لواء المملكة العربية السعودية . . فقال لهم :

- « اننا مهتمون بقضية فلسطين أكثر من كل احد ، ونحن جادون فى انقاذها ، وقد تعودنا العمل فى صمت ، وأن تكون أعمالنا أكثر من أقوالنا ، كما تشهد بذلك سيرتنا ، متأسين فى هذه الخطة بالسلف الصالح . وأؤكد لكم اننا لا نود أن نكلف أحدا من سكان هذه البلاد المقدسة بشئ ، واننا مستعدون لانقاذ فلسطين بأموالنا وأرواحنا ، متكلين على الله الذى نستمد العون منه وحده » .

وألف مجلس الشورى لجانا لجمع التبرعات من الشعب لصالح عرب فلسطين ، فجمع فى اليوم الأول ١٠٤١.٣٩١ ريبالا سعوديا ، عدا حلى النساء التى تبرعن بها ، والسيارات والمؤن التى قدمها أصحابها ، وأرسلت الدفعة الأولى من هذه التبرعات فى أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٧ ، وقدرها مائة ألف جنيه ومليون ليرة سورية ، الى الجامعة العربية ، لتتولى ارسالها الى عرب فلسطين . وأرسلت دفعة مماثلة فى الشهر التالى .

وسافر كثير من شباب المملكة على نفقتهم الخاصة الى فلسطين ، للانضمام الى أهلها فى الدفاع عن وطنهم ، فألفوا نحو ثمانين فى المائة من « فرقة اليرموك » ، أهم فرق المقاومة فى تلك السنة .

فلما قرر العرب أن يدخلوا بجيوشهم فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، كان جيش الملك عبد العزيز فى مقدمتها ، وأرسل جلالته الى الملك فاروق ملك مصر ، كتابا قال له فيه :

« حضرة صاحب الجلالة الاخ الملك فاروقاً حفظه الله .

« فى الوقت الذى تتقدم فيه جيوش جلالتكم و جيوش الدول العربية لانقاذ فلسطين ، أضرع الى الله أن يؤيد هذه الجيوش بنصر من عنده ، وأن يثبت أقدام المجاهدين فى سبيله . وانى اذ أحمد الله الذى ألف بين قلوبنا للجهاد فى سبيله ، أحمدته تعالى على ما وفق اليه جيش مصر الظافر باذن الله ، سائلين الله أن يتابع نصره الذى وعد به عباده المؤمنين .

« وانه يسرنى - كما اعتقد انه يسر جلالتكم - أن يكون سير الجيش السعودى ، فى الجهة التى يسير فيها الجيش المصرى . والله يعلم أننا جميعا لم نكن باغين ولا معتدين ، ولكننا نسير لدفع العدوان ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » .

« حفظكم الله وأبقاكم » .

وكما كان عبد العزيز مجاهدا فى سبيل فلسطين ، حبا لها واعزازاً لأرضها ، واجلالاً للمسجد الاقصى المتشرفة به على أرضها ، وتقديراً منه لشعبها ، كان محباً لمصر وأهلها ، حريصاً على حسن العلاقات بينه وبين ملكها ، وبين شعبه وشعبها ، مع أن الملك فؤاد لم يعترف به ملكاً على الحجاز ، الى أن استأثرت به رحمة الله فى ٢٨ ابريل من عام ١٩٣٦ . وقد ارسل الى فؤاد عدة رسائل فى ظروف شتى ، فلم يجب على واحدة منها ، كما قال الشيخ حافظ وهبه فى كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب » وفى الصفحة ١٤٦ منه .

ومما زاد فى سوء العلاقة بين عبد العزيز وفؤاد ، حادث المحمل المصرى الذى حدث فى ذى الحجة من عام ١٣٤٤ . فقد وصل ركب المحمل الى جدة ومنها الى مكة ، فاستقر فى مكانه ، وزاره الملك مع أبنائه وحاشيته مرحباً . وفى الثامن من ذى الحجة سار المحمل من مكة الى منى فى طريقه الى عرفات . وفى منى كان « الاخوان » من اهل نجد يملأون الوادى بخيلهم ، فظنوا أن المحمل صنم يعبده المصريون ، ثم فوجئوا بالبوق ينفخ فيه بعض رجال المحمل لدموة الجنود الى التجمع للمسير ، فقال « الاخوان » عن صوت اليوق انه صوت الشيطان ، فأخذوا يرحمون المحمل ورجاله بالحجارة وهم يهللون ويكبرون ، فلم يسع امير الحج المصرى اللواء محمود عزمى باشا رحمه الله ، الا أن يأمر جنوده باطلاق المدافع عليهم . وانهال الرصاص فى الوادى ، فأرسل الملك نجله الامير

فيصل ليهدىء « الاخوان » فلم يستطع ، وتفاقم الخطب ، فسار اليهم عبد العزيز غير مبال بالرصاص يسقط يمينا وشمالا في الليل البهيم ، معرضا حياته للخطر ، فناشد « الاخوان » قائلا لهم : « اذكركم الله في هذا الموقف . اذكركم دينكم . اذكركم حميتكم الاسلامية وشيتمكم العربية . ان حجاج بيت الله ضيوفنا ، وهم في وجوهنا ، فلا تمدوا اليهم يدا بأذى . اننى ساقف أمام ركب هذا المحمل ، وأعلموا اننى لا أرضى أن تمتد اليه يد بسوء ، وفي عنقى دم يجرى » .

وهذا « الاخوان » بعد أن قتل من رجالهم خمسة وعشرون ، وفقدوا اربعين بعيرا . ولم يصب من المصريين سوى جنديين ، أحدهما أصيب بحجر في أنفه ، والثاني برصاصة في سراه .

وسار المحمل الى عرفات ، ومنها عاد الى منى فالى مكة ، ثم الى جدة ، في طريق عودته الى مصر .

من ذلك اليوم منح الملك فؤاد ارسال المحمل وكسوة الكعبة والصدقات التى كانت تغلها أوقاف الحرمين الشريفين ، وظل هذا المنع نحو عشر سنوات ، حتى حلت سنة ١٩٣٦ ، وفيها توفى الملك فؤاد كما ذكرت ، وتولت الحكم « وزارة الشعب » برياسة مصطفى النحاس باشا ، طيب الله ثراه ، فسعى في تحسين العلاقات بين البلدين ، فأرسل في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٦ (٤ رمضان سنة ١٣٥٥) ، عدة كتب الى فؤاد حمزه بك وكيل الخارجية السعودية ، قال في أولها ان الحكومة المصرية اعترفت ارسال الكسوة الخاصة بالكعبة المشرفة من الموسم القادم للحج ، « وسيقوم المحمل المرافق لهذه الكسوة من القاهرة في الوقت الذى كان معتادا أن يقوم فيه ، وعند وصولهما الى جدة ، يستقر المحمل فيها ، وتتوجه الكسوة الى مكة حيث توضع على الكعبة بالاحتفال اللائق بكرامة المكان ، وبمقام الجالس على عرش الحجاز . وسيطرز على الكسوة إشارة الى أنها أهديت الى الكعبة المشرفة ، في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل السعود ، ملك المملكة العربية السعودية » .

وقال في ثانيها : « ان حكومة مصر تعترم اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة صرف الصدقات لفقرء الحجاز ، ولاستئناف صرف فلة أوقاف الحرمين الشريفين في الأراضى المقدسة ، وذلك ابتداء من موسم الحج القادم . وستعين الحكومة المصرية من يتولى الاشراف على صرف الصدقات التى ترسلها ، وهى تعترم أن تنفق من الأموال التى كانت تخصصها للصدقات ،

ومن فاضل فلة الأوقاف المذكورة ، في حدود القواعد الشرعية لعمارة الحرمين الشريفين واصلاح المرافق المتصلة بهما ، وستبلغ الحكومة المصرية الحكومة السعودية ، ما تضعه من البرامج لأعمال العمارة والاصلاح في حينه ، تمهيدا لاتفاق الحكومتين على التصميمات الخاصة بتلك الأعمال .

وكذلك عادت المياه الى مجاريها بين الدولتين ، « واسترجعت مصر ما كان لها من شرف كسوة البيت الحرام الذي تنبسطها عليه جميع دول الاسلام ، واستطاعت أن تساهم في خدمة البلد الأمين ، بتعليم جمهرة من أبنائه مختلف العلوم والمعارف ، وبما قامت به من مساعدة المملكة العربية السعودية في مختلف النواحي ، وصرف ما لديها من أوقاف الحرمين في أنفع طرقها » (١) .

وقيل يوم ٨ أكتوبر من عام ١٩٤٤ - وفيه اتفقت الدول العربية المستقلة على انشاء « جامعة الدول العربية » وأصدروا « بروتوكول الاسكندرية » حيث اجتمع مندوبوها متضمنا هذا الاتفاق - بدأ التردد على عبد العزيز في الانضمام الى هذه الجامعة ، فسافر اليه عبد الرحمن عزام بك - السفير بوزارة الخارجية يومذاك - مستغلا تقدير الملك العربي له واعزازه ، فأقنعه بالانضمام ، ورأى الفرصة سانحة ليدبر لقاء بين الملكين : عبد العزيز وفاروق ، لتوثيق العلاقة بين بلديهما .

وقد تم هذا اللقاء فعلا في سفح جبل « رضوى » . ولنذع جريدة « أم القرى » الناطقة باسم الحكومة السعودية ، تصف هذا اللقاء ، فقالت تحت عنوان : « اجتماع رضوى التاريخي » :

- « سجل التاريخ حادثنا من أروع حوادثه ، وذكرى من أجمل ذكرياته . ففي الساعة الخامسة - حسب التوقيت العربي - من صباح الأربعاء ١٠ صفر سنة ١٣٦٤ هـ (٢٤ يناير سنة ١٩٤٥ م) ، التقى الملكان الاخوان : حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق ، وحضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، على صعيد الأرض المقدسة ، وعلى مرأى من جبل رضوى الشامخ ، فتعانقا ، وكان ذلك رمزا لما بينهما من محبة ، وما بين شعبيهما من اخاء . وانه لتحقيق بالمسلمين جميعا أن يفتبطوا بلقاء ملكين عظيمين من ملوكهم في الأرض المقدسة ، كما أن العرب في المشرق والمغرب ، سيستقبلون بهذا اللقاء عهدا من التعاون والاتحاد والعزة .

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الاول - ص ٢٥٦ .

« لقد تجلت الاخوة الاسلامية والرابطة العربية بأجلى مظاهرها في الاجتماعات المتبادلة ، وفي الأحاديث الودية المتعددة بين صاحبي الجلالة الملكين العظيمين في المخيم الملكي في سفوح رضوى . وقد ترك حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المخيم الملكي بعد ظهر يوم الخميس ، قاصدا المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي وأداء فريضة الجمعة في حرمة المبارك » .

وعاد فاروق من المدينة المنورة ، ووجه الدعوة الى عبد العزيز لزيارة مصر ، فقبلها ، على أن يحدد موعدها فيما بعد ، وركب يخته الملكي « فخر البحار » تحرسه الطوافة « فوزية » في طريقه الى السويس ، بعد أن أهدى الى عبد العزيز قلادة محمد على الكبير ، وتلقى من جلالته سيفا وخنجرا مرصعين بالجواهر والحجارة الكريمة ، وتبادلا علمي بلديهما ، ومزا للصدقة المتينة التي تربط بين الأسترين المالكيتين ، وبين الشعبين الشقيقين ، برباط الود الوثيق .

لكن قدر للملك عبد العزيز أن يزور مصر بعد هذا اللقاء بقليل ، إذ سافر اليها ليلقى روزفلت وتشرشل كما سبق القول ، وزاره فاروق في فندق « أوبرج الفيوم » مكررا دعوته الى زيارة مصر زيارة رسمية .

وقد ذاع يومئذ في المحافل السياسية في القاهرة ، ان اجتماع « رضوى » كان تمهيدا قام به فاروق لاجتماع الزعيمين الغربيين بالملك العربي الخطير .

ولعله من حق التاريخ على أن أذيع سرا أفضى الى به يومذاك الأستاذ كريم ثابت - وقد كان زميلي في جريدة « المقطم » لعدة سنوات ، مندوبا لها في الدوائر الرسمية العليا ، مصرية وغير مصرية ، قبل أن يختاره الملك مستشارا صحافيا له في مايو سنة ١٩٤٦ ، وقبل أن ينعم عليه برتبة الباشوية ، وقد صحب الملك في رحلته الى « رضوى » - فقال ان الملك عبد العزيز اقترح على الملك فاروق ، أن تقوم وحدة بين الدولتين ، على أن تكون الولاية من بعده في السعودية لأولاده بهذا الترتيب : سعود ثم فيصل ثم خالد ثم محمد . فوعده فاروق ببحث الاقتراح ، ثم طواه الزمان .

لقد حان اوان تلبية عبد العزيز دعوة أخيه فاروقا ، فاختر لها شهر يناير من عام ١٩٤٦ ، أي بعد نحو عام من لقاء « رضوى » .
ففي عصر يوم الاثنين السابع من هذا الشهر ، غادر الملك عبد العزيز نسر جدة ، ميمما وجهه شطر مصر ، باليخت الملكي المصري « المحروسة » ،

تحرسه الطوافتان « فاروق » و « فوزية » ، ومعها تسعة عشر من أنجاله
الأمراء ورجال حاشيته ، وبعثة شرف مصرية برئاسة مراد محسن باشا
ناظر الخاصة الملكية ، ظلت في معيته حتى انتهاء الزيارة بعد أسبوعين .

وقبل ظهر الخميس العاشر من يناير ، وصل اليخت الى ميناء بون
توفيق ، حيث جرى الاستقبال العظيم للضيف العربي العظيم .

لقد كنت واحدا من خمسة من الصحفيين ، دعاهم القصر الملكي
ليسعدوا بالاشتراك في هذا الاستقبال ، وبصحبة الضيف الكبير في القطار
الملكى من السويس الى القاهرة ، وكنا جميعا بالملابس الرسمية
« الرندجوت » - كما كان جميع المستقبلين - وكتبت يومئذ وصفا في جريدة
الكتلة الوفدية « التى كان يصدرها الرحوم مكرم عبيد باشا ، وكتبه
مشرفا على تحريرها ، قلت فيه ، وقد نشر في صباح يوم ١١ يناير :

- « سعدت مصر أمس بوصول ضيفها في رعاية الله ، فاستقبلته
استقبالا دل على ما تكنه من حب له وتقدير ، وتبارى ابتاؤها الكرام في
الترحيب بالعاهل العربى مباراة كريمة ، فكل انسان أراد ان يعرب للضيف
الخطير عما تنطوى عليه جوانحه من اعزاز له وتكريم ، بل ود كل منهم
لو استأثر بهذا الشرف ، فلم يسمع الضيف سوى الهتاف بحياته الغالية
المفداة .

» لقد كان استقبال مصر ومليكتها أمس للملك العربى عبد العزيز ، آية
جديدة ناطقة بقوة الجامعة العربية ، وبرهاننا منيرا على ما يسود البلاد
العربية جميعا من وثام واخاء ، وود وولاء .

» فمن لم يشهد هذا الاستقبال الرائع العظيم الجليل ، فقد فاتته
شئ كثير في حياته . وهل في مصر من لم يشهده ؟ لقد حرص كبارؤها
وسادتها وشيوخها وشبابها ونساؤها ورجالها ، وعمالها وطلبتها ، وكل
طبقة فيها ، على ان يشهدوا هذا اليوم الخالد .

» ان الواصف ليحтар كيف يبدأ وصفه . . . ابدها من عرض البحر
وقد خرج اهل السويس في الزوارق لتحية الضيف الراض في اليخت على
بعد ساعة من الميناء ؟ أم يبدها من السويس وقد أقفرت دورها وعماراتها ،
وازدحم بساكنيها طريق القطار الملكى ، حتى لم تصبح العين ترى غير كتل
بشرية متراسة ، وجسوم تندافع وتتراحم ، واكف تصفق حتى يكاد الدم
يتفجر منها ، وحناجر ارتفعت منها الأصوات بالدعاء الى الله أن يحفظ
الضيف والمضيف ، وأن يرعى الشرق وأهله برعايته ، في ظل هذين
الفرقدين النيرين .

« أم يبدأ الواصف وصفه من القاهرة عاصمة مصر ، حيث اجتمع
بقيها أهلها لاستقبال ضيفها ؟

« لم اعتد المبالغة ، بل انى لانفر من المبالغة ، ولكن ما رأيته أمس من
السويس الى عابدين ، يزيد على المبالغة ، لانه كان فوق ما كان منتظرا .

« لقد استقبلت مصر قبل اليوم ملوكا كثيرين شهدنا الحفاوة بهم ،
والترحيب بمقدمهم . . . فرأينا قدوم ملك الأفغان (امان الله خان) وملك
الطالبان (فيكتور عمانوئيل) ، وغيرهما ، فلم نر يومذاك عشر ما رأيناه
أمسى ، ولعل السبب هو الايمان أولا بتضافر الجامعة العربية ، ففيه قوة
لها ولشعوب أعضائها ، والاعتزاز ثانيا بملك غيور مخلص للعرب وللعروبة .
هو أسد الجزيرة وصقر العرب ، عبد العزيز آل سعود .

« ولقد عرفنا من أسرارير الضيف العزيز ، مبلغ تأثيره من استقبال
مصر له ، حتى لقد رأيت والله الدموع تترقرق في عينيه ثلاث مرات :

« الأولى : عندما عانق اخاه الفاروق على اليخت « المحروسة » .

« الثانية : عندما شهد استقبال الزقازيق له استقبالا فائق الحد
والتصور .

« الثالثة : عندما توسطت به المركبة الملكية ميدان محطة القاهرة ،
أذ حجبت جسوم الناس مباني الميدان ومعالمه

« ووددت والله لو كان لى شرف المثول بين يديه لافضى الى مسمعه :

« أيها العاهل العظيم والضيف الكريم :

« ان أبناء هذا الوادى يحبون من يحبه ملكهم ، وان الملك فاروق
يحبك ، فوجب علينا حبك والولاء لك .

« وان أبناء هذا الوادى الأمين ، يحبون كل عربى مخلص للعرب
ولقضيتهم ، وهم ، يا طويل العمر ، يعرفون عنك وراوا منك ، الاخلاص
للعرب ولقضيتهم فى شتى المناسبات ، فما بالكم اذا كان هذا العربى صقر
الحجاز ، وهابطا علينا عزيزا كريما ، من مهبط الوحي الأمين ؟

« يا صاحب المدينة المنورة ، ويا ساكن مكة المكرمة :

« ان المصريين ليتفساءلون خيرا بزيارتك ، ففى عطفك نعمة من الرسول ، وعبق من روضته الشريفة ، عليه الف صلاة وسلام » (١) .

انما أردت فقط أن أسجل « عينة » من وصف روعة استقبال الملك في الصحافة في ذلك اليوم . . . لقد استغرق هذا الوصف صفحة ونصف صفحة من الجريدة التي كنت أمثلها .

ووصل الملك ، وعانقه فاروق ، وصحبه في القطار الملكى الى القاهرة ، ومن محطاتها الى قصر عابدين ، ثم الى قصر الزعفران - تشغله الآن ادارة جامعة عين شمس - حيث نزل جلاله الضيف على الرحب والسعة ، عزيزا كريما ، مع ابنائه الأمراء ، أما رجال الحاشية فقد نزلوا في فندق الكوننتنتال .

لقد ظل الملك في ضيافة فاروق ثلاثة عشر يوما ، زار فيها بعض المدن والمنتشات الهامة ، واجتمع في اثنائها الملكان اجتماعات « مفلقة » - على حد تعبير صحافة اليوم - تحدثا فيها عن وجوب دعم الجامعة العربية ، وعن مستقبل الشعوب العربية ، وضرورة تضافرها وتأزرها لتقوى وتنهض ، وعمما يجب عمله لنصرة عرب فلسطين .

في اليوم التالى ، صلى الملك الجمعة في الجامع الأزهر ، فالقى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا شيخ الأزهر رحمه الله - وكان اماما للمصلين - حديثا دينيا في حضرتهما بدأه بقوله :

- « منذ خمسمائة عام ،لقى العلامة المشهور جلال الدين السيوطى ، أول درس دينى له ، بحضور قاضى القضاة والأفاضل في عهده . وقد عثرت على موضوع هذا الدرس في دار الكتب الأزهرية ، في مجموعة من خط السيوطى نفسه ، وهو تفسير أول آية من سورة الفتح « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليفقر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وليتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » . قرأته

(١) مرة أخرى سعدت بالقرب من الملك عبد العزيز ، كانت في صيف سنة ١٩٥٣ ، إذ كنت عضوا في بعثة الحج التي كانت برياسة السيد اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية المصرية ، فقد زونا الملك في الطائف حيث كان يقيم في قصر الأمير فيصل ، وجماعة الى العشاء على مائدة ، وكان الملك في أيامه الأخيرة ، وقد وقف ابنائه الأمراء حوله ، وهو متصدر المائدة مع ضيفه اللواء نجيب ، فاذا أحرب عن رغبته في شيء ، ساقبوا الى طليعتها مسرورين مبتهجين . . كان هذا في أغسطس من ذلك العام ، ويعلمنا بنحو ثلاثة أشهر ، اختاره الله الى جواره الكريم ، في شهر نوفمبر

من المناسب لهذه الفرصة السعيدة التي جمعت بين ملكين عظيمين صالحين من ملوك الاسلام ، في هذا المسجد ، أن أحيى اثرا من آثار عالم أزهري جليل ، له في خدمة الاسلام والعلم أحسن الاثر . ومن حسن الطالع ان هذا الدرس يتناول تفسير هذه الآية الكريمة ، التي وعد الله نبيه عليه السلام فتحا مبينا ونصرا عزيزا . وفي بعض الأحاديث ان النبي عليه الصلاة والسلام ، لما أنزلت عليه هذه الآية ، قال : لقد أنزلت على آية هي أحب الى من الدنيا وما فيها .

وفي اليوم التالي زار الضيف ومضيفه جامعة فؤاد الاول (القاهرة فيما بعد) ، فرحب بهما ترحيبا جميلا ، محمود فهمى النقراشي باشا رئيس الوزراء ووزير المعارف بالنيابة ، رحمه الله ، وفخر مصر المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة مدير الجامعة بالنيابة . وقدمت الى الملكين مدييات تذكارية ، ومطبوعات وبحوث جامعة .

ثم زار الضيف ميدان سباق الخيل ، ثم شهد عرضا للجيش المصرى أقيم في ساحة واسعة بسكة السويس - القاهرة . ولبنى دعوة الى الغداء من السفير البريطانى ، وزار منطقة الأهرام ، والتناظر الخيرية . وفي غده لبنى دعوة وزير الخارجية الى الغداء ، وبعد انتهائه عرض عليه فيلم سينمائى عن رحلته وزياراته في القاهرة ، وكان هذا أول فيلم سينمائى يراه الملك السعودى في حياته .

وفي اليوم السادس من زيارته ، زار دار البرلمان المصرى ، فألقى بين يديه المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ ، كلمة قال فيها :

« لا غرو أن تنبض قلوبنا ، وتهتز جوانحنا بهذا الشعور الفياض ، اكبارا واجلالا اضيف مصر العظيم ، وضيف ملكها المحبوب . وان هذا الشعور لتمليه عاطفة صادقة ، وتقدير سام ، لمجيد فعالكم وعظيم حكمتكم . ويمليه كذلك عرفان بالجميل لفضلكم وكرمكم واکرامكم . فقد يسر الله لكثيرين من أعضاء برلماننا ان يؤدوا فرض الله بحج بيته ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكان لهم من جميل رعايتكم باكرام وفادتهم ، وبما أحاطتهم به حكومتكم من أسباب العناية والطمأنينة والأمن ، ما ألهج السنتهم بشكركم ثناء عليكم . ثم انهم رأوا في أرجاء الحجاز كله من مظاهر التقدم والعمران ، ما جعلهم يحمدون الله على ما أفاءه على بيته الحرام ، وعلى الأرض الاسلامية المقدسة من فضل ، بسامى حكمتكم وحسن توجهكم . أما ولكم هذا الدين في أعناقنا وأعناق المسلمين جميعا ، فلن يؤدى ما نفيض

به قلوبنا حفاوة بكم واجلالا لكم ، الا بعض حقكم على كل مسلم ، اينما وجد
من بقاع الأرض »

وفي اليوم التالي زار مقر الجامعة العربية - وكانت حديثة النشأة -
في قصر المناسترلى بالروضة على شاطئ النيل ، حيث اقام عبد الرحمن
عزام باشا أمين الجامعة مادبة غداء للملكين ، دعى اليها الأمراء والنبلاء
والوزراء وزجال السلك الدبلوماسي . وقد نضدت في قاعتها الكبرى سبع
موائد للمدعوين ، رمزا للدول السبع التي قامت عليها الجامعة ، في صدر
كل مائدة منها ممثل لاحدى هذه الدول .

فاذا رفعت الموائد ، وحان موعد صلاة العصر ، نهض الملك العربي
العظيم ، وأذن للصلاة بنفسه ، ثم ام المصلين . فلما قضيت الصلاة ، انتقل
مع فاروق والمدعوين الى ساحة القصر ، فشهدوا عرضا من فرسان العرب ،
بجيادهم وطبولهم .

ثملقى عزام باشا بين يدي الملكين كلمة قال فيها :

- « ان من الفال الحسن والبشرى السعيدة ، ان يكون اختفـال
الجامعة بكما في هذا المكان التاريخي . فهنا بجانب هذه الدار ، مقياس
النيل ، وهو من أقدم آثار العرب في هذه البلاد ، اذ يرجع تاريخه الى
القرن الثاني الهجري . وقد بقى هذا المقياس دليلا على عدلهم وحرصهم
على أن تقوم أمور الدولة على شريعة بينة وميزان مستقيم ، فاعترف لهم
المؤرخون بأنهم كانوا من اسبق الأمم الى تحكيم القانون ، وتقديس الشرائع
والعدل

» وعلى مرأى من دار الجامعة نحو الشرق ، مدينة الفسطاط ، أول
حاضرة للعرب في مصر ، وفيها جامع الفتح ، الجامع العتيق الذي بناه
عمرو بن العاص ، فبقى عصورا كثيرة معهدا من معاهد العرب العلمية

» يا صاحبي الجلالة : ستبقى ذكرى هذا الاجتماع ماثلة في نفوس
العرب ، مؤثرة في تاريخهم ، ويبقى « شارع الملك عبد العزيز آل سعود »
في هذه الجزيرة ، يحمل اسمه الكريم ، مذكرا بزيارته المباركة للجامعة
العربية ، تلك الزيارة التي جاءت اثر زيارة ملك مصر العظيم للمملكة العربية
السعودية ، والتي سن بها الفاروق سنة حسنة ، تتوالى بها ان شاء الله ،
زيارات ملوك العرب ورؤسائهم لبعضهم بعضا ، ولدار الجامعة .

» ان العرب مقاصد جليلة كريمة ، يريدونها لخيرهم ولخير الناس
جميعا . يريدون الحرية والسلم والتعاون ، حتى يدركوا الغاية العظيمة

التي تليق بهم . وان زعامتكم لمن أقوى الاسباب الى النجاح وادراك
« الفاية »

وفي الطريق الى السيارة ، قال الملك الضيف لعزام باشا :

- « ان مصير هذه الجامعة ، موكل الى ارادة العرب اجمعين ،
واستقرارها مقيد باستقرار الايمان بها في خواطر الأمم التي تتألف منها .
فاذا علمت هذه الأمم انها نافعة لها صالحة لهدايتها ، فهي مستمرة مستقرة ،
وهي بفضل هذا الايمان تقاوم ما يعترضها من عقبات وحوائل »

وفي نهاية الزيارة لدار الجامعة ، القى النقراشي باشا رئيس الوزراء
على المدعوين بيان الملكين عن هذه الزيارة ، وقد جاء به :

- « ان من دواعي سرورنا العظيم ، ان يكون اجتماعنا في هذا المكان
التاريخي ، وفي اندام الجديدة لجامعة الدول العربية ، تلك الجامعة التي
كان من حظنا وحظ اخواننا ملوك العرب وامرائهم ورؤسائهم ، ان يضعوا
اسمها ، وان يرعوها ويقوموها على دعائم من التعاون والتكافل لخير العرب
ولخير البشرية كافة ، ويستجيبوا بذلك لرغبات الشعوب العربية وآمالها
« نحن نرغب في ان تضرب جامعتنا دائما للناس جميعا ، المثل في تعاون
صادق بين جماعة من الدول ، متضافرة على سلامتها المشتركة ، ومتكافلة
في صون حريتها واستقلالها . ونحن واثقون ان جامعتنا وهي تؤدي هذه
الرسالة بين العرب ، لا تريد علوا واستكبارا على أمة أخرى . بل نرى ان
من أسمى مقاصدنا ومقاصدها ، التعاون مع أمم الأرض كلها ، على البس
والحق والعدل والسلم الدائم . ونحن كذلك نشق بأن جامعتنا التي تربأ
بنفسها عن كل تفكير في العدوان على غيرها ، تحرص كل الحرص على أن
تدافع عن الحق والعدل والحريية .

« ولم يكن المجهود العظيم الذي يبذله ملوك العرب وامرائهم
ورؤسائهم وحكوماتهم وشعوبهم لنصرة عرب فلسطين ، الا تحقيقا لمبادئ
الحق والعدل .

ونحن نشارك المسلمين والعرب جميعا في ايمانهم بأن فلسطين بلاد
عربية ، وان من حق أهلها وحق المسلمين والعرب معهم ، أن تبقى عربية
كما كانت دائما

« واننا لنقدر كل التقدير ، ما يرمى اليه ميثاق الجامعة العربية ، من
أن يكون لكل قطر عربي حقه الواضح في تقرير مصيره ، والتمتع بحريته
الكاملة

« ويسعدنا أن تسير الأقطار العربية بخطى ثابتة نحو الوحدة ، وتضع من النظم ما يزيد في التقارب بينها واحكام صلاتها ، ويؤدي الى تبادل المنافع والخيرات ، لتسعد جميع طبقات الأمة العربية بعيش أرغد ، وتنعم بالثمرات الكثيرة التي وهبها الله سبحانه أرضهم وبلادهم . ونحن واثقون بكل الثقة من أن الشعوب العربية التي تتمثل آمالها في جامعة الدول العربية ، لا تريد الا الملسه والحق والاخاء ، وانها ستتهدى بسيرة اسلافها ، فتحقق المثل العليا التي يوحياها اليها تاريخ العرب ونهضتهم العظيمة ، ودعوتهم للمساواة العامة بين الشعوب والطوائف والأفراد ، فتتعاون جامعتنا مع المؤسسات الدولية التي تقيمها الأمم المتحدة ، لتحقيق حرية البشر والعدل والاخاء ، فتكفل للحضارة الانسانية سيرا موفقا في ظلال سلم دائم »

ثم زار الملك عبد العزيز مزارع الملك فاروق في انشاص بالشرقية ، وبعدها زار الاسكندرية ، وعاد الى القاهرة ، فاستقبل في قصر الزعفران لفيفا من كبار الصحافيين ، فقال لهم :

« لقد وددت لو طالت اقامتي في مصر ، فلقد أحببتها ، وأحبيت اهلها حبا جما ، لا يعادله الا حبي لجلالة أخى الفاروق .

« أن الاكرام الذي أكرمني به أخى الملك فاروق وشعبه الكريم ، لا أنساه مدى الحياة ، ولن ينساه آل سعود ، مهما تماقت الاجيال والسنون

« وفي الحق أنه ما من شيء يستطيع الانسان ان يعمل على ظهر الأرض ، ترحيبا وحفاوة وتكريما ، الا وقد عمل لى في مصر ، التي لقيت فيها أخا عزيزا ، وملكا كريما محبوبا ، وتردد صدى حب شعبه له ، فيما شهدناه من حفاوته البالغة بنا .

« لقد كنا نسمع عن مصر كثيرا ، ولكن الذى رأيناه فيها ، فاق كل ما كنا نتصوره عنها . رأينا نهضة ورقيا وتقدما في جميع نواحي الحياة ، ورأينا شعبا متقدما في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، فهو قدوة العرب وموضع آمالهم

« وان اجتماع هذه الأمة العربية من أقطارها المختلفة مع مصر ، هو علامة باذن الله على التوفيق ، وعلى بلوغ آمالها ، ووصولها الى المكان اللائق بها

« ووصيتى الى العرب ، أن يلتفتوا حول جامعتهم العربية ، وان يحلوا مشاكلهم فيما بينهم ، وان يستعينوا بها على نشر العرفان والرقى ، فيمما يعود بالخير على جميع الأمم العربية والاسلامية »

وختم جلالته حديثه اليهم بقوله :

« اننى اعود الى وطنى ، مفعم القلب باكرم الذكريات واحبها الى نفسى ، من اخى فاروق وشعبه وبلاده ، بل شعبى وبلادى . فما مصر والمملكة العربية السعودية غير بلد واحد وشعب واحد ، ان بعدت بينهم الشقة ، فقد جمعت بينهم اواصر الاخوة والمحبة والمودة ، تلك الاواصر الوثيقة التى لن تنفصم على الأيام ، عراها ، والتى تبقى خالدة تالدة ، بعون الله ، وبفضل فاروق الموفق ، المرموق بعناية الله »

ثم اهدى الى كل منا صورته موقعا عليها باسمه الكريم ، بعد عبارة « من الواثق بالودود عبد العزيز السعود »

وما زلت محتفظا بهذه الصورة الكريمة ، معتزا بها فخورا .

وكذلك مضت هذه الزيارة ، والضيف العظيم مأخوذ بما أحيط به من تكريم وحفاوة . وغادر السويس بعد ظهر يوم ٢٢ يناير ، مودعا من فاروق ومن شعبه ، ومن أمراء مصر وكبرائها وعلماؤها ، كما استقبل ، بل بأروع وافخم . ورافقته بعثة الشرف المصرية الى جدة ، بعد ما اهدى هدايا نفيسة الى كبار المسؤولين والعاملين ، قدر ثمنها بمائتى الف جنيه ، فكلها موشاة بالذهب وبالحجارة الكريمة وبالقصب المذهب . كما تبرع بعشرات الألوف من الجنيھات للجمعيات الخيرية ولرجال البوليس الذين نذبوا لحراسته ، ولموظفى قصر الزعفران .

لقد صعد الى سطح اليخت ، وهو فى طريق عودته به الى وطنه الغالى ، وكان ما يزال فى مياه السويس ، وأجال بصره فى فضاء مصر ، ليشبع ناظره منه ، ثم التفت الى الأستاذ عباس محمود العقاد عضو بعثة الشرف ، وكان واقفا بجواره ، وقال له ولزملائه أعضاء البعثة :

« بالرغم من أن الهواء شديد بين القاهرة والسويس ، فقد حرصت على أن أقف فى شرفة القطار الملكى طول الطريق . فدعانى النقراشى باشا الى دخول الصالون حذرا من هذا الهواء الشديد ، فقلت له : أريد ان أشبع عينى بكل شبر من أرض مصر »

ثم قال : « يخيل الى أن سبعة عشر مليون مصرى (تعداد سكان مصر فى تلك السنة ١٩٤٦) خرجوا لتحتيتى . ليتنى أستطيع أن أحيى كل مصرى » .. ودمعت عيناه من شدة التأثر ..

فلما عاد الى جدة ، وجه الى شعبه رسالة كريمة هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . شعبى العزيز :

« أحمد الله اليكم اذ اعود اليكم من بلاد ، هي بلادى وبلادكم ، مصر العريزة ، بعد ان لا قيت فيها من جلاله اخى العظيم الملك فاروق ، وحكومته وشعبه ، فى كل شبر مشيت فيه من ارض الكنانة ، من الحفاوة والاكرام ، ما لا يحيط به الوصف ، ولا يفى بحقه وافر الشكر . فقد كانت قلوبهم تتكلم قبل السنتمهم ، بما تكنه لى ولبلاذكم من حب ، لا يماثله الا ما اشعر به من حب عميق لآخى الفاروق ، ولبلاده ، وما استشمره فى قلوبكم من حب لجلالته ولبلاده .

« ولقد افتتح اخى الفاروق حصن الاخاء ، تحت ظلال رضوى ، وتوج الله ذلك الاخاء ، بمودة لا انفصام لها بمشيئة الله . ومن فضل الله علينا جميعا ، ان كانت كلمتنا فى هذه الزيارة التى قبلها ، مجتمعة على مواصلة جهودنا فى سبيل تأييد جامعة الدول العربية ، وبدل كل مرتخص وغال ، فى تأييد التضامن بين سائر دول الجامعة بالقلب والروح لما فيه خيرها ، بل لما فيه الخير لسائر البلاد الاسلامية والعربية . وسنستمر على هذه السياسة بمشيئة الله ما حيينا ، وسنورثها بنينا ، حتى يشعر العربى فى كل موطن يمر به من بلاد العرب ، انه يسير فى موطنه ، ويعتز فى كل موطن من تلك المواطنين ، بما يعتز به فى وطنه وبلاده .

« شعبى العزيز :

« ليس البيان بمسعف فى وصف مالاقيت فى مملكة اخى الفاروق . لقد كنت اشعر ان جيش مصر العربى هو جيشكم ، وجيشكم هو جيش مصر ، وحضارة مصر هى حضارتكم ، وحضارتكم هى حضارة مصر ، والجيشان والحضارتان ، جند للعرب ، وركن من اركان حضارتهم . بهذه الروح فتح اخى الملك فاروق ، العهد بيننا وبينه ، وبهذه الروح استقبلنى اخى الفاروق وحكومته وشعبه ، وبهذه الروح اعود اليكم .

« ليس لى ، وانتم تستقبلوننى ، وانا استقبل البيت الحرام ، الا ان ادعو الله ان يحفظ للكنانة ملكها ، وان يبلغها منها من الهناء والسعادة ، وان يجمع بفضله قلوب ملوك العرب ورؤسائهم وامرائهم ، لما فيه العز والخير ، وان يجزى الله عنا ، اخواننا واخوانكم فى مصر ، خير الجزاء ، فقد احاطونى بقلوبهم ، وغمرونى بكرمهم . وما راء كمن سمعا »

وقد اصدرت مصلحة البريد المصرية ، طابع من فئات مختلفة تذكرا للزيارة ، زينتها بصورة الملك العربى الجليل .

وفى منتصف مارس سنة ١٩٤٧ احتفلت كلية البوليس المصرية بعيدها الذهبى سنة ١٩٤٧ فأقامت حفلا فى دار الأوبرا الملكية شهده مندوب عن

الملك فاروق ، خطب فيه طالب سعودي ، اسمه عبد الحلیم محمد حمزة ،
فقال :

« حضرة صاحب السعادة مندوب حضرة صاحب الجلالة ملك مصر
المعظم :

« انه لمن سابغ الشرف ، ورائع التوفيق الشخصى ، أن اقف موقفى
هذا بين يدي سعادتكم ، نيابة عن زملائي الطلبة السعوديين بكلية البوليس
الملكية ، فى مناسبة رائعة ، وحفل بهيج ، وعيد ذهبى

« لقد اوفدنا جلالة مليكنا عبد العزيز آل سعود الى مصر العزيزة ، مع
لفيف من زملائنا ، لنقبس نور العلم والمعرفة ، من نبع العلم والعرفان .
ولاول مرة التحقت بعثة سعودية من ثلاثة طلبة بكلية البوليس الملكية ،
لتدرس أحدث الأساليب البوليسية فى حفظ الأمن والنظام ، فجننا جميعا
من بلد عربى ، الى شقيق عربى ، وتركنا أهلا لنحل عند أهل . فأى جسد
سعيد ، واية فرصة كريمة اسعدتنا بأن نستظل بكنف جلالة ملك مصر ، وفى
رحاب هذا البلد المحبوب ، ففازت بعثتنا برعاية جلالة مليكنا عبد العزيز
آل سعود ، معززة برعاية جلالة الفاروق

« واليوم ، اذ تحتفل كليتنا بمرور خمسين عاما على انشائها ، يسعدنا
ان نشترك مع زملائنا فى الابتهاج بما ظفرت به من توفيق فى اداء رسالتها ،
اداء يبعث الثقة فى اطراد تقدمها ، وتحقيقها للمثل التى كرسنا الجهود من
اجلها ، والآمال التى هلقت عليها

« حيا الله المليكين العربيين ، جلالة الملك فاروق الاول ، وجلالة الملك
عبد العزيز آل سعود ، وهيا للبلاد العربية ما تنشد من مجد وسؤدد »

كم تألم ، رحمه الله ، لما كان يصيب مصر فى سياستها وسيادتها
واستقلالها ، وما كان أسرع الى وقوفه بجانبها ، يشد من أزرها ، وينافح
عن كرامتها ، ويدود عن حرمتها . . قبل تبادل الزيارة بينه وبين ملكها

يقول الشيخ حافظ وهبة فى كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب »
وفى الصفحة الثالثة والسبعين بعد المائة :

- « تألم أشد الألم يوم هجم السفير البريطاني على قصر عابدين في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، واعتبر هذا العمل حماقة كبرى من بريطانيا ، فهي أهانة لمصر في شخص مليكها ، وكان من مساميه غير الظاهرة ، ان نقل السفير البريطاني من مصر » (١)

من حلقات سلسلة مساميه الصادقة ، ما صنعه في عام ١٩٤٧ ، يوم اشتد الخلاف بين مصر وبريطانيا بشأن مستقبل السودان ، مما دفع مصر الى اللجوء الى مجلس الأمن . فقد أمر ولي عهده الأمير سعود ، بالاتصال بوزارة الخارجية البريطانية ، سعياً الى تخفيف حدة التوتر بينهما ، وبغية الوصول الى حل يمكن أن يكون مقبولاً من الحكومتين . وفي الوقت نفسه ، أرسل الى سفيره في لندن في ١٦ صفر سنة ١٣٧١ ، برقية جاء بها :

(١) في أواخر أيام وزارة حسين سرى باشا في يناير سنة ١٩٤٢ ، اشتدت أزمة التتويج في البلاد ، حتى كان الأهالي اذا رأوا مركبة تحمل خيراً ، همروا اليها ونهبوا ما تحمل ، أما الموسرون فقد وجدوا في البطاطس والمكرونة بديلاً !!

واقترنت هذه الأزمة ، بأزمة سياسية حادة ، إذ فوجئت السلطات البريطانية بالمظاهرات نعم أرجاء العاصمة ، ويهتف فيها المتظاهرون هتافات عدائية ضد بريطانيا وحلفائها ، منددين « الى الأمام يا روميل .. تقدم يا روميل » وكان الألمان بقيادة الجنرال روميل يتقدمون زاحفين على مصر من هربها ، من ناحية ليبيا .

فاضطرت أمصاب الانجليز ، وأفلت الزمام من يد الوزارة ، فاستقال سرى باشا في ٢ فبراير سنة ١٩٤٢ . ورأى الانجليز أن من الخير لهم ولحلفائهم ، أن تكون في الحكم وزارة وفدية تسيطر على هذه الجماهير المقلقة لراحتهم ولائهم . فدعا السفير البريطاني اللورد كيلرن ، رئيس الديوان الملكي أحمد حسين باشا ، وسلمه انذاراً الى الملك هذا نصه : « اذا لم أسمع قبل الساعة السادسة - أي مساء ٤ فبراير - ان مصطفى النحاس باشا قد دمي لتأليف الوزارة ، فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » . فدعا الملك الوجود ورؤساء الأحزاب ليشاوهم ، فاتفقوا على الاحتجاج على هذا الانذار ، قائلين : « ان في توجيه التبليغ البريطاني ، اعتداء على استقلال البلاد ، ومساساً بمعاهدة الصداقة (أي معاهدة ١٩٣٦) ولا يسع الملك أن يقبل ما يمس استقلال البلاد ، ويخل بأحكام المعاهدة » وحمل رئيس الديوان هذا الاحتجاج الى السفير البريطاني ، لرفضه وقال انه سيحضر لتأبلة جلالة الملك في الساعة التاسعة مساء . وقبل وصوله جاءت دبابات بريطانية مسلحة بالمدافع وحاصرت قصر عابدين ، ووصل السفير وبصحبه « الجنرال ستون » قائد القوات البريطانية في مصر وبعض الضباط البريطانيين مسلحين بمسدساتهم . واجتمع السفير والقائد بالملك بحضور رئيس الديوان ، وتقدم اليه ورقة بالتنسازل عن عرشه ، او يدعو النحاس باشا الى تأليف الوزارة ، وانصرفا مع ضباطهم .

« ان الموقف بينهم - اى بين انجلترا ومصر - محزن . ونعتقد انه هم يكن احد متأثرا ومتأسفا من هذا الموقف اكثر منا ، لاننا نقدر مخاطر ذلك على الجميع ، اكثر مما يقدره اى انسان آخر . ولذلك كان ، ولا يزال ، قلقنا عظيما . ولا يخفف من حدة هذا القلق ، الا شعورنا برجاحة العقل البريطانى ، وظننا الحسن بالمستر ايدن وبحكمته ، للوصول الى التفاهم مع المصريين . ويحسن أن يكون المستر ايدن واثقا من اننا ما ادخرنا جهدا فى بذل كل ما يمكن من العمل مع اخواننا المصريين . ولكننا - كما يعلم - لا نحب الاعلان عن مساعينا . وزيادة على ذلك ، فانه اذا بدا لنا اى شيء أو طريق يسهل الأمر بينهم وبين مصر ، فسنتهزه ونخبرهم . ولكن كل ما ننتظره الآن ، هو بذل مساعى الحكومة البريطانية مع الحكومة الاميركية ، للوصول الى تفاهم مع المصريين . ونحب أن يكون واضحا ، اننا سبق أن ايدنا مصر فى الجامعة العربية فى مطالبها القومية ، ولا يمكن التخلف عن هذا التأييد ، لان هذا يخل بصفوف الدول العربية . وتأيدنا لمصر يجمع الكلمة ويساعد على السير مجتمعين فى حل مشاكل الشرق ، لأن كل ما يهمنى هو قطع الطريق على الدعاية الشيوعية وعلى الشيوعيين فى البلاد العربية . هذا ما ينبغى أن نخبر به المستر ايدن ، فنحن وسائر الدول العربية على تأييد مصر ، فى الحاضر والمستقبل .

ودعا الملك الزعماء ورؤساء الاحزاب للتشاور مرة اخرى . وفى اجتماعهم هذا ، كلف النحاس باشا بتأليف الوزارة ، فاعتلوشدة ، فالح عليه الملك فقبل ، وعندئذ كلفه ان يذهب الى دار السفارة البريطانية ليبلغ السفير ، نيا قبوله التكليف .

وفى اليوم التالى (٥ لبرابر) أرسل النحاس باشا الى السفير كتابا قال له فيه : « كلفت بمهمة تأليف الوزارة ، وقيلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك ، بما له من الحقوق الدستورية . وليكن مفهوما أن الاساس الذى قيلت عليه هذه المهمة ، هو أن لا المعاهدة البريطانية المصرية ، ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، يسمحان للحليفة بالتدخل فى شؤون مصر الداخلية ، وبخاصة فى تأليف الوزارات أو تغييرها ، وانى أمل ان تتفضلوا بتأييد ما فى خطابى هذا من المعانى » .

فرد السفير عليه بكتاب قال فيه : « لى الشرف أن اؤيد وجهة النظر التى مبر منها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم . وانى اؤكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون باخلاص مع حكومة مصر ، كدولة مستقلة ، وحليفة فى تنفيذ المعاهدة المصرية البريطانية ، من غير اى تدخل فى شؤون مصر الداخلية ، ولا فى تأليف الحكومات أو تغييرها » .

« ونود ان تذكروا له كذلك ، اننا نعلق اكبر الامل عليهم ، وعلى
 اصدقائنا واصدقائهم الاميركيين ، في حل مشاكل الشرق الاوسط ،
 وبالأخص مسألة مصر التي يتوقف عليها كل الامور ، لانه يجب الا يعاطف
 انفسنا . فانه ما دام هذا الشغب وهذا الاختلاف في مركز مثل مصر ،
 تعلمون اهميته في الشرق الاوسط ، فان الاستقرار لا يمكن ان يكون . ان
 الشعوب اليوم غيرها بالامس في كل البلدان ، وان العدو الالد السوفييتي ،
 يغذى كل شعور العداء ضد الغربيين . فالحكمة الرشيدة هي الا يكونوا عوناً
 مع العدو ، حتى لا يفلت الزمام ، وتضيع الفرصة . ونحن نعتقد انه اذا
 استعملت بريطانيا حكمتها واناتها المهودتين ، مع مصر ، فلن يستعصى عليها
 الامر ، وستحمد هي نفسها هذه السياسة الرشيدة » (١)

* * *

مما لن ينسى للملك عبد العزيز ، توفيقه في توطيد الأمن في ارجاء مملكته
 الشاسعة ، فساد سكانها الاطمئنان على أموالهم وعلى ارواحهم ، واصبح
 هذا الأمن الشامل الذي يظل المملكة ، حديث العالم أجمع ، لا العالم الاسلامي
 أو العربي وحدهما ، فانه لم يتوفر لا قطار أخرى من اقطار المعمورة .

(١) في يوم ٨ يوليو سنة ١٩٤٧ ، أرسل محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء
 ووزير الخارجية ، « هريضة دعوى الى مجلس الامن » ، الى المستر تريجنى لى السكرتير
 العام لهيئة الامم المتحدة ، يطلب فيها ادراج موضوع النزاع بين مصر وبريطانيا بشأن
 السودان في جدول أعمال مجلس الامن . فحدد المجلس يوم ٥ أغسطس لنظر هذه
 النزاع ، وفيه اتقى النقراشي باشا خطاباً ندد فيه بمماطلة بريطانيا في وعودها بالجلام
 من وادي النيل ، وقال : اننا لم نعد نعيش في ظلمات القرن التاسع عشر ، بل نحن نحيا
 في عالم اليوم ، عالم الميثاق ، في عالم الامن الجماعي ، في عالم يرنو الى النظام والسلم ،
 في خال لا يطبق مفامرات التوسخ والاستعمار .

لرد عليه ممثل بريطانيا السر الكسندر كادوجان ، ودا حوى حججا واهية . فرد
 عليه النقراشي باشا في جلسة عقدت في يوم ١١ أغسطس رداً شديداً قال في خلاله : « ان
 بريطانيا كانت حجر عثرة في سبيل استقلالنا وتقدمنا الوطني في المائة عام الاخيرة » . ولم
 يسكت كادوجان ، فوقف النقراشي في يوم ١٣ أغسطس ليقول : « ان مصر ترجو ان تحية
 حياتها كما تريد ، طليقة من تلك اليد الحديدية التي يبطئن بها خراة عتاة » وفي
 يوم ٢٢ أغسطس ناقش الامضاء النزاع ، وقدم الوفد البرازيلي مشروعاً لا ينصف
 مصر ، فرفضه النقراشي . وفي يوم ٢٦ قدم الوفد الاسترالي مشروعاً آخر معدلاً لمشروع
 البرازيل ، ولكنه لا يختلف منه اجمالاً وظلماً ، فرفضه أيضاً . وفي يوم ٢٨ التي بيانه
 الاخير ، وقد ضمنه تنفيذ لرد جديد من السر كادوجان ، وطلب من المجلس : « الا
 يضع نفسه في موقف الحرج ، بأن يقرر ان هذا النزاع من شأن استمراره تهديد السلم .
 ثم لا يتخذ خطوة ايجابية انسانية للاخذ بناصر مصر ، التي تقف امامكم فريسة لغزو
 دولة استعمارية عاتية » .

وها نحن نقرأ ونسمع في كل يوم ، عسديدا من جرائم السرقات الخطيرة ، وجرائم القتل ، وجرائم للجنس ، وجرائم من كل نوع ولون ، الا السعودية ، فان السرقات فيها لا وجود لها ، وجميع الجرائم الاخرى ، هي كذلك لا وجود لها . وما حدث للمغفور له الملك فيصل من اعتداء ائيم على حياته في ٥ مارس من العام الماضي (١٩٧٥) ، هو حادث فردى ، كما تبين من التحقيق مع المتهم الاثيم ، لم يحدث مثله من عشرات السنين .

مرد هذا الامن كله ، الى نهج واحد ، سار عليه الملك عبد العزيز ، فائمه الثمر المرجو ، وهو تطبيق احكام الشريعة الاسلامية تطبيقا عادلا ، لا يفرق بين الامير والخفير ، ولا بين الكبير والصغير

نشرت جريدة « المقطم » - وكانت احدي جريدتين يوميتين كبيرتين في القاهرة ، والثانية « الاهرام » - في يوم ٨ يناير سنة ١٩٣٠ كلمة لاحد محرريها قال فيها : « سئل قاضى « ينبع » في تلك السنة : ما نوع القضايا التى تعرض امامكم ؟ فقال : لقد زالت من امامنا قضايا الجنايات والسرقات وما اليها ، بعد ما دخل الملك ابن سعود الحجاز ، ونفذ احكام الشريعة الاسلامية في اولئك المجرمين الاثمين ، وصارت القضايا مقتصرة على خلافات سيرة بين التجار » .

ثم مضى المحرر في كلمته فقال : « ان المسلمين في اقطار الارض قاطبة ، يذكرون اليوم البون الشاسع بين عهدين ، عهد الفوضى التى سادت الحجاز ، وجمعت جماعات من المجرمين المسلحين يسيطرون على الارض المقدسة ، فيفرضون على الحجاج ارادتهم ، ويحصلون منهم ما يشاؤون من اتاوات وضرائب . . يذكرون ذلك العهد البغيض ، وما انقلب اليه الحال اليوم ، بفعل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، ومراعاته لاحكام الشريعة الاسلامية ، من انزال ابلغ العقاب بالدين تحدثهم انفسهم بالتمرد والعصيان والاعتداء على الحجاج ، حتى سكنت كل نامة فلا تسمع الا هدوءا وسلاما ، وصار اولئك الطفافة العتاة ، يسألون الناس رفدهم وعطاءهم ، ولا بجرؤ الواحد منهم ان يمد يده الى سيارة الحاج ، ولو سارت في جبح الظلام ، بل ولا القرب منها مطلقا ، فاذا اعطوا شيئا فرحوا ، واذا لم يعطوا قنعوا من الفنيمة بالاياب ، خشية ما يتهددهم من عقاب ، اذا هم حاولوا السرقة او الاعتداء .

« لقد اتاح هذا الامن للمسلمين ، أداء فريضة الحج بنفس مطمئنة ، بعد ما كان الحاج لا يسافر الا بعد ان يكتب وصيته ، ويودع أهله واصدقائه »

ونشرت «المقطم» أيضا في ٢٧ من المحرم من عام ١٣٥٧ كلمة للاستاذ محيي الدين رضا المحرر بها - رحمه الله - قال فيها بعد استقبال الملك عبد العزيز له :

« لقد نوهت بالامن الضارب في مملكة الحجاز ، بفضل ما يديه لجلالته من حزم وشدة ، في معاملة من تحدثهم انفسهم بالعبث ، وذكوت لجلالته ان سيارة تعطلت بي في طريق مكة ، فتمت الليل في الصحراء ، كنت فيها في امان وراحة ، لا يفوقهما ما اشعر به ، وانا في داري المقفلة الابواب ، وقلت ان هذا الامن لا تحلم به دول أوروبا وأميركا ذات الاستعداد الهائل . فلم يزد على أن قال : ان هذا كله من فضل الله عز وجل ، وليس عبد العزيز له :

وقد قرأت في كتاب «الرحلة الحجازية» للمرحوم محمد لبيب البتانوني بك وصفا سجل فيه مراحل سفر الخديو عباس حلمي الثاني خديوي مصر ، الى الحجاز لاداء الفريضة - وكان ممن صحبوه فيها في ذي الحجة سنة ١٣٢٧ - ديسمبر سنة ١٩٠٩ - وضمنه مشاهدات وتعليقات اجتماعية وتاريخية واقتصادية . فقلل في الصفحة الثانية والثلاثين :

« لما صعد الخطيب - خطيب الحرم الشريف - المنبر ، صعد معه أحد الأوغوات ، وجلس على الدرجة التي تلى قدميه ، وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب في أثناء اشتغاله بالقاء الخطبة ، حتى لا تسرب اليه يد أئيمة »

وقال في الصفحة الستين :

« ويتخلف عن الحج كثير من أهل مكة ، وقيمون بها ، للمحافظة على ديارهم من اللصوص الذين يكثرون في هذه الآونة ، فيقضون ليلهم سهرا ، بين اطلاق بنادقهم من كل الجهات ، اعلانا بانهم يقظون لكل من يقصدهم بسوء »

وقال في الصحيفة الثانية والثمانين بعد المائة :

« ووقت تحميل القافلة وتنزيلها ، تكثر السرقات من الحمالة ، وهم سائقو الجمال ، انفسهم . وقد يتفق جمالك مع جمال آخر ، فيحضر في الوقت الذي بلهك فيه بصراخه وبصياحه ، في حين ينقض الآخر على عنقك ويسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدا روعك ، شعرت بما نقص من

متامك ، وهناك يكثر الصياح ، فيقول واحد : خرجى - أى حقيبتى -
ويقول آخر : ملابسى . وغيره يصيح : لحافى ! وهكذا . وبعد هرج ومرج
من غير فائدة يسكت الصائحون ، شاكين أمرهم الى الله ، ويشتغلون بتجهيز
شؤونهم . ثم يسمعون الأعراب يتصايحون ، هذا يقول : الحطب الحطب .
وآخر يقول : الماء الماء وهكذا ، وما هم غير سارقين ما وصلت اليه
أيديهم ، ويفرون من حيث لا يشعر بهم أحد

« وبعد العشاء ينام الحجاج ، ويتناوبون السهر على حراسة عفشهم ،
ومن سهر منهم رأيته على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والانعراج ،
كقولهم : « شايفك » ! او « ابغى » ! او « لا تقترب » ! وهكذا . والحجاج
يقضون حاجتهم بين رحالهم فى الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه
أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الأعراب
ينقض عليه ، ويضربه فى رأسه بعصا يابسة قصيرة ، ضربة تخمد معها
أنفاسه ثم « يسلحه » من ملابسه ، فاذا استغيبه صحابته ، قاموا للبحث
عنه ، فيجدونه فاقدوا الحياة ، فيوارونه التراب على حاله هذه ، واما فاقدوا
الشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه . وقليل ما ينجو المجنى عليه من هذه
الضربة .

« وقد يقطع الجمالة بعض الجمال من القافلة فى أثناء سيرها ،
ويتظاهرون باصلاح حملها ، حتى اذا ابتعدت القافلة عنهم ، أوقعوا بركابها ،
وهم يستغيثون ولا يفتأون ، وسلبوهم متاعهم ، وكثيرا ما يجهزون عليهم ،
وفرون بجمالهم الى حيث ارادوا »

الكاتب والأديب والصحافى المصرى ذائع الصيت ، المرحوم الأستاذ
ابراهيم عبد القادر المازنى ، دعى مع لفيف من الصحافيين المصريين الى
الاشتراك فى الاحتفال بأول عيد لجلوس الملك فى عام ١٩٣٠ . فلما عاد وضع
كتابا جعل عنوانه : « رحلة الى الحجاز » ، اقتطف منه ما قاله عن الأمن
الشامل فى الحجاز ، بأسلوبه الفكاهة الذى اشتهر به

قال فى الصحيفة العشرين ، بعد نزولهم الى ميناء « ينبع » :

- « ركبنا زورقا الى المدينة ، وهى صغيرة فقيرة ، وبها مساجد
كثيرة ، أشهرها مساجد : ابن عطاء ، والخضر ، والسنوسى . وأهلها وكلاء
للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع . وبها آلة لتصفية ماء
البحر للشرب . فاستقبلنا القائمقام الشيخ مصطفى الخطيب ، وهو من
أهلها ، وكان عاملا عليها فى عهد الحسين ، لم تنحه الحكومة السعودية ،

نرفقا منها عن حماقات العزل والتأمر . وانحدرنا الى المدينة نطوف فيها الى ان يخرج الامير والناس من صلاة الظهر ، فمررنا بالسوق ، وهى حارة ضيقه مسعفه ، على جانبيها الدكاكين ، فيها صنوف شتى من العطارة والبقول والمنسوجات والخبز والأسماك والجراد ، ولم يكن فى الدكاكين احد لأنه كان وقت الصلاة ، وكان الطريق غاصا بالأطفال ، يمشون وراعى ويحفون بنا ، فى خرق ممزقة ، ومراقع لا تكاد تستر شيئا . فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتاجر ان يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟ فقيل لى : لا خوف منهم ، لأنه ما من احد يجرؤ ان يسرق شيئا . . »

وفى صفحة ٤٦ وصف بيتنا متعدد الابواب و « السلام » مما استغربه ، فقال : « . . وواستغربت كثرة الأبواب للبيت الواحد وتعدد السلام ، فقد تكون صاعدا فى وديعة الله وحفظه ، فاذا أمامك سلمان ، يذهب كل منهما فى ناحية ، فلا تدرى إيهما تأخذ ، هذا أو ذلك ؟ وخطر لى فى اول الامر ان سلما يؤدى الى حجرات الرجال ، وان الآخر يفضى الى مساكن السيدات ، ولكن خطر لى ايضا ان الاكثار من السلام المضللة والابواب المحيرة ، قد يكون اثرا من أيام القلق وعدم الاطمئنان ، أيام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة ، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سربهم ، فلا يبعد ان يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ، ليتسنى لهم ان يجدوا لهم والمدويهم مخرجا أو مهربا ، اذا اقتحم عليهم الدار عدو . . »

وقال فى صفحة ٥٤ :

– « والأغنياء هناك – أى فى الحجاز – لا يدمون الفقر ، ولا يكتمون مالهم ، وان كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البلخ . والتجارة سوق رائجة مع الشرق والغرب ، والاحاديث صريحة ، والالستة طليقة ، وفى هذا دلالة على الاطمئنان . وقد كان الناس على ما علمت فى العهد السابق ، يخفون أموالهم ، ويتظاهرون بالمتربة ورقة الحال ، خوفا من الابتزاز ، أو الاقتراض الذى هو فى حكم الاغتصاب والمصادرة . أما الآن ، فيقول لى بعض الأصدقاء : ان الحكومة فى آخر العام قد تقفر خزائنها ، فحتاج الى المال ، فتفترض من الأعيان ، حتى اذا جاء موسم الحج ، ردت اليهم ما أقرضوها ، بلا ربا

» وقد سألنا فى طريقنا الى مكة سائق السيارة ، وهو شاب كان احد أفراد الفرقة الموسيقية فى جيش الحسين ، ان يحدثنا عن الفرق بين العهدين ، فكان جوابه : ان الأمن مستتب على أحسن حال ، وأنه ما من احد يجرؤ ان يسرق أو يمد يده الى شىء فى الطريق «

وقال في صفحة ٦٧ ، بأسلوبه الشائق :

« سيدكرنى الحجاز دائما بان عصاى قطعت الطريق بين جدة ومكة ، قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية ، وردت الناس من الجانبين ، ووقفتهم صفين من الناحيتين ، متقابلين ، على اقدامهم ، الا من شاء أن يضرب فى طريق آخر ، ويسير على نهج جديد .

« وشرح ذلك : انه فى اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ الطويل ، صاحب « شركة الفناعة للسيارات » . وقد كان على عهد الملك حسين مديرا للجمارك ، وكان صاحب مال وفير ، فأتى عليه الاقتراض منه ، ولم ينقله الا اقتراض حكم الحسين وابنه على ، ومجئ العهد السعودى بالامن والطمأنينة وحرية التجارة ، فأنجر بالسيارات ، وعاد فوقف على رجليه

« وكان من المقرر أن نركب الى مكة بعد الغداء مباشرة ، ولكن الأكل طال ، والألوان تعددت ، فنسينا مكة ، وذهلنا عن كل شئ ، وأخيرا قمنا هن المسائدة آسفين متلفتين متلكتين ! وذهبنا الى بيوتنا ، فخلعنا ثيابنا ، ونضونا كل ما على اجسامنا ، ولفقناها - اعنى اجسامنا - فى مشامل كالبشاكير غير مخططة ، حتى اقدامنا خلعنا احديتها واعتضنا منها « السباعيات » ، وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد ، تدخل فى بعضها الأصابع ، ويلتف البعض حول المفاصل ، ورمينا طرايشنا ، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقيب ، وتوكلنا على الله .

« وركبنا سيارة لا أدري من أى طراز هى ، وانما الذى أدريه انها كانت فخمة جديدة ، وانها لم تخرج الا فى يومنا ذاك . وقلنا للسائق : سر على بركة الله ، وبقوة البنزين الذى خلقه الله ، وأعلم أننا سنتعشى عند سمو الأمير فى قصر جلالة الملك باذن الله ، وان عليك ان تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ، ثم ارتداء الثياب .

« فقال : الله معنا . ان السيارة جديدة ، وليس فى وسعى أن أسرع بها لئلا تلتف

« فقلنا : فلتلتف ، فان موعد الأمير لا يمكن أرجاؤه

« وما زلنا نلح عليه ونحاوره ونداوره ، حتى أطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو مترا ، وجزنا اول محطة فى الطريق ، ومضينا نبغى الثانية ، واذا به يطل ثم يقف ويلتفت الينا ويقول :

« حريق .. انزلوا ..

« ففتحت الباب من ناحيتى وأسرعت فنزلت . ويظهر أن عصاى التى لم أعن بها من فرط الفرع ، سقطت الى الأرض . وصار فى وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة ، أن ننظر اليها ، وأن نرى الدخان صاعدا من بين عجلاتها ، والسائق يهيل عليها الرمل عوضا عن الماء . فانقطع الدخان وشرع يعالجها ، وكانت سيارتان قد أدركتنا ، ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض أفندى المصور أن يرسمنا ونحن محرمون (كان رياض المصور هذا ، واسمه كاملا رياض شحاته ، مصور الملك فيما بعد) .

« ولا اظيل . ركبنا السيارة ، واستأنفنا السير على مهل ، وانسييت العصا ، لأن الخوف من احتراق السيارة صرفنى عنها ، وجعلت وكدى طول الطريق ، ان أخرج وجهى من نافذة السيارة ، وأنظر الى العجلة من ناحيتى ، وأن أشم ، لعل دخانا. صاعدا فأنبه السائق

« والطريق الى مكة طريقان : واحد للسيارات ، والآخر للجمال ، وقد عددت خمسين جملا فى قافلة ، وكانت تحمل بضائع شتى فى الصسناديق والاكياس أو الفراز ، وليس معها سوى طفل واحد ، هو كل حرس هذه القافلة المقرية

« وبلغنا « الشميسة » قبل الغروب بدقائق ، واستقبلنا وفد طويل عريض من مكة ، جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا . وبينما نحن نتحدث ، دنى مدير الشرطة أو لا أدرى من هو ، الى التلفون ، فاستأذن وذهب ، ثم عاد ليسأل :

« هل لأحدكم عصا ؟

« فقلت : نعم ، انا لى عصا ، ولكنها والله فى السيارة تركتها فيها ، لانى لا أدرى هل يجوز أو لا يجوز ، أن يحمل المحرم عصا ..

« قال : ما أوصافها ؟

« قلت : وما شأنك انت بالله ؟ هى عصا والسلام

« قال : لا لا لا ، لقد وجدت عصا فى الطريق قرب « الرغامة » فقطعت على الناس السبيل ..

« فضحكت وقلت : أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون ، ولا تخرج على النظام ، ولا تعرف قطع الطريق .. !!

« فلم يجد حتى باتسامه ، وضاعت على الثكنة في هذا البلد الجاد ،
« وقال أبحث عنها من فضلك ، فإن الطريق مقطوع ، ولا أحد يروح
ولا أحد يقدو .

« فهرولت في مشاملى الى السيارة ، فلم أجد العصا ، وقلت له :

« هى عصاى قاطعة الطريق ، فاسمح لى أن اعتذر بالنيابة عنها !

« فمضى عنى الى التلفون ، وخفت أن يأخذونى بها ، وبجزونى بما
صنعت ، فان للقوم هنا شريعة غير القانون المدنى ، فعدوت وراءه ، وأسرت
اليه وهو يتكلم فى التلفون :

« أذكر من فضلك أن الله تعالى يقول فى كتابه المنزل : « ولا تزر وازرة
وزر أخرى »

« فلم يرد على أن التفت الى وقال :

« هل تردها الى جدة ، او ندرلك بها فى مكة ؟

« فقلت : لست أريدها والله ، فانها فاجرة كما ترى ، وأخشى أن
ينزو براسها خاطر آخر . أفلا يمكن دفنها فى الرمال مثلا ؟

« فقل للتلفون لا لى : ارسلها مع الشرطة الى الضيافة

« فصحت به : لا لا ، ردها الى جدة من فضلك ، فحسبى ما صنعت !

« فقال لمخاطبه فى التلفون : بل ردها الى بيت العوينى فى جدة

« ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى ، وما صنعت . فقد كنا فى
الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء يبرد به جوف السيارة
الذى يغلى ، يصبح بأحد الواقفين : هات ماء ! فلا يتزحزح ، ولا يدنو منا ،
بل يقول وهو واقف فى مكانه : تفضل ! فينزل السائق ويجيء منه بما يريد ،
وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الدوق ، فقل لنا : بل عو الخوف
من أن يدنو الفريب من السيارة ، فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شئ من
الادوات ، أو مما تحمل السيارة ، فيتهم الرجل بالسرقة ، وجزاء السارق
هنا قطع اليد . وقد أمن ابن سعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين :
بقطع يد السارق ، وبما يسمونه « التصبيحة »

« فاما السرقة وقطع اليد ، فأمرهما ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وقد
قسا ابن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا لى أن
رجلا جاءه بكيس فيه بن ، وقال له : هذا كيس بن وجدته فى الطريق ..

« فسأله : ومن ادراك ان فيه بنا ؟ جسسته او فتحته او نظرت فيه ؟
ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن ، لأخفيته ولم تظهره ، ولم تسع به الى ؟
كلا .. حتى الجس لا يجوز . اقطعوا يده .. »

« ومن اجل ذلك يقع الناس على الشيء في الطريق ، فلا يقربونه ابدا .
بل بلغ من ازدجارهم ، انهم ربما مالوا الى طريق آخر ، غير الذى فيه
هذا الشيء المطروح ، حتى يمر شرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه ، او
يمروا هم بالشرطى فيبلغوه ، واذا لم يقفوا على صاحبه ، نشروا في « أم
القرى » اعلانا تحت عنوان « لقطات »

اما « التصبيحة » فشيء آخر : تكون هناك عشيرة صرت بالسطور ،
فيندرها اس السعود مرة ثم اخرى وثالثة ، فان كفت وتركت الناس
آمنين ، واستقامت على الهدى ، فيها والله الحمد . والا همس في اذن واحد
من قواد جيشه « ان يصبحها » . فيذهب الرجل في فرقة من الجيش من
غير أن يفضى الى أحد بغايته ومقصده ، ويتجنب في طريقه الى العشيرة
مواضع الماء ، ويضرب بجيشه في الصحراء التى لا تطؤها قدم ، ليظل امره
خافيا وغابته مكتومة ، ويقع على العشيرة في الفجر ، فيصلى بجيشه ، ثم
يطلق عليها رجاله ، فيصبحونها وهم يصيحون :

« هبت هبوب الجنة ، أين انت يا باغيها . خيالة التوحيد اخوان من
اطاع الله .. فلا يبقون ولا يدرون

« ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مد دخل
الحجاز ، لأن الامر بعد ذلك لم يحوجه الى « تصبيحة » اخرى »

وقال المازنى في صفحة ٦٦ :

« .. ولم أر في الحجاز امرأة ولا بائعا متجولا ولا شيخا هما يقوم على
الراحتين ، ولا جنازة ميت . ولعلى لم أر مقعدا أو سبطحا أو كسيحا ،
لا تلى لم أبفهم حيث يكونون . ولكنهم على كل حال لا يرون في الطرقات
وعلى أبواب المساجد وافاريز الشوارع . ولكنى استغربت ان أقضى ستة
أيام في الحجاز ، فلا تقع عيني على جنازة ميت ، ولا أسمع ان واحدا ملأ
هذه العاجلة وأثر عليها الأجلة . ولا أدري ماذا يفرى الناس هناك بالبقاء ،
ويجيب اليهم الدنيا وهى بلاقع ، على حين يستطيعون أن ينتقلوا في طرفة
عين ، الى الفردوس وقصوره وحوره وولدانه وأنهاره من لبن وعسل
وخمر !!! »

وكتب أمين الريحاني - فيلسوف لبنان او فيلسوف « الفربكة » مسقط رأسه - في كتابه « ملوك العرب » فصلا عنوانه « اساس الملك » قال فيه :

- « العدل اساس الملك ، ومن العدل ما كان يعجب ، ومنه ما كان يربح ويخيف . وقد شاهدت من مظهره في بلاد نجد ، ما لم أشاهده في البلاد العربية كلها . بل ما وجدت خارج نجد بلادا تتمثل فيها هذه الحكمة « العدل اساس الملك » ذلك التمثيل الصحيح الشامل ، ذلك التمثيل المعجب المرعب معا . عدل ابن سعود كلمة تسمعها في البحر وفي الر ، وفي طريقك الى نجد قبل أن تصل اليها . كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد ، من الاحساء الى تهامة ، ومن الربع الخالي الى الحوف ، وما عدل ابن سعود غير الشرع ، غير عدل النبي ، أضف اليه قسوة في بعض الأحكام الاجتماعية ، اشتهر بها المذهب الوهابي

« العدل اساس الملك ، والأمن أول مظهر من مظاهر العدل . وفي نجد اليوم من الأمن ، ما لاتجده في بلاد الانتداب السعيدة ، بل في البلاد المتمدنية ، لا يظنني القارىء مبالغا بما أقول ، ولسيت على ما أقول مستشهدا بنفسى ، مع أن رحلتى النجدية استمرت خمسة أشهر ، قطعت في اثنائها الدهناء مرتين : جنوبا في طريقى من الحسا الى الرياض . وشمالا في طريقى من القصيم الى الكويت . وكانت حقائبى ، وفيها مالى ، مكسرة الأقتال مفتوحة ، وهى مع الحملة بعيدة عنى النهار كله . وكان في خدمتى اناس من البدو ، ولم أفقد مع ذلك شيئا من حوائجى ، ولا ورقة من أوراقى . .

« كيف تمكن ابن سعود من إقامة مثل هذا الامن وتوطيدة في بلاده ؟ بأمرين : أولهما الشرع . وثانيهما الارادة والوجدان في تنفيذ أحكام الشرع تنفيذا لا يعرف التردد ولا التمييز ، ولا المحاباة ، ولا الرافة ، ولا الحنان

« وليس السلطان وحده في هذا الامر الخطير ، فان امراءه كلهم يأخذون عنه ويتمثلون به . وبين هؤلاء الأمراء رجل مشهور يحكم « الحسا » ، يجلس في كرسي القضاء وحده ، فلا تجلس معه الرحمة ، ولا تجلس معه المحاباة . عدله عدل عمر بن الخطاب ، وقسوته قسوة البدو . وهو عبد الله بن جلوى أمير الحسا ، وابن عم السلطان عبد العزيز

« جاء عبد الله ذات يوم ، رجل يشكو ولدا ضربه وشتمه ، فسأله : عبد الله : ومن الولد ؟ فقال الرجل : لا أعرف اسمه . فقال عبد الله : وهل تعرفه اذا عاينته ؟ فأجاب الرجل بالايجاب . فامر الأمير بأن يجمع عنده

أولاد ذلك الحي من البلد ، فأحضرهم كلهم ، وجاء الشاكي « فنظر إليهم ،
وأشار إلي غريمه . فهمس أحد الحضور بأذنه : هو ابن الأمير . . فجمجم
الرجل بعض كلمات أراد بها الاعتذار والقذول ، فرده الأمير ، وسال الولد ،
فأمر بدبه ، فأمر العبيد أن يسطوه أمامه ، ويقدموا للشاكي عسيبا أخضر
من النخل ، فتردد العبيد ، وأحجم الرجل ، فأخذ الأمير القضيب بيده ،
وانهال على ابنه بالضرب وهو يقول : إذا كنا لا نبدأ بأنفسنا ، فكيف نعدل
بغيرنا ؟ »

وقرات في الصفحة الخامسة والخمسين من كتاب « مشاهداتي في
الحجاز » للاستاذ عباس متولى ، وقد ألفه في سنة ١٩٣٦ ، قوله :
- « حديث استتباب الأمن في الحجاز ، أصبح اليوم حديث الناس
وموضع دهشتهم وتعجبهم ، ثم هو سمر المنتديات الإسلامية والمجالس
الدينية ، وموضع عناية الصحف والمجلات الشرقية المسلمة ، بل هو
الحديث الطيب الذي يلد للحجاج أن ينقلوه إلى بلادهم حين عودتهم من
الحجاز وبمدها . ولقد كنت أظن حين أسمع هذه الأخبار أنها دعابة طيبة
لأهل الحجاز ليس غير ، إلى أن كان لي شرف السفر إلى هذه البلاد ، وأنا
غير مصدق استتباب الأمن بهذا الشكل الذي سمعته .

« . . . وصلت جدة وسرت داخل الصحراء إلى مكة ، بين جبال مرتفعة
وادغال وأخاديد وكهوف ، وكنت أرى في الطريق جيوشا من العرب العرايا
والبدو الجياع ، يسابقون السيارة جريا ، ويمدون أيديهم يطلبون احسانا ،
فاستبعدت استتباب الأمن في هذه البلاد الجبلية وفيها مثل هؤلاء السكان
الجياع ، إذ ما يمنع الجاني من ارتكاب جنايته ، وهو في مأمنيه من أعين
الرقباء ؟ فالكهوف تقيه ، والجبال تحميه ، والحاجة شديدة تمزق أمتن
أثواب العفة . . . إلى أن وقعت حافظة نقود أحد حجاج مركز كفر الشيخ ،
حضرة أحمد بك العيسوي في أثناء طوافه حول الكعبة ، وكان بها ٣٢ جنيها
مصريا ، وكان أحمد بك في يأس وقنوط من رجوعها ، ولكن اجابة لرغبة
صديق كان معه ، ذهب إلى حضرة مدير الأمن العام وأخبره بالحادث ،
فأحضر الضابط المختص بحراسة المسجد الحرام وأخبره بالأمر ، فأخرج
الضابط من جيبه عدة حافظات ومن بينها حافظة أحمد بك ، فأخذها وهو
غير مصدق أن المبلغ بها ، ولما فتحها وجد نقوده كاملة ، فأخرج منها مبلغا
كبيرا ليعطيه للضابط اعترافا بجميله وشكرا على أمانته ، فرفض أخذه
قائلا : انه ما قام بحفظها الا قياما بالواجب الديني ، واحتفاظا بسمعة هذا
البلد الأمين ، وخوفا من رب هذا البيت العتيق . . . وتوجهت إلى مقر مدير
الأمن ، فرأيت جدولا معلقا على باب الخارجي ، جوى صور الأشرار والمجرمين

وقطاع الطريق ، وقد كتب تحت كل صورة ، اسم صاحبها وقبيلته ونوع جنائته ، والصورة تمثله بعد أن اجري القصاص عليه ، أى بعد أن قطعت يده ، وقد علت الآية الكريمة « ولكم في القصاص حياة » هذا الجدول .

« حدث هذا في مكة . ولقد حدث لنا ونحن في طريقنا الى المدينة في ليلة مظلمة ، في جهة منقطعة عن العالم ، مرتفعة الجبال ، لا يسمع الانسان فيها غير صدى صوته وحركة أنفاسه ، وخيالات السراب تملأ نفوسنا ذعرا وخوفاً ، حتى يخيل الينا أنها ستتخطفنا من السيارة ، فتحصنا بها ، وأغمضنا أعيننا حتى لا نرى هذه الأشباح المزعجة ، وما نشعر الا وقد كسرت بنا السيارة ، فاشتد هولنا وعظم فزعنا ، وتحققنا الموت في هذه الفجاءة ، والهلاك من يد الأعراب ، وأبينا النزول من السيارة خوفاً على حياتنا ، ولكن السائق أكد لنا انها لن تصلح الا اذا نزلنا ، فاسترجعنا الى الله ، ونزلنا منها الى الأرض ، وارواحنا في أيدينا ، ويخيل الينا ان عزرائيل ممثل في هؤلاء السدود المديرة . يستكنون هذه الفجاءة ، فزادت مخاوفنا منهم .

« لكن الغريب انهم حينما كسرت السيارة ، جاؤوا يطلبون احسانا ، ولا يسألوننا الحافاء . فرجعت الى نفسى بمض قوتها ، وهذا خاطرى نوعاً ، فاقترب أحدهم يطلب منى صدقة ، فأعطيت غيره متظاهرا بالفنى والثراء . فقال : اعطني يا حاج . . . فقلت : خذ ما تريد من جيبى . فقال : حرام عليك ، وماذا جنيت حتى تريد قطع يدي ؟ لا يابوى ، أنا لا اطلب شيئاً . فقلت له : ومن تخاف ؟ قال : من بنى سعود . فقلت : اننا في عزلة عنهم . فقال : انهم يرونى حتى وانا في داخل هذه المغارة !!

« فدهشت ، ورددت قول سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ان الله ليزع بالسلطان ، أكثر مما يزع بالقرآن » واعطيت الرجل ما تيسر ، ولبثنا في مكاننا الى ساعة متأخرة من الليل ، جلبوا لنا في اثناء تلك المسدة الماء واللبن ، واكرموا وفادتنا مقابل احسان بسيط ، ونام بعضنا تحت حراستهم وفي حمايتهم ، دون ان يتعرض واحد منهم لنا بسوء » .

والقى الأستاذ محمد مكين العضو الصينى فى مجلس ادارة « جماعة التعارف الاسلامى » ، محاضرة فى دار الجماعة بالقاهرة فى يومى ٢٢ و ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٥٣ ، عنوانها « نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام فى الصين واجوال المسلمين فيها » ، قال فيها :

« . . . ولا يوجد فى كل وفد صينى سوى شخص او شخصين يقدران على التفاهم مع الحجازيين بشىء من الصعوبة ، ولأجل هذا كان المطوقون

يتشونهم في التكاليف ، والبقالون يغالون عليهم في أسعار الحاجات الضرورية ولا مفيت اذا استغاثوا . أما الآن ، فله الحمد ، لم نسمع هذه الشكاوى بعد ما تولى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، حماية البلد الحرام » .

* * *

لقد رغب بعض كبار رجال القانون والفكر في أوروبا ، في الاجتماع بالعلماء في المملكة العربية السعودية « للتعلم في مفاهيم حقوق الانسان في الاسلام » وأعربوا عن رغبتهم هذه لسفير المملكة في باريس ، فأبلغها الى وزارة العدل السعودية ، فمقدت ندوة علمية في الرياض ، بدأت حلقاتها في يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٧٢ (٧ صفر سنة ١٣٩٢) ، فأثيرت « عقوبة السرقة في الاسلام ونتائجها المقارنة » فقال رئيس الوفد السعودي ، وهو رئيس الندوة كذلك ، معالي وزير العدل الشيخ محمد الحركان :

« ... أما جريمة السرقة وعقوبة قطع اليد عليها ، عندما تنتفي التلبهات عن الجريمة ، ومنها أن ترتكب بدافع المجاعة ، مثلا ، فإننا مع الاساندة الحقوقيين في قساوة العقوبة . غير أن معظم جرائم السرقة في بلاد الغرب ، هي جرائم مسلحة ، ولذلك كان الغالب في جرائم السرقة ، أن لا تتم إلا بعد قتل المسروق منه . واننا نتساءل : لماذا الشفقة على يد السارق ، دون الشفقة على رقبة المسروق منه ؟ » .

وتابع رئيس الوفد السعودي كلامه : « غير ان قساوة حكم عقوبة السرقة في الاسلام ، هي التي صانت يد السارق من القطع ، كما صانت روح المسروق منه ، وحفظت السلام للجميع . وان عقوبة القطع ليد السارق لا تكون الا عتنية ، وذلك من أجل المبالغة في الردع » .

وهنا علق الدكتور معروف الدواليبي - وهو وزير سوري سابق وسافر الى السعودية للعمل بها - عضو الوفد السعودي ، قائلا :

- « اننى اعلن أنه قد مضى على في هذه البلاد سبع سنوات ، ولم أسمع ولم اشاهد قطع يد للسرقة ، وذلك لندرتة . وهكذا لم يبق من هذه العقوبة إلا قساوة الحكم التي جعلت الناس جميعا في أمن واستقرار ، وحفظت حتى على الراغب في السرقة سلامة يده ، اذ منعتة قساوة حكم العقوبة نفسها من الوقوع في الجريمة . ان هذه البلاد عندما كانت في ظل قانون العقوبات القرنسى في عهد الدولة العثمانية ، ما كان يستطيع الخجاج السير في أمن على مالهم وأرواحهم ، ما بين المدينيتين المقدستين : المدينة المنورة ومكة المكرمة ،

الا في ظل حراسة قوية من الجيش . ولكن عندما انتقل الحكم في هذه البلاد الى الدولة السعودية ، وأعلنت فيها شريعة القرآن ، اختفت الجريمة فورا ، وأصبح المسافر من الظهران على الخليج ، الى جدة على البحر الأحمر ، فضلا عن السفر فيما بين المدينتين المقدستين ، يستطيع متابعة سفره وحده في سيارته الخاصة ، وان يخترق الصحراء ، ويجتاز أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر ، دون أن يخشى على نفسه او على ماله ، ولو بلغ ماله الملايين من الدولارات ، ولو كان أجنبيا عن البلاد » .

وعاد رئيس الوفد السعودي الى الحديث ليقول :

- « ان أموال الدولة هنا - حيث تطبق الشريعة الاسلامية - تنقل في سيارة عادية ما بين مدينة واخرى ، ومصرف وآخر ، دون أية حراسة ولا حماية ، غير سائق السيارة نفسه ، ولكن خبروني أيها السادة : هل تستطيع دولكم في الغرب أن تنقل مبلغا من المال من مصرف الى آخر في احدى العواصم ، دون حراسته بالعدد الاكبر من الحراس المسلحين ، وبالعدد اللازم من السيارات المصفحة ؟ هنا فقط أيها السادة ، وفي هذه البلاد حيث تطبق فيها أحكام الشريعة الاسلامية ، استطاع وزير خاجية الولايات المتحدة الأمريكية ، المستر روجرز ، في زيارته للمملكة العربية السعودية في العام المائى ، ومرافقوه ، التخلي عن سياراتهم المصفحة التى رافقتهم في طائرات خاصة في زيارة اكثر من عشر دول . . . هنا فقط ، رفضت المملكة العربية السعودية قبول انتقال هؤلاء الضيوف في سياراتهم المصفحة هذه ، ولم يتم المستر روجرز نفسه زيارته ، حتى تخلى اخيرا عن حرس الشرف الذى يصحب ، في العادة ، الضيوف من الدول الأجنبية ، ونزل الى السوق وحده وبدون حراسة ، وقال : هنا ، وفي هذه البلاد فقط ، يشعر الانسان بالامان وبلاستغناء عن الحراسة » .

ثم اختتم حديثه قائلا : « وبعد ، أيها الضيوف الكرام : الا تشعرون معنا بعد هذه النتائج الباهرة من الامن والاستقرار والاطمئنان في هذه البلاد على النفس والمال ، انه من الواجب علينا أن نتمسك بأحكام ديننا في عقوبة هذه الجرائم التى كادت لا تذكر في هذه البلاد ، في حين لا يأمن الانسان مثل ذلك ، لا على نفسه ولا على ماله ، في جميع العواصم الكبرى المتحضرة التى تحكمها القوانين البشرية ؟ اننى لا ازال اذكر في الصيف الأسبق حينما كنت في باريس ، حادث السطو المسلح ، على أكبر مطعم من مطاعم باريس ، بالقرب من شارع الشانزلزيه ، وبحضور المئات من الزبائن ، حيث تمكن المجرمون من افراغ صندوق المطعم ، بينما جميع الزبائن مشدوهون ،

لا يستطيعون حراكا ، وقد اصبحنا والخبر منشور في جميع الصحف
الباريسية « (١) » .

وكان الوفد الحقوقي الأوربي برياسة المستر سيد ماك برايد الأستاذ
بجامعة دبلن ووزير خارجية ايرلندا السابق ، والرئيس السابق أيضا لاتحاد
المجلس الأوربي ، والسكرتير العام السابق كذلك للجنة التشريعية الدولية .

* * *

وبعد : فقد اخترت اربع صفحات ذهبية من تاريخ عبد العزيز بن عبد
الرحمن الفيصل آل سعود ، الحافل بكل جليل وخطير ، هي اظهر ما عرف
عنه واشتهر به :

الاولى : غزوه الرياض بأربعين رجلا ، وارساؤه قواعد مملكة عتيدة ،
هي اليوم في مقدمة شقيقاتها العربيات : عزا وجاها وسلطانا .

الثانية : موقفه الكريم العظيم المشرف من قضية فلسطين ، المتمثل في
دفاعه عنها ، دفاعا سنده الدليل والحجة والبرهان ، ومصارحته اصدقاءه
من الأمريكيين والبريطانيين بسوء عاقبة تأييدهم الصهيونية ، وتحذيرهم من
مغبة عدائهم العرب . ولقد تحقق ما حذر منه وأندر به .

الثالثة : حبه مصر وشعبها ، ووقوفه بجانبها مدافعا عنها .

الرابعة : هذا الأمن الشامل الذي تنعم به مملكته ، ويسود جميع أرجائها
مع سعة أرضها ، مما لم يتوفر الى اليوم في أعظم دول العالم حضارة ومدينة
ورقيا .

ولعلنا بمرض هذه الصفحات البيض - وكل صفحاته بيض - من حياته ،
أكون قد وفقت في رسم صورة صادقة لهذا الملك العربي العظيم ، أمام قراء
العربية ، لا زيف فيها ولا تزوير ولا تجميل .

ومع هذا ، فلكي اكمل لهم صورته ، أجمل فيما يلي من السطور ، حقائق
عرفناها عنه ، ويجب أن يعرفها كل عربي :

● كان الرجل حفيظا على دينه ، لا يقبل أن يمسه سوء من قريب
أو من بعيد ، ولا يقبل في سبيل هذا الحفاظ شفاقة شفيح في منحرف ، ولو
كان هذا الشفيح من الدين يحمل لهم كل تقدير واحترام .

حدثني المرحوم محمد علي علوبة باشا - من وزراء مصر السابقين ومن
المجاهدين العرب في شتى الميادين ، وقد عقدت فصلا عن حياته في الكتاب

(١) من كراسة من الندوة اصدرتها وزارة الاعلام السودبية في سنة مقد الندوة

الأول من « رجال ومواقف » - منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وكنا في داره بمصر الجديدة ، عن شدة تمسك الملك عبد العزيز بدينه ، في معرض الحديث عن نظرة بعض زعماء العرب يومذاك الى الدين ورسالته ، فقال :

- لجأ الى شاب سعودي اسمه عبد الله القصيمي ، لأتوسط له عند الملك عبد العزيز كي يرضى عنه ويصفح ، فيعيده الى ساحة رعايته وعطفه، فكتبت الى الملك راجيا رضاه عنه ، فما لبثت أن تلقيت من جلالته كتابا يفيض بشدة الحرص على الدين « ومقاومة المعتدين عليه بلا رحمة أو شفقة » .

وأخرج علوبة باشا من درج بمكتبه ، كتاب الملك اليه ، وقدمه الى لأقرأه وتاريخه ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦ ، فقرأت :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، الى صاحب السعادة محمد على علوبة باشا سلمه الله

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، فقد تلقينا كتاب سعادتكم المؤرخ ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٦ ، وأحطنا علما بما جاء فيه ، ونحن اذ نشكر لكم عواطفكم ، وحسن مقاصدكم ، نحب أن نوضح لكم حقيقة قضية عبد الله القصيمي .

« تعلمون سعادتكم أن المذكور هو من رعايانا ، ونحن الذين أحطناه بمساعدتنا ومعاونتنا ، وكنا نعنى بأمره العناية التامة ، ولا قصرنا عنه في شيء حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه ، ولكنه حاد أخيرا عن سبيل الحق، وتنبك الطريق السوي ، فأصدر كتابه « هذه هي الأغلال » الذي ملأه بما يمس الدين، ويخالف عقيدة المسلمين. ولما كان المذكور من رعايانا وخاصتنا، صار لزاما علينا ان ندعوه الى الحق . ونحن اذا راينا امرا يمس الدين قاومناه ولا نبالي ايا كان الفاعل ، سواء كان القصيمي او غيره . وقد دعوناه الى التوبة والرجوع الى الحق ، ولكنه لم يفعل . لذلك فمن المستحيل ان نرضى عن المذكور الا اذا رجع الى الصواب وخطأ نفسه . وتعلمون اننا لسنا ممن يتعصبون في أمور لا فائدة منها، اذ أن هنالك كتبا لا تحصى مطبوعة ، مشحونة بالعقائد الفاسدة . اما ان يصدر مثل ذلك من احد رعايانا ، وممن ينتسب الينا ، فلا نقدر على السكوت عليه ، ونبرا الى الله منه . فالقصيمي اذا رجع الى الصواب، كان بها ، والا فلا . وسعادتكم تعلمون عقيدتنا ، هي واضحة مثل الشمس ، ولا تقبل ولا نوافق على مسها أو تبديلها .

« هذه هي حقيقة القضية (١) ، شرحناها لسعادتكم ، لتكونوا على بينة منها .

« تولانا الله واياكم بعنايته وتوفيقه . والسلام » .

ختم « عبد العزيز »

وهذه صورة زكوغرافية لكتاب الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ٢١ / ١ / ٥٨ / ١٠٥٤٩

التاريخ ١٠ / ٤ / ١٣٦٦

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى صاحب السعادة محمد علي علويه باشا سلمه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فقد تلقينا كتاب سعادتكم الموعود ٢٧ ربيع الاول ١٣٦٦
واحطنا علما بما جاء فيه . ونحن اذ نشكر لكم عواطفكم وحسن مقاصدكم نحب ان نوضح لكم حقيقة
قضية عبد الله القصيمي .

تعلمون سعادتكم ان المذكور هو من رايانا ونحن الذين احطنا بمساعدتنا ومماونتنا وكما
نعني بامرہ المنصاية التامة ولا قصرنا عنه في شيء . حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه ولكن
حاد اخبرنا عن سبيل الحق وتكذب الطريق السوي فاصدر كتابه (هذه هي الاغلال) الذي ملأه
بما يصح بالدين ويخالف عقيدة المسلمين ولما كان المذكور من رايانا وخاصتنا صار لزاما علينا
ان ندعوه الى الحق ونحن اذا راينا امرا يصح بالدين قاومناه ولا نهالي ايا كان الفاعل سواء كان
القصيمي او غيره وقد دعواناه الى التوبة والرجوع الى الحق ولكنه لم يفعل . لذلك فمن المستحيل
ان نرضى عن المذكور الا اذا رجع الى الصواب وخطأ نفسه . وتعلمون اننا لسنا ممن يتعصبون
في امور لا تائده منها اذ ان هنالك كتبا لا تحصى مطبوعة مشحونة بالعقائد الفاسدة اما ان يصدر
مثل ذلك من احد رايانا ومن ينتمى اليها فلا نقدر على السكوت عليه ونهرا الى الله منسمة
فالقصيمي اذا رجع الى الصواب كان بها والا فلا . وسعادتكم تعلمون عقيدتنا هي واضحة
مثل الشمس ولا تخبيل ولا توافق على مسها او تبديلها هذه هي حقيقة القضية شرحناها لسعادتكم
لتكونوا على بينة منها تولانا الله واياكم بعنايته وتوفيقه والسلام

(١) عبد الله القصيمي صاحب هذه القضية ، هو كاتب سعودي الف كتابه « هذه هي
الاغلال » في عام ١٩٤٨ ، سخن فيه من الخالق عز وجل ومن قدرته ، ومن النبي عليه الصلاة

● حتى مع أبنائه ، هو قاس شديد عليهم في سبيل حفاظه على الدين .
فقد تفقد بعد صلاة الجمعة ابنا له في المسجد ، فلم يجده ، ثم رآه في الدائرة .
فسأله عن سبب عدم صلاته الجمعة ، فقال له انه تأخر عنها عن غير قصد ،
فأمر بسجنه وسجن خدمه ، حتى لا يتخلفوا عن الجمعة مرة أخرى .

● وانطلاقا من تدينه الشديد باعتباره امام الاثمة ، نراه يندد بالشيعيين
كما رأيت في كتابه الى المستر ايدن . ثم نراه في رسالة بعث بها الى المنسذوب
السامى البريطانى في مصر في ١٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٦ ، يبدى كرهه
الشديد للسوفييت ولحكومتهم ، فقال عن هذه الحكومة عندما حاولت حيازة
نفوذ اقتصادى في بلاده :

« قد يكون المفيد لاقتصاديات بلادنا ، تسهيل التجارة مع روسيا ،
ولكننا نرى في ذلك ضررا لا يستهان به على منتجات البلاد البريطانية . رانه
وان لم يكن بيننا وبين الحكومة البريطانية أية اتفاقية تجارية لرعاية منتجاتنا،
فاننا حبا في المحافظة على المصالح البريطانية ومقاومة لمنافسسيها ، وقفت
حكومتنا في الحجاز ذلك الموقف الذى لا بد أن بلغكم أمره . على أن السوفييت
لم يألوا جهدا في القرب منا وتقديم المساعدات لنا ، وهم على موقفهم وقربهم
من كثير من بلاد الشرق ، لكننا لم نزل حريصين على صداقتنا مع الحكومة
البريطانية » .

والسلام ومن دعوته ورسالته ، ومن الاسلام والمسلمين جميعا ، فقامت عليه قيامة بنى وطنه ،
فغادر السعودية الى جاراتها ، فاذا افتضح أمره في واحدة منها ، ابعده عن أرضها ، وهكذا
عاش شريدا ، وقد يكون شريدا الى اليوم .

فلما هبط القاهرة طريدا وضييفا قليلا ، لجأ الى المغفور له محمد على منوبة ماشا بعد
ما علم من تقدير الملك عبد العزيز له ، ليتوسط له عند جلالته كما رأيت .
وقد ظهرت ثلاثة كتب في الرد عليه بالحجة والبرهان ، هي « الشواهد والنصوص من
كتاب الافلال ، على ما فيه من زيغ وكفر وضلال » للاستاذ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس
بالحرم المكي الشريف ، وقدم له العالم والزمى المصرى المشهور المرحوم محمد احمد الغمراوى
بك . ثم كتاب « تنزيه الدين وحملته ورجاله ، مما افتراه القصىمى في اغلاله » لعلامة القصيم
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى . ثم كتاب « الرد على ملحد القصيم » للاستاذ
عبد الله بن على بن باديس

ومن الغريب أن للقصيمى هذا كتابا سماه « الثورة الوهابية » أصدره في عام ١٩٣٦ ،
تحدث فيه عن الاسلام جديشا طيبا ، وعن دعوة محمد بن عبد الوهاب حديث المقتنع بها المؤيد
لها ، وعن الملك عبد العزيز وفضله في توحيد الجزيرة ، بأسلوب ينم على تقديره لجلالته ،
ولما صنع ويصنع من أجل شعبه . فما الذى مال به من الهدى الى الضلال ؟ وهل أغراه
اعداء الاسلام بالمال ، بر كما استنتج بعض من ردوا عليه ؟

ومما استرعى انتباه المراقبين السياسيين في تلك السنوات ، أن روسيا كانت أولى الدول التي اعترفت بالملكة العربية السعودية عند قيامها ، فقالوا يومذاك : انه « طعم » تقدمه روسيا للدولة الناشئة كي تفرجها على التعامل معها .

والرجل البدوي العظيم الصريح ، مع صداقته لبريطانيا هذه الصداقة التي يحرص عليها في كل وقت وحين ، لم تمنعه هذه الصداقة الوطيدة من ان يصارح ممثلها ورسولها اليه ، جلبرت كلايتون ، في اجتماعهما في عام ١٣٤٣ : « بأننا مستعدون للتعاون مع بريطانيا والمحافظة على مصالحها ، ما دامت مصالح العرب مصونة . وهذا أمر أبلغنا الحكومة البريطانية به ، أكثر من مرة ، والعرب جميعا يعرفون هذا » .

ثم أظهر الملك ، مع هذا ، اعجابه بالانجليز وشرح أسبابه ، فقال له كلايتون :

– « ان أسباب اعجابكم صحيحة . ولكن هذا الملك الواسع لم يؤسس الا في مئات السنين ، ولكن الا يصبح لنا نحن الانجليز ان نعجب بك ؟ فانك في ثلاثين سنة قد أسست ملكا واسعا ، واذا اطرد لك هذا الفتح وهذا التقدم ، فأظن انه في نصف المدة التي أسسنا فيها ملكنا ، تؤسس أنت امبراطورية مثل أو أكبر من امبراطوريتنا . وهذا ليس ببعيد اذا ساعدتكم ظروف الزمان ، واخذتم انتم بسنة التقدم . فان أسلافكم العرب قد شيدوا امبراطورية عظيمة في مدة قصيرة جدا لم يعرف التاريخ مثلها » .

فقال له الملك : « وان كانت هذه هي أمنية العرب ، الا اننى لا أعتقد في نفسى القدرة على تحقيقها . وكل ما أتمناه هو ان يجعل الله من رجالنا ، من يماثلونكم في الاخلاص والتضحية لبلادهم »

ولذلك على صدق فراسة بريطانيا فيه ، وصحة بنوءها بقوته في الساحة العربية ، ما قاله المعتمد البريطاني في مصر للشريف حسين في ٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ في رسالة منه اليه :

– « اننى أرجوكم أعظم الرجاء في ان تجتهدوا لمنع كل البواصت الجهورية التي تؤدي الى سوء التفاهم مع الأمير سعود بشأن سياستكم نحوه ، فانه ، وان كان أقل درجة من جلالتم وأضعف موارد ، لا ننكر أنه ذو تأثير واهمية في السياسة العربية »

● كان يقول دائما : لقد ترعرعت في البادية ، فلا اعرف الكلام المزوق ، ولكن اعرف الحقيقة عارية عن كل تزويق . ان فخرنا وعزنا بالاسلام . والله

لا يهمني مال قارون ولا غيره ، وكل همى موجه لاعلاء كلمة الدين ، واعزاز المسلمين .

وكان يقول أيضا : أحب الصراحة في القول ، وثلاثة أكرههم ولا أقبلهم :
رجل يكذب على متعمدا ، ورجل ذو هوى ، ورجل متملق ، فهو أبغض الناس عندي .

● من صراحته ، ما رواه لى المرحوم عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي المشهور - وقد أقام مدة طويلة في مصر متخذاً منها منفى اختيارية أمام ملاحقة الفرنسيين له - بعد عودته الى القاهرة من الرياض وقد كان فيها ضيفا على الملك عبد العزيز .

قال له الملك في ذات مساء : يسموننا بالوهابيين ، ويسمون مذهبنا الوهابي ، باعتباره مذهباً خاصاً ، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها ذوو الأغراض . نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد ، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح . ونحن نحترم الأئمة الأربعة ، فلا فرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة . فكلهم محترمون في نظرنا .

● كان كريما يبذل بسخاء للمحتاجين ليؤمنهم من الحاجة . أعطى فقيراً صرة مناله الصدقة ، فقال له سائق سيارته : ان هذه الصرة ليس فيها ريبالات من الفضة ، لكن بها جنيهات من الذهب عددها ثلثمائة جنيه . فنادى الفقير ، فلبى ندائه متردداً ، ظاناً انه سيسترد منه الصرة . فقال له الملك : أردت أن أهبك ريبالات ، وما نويت إلا هذا ، ولكن الله هو الذي وهبك هذا الذهب ، فالهبة ليست هبتى لكنها هبة الله اليك ، فاشكر الله وحده عز وجل ، واشتر بها نخيلاً ، واعمل ولا تكسل .

وكما كان كريماً على الفقراء من رعيته ، كان كريماً مع شعبه في الأزمات والمحن . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية ، قلت واردات البلاد من المون والأرزاق ، فخاف على رعيته من التجار الجشعين ، فرتب لكل فرد منهم - عدا الموظف والفنى - خبزاً وطعاماً يتناوله في كل صباح ، من جيبه الخاص ، هذا الى جانب مراكز تموينية حكومية أمر بفتحها ، تباع فيها المواد الضرورية بأسعار رخيصة .

قبل نشوب الحرب الثانية، فكر في مستقبل شعبه، فهو شعب عاطل من العمل، ومن الزراعة، ومن التجارة - الا في القليل - فالى متى تظل حاله هكذا؟ فامر باستقدام جماعة من الخبراء والفنيين الأجانب، للبحث في باطن الأرض لاستخراج معادنها، وهي غنية بها. فوافدت « شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » المستر لويد هاملتون في عام ١٩٣٣ للاتفاق مع الحكومة السعودية على منح الشركة امتيازاً للبحث والتنقيب عن النفط، وإمضى الاتفاق في جدة في ١٩ مايو من السنة نفسها. وفي شهر سبتمبر وصل الخبراء والفنيون ومعهم الآلاتهم ومعداتهم، وبدأوا الحفر في عدة مناطق، فحفروا سبع آبار الى سنة ١٩٣٧، أنفقت عليها أكثر من ثلاثة ملايين دولار، ولم يبد لهم ما يدل على وجود نفط أو غيره، وكادوا أن يقفوا عملهم، لولا أن البئر السابعة في الدمام تفجرت بعد حفر على عمق ٤٧٢٧ قدماً، بطوفان من الذهب الأسود، أذهلهم. وكان هذا الكشف نقطة تحول في اقتصاد المملكة، بل في اقتصاد المنطقة العربية كلها، واحتفلت الحكومة السعودية احتفالاً عظيماً في يوم أول مارس سنة ١٩٣٩، بإبخار أول ناقلة للنفط من مياها الى الخارج، فهو من الأيام المشهودة في تاريخ المملكة، صنعه ابن سعود بسديد رأيه، وبعد نظره.

● أدخل الماء العذب الى جدة، فشربه أهلها لأول مرة، من جيبه الخاص، في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٧، بعد ما كانت تعتمد على مياه الآبار والصحاري غير الصحية.

● في ميدان سعيه لخدمة شعبه والعمل على رفاهيته، طلب الى الحكومة الأمريكية، إمداده ببعض الخبراء الزراعيين، ليطوفوا بأنحاء مملكته، ثم اقترح ما يروونه لخدمة الأرض الخصبة فيها ليزيد إنتاجها. فلبت طلبه، وأوفدت بعثة من خبراءها، ظلوا في الأرض السعودية نحو ثمانية أشهر، قدموا بعدها تقريرهم الى جلالته، وقد ضمنوه ما راوا وما يقترحون

قالت البعثة في مقدمة تقريرها، وهو في ١٩٢ صفحة من القطع الكبير -

« ان الخدمات التي قامت بتأديتها بعثة الولايات المتحدة الأمريكية الزراعية، الموفدة الى البلاد العربية السعودية، هي خدمات قد جرى تقديمها من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، نزولاً على طلب حضرة صاحب الجلالة عبد العزيز السعود

» وقد غادرت البعثة مدينة وشنطن في ١٩ مارس سنة ١٩٤٢، ووصلت الى مدينة القاهرة في ٢٦ مارس، حيث تأخرت فيها تأخراً لم يكن

من المستطاع تفاديه ، ووصلت البعثة بعد ذلك الى مخيم حضرة صاحب
الجلالة الملك عبد العزيز بالقرب من مدينة الرياض في يوم ١٠ مايو . وفي
اثناء قيام البعثة بتأدية مهمتها ، قطعت في رحلاتها مسافة مجموع طولها
١٧٤٠.٨ كيلو مترات (١٠٧٩٥ ميلا) بالسيارات والجمال والقوارب
البحارية ، بما في ذلك رحلاتها الى جزر البحرين . و « فرسان »

« ولم يكن من المأمول في بلاد واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، كالمملكة
العربية السعودية ، زيارة كل مكان فيها . بيد أن المعتقد أن النماذج
الواضحة للأراضي والمناخ والتربة ، قد تمت مشاهدتها فعلا ، وبذلك أصبح
من الممكن مقارنة الأماكن التي وضعت التقارير عنها ، بالأقسام التي لم يجر
محصها ، والحصول على الارشادات الضرورية لتحسينها واستثمارها .

« وتقع المدة قضيناها في البحث ، بين ١٥ مايو و ٥ ديسمبر سنة
١٩٤٢ ، والخارطة المرفقة بالتقرير ، تبين مواقع الامكنة التي زرتها والطرق
التي سلكتها .

« وقد قوبلت البعثة في كل مكان حلت به ، بكل ترحيب وكرم وفادة ،
من جميع الحكام الاداريين ، وموظفي الدولة ، ورعايا الحكومة العربية
السعودية من جميع الطبقات »

● لن ينسى أهل الحجاز أنه أنان لهم مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة
- كعبراء ، وأنه أنشأ مظلات للحرم الشريف ، وللسمي بين الصفا والمروة
على الحجاج وهج الشمس في الصيف ، والمطر في الشتاء

● كما لن ينسوا له أنه صنع باب الكعبة المشرفة من الفضة الخالصة
وفد حلّى بآيات قرآنية كريمة حروفها من الذهب . كما صنع حلقتي
الباب من الذهب كذلك ، كل هذا من جيبه الخاص ، في سنة ١٩٤٧

● أسس أول ادارة طبية حديثة في الرياض في سنة ١٣٤٢ ، عقب شكواه
من قرحة في إحدى شفتيه ، عجز عن أبرائها معالجة المحيطين به بالكي وقراءة
التعاويد ، فاستفأوا بالطب الحديث بعد أن أعيتهم الحيلة ، فدعوا من
البحرين طبيبا أميركيا عالجاها بالجراحات وبالضمادات ، فشفى الملك
واستعاد صحته بعد اسبوع واحد . بعد هذا بأشهر أصيب بالرمد ، فعالجه
بالطب الحديث ، مما جعله يؤمن به (١)

(١) كتاب « خمسون عاما في جزيرة العزب » للشيخ حافظ وهبه - ص ٤٦

● كما أنشأ أول فرقة للمطافئ في مكة

● كان يفضى برأيه في المدينة الغربية لمحدثيه ، فيقول لهم :

- « ان المدينة صنوف أشتى ، لكل بلد منها صنف خاص لا يلائم غيرهم ولا أريد ان ينقلب العربي في بلادى أوريبيا لمجرد احتكاكه بالحضارة الأوربية ، إذ ان لوطننا تقاليد خاصة لا محيص من احترامها واتباعها . والذي أراد هو الا نحاول انتحال عقلية أهل الغرب . وعندى ان بعث القديم ، يعد وسيلة من وسائل التجديد »

● خطب في الحجاج الذين أقام لهم مأدبة في ٦ من ذى الحجة من عام ١٣٤٩ ، فقال :

- « يقولون ان المسلمين في تأخر ، وبحثوا ليجدوا طريقة لتقديم المسلمين ، فما وجدوا طريقة أمامهم الا ان يقلدوا الأوربيين ، ولكنهم لم يقلدوهم فيما كان سبب قوتهم ومنعتهم ، بل قلدوهم فيما لا يسوغ في دينهم . فقد مضى على هؤلاء الذين يدعون الاسلام عشرات السنين ، وهم يدعون الناس في السر والعلن ، بالقول وبالعمل ، لتقليد الأوربيين . ولكن من منهم عمل الى اليوم ابرة او صنع طيارة او عمل بندقية ومدفع ؟ لقد قلدوهم ولكن في غير ما يعود عليهم بالنفع . قلدوهم فيما يخالف ما ينتسب اليه المسلم ، وقلدوا ملاحدهم في الاعراض عن دين الله ، ثم بعد ذلك يدعون انهم مسلمون ، وانهم يدافعون عن الاسلام

« سمعت قولاً لرجل تصدر للزعامة بين من يدعون الاسلام يقول :- يجب أن نتفق مع « اخواننا » اليهود ! وأى صلة بالاسلام لمن يؤاخى اليهود؟ وهل هناك للمسلم اخوة غير اخوة النسب او الاسلام ؟ كذبوا والله ثم كذبوا . ان الاسلام ليبراً من كل بدعة ابتدعوها ، وخرافة اختلقوها » كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا . « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

« اننى والله لا احب الا من احب الله حبا خالصا من الشرك والبدع . لنا والله لا اعمل الا لاجل ذلك ذلك ، ولا يهمنى ان اكون ملكا او فقيرا .

« اللهم ان كنت تعلم ان ما أقسم عليه مخالف لما اعتقد ، فأسألك ان تكفى المسلمين سوئى . والله ثم والله - والكاذب عليه لعنة الله - اتى لاعتنى ان يجمع الله النصارى واليهود وكل انسان على وجه الأرض ، ويشهدوا ان

لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، شهادة خالصة مخلصه ، وكون اتاه
وجميع اولادى وافراد عائلتى ، فداء اسلام الناس كلهم . والله ثم والله ،
انى لافضل ان اكون على رأس جبل آكل عشب الأرض ، أعبد الله وحده ،
من ان اكون ملكا على سائر الدنيا وهى على حالتها من الكفر والضلال . اللهم
انك تعلم انى احب من تحب ، وأبغض من تبغض

« والله ، والله ، ان العجوز القابعة فى كوخها ، والتى لا تملك من الشياىب
الا اطمارا بالية ، وهى تعبد الله وحده عبادة خالصة ، هى احب الى قلبى
من اى انسان بلغ امره من العظمة والشأن الرفيع ما بلغ ، ولا يؤمن بالله
ايمانا صادقا خالصا ، ولا يعمل بما جاء فى كتاب الله » (١)

● وخطب فى مادبة اخرى ادبها للحجاج فى ٥ من ذى الحجة ١٣٥١ ،
فقال :

— « فريق من المسلمين ينقمون على لاننى ادعو لعبادة الله عبادة خالصة»
ولانهم يريدون ان ارتكب المنهيات فأمر باقامتها فى البلاد . فاننا ابرأ الى
الله من هذه الدعوة الباطلة ، وافخر باننى سلفى محمدى على مئة ابراهيم
الخليلى

« أما انى ادعى الرياسة على الناس أو اطالب بها ، فهذه ليست
صحيفة . على ان مقامى ليس دون ذلك .

« انا عربى ومن خيار الأسرة العربية ، ولست متطفلا على الرياسة
والملك ، فان آبائى واجدادى معروفون منذ القدم بالرياسة والملك . ولست
ممن يتكلمون على سواعد الغير فى النهوض والقيام ، وانما اتكالى على الله ،
ثم على سواعدنا يتكلم الآخرون ويستندون .

« أنا لا افتش ولا أسعى للرياسة ، ولا أريد علوا فى الأرض ، وانما
يهمنى فى الدرجة القصوى ، جعل كلمة الله هى العليا ، ولا يهمنى فى هذا
الشأن ما يعترضنى فى الطريق من المصاعب والمتاعب .

« لقد حاربنا جيوش جرارة فى أوقات مختلفة منذ ان قمنا بهذه
الدعوة المباركة ، فكان نصيبها رغم كثرة عددها وعددها ، الفشل والخسران
والله الحمد

« ماذا يريدون من ابن سعود ؟

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الثانى - ص ٦٢٨

«ماذا عمل ابن سعود؟»

« هذه أعمالى واضحة بينة : أزلت كل شبهة ، وأقمت كل معروف ، ونهيت عن كل منكر ، وحجتي في ذلك كتاب الله وسنة رسوله »

« يقولون اننى اطلب ان اصير خليفة على المسلمين . انا ما ادعيت هذا ولا طالبت به ، لان على الخليفة واجبا هو تنفيذ اوامر الدين على كل فرد من أفراد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها

« وهل هناك من رجل يستطيع ان ينفذ ذلك على المسلمين في هذه الأيام ؟

« لقد كان من المستطاع ان يكون ذلك في عهد الخلفاء الراشدين ، أيام كانت كلمتهم تسرى على كل فرد من أفراد المسلمين . أما اليوم فلا يمكن ذلك

« أنا مسلم عربى ، رأست قومی بعد مصاعب طويلة ، ولا فخر في ذلك . وتسير الآن ورائى جيوش جرارة لا تقل عن أربعمائة ألف مقاتل : ان بكيت بكوا ، وان فرحت فرحوا ، وان أمرت نزلوا على ارادتى وأمرى ، وان نهيت انتهوا . هؤلاء هم جنود التوحيد ، أخوان من أطاع الله ، يقاتلون ويجاهدون في سبيل الله ، ولا يريدون من وراء ذلك الا رضا البارى جل وعلا

« ان هذه القوة موقوفة لتأييد الشريعة ونصرة الاسلام في الديار التى ولانى الله أمرها ، أعادى من عادى الله ورسوله ، وأصالح فيها من لا يعادينا ولا يناوئنا بسوء . وانى وجندى جنود في سبيل جعل كلمة الله هى العليا ، ودينه هو الظاهر » (١)

● وقال في جمع من العلماء في ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٥١ في الرياض :
« لقد كنت لا شىء ، وأصبحت اليوم وقد استوليت على بلاد شاسعة واسعة ، يحدها شمالا العراق وبر الشام ، وجنوبا اليمن ، وغربا البحر الأحمر ، وشرقا الخليج العربى .

« لقد فتحت هذه البلاد ولم يكن عندى من العتاد سوى قوة الايمان ، قوة التوحيد ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، فنصرنى الله نصرًا عزيزًا . لقد خرجت وأنا لا أملك شيئًا من حطام الدنيا ، ومن القوة الشريفة ، وقد تآلب على الأعداء ، ولكن بفضل الله وقوته تغلبت على أعدائى وفتحت كل هذه البلاد » (٢)

(١) المصدر السابق - ص ١٢٣ - ٢ - المصدر السابق - ص ١٢٨

● ثم انظر ما صنعه مع الادارسة ، وما صنعه هؤلاء معه :

لما توفي محمد على الادريسي الذي أسس امارته في تهامة وعسير على قواعد ثابتة ، تولى ابنه السيد على ، الأمر من بعده ، لكنه كان ضعيفا ، فاحتل الامام يحيى امام اليمن « الحديدية » و « ميدى » . فنار الادارسة وطرردوا عليا ، فلجأ الى عبد العزيز فأواه واكرمه ، وخلفه عمه حسن فلم يكن أفضل من ابن أخيه على ، ومنح الانجليز امتيازاً باستخراج الزيت من جزيرة « فرسان » بشروط ظالمة للبلاد ، فلى ير الا اللجوء الى عبد العزيز يطلب منه بسط حمايته على امارته ، وعقد معه « معاهدة عسير » في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦ (١٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥) . وقد تضمنت :

« ١ - يعترف الامام السيد حسن بن على الادريسي بان الحدود القائمة للمبينة في الاتفاق المعقود في ١٠ صفر سنة ١٣٣٩ بين سلطان نجد والامام السيد محمد على الادريسي الذي كانت تابعة له ، أصبحت من هذا اليوم ملك الحجاز ولسطان نجد بموجب هذا الاتفاق .

« ٢ - ليس لامام عسير أن يباشر مفاوضات سياسية مع أى حكومة كانت أو أن ينال أى امتياز تجارى ، بلا رضى سابق من جلالة ملك الحجاز

« ٣ - ليس لامام عسير أن يشهر الحرب أو يعقد الصلح الا بموافقة ملك الحجاز

« ٤ - ليس لامام عسير أن يتخلى من قسم من البلاد المبينة في المادة

الأولى

« ٥ - يعترف ملك الحجاز بسلطة امام عسير على الاقاليم المبينة في المادة الأولى

« ٦ - يعترف ملك الحجاز بان ادارة شؤون عسير الداخلية من خصائص الامام ؛ بحيث يراول السلطة طبقا للشريعة الاسلامية {

« ٧ - يعاهد ملك الحجاز على منع كل اعتداء يقع على بلاد عسير من الداخل والخارج .

« ٨ - يتعاهد الفريقان على احترام منطوق هذه المعاهدة واجراء تفصووصها « (١) .

(١) كتاب « الاسلام وآسيا امام المطامع الاوربية » للكاتب الفرنسى أوجين يونيه - ص ٢٢

وكان أول عمل لعبد العزيز ، سعيه عند الانجليز ، فالقى امتياز استخراج الزيت من « فرسان » ، وارسل بعض رجاله لمعاونة الحسن في إدارة الامارة ، غير انه لم يستطع السير بها الى امام ، وعصته رعيته ، فأرسل الى عبد العزيز في ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ ، أى بعد أربع سنوات من امضاء « معاهدة عسير » ، برقية يتنازل فيها عن الامارة ، فقال : « نقرر بموافقتنا ورضانا اسناد ادارة بلادنا وماليتنا القعهدة جلالتم » . وقبل عبد العزيز التنازل في امر ملكى اصدره في يوم ٢٩ جمادى الثانية ، أى بعد اثني عشر يوما من تلقيه البرقية

وصونا لكرامة أسرة الادارسة ، جعل الامراء السعوديين الذين يتولون الامر في الامارة ، في ظل سيادة الحسن ، حفظا لمقامه . وكان يعطيه في كل سنة نحو ٢٥٠ ألف ريال ، لانفاقها على ادارة الامارة

وهنا يحسن بى ان اسجل ما حكاه عبد العزيز بنفسه عن غدر الحسن الادريسي به ، بعد اكرامه له ، فقال :

« جرت صداقة بيننا وبين محمد الادريسي ، وعندما مرض اوصاني بآله واولاده ، ولما توفى تولى ابنه على ، وكان الخلاف بينه وبين عمه ، الحسن ، وتولى الحسن ، واصلحتهم ، ووضعت نظرى على الحسن بناء على طلبه وطلب اهل عسير ، وأبقيت عليا عندي

» وبعد أربع سنوات تقريبا ، ارسل الى الحسن يخبرني بعجزه عن ادارة البلاد وتأمينها ، وتنازل لى عنها ، فقبلت ذلك منه ، ولكنى أبقيت على مقامه وامارته ، وتحملنا في سبيل وفائنا بعهد الادريسي ، مشاق ومصاعب كثيرة ، وخسرنا اموالا طائلة ، وكنت انفق على تلك المقاطعة فوق وارداتها ، ٢٠٠ الى ٢٥٠ ألف ريال في السنة تقريبا ، وعاملنا الادريسي بكل معاملة حسنة . ثم لم أشعر الا ووصل الى ان الادريسي يعمل ضدى ، فعجبت وقلت هذا غير ممكن . فلم تمض أيام حتى أبلغت ان الادريسي هجم على رجالى الدين هم عنده في « جيزان » وحاصرها ، فأرسلت سرية قليلة تتألف من ٤٠٠ في السيارات ، و ٢٠٠ في زورق من الزوارق البخارية ، وساروا لفك الحصار عن رجالى . وفي أثناء طريقهم الى جيزان ، كان الادريسي قد تغلب على رجالنا فيها ، وابرق الى يتملق بعد ذلك . فأبرقت اليه انه ان كان صادقا في دعواه ، فيمكنه ان يراجع امير السرية التى ارسلتها ، وأبرقت لأمير السرية المتقدم ، بأن لا يحدث حربا مع الادريسي

« ولكن أراد الله أن يبطل كيد الكائدين ، فحدثت تأثيرات جوية ، لم يمكن بسببها نقل برقيتنا الى الادريسي فلم تصل اليه ، ولكن الادريسي كان عازما على الغدر ، فأرسل رجاله لتخريب طريق السيارات ومقاومة السرية القادمة ، ولم يصل أمرنا للسرية بالتوقف بسبب التأثيرات الجوية أيضا ، فتقدمت ، فاحتلت جيزان » (١)

وكان احتلالها في ١٨ رجب سنة ١٣٥١

ومع هذا فقد منح الأمان للادريسي ومن معه من المتمردين اذا أخذوا الى السكنينة ، ولكن الغادر ظل طريدا حتى استقر به المقام عند الامام يحيى ، فطلب منه عبد العزيز تسليمه هو ومن معه تنفيذا للمعاهدة التي بينهما ، فأرسل اليه الامام راجيا العفو عن الحسن ومراقبيه ، فلبى رجاءه بشرط أن يذهبوا اليه ، وكتب اليه رسالة بعفوه هذا ، وقال له أن الحسن سيكون أخا عزيزا له ، ورتب له ٢٥٠٠ ريال في الشهر ، نفقة له ولاسرتة

وقد أحدث تنازل الحسن الادريسي عن امارته لابن سعود في سنة ١٩٣٠ ، ضجة في البلاد العربية ، واتخذ منه بعض رجال الصوفية - وهم الذين لا يعترف ابن سعود بما أدخلوه من بدع وخرافات ومنكرات في الدين - سبيلا الى مهاجمته بشدة وقسوة ظالمتين .

أرأيت اذن كيف عفا عبد العزيز عن أحسن اليه ثم تمرد عليه ، ومع هذا قبل أن يعيش في كنفه وفي حمايته ؟

وما فعله عبد العزيز مع حسن الادريسي ، فعله مع الامام يحيى نفسه ، عند ما اشتد الخلاف بين السعودية واليمن على الحدود في سنة ١٣٥٣ . - سنة ١٩٣٤ م ، وحول مصرى بعض أعضاء العائلة الادريسية الذين لجأوا الى صنعاء . فقد بذل ابن سعود جهده لحل الخلاف وديا حقنا للدماء فلم يستجب الامام ، فوقعت الحرب بينهما في ٢٢ مارس سنة ١٩٣٤ ، وزحف الجيش السعودي بقيادة الامير فيصل على تهامة ودخل الحديدة قاعدة اليمن على البحر الأحمر في يوم ٦ مايو سنة ١٩٣٤ - ١٥ محرم سنة ١٣٥٣ هـ ، ثم تقدم فاستولى على « ميدى » ثم على « اللحية » ، وألف في الحديدة حكومة تتبع الرياض مباشرة ، واحتفل اليمنيون بوصوله ، وقدموا له الطاعة

(١) كتاب « صقر الجزيرة » للاستاذ احمد عبد الغفور عطار - الجزء الثالث - ص ٩٢٣

- عندئذ جنح الامام الى الصلح ، متفدا شروط عبد العزيز الثلاثة وهى :
- ١ - الجلاء عن مقاطعة نجران
 - ٢ - تسليم اللاجئين من الادارسة
 - ٣ - اطلاق سراح الرهائن من أبناء الجبال الخاضعين للسعودية

ووصل الى الطائف في ٤ صفر سنة ١٣٥٣ - عبد الله بن الوزير على رأس وفد يمنى للدخول في مفاوضات الصلح ، فاجتمع الى الامير خالد ابن عبد العزيز - ملك المملكة العربية السعودية اليوم - رئيس الوفد السعودى ، ووقعت المعاهدة بين القطرين الشقيقين في ٦ صفر ، واعادت حكومة الرياض بموجبها الى حكومة اليمن ، جميع الاراضى التى استولت عليها من الاراضى اليمينية ، رعاية لحقوق الجوار ، وصونا للاخوة العربية الاسلامية ، مما كان موضوع تقدير واعجاب وثناء العالم العربى والمسلم الاسلامى

● كان متحليا بحلية العفو والصفح الجميل : عاداه الترك كما عادوا اجداده ، وانتصر عليهم في نجد والاحساء ، ثم انتقضوا عليه فهزمهم .. ومع هذا احسن معاملتهم ، واكرم قائدهم ، وتركه يمضى مع جنده آمنا الى الحدود التركية الحجازية او الحدود التركية العراقية ، مما لم يجد معه السلطان عبد الحميد سلطان تركيا وخليفة المسلمين في عام ١٩٠٦ ، بدا من شكره والاعتراف بصنيعه الجميل مع جنده .

وعاداه الاشراف ، وغلبهم ، وقهر راسهم الملك حسين ، ثم عفا عن عائلاتهم وانصارهم

عفا عن ابن عمه سعود الذى اتفق مع خصومه عليه ، وعن عامل « بريده » المسمى أبو الخيل ، واذن له بالرحيل مع أسرته الى البحرين ، بعد معركة هزمه فيها عبد العزيز هزيمة منكرة

وكان يدنى منه من كانوا اشد خصومة وعداوة له ، ويصحبهم معه في غدواته وروحاته ، وبهذا اقتلع بدور الحقد والكراهية من قلوب كثيرين ، فاصبحوا موالين له ، يحفظون له الجميل واليد البيضاء الكريمة .

● كان اعتماد الملك عبد العزيز في فتوحاته على « الاخوان » فى الغالب الأعم . الف جيشه فى أول أمره من بعض أهالى نجد وبجانبهم هؤلاء « الاخوان » . فلما استقر له الأمر نوعا ما ، أنشأ «ادارة الامور العسكرية» ، فكانت نواة للجيش النظامى الذى الف من ثلاث فرق من المدفعية والفرسان

والمثناة . وفي سنة ١٣٥٩ هـ الفيت هذه الادارة وانشئت «رياسة الأركان»
وفي سنة ١٣٦٥ ، انشئت اول وزارة للدفاع الوطنى ، واشترك جنودها فى
حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ م

فمن هم هؤلاء الاخوان ؟

هم سكان البادية فى نجد ، هم من يسمونهم «الاعراب» ، كانوا
يعيشون فى شظف وبؤس ، ولا عمل لهم الا السلب والنهب والاجرام .
ففكر عبد العزيز فى اخراجهم من هذه الحياة التمسعة - وكانوا شجعانا
شجاعة يضرب بها المثل - بحملهم على ترك سكنى الخيام والاستقرار فى
الحضر ، وأرسل اليهم الوعاظ يحبون اليهم الفكرة ، ووعد بالهبات
الجزيلة وبنناء المساجد وبتعليم القراءة والكتابة ، لمن يقبل هذه الحياة
الجديدة ، فى أماكن معينة ، بنيت فيها المساكن من الطين ، سمي واحدها
« هجرة » اشارة الى انهم هجروا حياتهم القديمة الى حياة جديدة محببة
اليهم . وأول « هجرة » بنيت فى قرية « الارطاوية » فى عام ١٣٣٠ - ١٩١١م
وانتشرت « الهجرة » بسرعة بينهم ، حتى نسوا حياتهم السابقة ، وانقطعوا
للعباداة . لكنهم أشربوا تعاليم دينية ناقصة ، رسخ فى أذهانهم أنها هى
الدين الصحيح ، وما سواها ضلالة وفساد . ولم يستطع عبد العزيز
استئصال هذه الجذور السامة من نفوسهم ، حتى لقد رموه هو نفسه ،
فزعموا انه موال للكفار - والكفار فى رأيهم هم كل ناس غيرهم ولو كانوا
مسلمين ا - وانه متساهل فى دينه ، والا فكيف يطيل ثوبه وشاربه !!!

ومع هذا اخدهم باللين ، وكان ينزل عند رأيهم ، اتقاء فتنة قد تحدث
اذا خالف رأيهم القطير . لكنه كثيرا ما ضرب عليهم بيد من حديد . اذا
وجد أن تساهله معهم قد يؤول الى ضعف فى سلطانه ، او قد يؤدى الى
ضرر الصالح العام . ثم انشأ « جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »
لتحد من سطوة جهلهم ، وشدة تنطعهم فى الدين ، وقصر مهمتها على الأمور
التالية :

١ - متابعة عادات الناس ومعاملاتهم مع بعضهم بعضا ، فما وافق منها
الشرع ، أقرته . وما خالفته أزالته

٢ - منع السوقة من بداءة اللسان التى اعتادوها

٣ - حث الناس على أداء الصلوات الخمس ، جماعة

٤ - مراقبة المساجد وسلوك أئمتها ومؤذنيها ، ومدى مواظبتهم على
الحضور ، ومراقبة حضور الأهالى للصلاة ، ولوم المتخلف منهم

٥ - ان تتخذ في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، جميع الوسائل المؤدية الى ذلك ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاذا اعيها امر من الأمور ، قدمت به مذكرة الى أولى الأمر ليبدوا فيها رأيهم

اعترض عليه بعضهم ، اذنه باقامة حفلات بمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز (١) ، بحجة مخالفة ذلك للسنة ، فأرضاهم بموافقتهم . فالرجل لا يحب المظاهر ، وعدم الاحتفال بعيد جلوسه لا يضر المملكة في شيء .

لكن هؤلاء « الاخوان » عندما أنكروا على الملك :

١ - ارسال ابنه الأكبر سعود الى مصر لمعالجة عينيه ، « لأن مصر بلد كفار » !!

٢ - ارسال ابنه فيصل الى لندن « بلد الشرك » !! (٣)

٣ - استخدام السيارات والتلفونات والتلفونات والراديو ، « لانها من عمل الشيطان » !!

(١) دما جللته الى أول عيد جلوس له في يناير سنة ١٩٣٠ ، الصحافة المصرية ليشهد مندوبيها احتفالاته ، فمثلها يومئذ المرحومون : الاساتذة محمود أبو الفتح عن « الاهرام » ومحيى الدين رفا عن « المقطم » ومهد الحميد حمدي عن « البلاغ » وابراهيم عبد القادر المازني عن « السياسة » ومحمد المصليحي عن « كوب الشرق » . وسافر معهم مليبا دعوة الملك أحمد زكي باشا « شيخ العروبة » والشيخ محمود أبو العيون من كبار علماء الأزهر ، واعتذر عن عدم السفر ، أمير الشعراء أحمد شوقي بك

وقد ركبوا جميعا السيارات من « دارالوكالة العربية » - وكانت بشارع محمد سعيد باشا الآن - الى السويس ٥ ومنها أبحروا الى جدة .

(٢) وجه الملك جورج الخامس ملك انجلترا دعوة رسمية الى الملك عبد العزيز عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٨ ، لزيارة عاصمة امبراطوريته « لندن » ليكرمه ويحتفى به مع شعبه ، اعترافا بموقفه النبيل من حكومته في ابان تلك الحرب فاختر ابنه فيصل ليمثله على رأس بعثة ضمت الاكفاء من رجال دولته ، وكان عمر فيصل يومئذ اثني عشر عاما فقط ، فاستقبله ملك الانجليز وشعبه استقبالا عظيما ، واعدوا له برنامجا حافلا زار بمقتضاه كثيرا من معالم بلادهم ، واجتمع الى اقطابهم ، فاعجبوا بذكاء هذا الامير الياقاع الالهي . واذ هو في لندن ، وجهت اليه الحكومة الفرنسية دعوة ماثلة للغرض نفسه ، فلباها ، وهبط باريس ، فلقى من حكامها ومن أهلها ، مثل ما لقي من الانجليز حفاوة وكراما ، واجتمع فيها الى ساستها ومفكرها أيضا .

عندما أنكروا عليه هذه المسائل الثلاث ، أسرع فدعا زعماءهم الى مؤتمر عقده لهم في الرياض ، تحدث اليهم فيه عن نفسه ، فقال انه خادم الشريعة ، وانه لم يتغير ولم يخرج على مبادئ السنة الصحيحة ، فاقنعوا بما قال وأعلنوا ولاءهم له . واعترضوا على استخدام اللاسلكى ، فهو امر حادث في آخر هذا الزمان ولا يعلمون حقيقته ، ولم يقرأوا فيه كلاما لواحد من العلماء . فحطم عبد العزيز محطة اللاسلكى تفاديا من الفتنة . . وشيئا فشيئا ، أقنعهم بأن مرد اللاسلكى والسيارات والتلفون والراديو ، الى العلم .

حتى اذا كان بعضهم جلوسا معه في يوم ما بعد هذا المؤتمر ، سألهم : هل يطيق الشيطان كلام الله ؟ قالوا جميعا : لا . قال : اذن فاسمعوا ، وادار الراديو ، فسمعوا منه كلام الله يتلى عليهم بصوت عذب رخيم ، فأمنوا به وبغيره من المخترعات الحديثة .

روى الأستاذ عزيز خانكى المحامى الكبير في مصر في الثلاثينات ، في كتابه « ترك واتاتورك » في الصفحة الثامنة والأربعين منه القصة التالية ، قال :

« لم يكن أهل نجد وعلماءها وحدهم ، هم الذين كانوا يعتقدون أن التلفون من عمل الشيطان ، بل كان قضاة الترك على هذا الاعتقاد . فقد روى المرحوم عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى ، في عهد الخديوى عباس حلمى الثانى : انه لما بدىء باستعمال التلفون في القاهرة ، أرادت الحكومة تركيب آلة تليفون في المحكمة الشرعية ، فعارض قاضى مصر التركى ، وقال ان التلفون وسيلة من وسائل الشيطان . فكلف المستشار القضائى سكرتيره « عثمان مرتضى بك » - في أوائل عهد الخديوى اسماعيل - بأن يشرح للقاضى النظرية العلمية التى قام عليها اختراع التلفون ، فلم يفلح السكرتير ، فأهملت الفكرة موقتا . وبعد حين عادت الحكومة وأمرت بتركيب التلفون في المحكمة » .

● من أصالة العربى حماية المستجير به والدفاع عنه . وكذلك فعل الملك عبد العزيز مع رشيد على الكيلانى رئيس وزراء العراق الأسبق رحمه الله ، فقد لجأ اليه في الرياض بعد فشل ثورته التى شنّها في العراق ضد بريطانيا في سنة ١٩٤١ ، فحاول الأمير عبد الاله الوصى على عرش العراق أن يحمل الملك على تسليمه الى حكومة بغداد ، تنفيذاً لمصاهدة بين الحكومتين ، فقال له :

.. « لقد جاءنى مستجيرا ، وهو عربى يستنجد بعربى . وانى اوثر
شئق واحد من أبنائى على تسليم رشيد الى حبل المشنقة فى بغداد
وتدخلت بريطانيا مؤيدة طلب العراق ، فرد عليها الرد نفسه
وظل رشيد فى حماية ابن سعود ، بل استعمله فى بلاطه مستشارا له فى
بعض الشؤون الى ان رفعه الله اليه
وعلى ذكر الابناء أقول ان الملك عبد العزيز أنجب ستة وثلاثين ابنا ،
وسبعا وعشرين ابنة

* * *

هذه هى سيرة الرجل الذى استطاع أن يغير مجرى حياة أمة ، ويسطر
تاريخا جديدا لها ولشعبها ، ويدفع بها الى الصف الاول من الدول المرموقة
ذات المكانة والاعتبار ، وأعاد ، الى هذا ، مع اسرته الى الاسلام ، عزته
وهيبته وتقاليده النقية الصالحة
ولو قلت انه كان - طيب الله ثراه - يجمع بين العدل والحزم وسعة
الحيلة والشجاعة والبطولة والجرأة والعزم والكرم والصفح والرزانة
والتواضع والسماحة وبرجاجة العقل وصفاء القلب وطيب السريرة وحب
الخير والفتنة والدهاء ولين العريكة ، مع الالمام بفن الحرب والخبرة
بقيادة الجيوش ..

لو قلت هذا ، ما كنت مبالغا ، وما عدوت الحق .
فلنختم هذا الحديث عن هذا الملك العربى الخبير والعظيم ، الذى
كان اول من سمي ملكا من آل سعود - فقد كان آباؤه وأجداده يسمون
أئمة - واول ملك خرج من بلاد نجد ، واول من وحد هذه المملكة المترامية
الأطراف ، واول من عمل على استخراج الثروة الطبيعية من بطن ارضها ،
واول من منح الشركات الامتيازات بحثا عن النفط ، واول من أدخل
الزراعة الحديثة لمضاعفة استفلال الأرض الخصبة فى مملكته ، واول من
أوجد لهذه المملكة كيانا قانونيا دوليا ، فاعترفت بها الدول جميعا ...
أقول : فلأختم حديثى عن عبد العزيز بن سعود ، بتسجيل ما كتبه
عنه بعض كبار الكتاب والأدباء العرب وغير العرب :

رحل الأمير شكيب ارسلان الى الحجاز فى سنة ١٩٢٩ ، وكتب عن
رحلته كتابا سماه « الارتسامات اللطاف » ، فى خاطر الحاج الى أقدس
مطاف « ، وتوجه باسم « جلالة الملك عبد العزيز ملك الحجاز ونجد

وملحقاتهما ، عرفانا بقدر العدل الذى وطد فيه دعائمه ؛ وناط بالاجراء موائقه ، وابتهاجا بالملك العربى الصميم الذى صان للعروبة حقها ، وللإسلام حقائقه « (١) » .

بعد وصول الأمير شكيب وأدائه فريضة الحج ، وصف ما لقيه فى الحجاز من الحرية الكريمة ، فقال : « شعرت أنى حر فى بلادى ، وبين أبناء جلدتى ، لا يتحكم فى رقبتي المسيو فلان ولا المستر فلان ، بحجة انتداب أو احتلال أو سيطرة أو حماية أو وصاية ، أو غير ذلك من الأسماء المخترعة ، التى يراد بها تنعيم مس « الفتوحات » وتخفيف مرارتها فى الأذواق ... شعرت فى الحجاز أنى تظللنى راية عربية محضة حقيقية ، لا راية مشوبة بشعار أجنبى ، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربى ، إلا ما كان من قبيل مرتزقة أو مستأجرين ، تحت قيادة من لا يرقب فى هذه أمة إلا ولا ذمة ، وإنما ينظرون إليها كطعام للأمم التى تدعى عليها الوصاية » (٢) .

ثم وصف الملك ، فقال : « الملك الأشم الأصيل ، الذى تلوح سيماء البطولة على وجهه ، والعاهل الصنديد الأنجد ، الذى كانما قد ثوب استقلال العرب على قده . فحمدت الله على أن عينى رأت فوق ما أذنى سمعت ، وتفألت خيراً فى مستقبل هذه الأمة » (٣) .

وفى كتاب آخر للأمير شكيب ، هو « لماذا تأخر المسلمون ؟ » قال فى الصفحة السابعة والأربعين منه :

« الله ذو ابن سعود حيث يقول : « ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى الأجانب كما أخشى المسلمين » وقال فى محفل حافل بحجاج الأقطار ، وقد طالبه مصرى ازهرى بمحاربة الانجليز والفرنسيين المعتدين على المسلمين ، ذكرا عداوتهم لهم : « الانجليز والفرنسيين معدورون اذا عادونا ، لأنه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة . ولكن المصيبة التى لا عذر لأحد فيها ، ان المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم . وأنا والله لا أخاف الأجانب ، وإنما أخاف من المسلمين . فلو حاربت الانجليز ، لما حاربونى إلا بجيش من المسلمين » .

وكتب عبد الرحمن عزام باشا مقدمة لكتاب « مع عاهل الجزيرة العربية » للأستاذ عباس محمود العقاد ، قال فيها :

(١) الأرسامات اللطاف ص ٥

(٢) المصدر نفسه ص ١٠

(٣) المصدر نفسه - ص ١٢

– « ضاع ملكه وملك آبائه ، وشرد من بلاده ، وكان يومها في ريعان شبابه ، فلم تهز الهزيمة إيمانه ، ولم يؤثر الحرمان في تقاليدته بأن يكرم ضيفه بكل ما يستطيع ، حتى قيل أنه رهن عباءته في الكويت ، ليقدم طعاما يليق بضيف زاره فجأة ... »

« وقد نصح أهل الخبرة والتجربة هذا الشاب أن يقبل الهزيمة ، ولا يعاند في الأمر الواقع . قالوا له : ان الشجاعة ليست في أن تحاول المستحيل ، انما هي أن تحاول الممكن . ولكن الشاب رفض النصيحة ، وسار على رأس قوة من أربعين رجلا مؤمنا ، ليقاوم جيش امارة ورجال قبائل أكثر عددا وأقوى سلاحا ... وأصيب اصابات قاتلة في معارك عدة قادها بنفسه ، ولكن الرصاص لم يصب إيمانه بحقه وحق آبائه الضائع ، بل أضاف اليه اضافات كبيرة ، جمعت أكثر اجزاء الجزيرة العربية ، في اطار من الأمن والاستقرار والرخاء والوحدة التي فقدتها ، منذ انتهاء عهد الخلفاء الراشدين ، الذين كان لعبد العزيز فيهم أسوة حسنة ، وقدوة سلفية طيبة ، تمسك بها واسترشد ، وبني حكمه على أساسها . »

« وقد ذاق هذا الرجل العظيم مرارة الجوع والحرمان ، ومع ذلك لم يتسلل الحقد الى قلبه . ثم رأى الذهب والفضة تحت قدميه ، فلم يغيره بريقهما . وذاق الهزيمة فلم تضعف عزيمته ، ثم ذاق النصر فلم يسكر به . »

« كان عنيدا مع الأقوياء ، متواضعا مع الضعفاء ، ولكنه مع عناده كان يسمع الرأي الآخر ، فاذا اقتنع به رجع اليه ، لأنه اتخذ من الحق والشريعة أماما وحكما . وكان يؤمن بأن الأقوياء هم الذين يرجعون عن أخطائهم ، والضعفاء هم الذين يتمسكون بها . »

« كان عبد العزيز عدة رجال في رجل واحد . ولقد صدرت عشرات الكتب بمختلف اللغات تتحدث عن جوانب شخصيته . ولا شك أن المكتبات ستستقبل عدة كتب أخرى تتحدث عن هذه الشخصية النادرة ، فان التاريخ الكامل لها ، لم يكتب بعد . »

« انه مؤسس الدولة السعودية ، وباعث نهضتها الجديدة ، ومفجر طاقاتها البشرية والمادية ، بعبقريته الفطرية التي اجمع مؤرخو شخصيات هذا العصر ، على انها من أعظم العبقريات السياسية والاصلاحية التي ظهرت فيه . »

وفي أصيل يوم الخميس ٣ ديسمبر من عام ١٩٦٤ ، أقامت وزارة المعارف السعودية مهرجانا رياضيا كبيرا على ملاعب « معهد العاصمة

النموذجي» ، احتفاء ببيعة فيصل - رحمه الله - ملكا في ٢ نوفمبر من السنة نفسها - أي من نحو شهر - شهدها جلالته ، ورحب به صاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف - وزير التعليم العالي الآن - بكلمة بليغة رائعة ، قال فيها موجها الخطاب الى فيصل :

- « يا صاحب الجلالة :

« اذا تحدثت عن النهضة التعليمية المعاصرة بقيادتكم الحكيمة ، فاني لا أضيف جديدا ، لأنها بحمد الله أضحت موضع إعجاب أعدائنا قبل أصدقائنا . لكنني أجد من واجب الاخلاص والوفاء ، أن أذكر في حب واجلال ، مؤسس هذا الكيان الكبير ، المغفور له الملك عبد العزيز رحمه الله ، وأجزل له الرضا والثوبة ، لقاء كفاحه عن دين الله ، ونضاله في سبيل وحدة هذه الأمة وجمع كيانهما . فلقد عاش حياته المباركة مكافحا ومؤسسا ، فسان الله ديننا على يديه ، ووحد جزيرتنا بفضل جهاده وسعيه . ولن ينساه أبناء هذه الجزيرة الوفيّة ، فهو في قلوبهم كلما شاهدهوا آثارا للعلم أو بيتا من بيوت الله ، أو مصنعا يدفع بمواهبنا نحو النور والانتاج . . . له دعاؤنا بقاء كريم مع ربه .

« لقد جاهد لينصر دين الله ويعلى كلمته . واليوم وقد شاء الله أن يضع في يدك الأمانة ثمرة كفاحه ، وحصيلة جهاده ، فلقد أراد الله بك خيرا ، ومنك خيرا . أراد لك الخير لأنه قد هيأك لاتمام رسالة مصلح عظيم ، ما كان يرتضى غير سبيل الحق . وأراد منك الخير ، لأنك بحمد الله الجدير بهذا الأجماع والحب والفاء ، والقادر باذن الله على أداء الرسالة وقيادة الأمة في معارج العزة والفخر . »

وكتب عنه الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه المشار اليه ، فقال :

- « ان ابن سعود من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون ، فلا يحارون في أسباب زعامتهم وعظمتهم ، ولا يجدون أنفسهم مضطربين الى أن يسألوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لأن الايمان باستحقاق هؤلاء منزلة الزعامة في أقوامهم ، أسهل كثيرا من الشك في ذلك الاستحقاق . »

وكتب عنه الأستاذ خير الدين الزركلي ، حينما كان مستشارا للمفوضية السعودية بالقاهرة ، يوم الاحتفال بعيد جلوس الملك :
- « تتجاوز اليوم أسلاك البرق بين عواصم العالم وعاصمة العربية السعودية ، بتهنئة عاهل الجزيرة وسيدها المطاع ، الملك عبد العزيز آل سعود ، بعيد جلوسه . وتعيد هذه الذكرى الى الأذهان ، أحداث نصف

قرن لم يعرف قلب الجزيرة مثلها منذ عصر النبوة : امارات تتوحد ، وأمة تكون ، ودولة تبني ، وحضارة تشاد ، وتحول في الاخلاق والعادات من فوضى الى نظام ، ومن اسفل الى اصعاد . في أقل من خمسين عاما استطاع رجل واحد أن ينشئ بين البحر الأحمر وخليج العرب ، ما عجز اثنا عشر قرنا عن انشائه أو الاتيان بمثله .

وكتب عنه الكاتب الفرنسي المشهور « اوجين يونغ » في كتابه « استعباد الاسلام » الذي صدر في عام ١٩٢٨ ، فقال في الصفحة الثامنة والخمسين : - « ... لقد تحول الوهابيون تحولا بينا ، وصار عندهم شيء من الهوادة ، وسلطانهم الحالي صاحب الأمر والنهي في الآونة الحاضرة ، يرحب بجميع أنواع الرقي . وهو سياسي محنك لا يفوته شيء من كبار الامور وصغارها . وهو يستنفذ الميسور لتحضير العرب الرحل ، وجعله اياهم يميلون الى الزراعة كأخوانهم في شمر والقصيم والعارض . وقد ارتاح الى ارسال فرنسا وبريطانيا ممثلين يقيمان لديه في الرياض عاصمة سلطنته . وفي مقابل ذلك ارسل من لدنه ممثلين الى بيروت والشام ومصر ، وارسل مندوبين الى العواصم الكبيرة ، للاتفاق مع الحكومات على انشاء سفارات ، فتم له ذلك في برلين .

« ان سلطنته واسعة الأرجاء ، بعيدة الأطراف ، الا ان مطامعه محدودة ومقرونة بالتعقل . وهو غير عجول في أعماله ، وهمه أن يكون العرب مستقلين . وهو يراقب العراق وسورية و الشرق العربي وفلسطين . وله بواسطة مكة والمدينة صلات متواصلة بجميع مسلمي العالم . فالامة التي تحسن خطب موالاته ووده بائباتها له حسن دخالها السلمية ، لا تجد لديها سببا للشكوى منه .

« ولا يندفع ابن سعود مع أي سياسة خارجية كانت ، ولا يؤثر فيسه أدنى نفوذ . فهو عربي قح نبيل ، وهو زعيم كبير . وقد انتحل تلك الفكرة التي نشرتها جريدة « المقطم » الصادرة عن مصر في ٢ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٦ ، وخلاصتها :

« لا يسعى الشرقيون لاضرام نار الحرب ، ولا للمجاهرة بالعداوة . فالغاية الوحيدة التي يرمون اليها ، هي نيلهم العدالة التي ضنوا بها عليهم من عهد بعيد ، واصابتهم حقا كان الغربيون أول من أعلنوه . واذا كان بين الشرقيين من اضطر ... (أو سيضطر) الى امتشاق الحسام ليحصل على ذلك الحق وتلك العدالة ، فما ذلك الا لانهم بخلوا عليه بجميع الوسائط ، ولانه وجد ذاته في مازق حرج ، لا يلقى الى الخروج منه سبيلا . على أن الشرقيين بوجه الاجمال مبالون الى السلم وطامحون اليها » .

وفي منتصف الساعة الخامسة من صباح يوم الاثنين ، الثاني من ربيع
الاول من عام ١٣٧٣هـ (٩ نوفمبر من عام ١٩٥٣ م) ، دعاه ربه اليه ،
فاجابه ، وصعدت روحه الى بارئها راضية مرضية ، بعد ما ظل في دست
الحكم نحو نصف قرن ، مسؤولا عن وعيته ، ساعيا الى خيرها وسعادتها ،
حفيظا على هذا الصرح الشامخ الذي شاده ، واصبح منارة هادية للعرب
أجمعين ، مجاهدا مع أشقائه من زعماء العرب لاستعادة محد الآباء
الاولين .

ومما يجدر ذكره ، انه في مرضه الأخير ، دعى ثلاثة من أشهر أطباء
ألمانيا لمعالجته ، وكان أحدهم على وشك السفر في طريقه الى الدانمرك
وسويسرا وبريطانيا لالقاء محاضرات طبية في جامعاتها ، تدر عليه الوفير
من المال والسمعة الطائرة في دوائر العلم ، فألقى سفره تقديرا منه لمكانة
الملك العظيم الذي دعى لعلاجه . وفي هذا دليل على ما كان يحتله من
المكانة والتقدير العظيمين ، في نفوس الغربيين .

ودفن الفقيد الجليل ، كما يدفن كل مسلم حق عامل بالسنة ويتعاليم
السلف الصالح التي يدين بها آل سعود . . . فانه قبل أن ينتشر نعي
الملك في الطائف حيث فاضت روحه الطاهرة ، هبطت طائرة في مطارها ،
وحملت الجثمان الكريم الى الرياض وبرفقته الأمراء ، وفي مقدمتهم فيصل
. . . وفي الرياض وسد الثرى بعد الصلاة عليه ، في لحد من الصعب معرفته
اليوم ، أو تمييزه عن لحد أى من رعاياه .

وهكذا ذهب في الصديقين والأبرار ، وحسن أولئك رفيقا .

ثم هو أخيرا بعد هذه السيرة العطرة ، عربى صميم ، يتصل نسبه الى
عدنان ، ويجتمع بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، في الجد الثامن
عشر « نزار بن معد بن عدنان » .

فهو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بن عبد الله بن
محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن ربيعة بن
موسى بن مانع بن المسيب بن المقلد بن بدران بن مالك بن سالم بن مالك
أبن فسان بن ربيعة بن منقذ بن الحارث بن سعد بن همام بن مرة بن ذهيل
أبن غزة بن ثعلبة بن عكابة بن صعيب بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن
دعوى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان (١) .

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الاول - ص ١٧

وخير ما اختتم به حديثي عن هذا الملك العربي ، معجزة القرن العشرين ، نصيحة منه الى المسلمين والعرب ، نصيحة غالية ، أفضى بها اليهم في عام ١٩٣٩ ، لو أنهم وعوها يومها وقدروها حق قدرها ، لما وصلوا الى الحال التي يعانون منها اليوم ، فعساهم أن يتدبروها في حالهم الحاضرة ، لعل الله أن يصلح لهم بعد ذلك أمرا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » .

احتفلت مجلة « الهلال » المصرية الشهرية في شهر يناير من عام ١٩٣٩ ، بعيدها الذهبي ، فقصد محررها ، ملكنا العظيم ، يسأله النصيحة والارشاد والهداية لقومه من العرب والمسلمين ، فأجاب سؤله ، وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل »

« الى جميع من يطلع على كتابنا هذا من اخواننا المسلمين والعرب :

« سلام الله ورحته وبركاته ، وبعد ، فانا نفتنم هذه الفرصة ونشير الى ما ترون من حال المسلمين والعرب في هذا العصر الحاضر ، مما لا يخفى على أحد . ونرجو من الجميع أن يرجعوا بذاكرتهم ، الى ما كان بالله ، ثم به سبب عزهم وسؤدهم في سالف الأزمان ، وهو العمل بالمبادئ التي جاء بها نبينا العربي ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . فاذا صحت عزيمتنا وخلصت نياتنا لدراسة تلك المبادئ ومعرفتها ، والعمل بها ، والتناصح فيما بيننا للأخذ بأحكامها ومبادئها ، وأن نجتمع كلمتنا عليها . . . اذا عملنا ذلك ، نرجو أن يغير الله ما بنا ، وأن يبدلنا من بعد خوفنا في هذا المعتك الحاضر ، أمنا ، فان الخير كله فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ، وفي اتباع ما أمرنا به ، واجتناب ما نهانا عنه .

« نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه ، وأن ينصر دينه ، ويعلى كلمته ، ويجمع شمل المسلمين والعرب » .

« صدر في قصرنا بمكة المكرمة في اليوم الثالث من شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٧ الهجرية ، الموافق لليوم الثالث والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٩ الميلادية » .

عبد العزيز السعود

المراجع

- ١ - صقر الجزيرة - أحمد عبد الغفور عطار .
- ٢ - محمد بن عبد الوهاب - أحمد عبد الغفور عطار .
- ٣ - الملك المعادل - عبد الحميد الخطيب .
- ٤ - موعد مع الشجاعة - قدرى قلعجي .
- ٥ - الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز - خير الدين الزركلى .
- ٦ - الوهابيون والحجاز - السيد محمد رشيد رضا .
- ٧ - الهاشميون والثورة العربية الكبرى - أنيس صايغ .
- ٨ - الأمير شكيب ارسلان - الدكتور سامى الدهان .
- ٩ - لماذا تأخر المسلمون ؟ - الأمير شكيب ارسلان .
- ١٠ - الارتسامات اللطاف - الأمير شكيب ارسلان .
- ١١ - جزيرة العرب في القرن العشرين - الشيخ حافظ وهبه .
- ١٢ - خمسون عاما في جزيرة العرب - الشيخ حافظ وهبه .
- ١٣ - الحلقة المفقودة في تاريخ العرب - محمد جميل بيهم .
- ١٤ - عبد العزيز - تأليف : داكورت فون ميكوش - ترجمة : الدكتور أمين رويحه .
- ١٥ - تاريخ المملكة العربية السعودية - صلاح الدين المختار .
- ١٦ - المملكة العربية السعودية - محمد عبد المنعم عامر .
- ١٧ - النهضة الحديثة في جزيرة العرب - الدكتور محمد عبد الله ماضى .
- ١٨ - الملك عبد العزيز والمملكة العربية السعودية - عبد الله حسين .
- ١٩ - آل سعود - أحمد على .

- ٢٠ - التضامن الاسلامى - محيى الدين الفاسى .
- ٢١ - مع عاهل الجزيرة العربية - عباس محمود العقاد .
- ٢٢ - الأوابد - الدكتور عبد الوهاب عزام .
- ٢٣ - ملوك العرب - أمين الريحانى .
- ٢٤ - الاسلام وآسيا امام المطامع الاوربية - أوجين يونغ .
- ٢٥ - استعباد الاسلام - أوجين يونغ .
- ٢٦ - فيصل العظيم - أمين سعيد .
- ٢٧ - نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام فى الصين - محمد مكين .
- ٢٨ - الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية - مجموعة رسائل
لخمسة من كبار علماء نجد .
- ٢٩ - الثورة الوهابية - عبد الله القصيمى .
- ٣٠ - الراى القويم على ملحد القصيم - عبد الله بن على بن باديس .
- ٣١ - الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال - محمد عبد الرزاق حمزة .
- ٣٢ - نضال العرب ضد الاستعمار - الرعيم محمد العبد الله الميمان .
- ٣٣ - عشرة مصلحين - الدكتور أحمد أمين .
- ٣٤ - الرحلة الحجازية - محمد لبيب البتانونى بك .
- ٣٥ - رحلة الى الحجاز - ابراهيم عبد القادر المازنى .
- ٣٦ - فى الحجاز - محيى الدين رضا .
- ٣٧ - مشاهداتى فى الحجاز - عباس متولى حماده .
- ٣٨ - ندوة علمية عن الشريعة الاسلامية - وزارة الاعلام السعودية .
- ٣٩ - مجلة الهلال - شهر مايو سنة ١٩٣١ .
- ٤٠ - مجلة الهلال - شهر يناير سنة ١٩٣٩ .
- ٤١ - تقرير البعثة الاميركية الزراعية .
- ٤٢ - مذكرات شخصية للمؤلف .



سعد زغلول المحامي والفاعل

١٢٩
م ٩ - « رجال ومواقف »

سما بالمحامة من العار الى الفخار

كان في عام ١٩٢١
سيد مصر الأعلى (١)
صفحة موجزة من تاريخ
زعيم ثورة ١٩١٩

((اننى اشتغلت بالمحامة متنكرا عن
أهلى وأصحابى ، وكلما سألنى سائل :
هل صرت محاميا ؟ قلت : « معاذ الله
ان أكون كقسوم خاسرين » . كانت
المحامة أبعد عن اسم المشرف
والفضيلة ، وكان اسم المحامى مساويا
لاسم الزور ، وكان المحامى لا يقصد
لعمله بل لتزويره ، وكان لا يستطيع ان
ينسب لآى بيت من البيوت العالية ، بل كان لا ينبغي لقاض ان يجالس محاميا ،
واصدر النائب العام منشورا بمنع اختلاط المحامين بالقضاة . . وتغير
الحال فصار القاضى يرى من شرفه ان يخالط المحامى ويعاشره ، ويسلك
معه كل مسلك » .

كذلكم كانت المحامة يوم احترفها سعد زغلول ، فلماذا اذن نزل الى
ميدانها ؟ وماذا صنع ليرتفع بها ؟

لقد دعت نقابة المحامين المصريين الى الاحتفال فى مساء يوم ٢٣
اغسطس الماضى ، بذكرى وفاة سعد زغلول ، وبلذكرى وفاة خلفه فى زعامته
مصطفى النحاس ، وقد اختاره الله الى جواره ، فى يوم مثل يوم وفاة
سلفه العظيم .

كانت وفاة سعد فى ٢٣ اغسطس من عام ١٩٢٧ ، وكانت وفاة مصطفى
فى ٢٣ اغسطس من عام ١٩٦٥ ، فكان هذا التوافق العجيب فى التاريخين ،
مثار دهشة المصريين والعرب اللذين بتاريخ مصر وسير زعمائها .
ولقد كنت أرجو أن يتناول متحدث فى الحفلة ، صناعة المحامة ،
وكيف ارتقى بها سعد من حضيض الزراية ، الى ذروة الوقار والشرف ،
وكيف سما بها من المهانة ، الى مقام الاحترام والمهابة ، بعد ما كانت عارا
يجل المشتغل بها ، فلا يلقى الا الازدراء من الكافة أجمعين .

نعم ، كنت أرجو ان أسمع هذا الحديث من واحد من الأصصدقاء
القدامى الكرام الذين تحدثوا فى الحفل ، فلما لم يتحقق الرجاء ، عدت الى

(١) فى سنة ١٩٢٤ .

مراجعى و « دفاترى القديمة » فى مكتبى ، فأعددت منها هذا الموجز عن سعد المحامى مما لم يتناوله كاتب من قبل ، وشفيعته بفقرات عن فترات من حياته ، حتى يستطيع الجيل الشاب من المحاميين ، أن يدركوا فضل سعد على صناعتهم الشريفة ، وحتى يعرف الجيل المعاصر من الشباب ، من هو سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ ، الذى تعمده بعض مؤرخى وزارة التربية والتعليم أن يتجاهلوه - كما تجاهلوا ثورته وجهاد خلفه - فلم يذكروه بكلمة خير فى كتبهم التى يؤلفونها لتلاميذهم ، فيشبون جهلة بتاريخ وطنهم وسيرة زعمائه وجهادهم ، بل جهلة حتى بأسمائهم ، فضلا عن جهادهم .

كان سعد زغلول اول محام مصرى اختارته الحكومة لتولى منصب القضاء ، فعين فى عام ١٨٩٢ مستشارا فى محكمة الاستئناف الاهليسة ، فأقام له زملاؤه المحامون حفلة فخمة ، كانت الاولى من نوعها فى ذلك الزمان ، فى حديقة الازبكية ، تصدرها رئيس المحكمة أحمد بليغ باشا ، ووكيلها اسماعيل صبرى باشا (شيخ الشعراء فيما بعد) والأفوكاتو العمومى أحمد حشمت باشا (وزير المعارف بعد ذلك بسنوات) .

وبعد ما انتهى أربعة عشر خطيبا من كلمات أطروا فيها سعدا ، ونوهوا بمناقبه وبمحامده ، وقف المحتفل به ليقول :

« اخوانى ، سادتى :

« قد عهدتمونى وليس من شيمتى الحسد ، اذ ليس الحسد بنافع أحدا أبدا . كما أنه لم يكن من طبعى الافتخار ، فانا آمن ، بما عهدته فيكم من أن ترمونى به . ولكنى أرى نفسى اليوم على غير ما طبعت عليه : أرانى حاسدا نفسى ، فخورا بما انا اليوم فيه ، اذ كنت موضوع اهتمامكم ، ورهين عنايتكم ، وكنت أود لو انى بينكم ، أهنىء غيرى من بين صفوفكم ، بما يناله عن جدارة واستحقاق .

« اخوانى وسادتى :

« قد كنت أعرف فى نفسى القدرة على البيان وتقرير الحقائق ، بل كنت أعتقد - ولو كنت مخطئا فى اعتقادى - انى على شىء من البلاغة والفصاحة واللسن ، وما عهدت نفسى كالآن ، عيبا محصرا ، عاجزا عن القيام بما يجب لحضراتكم ، فى بيان مقام الشكر لكم . واراكم اختلفتم فى الوجة ، وتباينتم فى الأسلوب ، وقد اتحدتم فى المعنى واجتمعتم ، فماذا

يسعنى من أساليب البيان لاداء ما يحق لكم ؟ وبماذا اشكركم وقد هجرت الكلام شهرا (يقصد انه ترك المحاماة الى القضاء منذ شهر) .

« اخوانى :

« ارانى ما ازال واحدا منكم ، وان نهاية الشرف عندى ان تقباونى كذلك ، لانكم انتم الذين تخدمون الحقيقة ، وما زلتم تجدون فى طلبها ، ولم يكن من امرى الا ان ضعفت عن مجاراتكم ، واحتثات السير معكم فى هذا الطريق المحمود ، فجلست وسرتم ، وقعدت ونهضتم .

« اخوانى :

« اننى ما سبقت الى اتخاذ فن المحاماة شعارا ، الا لأنها الحرفة التى تستلزم بسط آراء المشتغل بها على حضرات القضاة الفضلاء والاقربان وجماهير العامة ، فهى من ثم ، الحرفة الوحيدة التى تظهر فيها قيمة المرء فى وسطه .

« والحق اقول : ما كنت بمستطيع ان أخالط من كانوا مشتغلين بهذا الفن ، يوم لبست شعاره ، كما قال احد اخوانى فى اثناء كلامه . وانى محدثكم الحديث :

« اول ما هممت بالاشتغال بفن المحاماة ، وحدثتنى نفسى بشأنها ، نظرت ، فاذا من رزئت بهم من الذين كانوا عنوان سمعتها وذكرها ، كأنهم الشوك يؤذى الناس ويعذبهم ، ذلك أنهم كانوا يسيئون الى عباد الله بخيانتهم وزيفهم عن طريق الحق والهدى ، وكذلك ترددت بادىء بدء ، ثم قلت فى نفسى : ما نضرك لو كنت وردة بين هاتيك الأشواك ؟ ولو كنت الآن ما حدثتها هذا الحديث . فمن حسن حظى انى أجيل النصر فى هذا الحفل الحافل ، فلا أجد أثرا لذلك الشوك . فلما استبقر بخاطرى ان القيام بالواجب خير للمرء ، حتى وان كان بحرفة هى بأهلها من سقط المتاع ، أقدمت مستحصدا العزم على الاشتغال بهذه الحرفة ، بين أولئك الذين عددتهم شوكا . والحمد لله ، اذ قد لفظهم الزمان لفظ النواة ، يظهر الله مواقع نظرنا ان يقتحمهم فى هذه الليلة

« اخوانى :

« لا أحب ان أخوض فى حديث أولئك القوم ، ولكنى اقول كما قال احد اخوانى : انه كان أقصى واجبات تلك الشرذمة ، ارضاء خواطر أولئك القضاة الذين محققهم الحق ، وذهب بهم العدل

« ذلك ما اقول بصفى محاميا بالامس ، وقاضيا اليوم ، لا يليق بى فى الحالتين ان اكدب على نفسى وعلى غيرى

» والذى حجب الى الاشتغال بهذه الصناعة ، انى كنت منستغلا قبلها بوظيفة من شأنها الاطلاع على احكام المحاكم الملقاة ، التى كانت تنشر فى الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » يوم كنت عضوا فى هيئة تحريرها ، وكان من حظى ان عهد الى امر نقد تلك الاحكام وتلخيص معانيها . ثم انتقلت من هذه الوظيفة الى وظيفة ناظر قلم قضايا مديرية الجيزة ، وهى كما تعلمون اشبه بوظيفة القاضى ، اذ كان من خصائصه ان يصدر الاحكام فى كثير من المواد الجزئية

» فلما انفصلت من هذه الخدمة كما تعلمون ، وصفا الجو من الاحداث ، لم يرق عينى ان اضرق باب احد ، التماسا للرجوع فى وظيفتى ، بل انى رجوت من توسمت فيه الخير ان يساعدنى لنيل وظيفة ، فأعرض ، جهلا منه ، عنى ونأى بجانبه . فكبر الامر عندى ، وازددت ميلا الى الاشتغال بحرفة المحاماة ، وقلت لنفسى ، علام تحتمل يا سعد منة جهول ؟ وما ضرك ان تكون مستقيما بين مفسدين ؟ بل ما ضرك ان تكون وردة بين الأشواك ؟ فهان على اذ ذلك ان احترف حرفة لم يكن فيها مناضل عن حق ، اوجه الحق

» اننى اشتغلت بالمحاماة متنكرا عن اهلى واصحابى ، وكلما سألنى سائل : هل صرت محاميا ؟ قلت : معاذ الله ان اكون كقوم خاسرين

» وجملة القول انى كنت اجتهد ان لا يعرفنى الا ارباب القضايا ، وان كنت اجهل ماذا تكون العاقبة . وقدر لى انى حبست فى اول اشيتغالى بهذه الحرفة ظلما وعدوانا كما تعلمون ، وبعد ان انقضت مدة سجنى ، عدت الى مزاوله هذه الصناعة ، لا ابغى بها غير الحق مطلبا . وكنت احب ابدا ان يحترمنى القاضى ، فأحذر كل ما يؤدى الى غير ذلك . ولعل سعادة الرئيس يذكر ما كان بين اعضاء لجنة الامتحان التى طلبتنى وبينى ، وسألتنى : ما هى واجبات المحامى ؟ كان جوابى : درس القضية جيدا ، والمدافعة عن الحق ، واحترام القضاء

» سادى :

» تعلمون ان الحق صعب الاكتشاف ، وان الحقيقة اذ تكون ضالة ، تتشعب طرق نشدانها على الباحث . ويعلم الله كم من ليال مضت ، ما كان امرها عندى ، لا لانى كنت فى عيش ضنك ، ولا لانى قليل الميسرة ، ولكن



سعد زغلول الحامى فى سنة ١٨٨٩

لان الحقيقة ضائعة ، لا أجدها في طريق نشداتي لها ، بين اناس عهدت اليهم امانة ، ولا من يؤديها منهم لاهلها . كنت ارى القانون يكرهني عنى احترام القضاة ، وضميري يابى الامتثال لاحترام كثير منهم ، فكنت اجمع بين الاحترام والتحقير ، ولا استطيع التوفيق بين الظاهر والباطن ، فاعجبوا أيها الافاضل من مطيع غير مطيع ، ولا جناح على ، لان القوانين لا حكم لها على السرائر والضمائر . . اقول انى كنت أسأل من القاضى حقا ، ومن النيابة واجبا ، فلا اجد هذا ولا ذلك . أما الآن ، فكلنا يعترف فى سره وعلنه ، بأن القضاء ارتقى ، والحق عنه مسؤول

« وما زلت يا اخوانى اعد نفسى محاميا من الحقيقة التى أردنا المحاماة عنها جميعا »

« وانى شاكر فضلكم ، منشرح الصدر من كونكم عددتمونى جوهرها شفافا سطعت عليه أشعة العدل وانوار الحق . فادعوا الله معى أن يؤيد روح الحق فى بلادنا ، ويزيد فى نشر الفضيلة والعدل »

لعل تواضع سعد حملة على اجمال موضوع احترامه المحاماة ، بعد ما فصله الخطباء الذين سبقوه ، فكالموا له من التقدير والتكريم ما اعجز لسانه عن شكرهم ، وهو الفصيح البليغ اللسن ، كما قال

فماذا قال الخطباء ؟

استهل الحفلة اسماعيل صبرى باشا بكلمة رقيقة قال فيها :

« ان تعيين حضرة الفاضل سعد زغول أفندى عضوا فى محكمة الاستئناف ، لدليل على أن المحاماة والقضاء اخوان رضيعا لبان ، وغصنان صنوان ، حتى لقد راقنى أن اتمثل بقول المتنبي :

هدى منازل الأخرى نهنيها

فمن يمر على الأولى يعزيها ؟»

نهض بعده اسماعيل عاصم باشا المحامى فقال فى خطبة مستفيضة :

« . . بتنا منشرحي الصدر ، مثلجى الأفتدة ، لظهور التطور والارتقاء فى اصلاح خطة القضاء ، بانتخاب الاكفاء لها ، اذ رأينا الحكومة قد نشطت لحظة جديدة مثلى ، فانتقت من صناعة المحاماة أصوليا نابغة ، هو حضرة سعد أفندى زغول ، فعينته فى محكمة الاستئناف . ولم يكن قبل فى صناعة دنيا ، فتقول اليوم انه ارتقى ونهئته على ارتقائه ، بل كان فى مهنة

شريفة سامية ، وكانت تفخر به وتزهي ، فما كان من القضاء الا أن نفسه علينا ، فضمه اليه من بين أظهرنا ، وكان ذلك دليلا على انتهاج سبيل الإصلاح ، اذ كان سعد أفندي زغلول يصلح في الحقيقة لمنصب أرقى مما انتخب له ، وأسمى مكانا

« وقد اجتمعنا نحن عصابة المحامين ، الليلة ، لنهنيء أنفسنا بانتخاب الحكومة لحضرة العاضل في سلك القضاء »

ثم وقف الأستاذ ابراهيم اللقاني المحامي فقال :

« يا سعد ، وفي هذا اللفظ معنى الاجلال والتعظيم ، ويكفييني مؤونة المقال . . فياسعد قد عز على القول في هذا المقام ، مع مالي من الاثرة والاختصاص بك والاحتفاظ بجليل فضلك ، الى حد يحتبس معه لساني ، ويمعز عن الافصاح والبيان . واقصر الآن على أن أهنتك من قلب يخالطه الاسف على انفصالك من بيننا ، وقد كنت واسطة عقدنا . وعلى قدر هذا الاسف تكون نهنتنا على دخولك في سلك القضاء . ولكن علام ؟ هل انتقلب الى مقام تكون فيه اكثر ثراء وأوسع دنيا مما كنت فيه ؟ كلا ، بل الى مقام يحبس فيه رزقك على راتب زهيد ، فعلام اذن نهنتك ؟ أم هل انتقلت الى مقام تزاوّل فيه علما لم تزاوله ، أو تزداد سعة منه ووفرا وكنت فيه قصير الباع ؟ كلا ، فعلام اذن نهنتك ؟

« بلى ، نهنتك لانك كنت تناضل عن الحق ، وتحارب للانصاف ، وتجاهد للعدل ، ولم يكن بيدك ، فأصبحت والعدل اليوم بيدك يطالبك بحقه . الا فلنشرّب على شرف تسلمك زمام الحق ونصرته »

أما أحمد حشمت باشا فقد أوجز إذ قال :

« قد علمتم ان النيابة العمومية والمحاماة خصمان مختلفان ، ولكن يناضل كل منهما في سبيل الحق والانصاف ، ويجد لمحو عوامل الاستبداد والاعتساف . وقد كان حضرة سعد أفندي زغلول من أشد الخصمين وأقواهم حجة ودفاعا عن الحق ، وذودا عن العدل ، فأصبح اليوم في صف الحاكمين بين الخصوم ، فحق للنياية العمومية أن ترحب به فيصلا يقضى بالحق ، كما عهدته في دور خصومته ، نصيرا له »

وتعاقب المتحدثون ، ول منكم يشير إشارة عابرة الى فضل سعد على المحاماة ، حتى وقف الأستاذ ابراهيم الهلباوى بك المحامي ، فبسط بسطا وافيا ما اشاروا اليه ، فقال :

« اذا التمسست من حضراتكم المعاذير ، وطلبت الصفح عن التقصير ،
فلى شفيع قائم بين ايديكم ، الا وهو كوني اخطب الآن اثر ثلاثة عشر خطيبا ،
كلهم قد خلب الالباب ، واخذ بمجامع القلوب . ولكن لا اسالكم عذرا ، لان
موضوع الخطب تخصص كله فضائل ، ومهما قال الخطباء ، فبحر الفضل
واسع لا تنفذ مادته . ولست اقصد بكلمتي الى الأسف على فراق سعد
افندي زغلول لطائفة المحامين ، فاننا ما اجتمعنا هنا لتوديعه منها ، بل
لنهنيء هذه الطائفة التي يحق لها أن تفخر أعجابا بما نالته ، بنعيته ، من
الشرف وعلو الشأن

« تقولون ان حرفة المحاماة شريفة ، وفضلها مقرر ، واقول : كان ذلك
لها ، ولكن على القرطاس ، وفي القواعد الفلسفية ، اما المشاهد فليس كذلك

« فمند تسع سنوات ، كانت ابعد عن اسم الشرف والفضل . وتعلمون
انتم ان المحاكم الاهلية حلت محل المجالس الملقاة ، التي كان امامها محامون
يسمون « وكلاء الدعاوى » ، ليس صاحب السمعة فيهم ، الا من كان اخبر
بأغراض القضاة ، وأعرف بحاجتهم ، فكان ، ولا ريب ، هذا الفن ضائع
الاختبار ، بين ايدي طبقة مضيعة لشرفه ، خافضة لمكانته . فلما تألفت
المحاكم الاهلية لم يجسر احد أن يسوق نفسه ضحية لهذا الفن وذبيحة ،
الاريفيقنا سعد أفندي زغلول ، فكل يعالج مرضه ، ويرتق فتقه ، ويقيم
أودد ، ويحاهد في سبيل اعلاء كلمته ، حتى اسدل الستار على كثير من
فضائحه ومعايبه ، فأقدم اذ ذلك ارباب الشرف على احترافه ، ولهذا كان
سعى ريفيقنا بادىء بدء ، جهادا مستمرا ، ولولاه ما استطاع احد الاشتغال
بهذا الفن ، الذي اصبحنا نعهده اليوم فنا شريفا ومهنة سامية عالية .
فالفضل كل الفضل في سمو مكانتها ، لحضرة سعد أفندي زغلول . فلذلك
وجب علينا ان نهنيء المحاماة ، بانتقاله منها وارتقائه الى منصة القضاء ،
فهو الذي صيرها أهلا لان يرتقى منها مثله الى محكمة الاستئناف

« ومن الغريب انه لما عرض تعيين حضرة صديقنا المفضل سعد أفندي
زغلول ، عضوا في محكمة الاستئناف ، قال قائل : ان حضرته رغم ما احرزه
من الفضل وسعة الاطلاع في القوانين ، ليس لديه شهادة « ليسانسيه » ا
فلما لمغ هذا القول سعادة الفاضل رئيس محكمة الاستئناف ، اجاب بأنه :
اذا كان معترفا بفضله وسعة اطلاعه في القانون ، أفلا يكون اضطلاع بدراسة
الشريعة الاسلامية الغراء ، شفيعا له وقائما مقام شهادة « اليسانس » ؟
وهذه حجة دامغة ومقال رشيد

« وهل من ينكر بعد هذا فضل حضرة سعد أفندى زغلول ، وقد عرف فضله كل مصري ، حتى أصبح الفلاح في زوايا القرى ، يعتمد على اسمه في مفاضلة خصمه ، ان كان محققا ، وتخوّر قواه وتهن عزيمته عند ذكر اسمه اذا كان مبطلا ؟ فهل مثل هذا الفاضل تكبر عليه وظيفة مندوب في قلم قضايا الحكومة ، وقد اكبرتها من قبل ذلك الاغراض ، ثم كادت تكبر عليه وظيفة قاض في محكمة الاستئناف ، وهى الوظيفة التى نحتفل اليوم بها ؟

« وأنتم يا حضرات الاخوان تعترفون فى سركم وفى علانيتكم ، انه افضلنا وأجدونا بالرقى واستلام زمام الحكم فى أكبر مصالح الحكومة . فالمحاماة التى رفعها الى ذروة الشرف ، لا تزال تطالبه بأن يتسنى لها أعلى سنام الرعاية والاعتبار ، وان يمحى عنها ما بقى من رسوم الزاوية والاحتقار ، حتى اذا طلب أحدنا فيما بعد ، الى منصب ارقى مما نال اليوم ، لا يجد دونه معترضا

« كلكم تعرفون يا حضرات المحامين ان القضايا كانت ترفع الى المحاكم ، وفى كل مائة منها سبعون أو ما يزيد ، ترفع فيها المسائل الفرعية ، فتقبل لخطأ فى الشكل ، أو لجهل بالطرق القانونية ، فأصبحت وليس فى المائة خمس قضايا مما تقبل فيها الفرعيات ، ومرجع الفضل فى ذلك كله الى سعد أفندى زغلول ، إذ كان قدوة وأستاذا للمشتغلين بصناعة المحاماة ، بل كان استاذ الكثيرين من القضاة : وهذه تقاريره الشرعية والعقلية محفوظة لدينا ، يرجع اليها كل من استبهم عليه أمر قانونى ، فلم يعد بعد من حاجة الى بقاته بيننا ، فقد أتم دروسه علينا ، من حيث الصدق والاستقامة وطهارة الدمة ، أو من حيث البلاغة والفصاحة ، أو من حيث المسائل القانونية الدقيقة المعضلة . فليت شعرى ، لآى شيء نتأسف على فراقه ، وليس بنا من حاجة اليه ، الا ما يطلب منه فى دوره الجديد ؟

« أى مشكل قانونى ، أو أبة حادثة قانونية ، أخذت بطبيعتها شكلا من الأشكال والالتباس – وللحوادث طبائع تختلف حتى مع وحدة القانون – ولم نر مرجع الفضل فى حله ، الى حضرة الفاضل سعد أفندى زغلول ؟ بل فى أى وقت تنازعنا فى مبدأ قانونى ، وكان الحكم بين الفريقين غيره ؟ أو لم يكن الرجوع الى آرائه فى الأحكام السابقة التى بسبيل هذا المبدأ ؟

« ان انتقاله اليوم الى سلك القضاء ، لا يحزننا ، بل يملأ صدورنا فرحا وافتباطا ، اذ به تزول عنا بقية الوصمة التى لم تبرا حرفتنا من عابها الى

الآن . فلو قال لنا قاض من القضاة بعد اليوم : « ان فيكم من لا يصلح لشيء » أجبناه : بل ان فينا من شرف منصب القضاء »

وتنقضى السنون ، وتكر الأعوام ، تولى سعد في انائها نظارة المعارف ونظارة الخفائية ، ووكالة الجمعية التشريعية بالانتخاب . فاذا عطلها الانجليز لنشوب الحرب العالمية الاولى في اغسطس من عام ١٩١٤ ، انتهز فرصة نهايتها في عام ١٩١٨ ، فقص في يوم ١٣ نوفمبر من ذلك العام مع زميليه على شعراوي باشا وعبد العزيز فهمى بك ، دار الحماية البريطانية ليطلب الاستقلال التام لوطنه ، والسفر الى لندن ليصارع الانجليز الفاصيين بحق هذا الوطن في الاستقلال والحرية ، فلم يجب الى طلبة ، ونفوه مع نفر من زملائه الاحرار الى مالطة في ٨ مارس من عام ١٩١٩ ، فاندلعت الثورة وعمت القطر كله ، من شماله الى جنوبه ، ومن شرقه الى غربه ، في اليوم التالي لنفيه (٩ مارس) فاضطرت السلطات البريطانية الى الافراج عنه بعد شهر واحد ، وظل طليقا في خارج الوطن ، داعيا الى استقلاله . فاذا عاد الى القاهرة في ٥ ابريل من عام ١٩٢١ استقبلته الأمة استقبال الفاتحين ، واضطر الجنود البريطانيون المحتارين الى ملازمة تكتلاتهم ، فلم يظهر واحدا منهم يوما في أى شارع من شوارع القاهرة او الاسكندرية ، وذلك حرصا على شعور المصريين ، وكتب يومذاك اللورد اللنبي المتمد البريطاني الى امه - ما ورد في مذكراته - تحت « يوم ٦ ابريل سنة ١٩٢١ » ، يقول :

« وصل الى القاهرة أمس سعد زغول ، فسحبت كل الضباط والجنود من الشوارع ، تاركا للمصريين الأمر . ولقد احتشدت الجماهير المتحمسة ، ولكن النظام كان يشملها ، حتى لم تقع حادثة واحدة »

وكتب المارشال ويفل في كتابه « اللنبي في مصر » يصف ذلك اليوم ، فقال :

« كانت رحلة سعد زغول على طول خط سكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة ، فوزا باهرا له ، ثم امتازت بالمناظر الرائعة عند ما وصل الى العاصمة . وهذا اليوم بطبيعته عطلة وطنية ، غادرت فيه النساء خدورها - مما لم يحدث قبل ذلك - ليشاركن في استقبال من أعظم الاستقبالات التي قوبل بها زعيم في أى بلد من بلاد العالم . ولا بد ان يكون عدد الذين احتشدوا في المسافة القصيرة نسبيا ، بين محطة سكة حديد وبين منزل زغول ، نحو من ٤٠٠٠٠ من الأشخاص على الأقل . ولقد امتلا الطريق بالمعربات التي ترفرف فوقها الاعلام وسعف النخيل ، وبالمركبات من كل صنف ،



سعد زغلول المستشار في سنة ١٨٩٣

غطيت بالأزهار ، وعليها الفتيات يرقصن ، وبالموسيقى الشعبية من كل لون ، وبالجمال وبالحمير ، حتى تألف من كل ذلك مشهد رائع عجيب »

وتسابقفت الهيئات والجماعات والطوائف في تكريمه وتكريم رفاقه ، في حفلات كبيرة في أفخم فنادق العاصمة ، شهدها الوزراء والكبراء والعلماء وكثير من الطلبة والعمال والموظفين والشيوخ والشباب والفتيات والسيدات . من هاتيكَ الحفلات حفلة أقامتها له نقابة المحامين في فندق شبرد ، في ١٥ إبريل ، أي بعد عودته بعشرة أيام ، وقف فيها خطيباً راداً على خطبائهم ، فأفاض في موضوع احترامه المحاماة فقال :

« حضرة الأستاذ النقيب :

« حضرات الزملاء الأفاضل :

« قبل الدخول في الموضوع ، بالإصالة عن نفسي ، وبالنيابة عن حضرات زملائي ، أقدم لحضراتكم مزيد تشكراتنا على هذا الترحيب ، وعلى هذه الحفلة التكريمية

« ثم انى أبدى بانى لا يصح لى مطلقاً أن افتخر بآى عمل من الأعمال فى القضية المصرية ، لانى ما كنت أعمل فيها وحدى ، بل بمشاركة زملائي . واعترف لكم علناً بانى لم أكن العامل الأكبر فيها ، بل كنت العامل الأخير (تصفيق)

« لا أباهى بهذا الفضل ، لأن حصتى فيه تافهة ، ولكن الذى أباهى به ، واستسمحكم أن أقول بانى افتخر به كل الافتخار ، هو دخولى فى صناعة المحاماة (تصفيق)

« نعم ، افتخر بهذا افتخاراً كبيراً . ولا ينبغى أن ينسب لى أنانية فى هذا الافتخار ، لانى أعرف كيف كان الدخول فى مثل هذه الصناعة صعباً جداً

« دخلت المحاماة أيام كان الدخول فيها ليس شرفاً كما هو الآن ، بل ملوث لمن دخل فيها . لم تكن صناعة المحاماة شريفة فى بلادنا ، كما هى شريفة فى ذاتها ، بل أسوأ استعمالها ، الى حد أن كان اسم المحامى مساوية لاسم المزور . نعم ، كان هذا هو شأن المحامى ، وكان لا يستطيع أن ينسب لآى بيت من البيوت العالية . كان الصدق غير معروف فيمن يشتغلون بهذه المهنة ، ومع ذلك أقدمت على هذه الصناعة ، مع أنها كانت مخالفة ، فى ذلك الوقت ، للذمة وللشرف . وكان المحامى لا يقصد لعلمه بل لتزويره .

فلاقدام على الدخول في هذه الصناعة في الظروف التي شرحتها ، يعد شجاعة واقداما . وقد دفعنى الى الاشتغال بها ، اعتقادى انها صناعة شريفة ، لها صفات جميلة جدا ، لانها تساعد العدالة في توزيعها ، فيجب رفع شأنها (تصفيق)

« دخلت في هذه الصناعة ، وتحملت ما تحملت ، ولم يكن هناك نقابة تدافع عن حقوقها ، بل كانت المحاماة تحت الأحكام العرفية حقيقة ، وكان يكفى ان يفضب رئيس محكمة على « وكيل » ، فيحرمه من صناعته . »
« واذكر يوما كنت اترافع فيه امام محكمة بنها ، فطلب وكيل النيابة تاجيل القضية لاستيفاء بعض الاجراءات ، فقلت : لا يجب تأخير الدعوى ، لانه لا يصح اطالة سجن المتهمين . فقال الرئيس : اسحب كلامك ، فان المحكمة لا يجب عليها شيء . ولم يكن في ذلك الوقت نقابة يرجع اليها ، ولكن شدة جرأتى دفعتنى على ان أقول له : انى لا اسحب كلمة اعتبرها حقا ، فتداول مع زملائك ، وقرروا رفض طلبى او عدم رفضه . قلت هنا وأنا متخوف ان يجر الى حرمانى من صناعة المحاماه ، ولكن قدر القدر ان يكون بين القضاة قاض كان صديقا لنا أخيرا ، وهو المرحوم على بك فخرى ، فعفوا عنى !!

« نعم ، لم تكن المحاماة شريفة في ذلك الوقت ، كما هى شريفة في ذاتها ، وكان المحامون مشهورين بمهارتهم في أن يشتموا بعضهم بعضا . وقد اصابنى في أول مرافعة لى أمام محكمة الاستئناف ، ان زميلى كان رجلا « قديما » ، وكنت صغير السن اذ كان عمري ٢٢ سنة ، وكان مستائفا ، فأخذ يطعن على بدون أن يعرفنى أو اعرفه ، ونسب الى انى كنت محاميا قديما وما كنت كذلك ، ووبعد ذلك ألهمت القول بأن كلام زميلى ينحصر ، بعد حذف المطاعن ، في كذا وكذا . وما جاريتة في شتائه ، وجريت على هذا الاسلوب ، وجرى عليه آخرون

« أقول لكم هذا لأدل حضراتكم على أن صناعة المحاماة لم تكن شريفة، وكان الدخول فيها يحتاج الى اقدام وشجاعة وتضحية . والمتشرف بمخاطبتكم تحمل هذه التضحية ، وهو يستحق ان يفتخر بها . ولقد جاهدت حتى علا شأن المحاماة ، وأصبح فيها من هم صادقون واصحاب ذمة وشرف ، ولكن قبل هذا الدور ، كان لا ينبغى لقاض ان يجالس محاميا ا ولقد صدر منشور من النائب العمومى بمنع اختلاط المحامين بالقضاة ا ولكن هذه الصعوبات ذلت ، حتى صار القاضى يرى من شرفه ان يخاطب المحامى ويعاشره ، ويسلك معه كل مسلك (تصفيق)

« ثم كان من هذا السير ، ان قضاة انتخبوا من المحامين ، وكنت اول انسان في المحاماه انتخب قاضيا ، واني افتخر بهذا . ثم حدث اني اشتركت في تأسيس نقابتكم التي هي الآن الملجأ لكم والحامية لحقوقكم . واني اشكر النقيب الفاضل على انه ذكر هذا بأمله مفخرة لى ، واتقبله منه بغاية الشكر »

ما كان سعد لينسى حديثه عن نفسه وهو محام ، في المناسبة التي تعرض

له

في ١٥ فبراير من عام ١٩٢٤ ، اقامت نقابة المحامين بالقاهرة ، حفلة تكريم لتلاثة من المحامين اختارهم سعد بن اول وزاره دستريه رأسها في تاريخ مصر الحديث ، هم : مرقص حنا بك وزير الانسفال ، ومصطفى النحاس بك وزير المواصلات ، ومحمد نجيب الفرابى أفندى وزير الحفانية فما ان انتهى الخطباء من خطبهم ، حتى تطلعت الابصار الى سعد ، راجية ان يلقى كلمة او درة من درره في المحتفلين ، فارتجل - وجميع خطبه طول حياته كانت ارتجالا ولعدة ساعات ، الا ما كان في مناسبة رسمية فينتلو من ورقة - خطبة بداها بقوله :

« زملائي الكرام :

« وكل من ارى زملائي ، فان كانوا محامين فقد كنت محاميا ، وان كانوا « مجاورين » - اى طلبه في الأزهر - فقد كنت مجاورا ، وان كانوا صحافيين فقد كنت صحافيا ، وان كانوا وزراء فقد كنت من الوزراء ، ولذلك ادموكم كلكم زملاء »

ثم قال بعد حديثه قصير :

« اذكر انى عند ما كنت محاميا - ولا اقول ذلك مفاخرة او مباهاة ، بل حكاية للواقع ، يسمعا المحامون الذين هم أحدث منى سنا ، ليروا رأيهم في اتباعه . . ياتى موكلى مريدا الصلح لخشية خصمه من توكيلى عنه ، فأرحب به وأسهل الامر عليه ، بان أرد اليه مقدم الاتعاب التي قبضتها منه - لماذا سكتتم ؟ (ضحك وتصفيق) . يجب عليكم ان تساعدوا على الصلح ، ولو يرد بعض الاتعاب ان لم يكن كلها . وعلى اى حال أرجو أن لا تكون قيمة الاتعاب مانعا لكم من تحقيق الصلح والسلام

« انى ما كنت اعيد مقدم الاتعاب في باب الايرادات ، بل في باب الامانات ، لانى نفسى ضعف نفسى ، حتى اذا أراد الموكل الصلح ، أرد له الاتعاب واقول له : هذه امانتك ردت اليك . فعليكم ان تتصرفوا في الامر كما

نشاؤون ، وقوا انفسكم من طمعكم كما ترون ، وهذه نصيحة محام قديم
لمحاميين محدثين .»

لم يقتصر فضل سعد على المحاماة على هذا ، بل ان له فضلا قديما
لا يذكره أحد اليوم ، هو أنه فتح باب الانتساب الى « مدرسة » الحقوق
لإمام الراغبين من الشباب في دراسة القانون . وقد روى هذا بنفسه ، فقال
في جلسة الجمعية التشريعية التي عقدتها في يوم ١٠ يونيو من عام ١٩١٤ -
وكان وكيلها المنتخب ممثلا فيها دائرة السيدة زينب - لمناقشة بعض
نصوص قانون تحقيق الجنابات ، وبعض مواد خاصة بالالتحاق بالمدارس
أعدتها لجنة المعارف في تقرير مسهب :

« عندما كنت ناظرا للمعارف ، وجدت كثيرا من الشباب يريدون أن
يتعلموا الحقوق ، ولكنهم لا يجدون سبيلا لتعلمها ، لان محلات مدرسة
الحقوق أقل من الطالبين ، فبحثت المسألة مع ولاة الأمور ، وامكنا ان نقبل
في امتحان المدرسة اناسا يتعلمون في منازلهم أو في المدارس الحرة ، تم يقبلون
في آخر السنة في الامتحان ، وترتب على ذلك ان تعلم كثير من الناس »

كان سعد فريدا بين الزعماء ، في صراحته ، وفي بساطته ، وفي تواضعه
وفي تمسكه بالحق ، وفي شدته على الباطل ، وفي الوفاء ، وفي كل فضيلة ،
أو محمداً أو مكرمة عرفها أهل ذلك الزمان

من صراحته في الحق ، ما أثر عنه قوله غير هيب ولا وجل عن السلطان
أحمد فؤاد ، في الحفلة التي أقامها له سكان قسم شبرا برباسة الأمير عزيز
حسن ، في ٢٥ أبريل من عام ١٩٢١ ، في معرض حديثه عن الخلاف الذي
نشأ بينه وبين عدلى يكن باشا على رباسة وقد المفاوضات مع الحكومة
البريطانية ، فان سعدا يصبر على أن يكون رئيس الوفد باعتباره ممثلا للامة ،
ويصبر عدلى على أن يكون هو الرئيس لانه الممثل الرسمي للحكومة باعتباره
رئيسا للوزراء . قال سعد :

« قالوا - اى الوزارة وانصارها - ان اعطاء الرباسة لغير رئيس
الحكومة مخالف للتقاليد المعروفة . ما هذه التقاليد ؟ لكل بلد تقاليد ،
فهل في مصر ما يمنع عظمة السلطان من أن يعطى الرباسة لمن يشاء ؟ كلا
ثم كلا . . هذه دعوى منهم لم يقيموا بينة عليها ، فلا اعتبار لها . على انه
إذا صح في البلاد الأوربية ان رئيس الحكومة يجب أن تكون له الرباسة ،
فلا يصح ذلك في مصر مطلقا ، بالنسبة للمهمة السياسية التي نحن
بصددها ، فان مصر ليست بلدا دستوريا ، ووزارتها لا ينتخبها الشعب ،

بل هي معينة من طرف الحاكم ، فلا يمكن ان تدعى أنها وزارة دستورية
ناتية عن الأمة ، فهي معينة من عظمة السلطان ، بل أجاهر بالحقيقة الآتية :
ومن المندوب السامى أيضا .

« ومتى كان الرسوم السلطانى مضى من رئيس الوزارة والوزراء ، فانهم
يكونون هم المسؤولين عنه ، لأن عظمة السلطان يمثل سلطة الحماية المضروبة
عليكم رغم أنوفكم .

« ليس لمصر وزارة خارجية الآن ، وسياستها الخارجية بيد الدولة
الحاميه ، ورئيس الوزارة ليس الا موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية ،
يسقط ويرتفع بإشارة من المندوب السامى ، وهو بهذه الصفة لا يمكنه أن
يكون بازاء رئيسه وزير خارجيه انجلترا حرا فى الكلام ، لانه مدين له بمركزه
فاذا طلبنا الرياسة، فانما نطلبها ليكون الرئيس حرا مرتكزا على قوة لا تهاب
شيئا فى المطالبة بحقوقها ، وهى قوة الأمة ، لا ان يكون مرتكزا على قوة
مستمدة من الحكومة الانجليزية ، لان ذلك يجعل المفاوضة بين الاصل
وفرعه ، أى بين الحكومة الانجليزية ، وبين الحكومة الانجليزية أيضا . .
أى ان جورج الخامس - ملك انجلترا فى ذلك الوقت - يفاوض جورج
الخامس »

من تواضعه قوله فى جلسة الجمعية التشريعية فى ١٥ يونيو من عام
١٩١٤ ، ردا على عضو قال أن سعدا يريد بمعارضته المسألة التى كانت
مطروحة على أعضاء الجمعية ، التاثير على فئة مخصوصة لتنضم اليه
وتنقاد لزعامته :

« هذه الفكرة يا حضرة العضو المحترم ، يسهل على اللسان مع الاسف
ترديدها ، وقد تطوف ببعض الاذهان . ولكنى أقرر لك انها فكرة غير
صحيحة ، وانى بعيد عنها كل البعد ، وها أنا موجود معك ومع غيرك فى
هذه الجمعية منذ زمن طويل ، فقل لى : متى رجوتك مرة ان تنضم الى
وأى ؟ ومتى حاولت التاثير عليك لاجعلك تحت زعامتى ؟ لا أظنك تقول
ذلك . .

« انك ان شئت ان تعرف حقيقتى ، فاعلم انى رجل قد وضعت تحت
تصرف امتى : عقلى وخبرتى وبيانى ، فان استفادات الأمة من عملى هذا ،
فذلك ما يجعلنى سعيدا ، والا فهو واجب قد اخذته على نفسى ، فانا اقوم
به لأريح ضميرى . أما الذى يسرنى ويشرفنى ، فهو ان اكون خادما لكم
لا زعيما »

وكان سعد يفخر بأنه فلاح ، وأعرب عن فخره هذا في مادبة عشاء كبيرة أقامها له ولرفاقه « سر تجار العاصمة » عبد العادر الجمال باشا وزملاؤه ، في فندق سيميراميس في مساء يوم ١٢ ابريل من عام ١٩٢١ ، بمناسبة عودتهم من أوروبا ، حيث كانوا يحاولون جاهدين عرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح

قال سعد في تلك الحفلة : « طربت جدا عندما شرفنى بزيارته وفد من الفلاحين على اكتافهم المقاطف ، وفي أيديهم القؤوس ، إذ قالوا : اننا جئنا لنحييك . قلت : وماذا تريدون ؟ قالوا : نرغب في الاستقلال : قلت : تعرفوا الاستقلال يتاكل والا يينشرب ؟ قالوا : الاستقلال يعنى نحكم نفسنا بنفسنا ولا يحكمناش الانجليز .

« ايتوتى بإى كاتب أو فيلسوف ، يأتى للاستقلال بمعنى أحسن من هذا المعنى الذى جاء به الفلاح الذى يحمل في يده الفأس وعلى كتفه المقطف ؟

« انى افتخر بهذا الفلاح ، وبأنه منى وأنا منه »

ويصبح مصر دستور في عام ١٩٢٣ ، وتجري على أساسه الانتخابات حرة نزيهة ، فيكتسح سعد وأنصاره مقاعد البرلمان ، ويرأس أول وزارة دستورية في تاريخ مصر الحديث كما قالت من قبل في سنة ١٩٢٤ ، فيكتب المارشال ويفل يقول في كتابه « اللبى في مصر » ، ويا صدق ما قال :

« كانت سنة ١٩٢٤ في مصر ، سنة زغلول ، فقد طلعت عليه وهو سيد مصر الأعلى ، وحل يوم ٢٧ يناير من هذه السنة ، فأصبح زغلول أول رئيس وزارة لمصر في ظل الدستور الجديد ، وتوات الحكم في إنجلترا في الوقت نفسه تقريبا ، أول حكومة للعمال رأسها « رامزاي ماكدونالد » واحتفظ بوزارة الخارجية مع رياسته الوزارة ، وكانت له بزغلول معرفة شخصية ، وكثيرا ما كان يعبر عن ميله لتحقيق آمال مصر في الاستقلال التام ، كما فعل آخرون من أعضاء حزب العمال . ولقد بدأ زغلول في الحق يومها في ذروة النجاح . كانت له اليد العليا في السياسة المصرية ، بينما غلب الضعف على الأحرار (يقصد الأحرار الدستوريين) وبقيّة الأحزاب الأخرى ، حتى الملك لم يطمع في معارضته ، مع صداقة الحكومة البريطانية له وميلها اليه . بل ان دار المعتمد البريطانى التى لم يكن له صلة رسمية بها منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ - يوم أن أبدأت زيارته للسير ريجنالد ونجحت معركة الاستقلال - راحت تخطب وده » .

ويقتل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام السرى باشا فى ١٩ نوفمبر من السنة نفسها (١٩٢٤) ، فيستقيل سعد بعد ان رفض انذارين بريطانيين فيهما اعتداء على سيادة الامة واغتصاب لحقوقها ، وتعقبه وزارة اخرى ، وتجرى انتخابات ، وينتخب سعد رئيسا لمجلس النواب فى عام ١٩٢٦ ، فاذا انتهت الدورة البرلمانية فى ١٦ يوليو من عام ١٩٢٧ ، خطب فى النواب مودعا ، فقال بعد ما عدد ما انجزه مجلسهم فى دورته تلك :

« لقد كنت اود ان اتحدث اليكم كثيرا ، ولكنى اشعر بانى تعبت واتعبتكم ايضا ، ولا اريد ان اجعل احدا يمل منى . ولكننى قبل ان اختتم كلامى ، ارجو منكم حينما تفادرون هذا المكان ان لا تنسوا وظائفكم : لا تنسوا انكم نواب دائما ، لكى يحدوكم هذا العلم ، الى البحث عن آمال مواطنيكم واحتياجاتهم ورغباتهم ، لكى تبدوها للحكومة ، اما مباشرة ، او بطريق هذا المجلس فى الدورة القادمة ان شاء الله .

« والآن استودعكم الله جميعا ، واسأله لكم الصحة والعافية ، وارجو ان اراكم قريبا ، وان يهبنى الله جل وعلا من القوة ، ما يعيننى على مشاركتكم فى خدمة البلاد ، حتى نصل بها الى ما نوده جميعا » .

ويسافر الزعيم الجليل الى عزنته فى مسجد وصيف ، حتى اذا كان يوم الاثنين ١٥ اغسطس ، شعر بالتهاب فى اذنه ، واشتد الالتهاب فى اليومين التاليين ، وامتد الى جلد الراس ، وارتفعت حرارته ، واشتدت آلامه ، وعرف الاطباء انه اصيب بمرض ((الحمرة)) ، فاسرعوا بحققه بالمصل المضاد لثبدا التحسن عليه قليلا قليلا ، اذ هبطت حرارته ، وانتعشت حركته ، مما راى الاطباء معه عودته الى القاهرة ، فعاد اليها بالباخرة ((محاسن)) فى يوم الجمعة ١٩ اغسطس ، وهو فى صحة لا تبعث على قلق او حذر ، وفى صباح يوم الأحد عاده اطاؤه ، ثم اذاعوا نشرة طبية كانت الاولى والاخيرة ، قالوا فيها :

« ان الالتهاب الذى اصاب حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول باشا فى اذنه ، ثم فى راسه ، قد زال بحمد الله مع الحمى التى نشأت عنه . ودولته الآن فى دور النقاهة ، ولكنه محتاج الى الراحة التامة ، ويمكنه ان يغادر غرفته ويقابل زواره بعد قليل من الايام ان شاء الله » .

ولكن الداء استشرى ، ووصل الى الرئتين شديدا قويا ، وارتفعت درجة حرارته الى الواحدة والاربعين وتسعة خطوط ، ومعنى هذا : ان لا امل ، فقد انتهى الاجل ، وحانت ساعة الرحيل الى الدار الآخرة .

ففي الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس ، مسحت زوجته الوفية أم المصريين صفية هانم زغلول ، جبهته بيمينها ، حانية عليه ، متكلفة الشجاعة والجلد ، وسالته : كيف حالك يا سعد ؟ فاجابها بصوت خفيض وهو مغمض العينين : انا انتهيت . . . فمسحت دموعا هطلت على خديها ، واستجمعت جلدها وشجاعتهما وقالت له : بل انت بخير . فرد عليها بصوت لا يكاد يسمع : انا انتهيت . وكانت هذه آخر كلمات سعد ، فقد عاده الأطباء بعدها ، فلم يسموا منه كلمة واحدة لانه فقد النطق ، وغاب عن الوعي حتى اذا كانت الساعة العاشرة الا ربعا مساء ، اسلم روحه الى بارئها ، بعد مرضى عانى منه اسبوعا واحدا .

وفي اليوم التالي ، شيعت مصر سعدا الى مثواه الأخير ، في مشهد ثم تر مصر مثيلا له الى اليوم ، فقد كانت بداية الجنائز عند بيت الامة في شارع الفلكي ، ونهايتها عند مقبرة الفقيد العظيم في مدافن الامام الشافعي في زمن لم يكن فيه راديو ، ولا تليفزيون ، ولا وسائل اعلام حديثة ، تذيع الخبر المجمع في كل صقع وناد . ولم يك سعد حاكما ولا رئيسا لقولة ينثر الذهب على هذا وذاك ، ويستجلب رضاء الناس بالمال وغيره من الوسائل التي يملكها الحكام والرؤساء ، ولم تطل زعامته للامة عشرات السنين ، فهي لم تجاوز ثمانية اعوام بدأت في نوفمبر سنة ١٩١٨ وانتهت في اغسطس سنة ١٩٢٧ ، ملك فيها الامة ، وسيطر على قلوب العرب ، وجند حوله الملايين باخلاصه وايمانه وقوته الروحية التي لم يخفق مثلها بعد ، وشدة عارضته ، وبلاغته الساحرة الاخذة بالالباب .

كتب الأستاذ عباس العقاد غداة تشييع الجنائز يقول في جريدة « البلاغ » :

« . . . اخذ الناس يتجمعون ويتفرقون بغير وجهة ، وعلى غير هدى ، ثم عرفوا لهم وجهة يتجهون اليها حين قارب موعد التشييع ، وأن أوان الشروع في تنظيم الجنائز . ففريق منهم وجد مكانه على جوانب الطريق من بيت الامة الى القبر الذي يوشك أن ينزله صاحب ذلك البيت ورافع مناره وقبلة زواره ، وفريق منهم قصد بيت الامة ليشتترك في تشييع الجنائز ، أو ليتزود النظرة الأخيرة من الرفات المسجي في نعشه . وما اقتربت الساعة الاولى بعد الظهر ، حتى كانت القاهرة كلها ومن قدم اليها من الأقاليم ، محشورة بين البيت والمقبرة ، بين دار سعد وقبر سعد . فلا يتحرك السائر في تلك الطريق الا اندفاعا وزحاما ، ولا تقطع مسافة الدقائق منها الا في الساعات . ثم كانت اللحظة المرهوبة ، لحظة ينزل فيها

الفقيد الراحل من بيته الى غير عودة ، لحظة يفارق فيها سعد البيت الذي ودته اليه الأمة كلما ابعده منه قوة الاقوياء وشدة الاشداء .

« أفاق الناس ... سعد يبرح داره .. ؟ سعد يفارقهم الى غير لقاء ؟
... يا للهول القاصم ، ويا للفزع الاكبر .. كأنما نسوا هذا ، كأنما كانوا في حاجة الى مذكر به فوق ما هم فيه من كآبة وذ هول ... عادت الحقيقة اليهم جائحة فادحة ، في صورة ذلك النعش الأخضر ينحدر من بيت الأمة في تودة وسكون ، نعش سعد وفيه سعد ، لا شك في ذلك ولا مرأ ..
فيالها من لحظة تطيش فيها العقول ، ويذهب فيها حلم الحليم وصبر الصبور ... صيحة واحدة لا فرق فيها بين رجل وامرأة ، ولا بين شيخ و غلام .. أحزمهم في تلك اللحظة من ذكر الله وصاح : لا حول ولا قوة الا بالله . وما يقولها وهو يفقه لها معنى ، ويتأسى فيها بأسوة ، انما هي كلمة مقولة في هذا المقام تنبعث من الأفواه عفوا فتختلط بالصياح المزرق ، والابن الصارخ المدبوح .

« ثم سار النعش تتعالى الأصوات حوله ، ويتصاعد النواح . وباعجبا لمنطق العواطف في موقف الحزن والبلاء !! اختلف المشيعون بعد فترة ، فسكن فيهم من سكن ، واتصل الضجيج من الآخرين . فأما الدين وقفا على جوانب الطرقات ، فقد كانوا يتلقون النعش ، ويودعون بالتفجع والعيول ، لانهم علموا انه الوداع الذي ما بعده وداع ، والفراق الذي ما بعده لقاء . وأما الدين مشوا خلف النعش فقد علتهم السكينة ، وطواهم رواق واسع من الصمت والوجوم ، فلا همس ولا ركز الا خفقات الاقدام وزفرات الألم المكتوم . أترأهم أنسوا بالفقيد الذي لا يزال بينهم ، قتأى عنهم هاجس انفراق ، وعاودتهم طمأنينة اليقين بالقرب من سعد الى حين ؟ هو ذاك فيما أخال ، فانهم ما انقطعت عنهم هذه الطمأنينة المختلصة عند جامع قيسون ، وما شهدوا النعش يتحرك من مكانه ليذكرهم باقتراب مغيبه ، حتى ثارت الثائرة الهاجعة ، وتدفت الجماهير كالسيل الجارف الى الفقيد المنذر بالرحيل ... هذا سعد بين أيديهم ، فلماذا يسلمونه للموت ؟ ولماذا يفرطون فيه هذا التفريط ؟ لا عقل هنا ولا تدبر ولا نصيحة ولا اصفاء . هذا سعد ، ونحن نريد سعدا ، فمن ذا الذي يحول بيننا وبين ما نريد ؟ هذا سعد ، ونحن نريد سعدا ، فلماذا نرسله بأيدينا الى ذلك المكان السحيق ؟ كذلك تفكر العواطف المجنونة ، اذا عصفت بالعقل محنة الحزن الاليم . واقسم ، ما تاب هؤلاء الهاجمون الى أماكنهم لانهم تابوا الى الرشاد ، وانما رجعوا عن بغيتهم لأن الشرطة نافحهم هنالك ،

حتى عجزوا وتقهقروا ، فأمدهم الجيش بكل قوته التي رابطت حول ذلك المكان .

« ثم عدنا الى المدينة ، الى القاهرة ، بغير سعد ، الى القاهرة اليتيمة . فوالله للقاهرة في تلك الليلة أشبه بوحشة القبر ، من ذلك الضريح الذي تلقى الأنس والطمانينة في رفات الفقيد المتروك . ووالله لقد كانت الاسماع يطرقها كل صوت ، فاذا هو بكاء ونحيب . وقد كانت السيارات الداهبة الآيبة تهتف بأبواقها في وسط تلك الوحشة ، فكأنما هو نعيب متصل ينطق به قلب يشعر ، ولسان مشلول عن المقال ... سوف تنقضى أيام عديدة قبل أن يوقن الناس بقلوبهم وأخلادهم ، أن القاهرة مكان لا يرى فيه سعد » .

ان الخارجين على سعد ، والذين كانوا يمطرونه في صباح كل يوم ، الوانا شتى من النقد العنيف القائم على الحسد والغيرة ، لم يسعهم الا الاعتراف بزعامة سعد ، وبفداحة خطب مصر والعالم فيه .

افراوا ما قاله الدكتور محمد حسين هيكل بك رئيس تحرير جريدة « السيادة » الناطقة عن « الأحرار الدستوريين » أشد خصوم سعد ، في مقال عظيم له بعنوان « ماتم الوطن » :

« مات سعد زغلول ! يا لهول الموقف ، ويا لقسوة المقادير . وبما أشد حزن مصر على فاجعة لم تترك قلبا الا أدمته ، ولا فؤادا الا سلبته ، ولا نفسا الا اهترت لها فرقا ، ولا عقلا الا زلزلت أعصابه زلزالا ... نعم ، يا لهول الموقف الرهيب ! وأية رهبة ، وأى جزع ، كأن تنظر أمة ، فاذا لسانها الناطق قد صمت ، واذا قلبها الخفاق لم يعد يخفق ، واذا هذا الذي كان على كل لسان وفي كل نفس ، في مصر وفي غير مصر من بلاد العالم كله ... اذا سعد زغلول قد طوى الموت صحيفته ، واذا كل الانظار التي كانت تتطلع اليه بالرجاء ، لم يبق لها الا أن تتطلع الى السماء ، راجية في رحمة الله ومغفرته الفرار ، والا أن تنخفض الى الثرى تبلله بالدموع المهرقة والعبرات المسكوبة ؟

« مات سعد زغلول ، يا لهولها من كلمة . رجل يملأ الدنيا اسمه دويا وتحسب الممالك له حسابا ، ثم يأتي عليه الموت ، كما يأتي على أى رجل من الناس ؟ عجباً ! اذن فما الحياة وما زخرفها الباطل ؟ ولكننا يجب أن نتأسى ، وما سعد الا زعيم قد قضت من قبله الزعماء ، ولئن مات فلن ينقلب على

عقبه أحد ، . وستظل ذكراه باقية في النفوس ، ملكية فيما ما ذكت به نفسه ، من حرص على حق الوطنى ، وإيمان لا يترزعع بانتضائه إياه .

وقال محمد محمود باشا رئيس الأحرار الدستوريين ومن غلاة خصومه في حفلة تابين الزعيم الجليل في يوم ٧ أكتوبر من العام نفسه بمناسبة انقضاء أربعين يوما على وفاته .

« ان مصاب الكنانة في زعيمها وهى في أشد الحاجة الى جرانه الحكيمه والى آرائه الموفقة ، لما يعز معه العزاء ، لولا ان ذكراه قائمة في نفوسنا تشد منا العزائم ، وترشدنا الى معالم الوطنية الحقبة .

« انكم لتعلمون جميعا ان سعدا كان ذلك البطل الحكيم والشائر الهادىء ، بل قد يكون الزعيم الأوحد الذى قامت زعامته ، في أمة عزلاء ، على قوة اليقين ومضاء الحجبة والاستمسك بالحق . في حين ان الزعامه في الشرق والغرب ، قديما وحدينا ، من معاوية الى مصطفى كمال ، ومن يوليوس قيصر الى موسوليني ، استندت كلها الى القوة المسلحة ، فقامت عليها وتوطدت بها .

وفي حفلة التابين هذه ، خطب الأستاذ عبد الحميد سعيد عن الحزب الوطنى فقال :

« قضى سعد ولا راد لقضاء الله . قضى الزعيم الكبير . قضى القائد العظيم . قضى فقيد مصر والشرق . . . فصبر جميل ، وانا لله وانا اليه راجعون . . مضى رجل الكفاح . مضى الخطيب الذى طالما هز اعواد المنابر وتملك القلوب ببلاغته وسحر بيانه ، فجزعت مصر ، بل جزعت شعوب الشرق المظلومة من هول المصاب ، فقد كانت نهضتنا القومية ، موقظة للشعور ، منبهة للوحدة القومية ، في كل بلد مهضوم حقه ، مغلوب على أمره .

« لقد فقدت مصر سعدا ، وهى أحوج ما تكون الى آرائه الشاقبة السديدة ، وهمته الوثابة ، وخطبه التى كانت تزكى نار الوطنية في القلوب ولا يمكن أن ننسى نداءه الذى قال للأمة فيه : « انكم أنبل الوارثين لأقدم مدينة في العالم ، وقد حلفتم ان تعيشوا احرارا أو تموتوا كراما ، فلا تدعوا التاريخ يقول يوما فيكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم . فلنسر اذن بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس ملؤها استبشار ، شعارنا : الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

وقال محمد توفيق نسيم باشا ، وكان هو الآخر من أعد خصوم سعد
في حفلة التابن :

« ان سعد باشا زغلول مثل من تلك النفوس التي استخلصها الله
لنصرة الحق ، واصطفها واصطنعها لبث روح الفضيلة والوطنية في
القلوب ، فكانت مستقر الكمال ، ومجمع أشتات الفضائل . لقد رفع سعد
باشا صوته عاليا ، رفع صوته حرا نديا ، فأسمعكم صيحة الحق ، وأراكم
نور اليقين ، حتى انجلي لكم الأمر ، وتبين لكم الرشيد .

« ان سعد باشا كان الاخلاص مجسما ، والتضحية ناطقة ، والإقدام
حيا . ومن كانت هذه صفاته ، وذلك حاله ، لجدير بأن يكون حيا
للقلوب ، وبصرا للعيون ، وسمعا للأذان .

وعن الحفلة نفسها كتب الأستاذ محمد صادق عنبر المحرر في
« الأهرام » وصفا لها في اليوم التالي ، فقال فيما قال :

« سراق معقود ، وشعب محشود ، ومنبر يمسكه الوقار ، وان كاد
الجنين ليهفو به الى الخطيب الذي كان اذا تسنم ذروته ، اهتز من
الخيلاء . ولولا الحثوف من حوله لشب من العجب ، فاتصل بالجوزاء ،
ولكن اين سعد ؟ فهذا منبر مصر ، ينتظر أن يتسنم ذروته للحمي يحميه ،
وللشعب يعزه ويعليه ، وللحق يؤيده ، وللباطل يفنده ؟

« اين سعد ، فهاهنا مطلع عزته ، وميدان صولته ، وقد رهفت
الاسماع ، وتعلقت الانفاس ، وساد السكوت ، فلا همس الا همس
الفجيعة ، في صدور كاد يفجرها الشجن ، ولا وسوسة الا وسوسة
الرزينة ، في نفوس كاد يودى بها الحزن ؟

« اين سعد ، رأس الندى وصدرة ، وفارس الحق وظهره ، وفخر
الوطن ونصره ؟ » .

وبكته المرأة المصرية والفتاة العربية ، في كل قطر . كتبت الأنسة « مى
زيادة » مقالا بارعا في « الأهرام » ، عنوانه : « هجع جيسار الوادى » قالت
فيه :

« ثمانية أعوام هي اليقظة . حقا ان سعدا شاعر اليقظة ، وبطل
اليقظة ، وخطيب اليقظة ، وزعيم اليقظة . وفي اليقظة جميع عوامل الحياة
وآمالها وشعائرها وسرائرها . أهو الذى حبا مصر بهذا الفيض الحيوى ؟
أم هي التى أمدته به فقوى بقوتها ونطق بلسانها وسطا بسلطانها ؟ أهو

الشاعر يأتي للسامعين بالوحى العجب فيستهوهم ، أم هو الجمهور ينفث في الشاعر بما يصبو اليه ويتطلبه ، ليدوق النشوة ويخلق مع مبدعها ؟
« لم يكن هذا الرجل يوم وداعه ، بأعظم منه في أى يوم من أيام هذه الاعوام المتلظية . ان قصيدة « اليقظة المصرية » متماسكة متكافئة في جميع مقاطعها ، كل مقطع وفقا لطبيعته وأحواله ، فكانت الخاتمة منها خليقة بالمطلع . ان سعدا هو فتى مصر المحب المحبوب في حياته وفي مماته » .

وبعد : الا يستحق هذا الرجل العظيم الذى طهر الحمامة من رجسها ، وأخذ بيدها ورفعها الى أعلى عليين ، بعد ما كانت في أسفل سافلين ، وأصبحت صناعة شريفة مرموقة ، تولى العاملون في حقلها ، في شتى العهود ، مسئولية الوزارة والحكم ، وولايه شئون الرعية . . الا يستحق من صنع هذا كله ، من نقابة المحامين المصريين - وقد ساهم بنفسه كما قال في انشائها لتحضى العاملين في ساحتها المقدسة من بغى البائين - ان يكرم ، فيوضع تمثال له في دار النقابة ، وفي دور النقابات الفرعية في مختلف المحافظات ؟

الا يستحق هذا الرجل العظيم من اتحاد المحامين العرب ، ان يكرمه فينصب له تمثالا في داره ، وتمائيل أخرى له في جميع دور النقابات في أنحاء الوطن العربى ؟

هو نداء أو اقتراح ، أرجو أن يكون له صدق عند النابغين الكريهين : الأستاذ الكبير محمد مصطفى البرادعى نقيب المحامين المصريين ، والأستاذ الكبير شفيق الرشيدات رئيس اتحاد المحامين العرب .

* * *

ان الحديث عن سعدي لا ينتهى ، فلاختم حديثى عنه بفقرة تدل على وفائه، واعتزافه بفضل من سبقوه في خدمة هذا الوطن ، لينال استقلاله ويستعيد حريته وكرامته .

لقد اقامت لجنة الاستقبال التى الفت لاستقباله يوم عودته من أوروبا في ٥ أبريل من عام ١٩٢١ ، حفلة في فندق شبرد في يوم ٢٠ من الشهر نفسه ، وقف فيها يرد على مكرميته ، فقال :

« عدت الى هذه البلاد ، فرأيت كل ما فيها قد تغير عما كنت أعهده . كنت أعهد حقيقة أن فيها قوى كامنة ، ولكن ما كنت أظن أن هذه القوى الكامنة من زمان طويل ، تظهر بهذا المظهر الذى رأيته وملا قلبى سرورا .
« كنت أعلم أن البلاد تصبو الى الاستقلال ، وان حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل ، خصوصا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل

علاء الرحمن محمد فريد بك ، هؤلاء الذين أسسوا ، أو أيدوا ما أسسوا
في النهضة الحاضرة .

« ظهرت هذه القوى الكامنة التي بثتها تلك الأرواح الطاهرة ، ظهرت
بمناخ العودة الى هذه البلاد . ما وجدت فرعاً من فروع الحياة خالية
من هذه القوى الجديدة ، بل كل الفروع . وأيت فيها هذه الحياة منبثة كل
الابتثاك ... » .

لعل هذه الخاتمة تخجل البقية الباقية من رجال الحزب الوطني «
الذين يصطنع بعضهم ، وينتهاز ، الفرص والسوانح ، للنيل من سعد العظيم
الوطني - لمن سبقوه - ومن أنصار سعد .

ولعلني أكون قد افلحت في تصوير صورة موجزة صادقة لزعيم ثورة
١٩١٩ ، لشباب هذا الجيل المعاصر ، المضلل في كثير ، وياويل مضلليه من
التاريخ .

رحم الله الجميع ، ورحمنا معهم .

* * *



محمد طالع عمر بن باسما مؤسس بنك مصر

عالم نفسه الاقتصاد

أرسي قواعد الاستقلال
الاقتصادي لمصر
وللشرق العربي
وأبكر ذاته لبيتي
البنك شامخاً

إذا كان سعد زغلول قد وضع اللبنة الأولى في بناء استقلال مصر السياسي ، بالثورة التي شبت في البلاد ، قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة على اعتقال السلطات البريطانية له في يوم ٨ مارس من عام ١٩١٩ فان محمد طلعت حرب قد وضع اللبنة الأولى في بناء استقلال مصر الاقتصادي ، بإنشائه بنك مصر وافتتاحه رسمياً في ١٥ نوفمبر من عام ١٩٢٠ .

وإذا كان سعد قد اختاره الله الى جواره قبل أن يعلو البناء ويرتفع شاهقاً شامخاً ، فيسعد بمصر وهي مستقلة تماماً ، حرة أمرها بيدها ، وقد نفضت عنها لباس الدل والاستعباد ، فان طلعت حرب قد مد الله في حياته ليضع لبنات عديدات فوق اللبنة الأولى ، فإذا البناء صرح عال يطاول السماء ، تفخر به مصر وتعتز ، بل يفخر به الشرق العربي ويعتز ... وان كان هو نفسه - أي طلعت - قد لقي جزاء سمنار في نهاية حياته ، ولن يكون آخر من يجزون على احسانهم بالاساءة ، وعلى فضلهم بالجحود والكنود .

ان كلا من البنائين مكمل للآخر ، بل ان الاستقلال الاقتصادي اذا بودر به ، كان العنصر القوي في بناء الاستقلال السياسي .
ومما يؤيد هذه النظرية السليمة ، ما نراه في الدول التي ترزح تحت عبء الديون ، وتقف عاجزة في ميدان الانتاج ، فانها تعيش عالة على دائنيها ، فيستغلون ضعفها ، فيبالغون في اذلالها ، ويتفننون في تحطيم كبرياتها ، حتى تخر لهم ساجدة محتلة ، مسلوبة الارادة والحرية والكرامة .

« ان الأمم التي وضع على عنقها نير الدين ، واستحكمت حلقاته ، سبيلها الوحيد لاسترجاع حريتها : الاجتهاد والاقتصاد ، حتى تكثر موارد دخلها وتزيد ، فاذا زادت ثروة البلاد وتخلصت من دينها ، سهل عليها نيل كل حرية » (١) .

(١) « رجال المال والاموال » - اسدوته مجلة « المتكف » في عام ١٩٢٣ - الصفحة

فهل أدرك هذا تمام الإدراك ، الشاب محمد طلعت حرب ، وهو ما يزال طالبا في « مدرسة الألسن والإدارة » التي كانت تدرس الحقوق لطلبتها ، بينما كان هو منصرفا الى الاهتمام بعلم الاقتصاد ، فيقرأ كثيرا من كتبه وبحوثه ، ومع هذا نراه أول فرقته طوال سنى دراسته ، متفوقا على أقرانه ، الى أن فاز بشهادة الليسانس في عام ١٨٩٩ ، وكان المجلى في حليتها . . . ؟

أم هو قد عقد نيته على العزوف عن الاشتغال بصناعة المخامة بعد تخرجه ونيله شهادتها ، لأنه كان يرى نفسه غير كفاء لها ، لما يجب أن يتوفر للمحامى النابه الضليع ، من قدرة على الخطابة ، ومن بيان فصيح ، ومن بلاغة ساحرة مؤثرة ، ومن صبر على اللجاجة ، وعلى الأخذ والرد ، والجذب والشد ، وبعض هذه « المؤهلات » تنقصه ولا تتوافر له ؟

أما أنا فأرجح الأول ، لأننا نراه في أدوار حياته ، ناهضا بأعمال اقتصادية خالصة ، فيقيم مكتبا للمحاسبة ومسك الدفاتر في ميدان الفلكي - ميدان باب اللوق أو الأزهار اليوم - ثم يختار مديرا للشركة العقارية المصرية ، ثم نراه مديرا لشركة كوم أمبو ، ومديرا لدائرة عمر سلطان باشا ، وصاحبا لشركة التعاون المالى ، الى غيرها من الأعمال التى تولى أدارتها أو ساهم فيها ، حتى أصبح اسمه على كل لسان ، في دوائر المال والأعمال .

ولعل معترضا يقول : كيف كان راغبا عن المحاماة ، ومعلوم انه كان مديرا لقلم قضايا « الدائرة السنية » ؟

فأقول له : لقد عين مديرا لهذا القلم بعد أن كان مترجما به ، ولكن المدير لا يترافع في قضايا الدائرة ولا يدافع ، بل هو الوجه والمرشد لمن يرأسهم من المحامين .

ثم رأيناه مقحما نفسه في ميادين وطنيية سياسية ، اذا اثرت في مساحتها قضايا اتصلت بالاقتصاد بسبب ، دائدا عن وطنه ومواطنيه ، ما يعتقد أنه ضار بالوطن مجحف بحقوق المواطنين .

وما علمنا أسمين كلما ذكر أحدهما ، اقترن به الآخر حتما ولزاما . . . فاذا قلت : بنك مصر . . . ذكرت طلعت حرب على الفور ، أو العكس . فهل كان طلعت حرب هو أول من فكر في انشاء بنك مصرى ؟

يحدثنا الدكتور إبراهيم عبده في كتابه « تذكارات طلعت حرب » وفي الصفحة الخامسة عشرة منه بأنه « فى سنة ١٢٥٨ هـ - ١٨٤١ م - أصدر

محمد على الكبير أمرا بإنشاء بنك « مثل بنوكة الممالك المتحدة ، ويكون له امتياز وسلطة في تسعير العملة والأوزان ، وتسعير سائر أصناف الزراعة والتجارة » .

« وهذا أول بنك لمصر في تاريخها الحديث . وقد حدد محمد على باشا رأس ماله بسبعمائة ألف ريال ، تساهم فيه الحكومة بأربعمائة ألف ، أما الباقي وقدره ثلثمائة ألف ريال ، فقد اختار اثنين من كبار الممولين الأجانب في مصر ليساهما به ، واشترط عليهما أن يتحملا خسارة البنك إذا خسر ، وتكون لهما الفوائد إذا حققها ، أما الحكومة فلن تنال على مساهمتها ربحا ما ، مهما يلفت أرباح البنك . كانت معظم معاملاته متصلة بنشاط الحكومة فقط ، وما لبث أن توقف بعد وفاة منشئه .

« حتى إذا جلس على أريكة مصر الخديوى اسماعيل ؛ رأينا صحيفة « التجارة » - وقد تخصصت في الشؤون المالية والاقتصادية - تعالج مشكلة الديون المصرية التي أغرق اسماعيل مصر في بحرهما ، وتدعو المواطنين الى التفكير للفكاك من أسر هذه الديون . ثم نقرا في عدهما الصادر في ٥ أبريل سنة ١٨٧٩ خيرا لمراسلها قال فيه : « بلغنى أن جماعة من التجار وغيرهم ، وفيهم حضرة الفاضل أمين أفندى شمىل - وكان من هواة الكتابة في الصحف - نزعت بهم غيرتهم الى تقرير أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الدين في ظرف ٢٨ سنة ، وهو أنهم يفتتحون بنكا وطنيا يكون رأس ماله أربعة عشر مليوناً من الجنيهات ، تجمع من سائر أفراد الأمة ، على أقساط ثلاثة أو أربعة ، يقدم كل منهم ما تقى به طاقته ولو ليرة واحدة ، وعلى ماراوه بالقياس على معاملة البنوكة ، يكون ربح هذا البنك بعد نفقاته ، أربعة ملايين ليرة ، فإذا صرف هذا الربح سنويا في استهلاك أصل الدين ، ولا تقوم المالية الا بأداء الكوبون فقط ، فلا يمضى غير ٢٨ سنة ، الا ويتخلص القطر من ائقسال ما أثقل ظهره من الديون . وقد شرعوا في تدوين لائحة تنطوى على الأساس الذى يريدون أن يبنوا عملهم عليه .

« وفي ١٧ أبريل قالت الصحيفة نفسها تحت عنوان « البنك الوطنى » : أن مخترع الفكرة وهو أمين شمىل ، قد طبع رسالة باسم الخديوى ، ذكر فيها ان ادارة البنك ستكون وطنية ، وسيعمدل بنك انجلترا ، ويفوق بنك فرنسا بستة ملايين » . . .

« وفي ٢٦ أبريل نشر أمين نفسه مقالا في الصحيفة استغرق صفحة كاملة ، تحدث فيه عن مشروعه « بنك مصر » ، وبدأت الصحف تنافس

على نشر الدعوة الى انشاء البنك ، حتى اجتمع سلطان باشا وعمر لطفى باشا في نهاية عهد اسماعيل ، وقررا مع غيرهما من الأعيان ، ان ينشؤا بنكاً لمصر ، وأذاعوا على المصريين نداء طويلاً جداً ، قالوا فيه :

« لا يخفى أن البنوك هي الصلة بين سائر أنواع الشركات والمناجر والمصانع ، وهي الوسيط الذي لا بد منه بين المال ومنفعته ، وبدونها يهمل جزء كبير من ثروة العالم بلا استثمار . . ان انشاء البنوك كان رحمة للناس ، وسبباً كبيراً لتسهيل أشغالهم وتمكين رفاهيتهم . وأما في المصالح العمومية الخطيرة ، ففائدة البنوك أوضح من أن تحتاج الى دليل ، لأن تلك المصالح تستلزم مقدرة مالية ، وتدبيراً ادارياً لا يقوى عليهما الأفراد . ولعمري لو حذفت البنوك من بلاد الأفرنج ، لأمسوا جميعهم كالطير مقصوص الجناح ، أو كالجندي الأعزل ، أو كالفارس مقطوع الساقين ، ولزالت كل تلك القوة التي ملكتهم البحار والقفار ، وجعلت تجارة الدنيا طوع أمرهم ، وأوجبت ان جميع المصالح التي تقضى على البسيطة تمر بأيديهم . . ما الذي يقعدنا عن السعى ، وانقاذ أرضنا لا يكلفنا الا الاجتماع والتعاون لانشاء شركات مالية تفي بما لا يستطيعه الأفراد . ؟ لقد رأينا جمهور نهائنا ووجهائنا متبصرين في سبيل الخلاص ، حتى هداهم الله الى انشاء شركة مالية وطنية ، عرضها عليهم بعض وجهاء التجار ، فتلقوها بالبشر والترحاب ، وأقبلوا عليها ، وعقدوا العزم على اظهارها الى الفعل ، وستظهر عما قريب ان شاء الله ، متحلية باسم كريم نفاء لنا به خيراً ، الا وهو « البنك الوطني المصري » الذي طالما حرمتم الأفكار حواليه ، وتشوقت الانفس اليه » انتهى النداء

« ولكن الفكرة لم تنفذ ، فقد عزل اسماعيل ، وشبت الثورة العرابية ،

فقضت عليها »

والحق ان طلعت حرب لم يقل انه أول من فكر في انشاء هذا البنك ، والرجل صادق ، فهو يبغض الكذب والكذاب بغضاً شديداً ، حتى لنراه يحب انساناً ما ، فيسكنه قلبه ، ويؤثره على بعض العظماء ، ويضعه في محراب من الحب الخالص . . واذا به يلفظه ويدفع به من حائق ، فيهبوى مهشم الضلوع ، ويصبح ويمسى لا حول له ولا قوة . وسيجىء هذا الحادث في موضعه من هذا الفصل ، مع أمثلة عدة من بغضه الكلاب والكدايين

أقول ان طلعت حرب لم يقل انه أول من فكر في انشاء هذا البنك فقد اعترف بهذا في خطبته التي القاها في مساء يوم الجمعة ٧ مايو سنة ١٩٢٠ في دار الأوبرا « السلطانية » ، في الاحتفال بتأسيس بنك مصر ، فقال :

— « ان فكرة تأسيس بنك مصرى ، برؤوس اموال مصرية ، يعمل لمصلحة مصر قبل كل مصلحة سواها ، ليست بالحديثة ، بل هى فكرة قديمة ، قد اراد الله تحقيقها الآن ، فى انسب الأوقات وأوفق الظروف » (١) ان الخديوى اسماعيل نفسه فكر هو الآخر فى انشاء بنك مصر ، عندما ساءت الحالة الاقتصادية ، بسبب ديونه التى اسرف فى اقتراضها ، وبسبب الفوائد الفاحشة التى كان يدفعها الفلاحون المساكين للمرابين من الأروام الذين كثر عددهم ، حتى ان القاضى « بلينير » أحد قضاة المحكمة المختلطة ، قال فى تقرير له عنهم :

— « كان عدد الأروام يزداد فى مصر يوما عن آخر ، حتى لاحظ بعضهم انه اذا استمر الحال على هذا المنوال ، فالأولى الحاق مصر باليونان !!! ثم وصف القاضى فى تقريره هذا جشعهم واستغلالهم المقيت للفلاحين فقال :

— كان الواحد منهم يجيء الى مصر خالى الوفاض ، لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، لا بضاعة له الا الاقتصاد والتدبير ، ومتى كسب اى مبلغ باى طريقة كانت ، اتجه همه الى فتح دكان صغير فى قرية يبيع فيه البقالة ، ثم تتسع أعماله ، فيبدأ فى التسليف بالربا ، ومتى نجحت أعماله ، سهل عليه أن يقترض الأموال من تجار الاسكندرية ، فما هى الا عشية أو ضحاها ، حتى يصبح صاحبنا بنكيرا. ممن يلعبون بالذهب ، فيشيد — ذلك الذى جاء بالأمس عارى الجسد حافى القدمين — قصرا فى القرية ، يتخذه قاعدة لادارة أعماله ، ومحلا لبنكه الذى يؤمه الفلاحون ، ليستعطفوا (الخواجة) ، وأغلب هؤلاء المرابين تقشع لمناظرهم الابدان : أميون لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، امتلأت نفوسهم بالطمع الطاغى ، لا تعرف قلوبهم الرحمة »

لقد سجل اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى تقريره الذى وضعه فى عام ١٨٩٥ ، وفى الصفحة الخامسة عشرة منه ، هذا الحادث المبكى المضحك معا . قال :

(١) « مجموعة خطب محمد دطلعت حرب باشا »

- « حدث ان أحد صغار المزارعين في الصعيد ، استدان عشرة جنيهاً من أحد المرابين ، ووقع على سند تحت يد المرابي قيمته خمسة عشر جنيهاً على أن تعتبر الخمسة الجنيهاً الزائدة ، فائدة للمرابي في السنوات الثلاث التي سيدفع في خلالها الفلاح دينه

» فما ان حلت السنة الأولى ، حتى دفع الفلاح خمسة جنيهاً ، وتلتها السنة الثانية فدفع خمسة جنيهاً تانيه ، وحلت السنة الثالثة فدفع الخمسة الجنيهاً الثالثة ، وطلب الفلاح من المرابي أن يرد له السند ، فأبى ، وقال له ان عليه أن يدفع قيمة السند كاملة ، وان هذه الخمسات من الجنيهاً ، انما كانت فائدة المبلغ ليس غير !!

» رفض الفلاح المصري ان يسمع له ، لكن المرابي هدده باقامة الدعوى عليه امام المحكمة ، ولما كانت الظواهر في صالح المرابي ، فقد اضطر الفلاح المسكين الى أن يبيع بيته بمبلغ واحد وستين جنيهاً ، سدد منها للمرابي خمسة عشر جنيهاً قيمة السند ، من جديد « وأربعة عشر جنيهاً قيمة مصاريف القضية التي كان في النية اقامتها ، ومصاريف نقل الملكية والبيع .. الخ !! وهكذا دفع الفلاح المسلمين ١٥ + ١٥ + ١٤ جنيهاً ، أى أربعة وأربعين جنيهاً ، نظير دين قدره عشرة جنيهاً » !!

هذه صورة حية لما كانت عليه الحالة الاقتصادية في مصر ..

يقول المرحوم الأستاذ محمد رشدي رئيس مجلس ادارة بنك مصر السابق ، في الصفحة الثالثة والخمسين من الجزء الاول من كتابه « التطور الاقتصادي في مصر » :

- « ان الأسباب التي أدت الى نشأة البنوك في مصر ، تتمثل في نقطة جوهرية واحدة ، هي حاجة الأجانب ، بعد أن انتشروا في مصر ، الى نقط ازتكاز مالية ، تعمل على تثبيت أقدامهم في السوق المالية ، وتعد مراكز لهم للإشراف على أعمالهم داخل الدولة . ثم هي في الوقت نفسه ، حلقة الاتصال بين أعمال الأجانب المالية داخل مصر ، وبين مراكزهم في الخارج ، فضلاً عن أنها كانت مراكز لتجميع ما تستطيعه من أموال مصرية لاستثمارها لصالح دولها ، ومن هنا بدأ تفكير الأجانب يتجه نحو انشاء فروع للبنوك في مصر ، أو انشاء البنوك الأجنبية الخاصة التي تزاول عملاً معيناً

» أى ان البنوك في مصر ، قد نشأت قبل عام ١٩٠٠ ، كأداة من أدوات تنظيم بسط النفوذ الأجنبي على مصر ، والإشراف على أعمال الأجانب المالية والتجارية فيها

« ويمكن تقسيم نشاط البنوك في ذلك العهد الى قسمين :

« أولا : بنوك هدفها الرئيسي اقراض الخديوي وكبار الملاك ، واغلبها بنوك خاصة يملكها افراد الجانب ، ومعظمها تعرض للنصفية ، اما نتيجة لهزات مالية ، او نتيجة لانتهاؤ الغرض الذي قامت من اجله

« ثانيا : بنوك هدفها الرئيسي استغلال اقتصاديات مصر ، وتمثلت في فروع البنوك الأجنبية ، وقد بدأ انشاؤها في مصر في عام ١٨٦٣ ، وكانته خططها في توفير مواردها ، تعتمد في الاكثر على التمويل الاجنبي ، ليستثمر في مصر ، ثم يعاد الى بلاده مرة اخرى ، مضافا اليه ما حققه من ارباح فاحشة . اما فكرة تعبئة المدخرات المحلية ، واستثمارها لصالح الشعب ، فلم تكن تخطر على بال البنوك في ذلك العهد »

وخلت سنة ١٩٠٧ ، واشتدت الازمة الاقتصادية شدة تكاد تكتم الانفاس ، واشتط المرابون في فرض الفوائد المرهقة على الفلاحين المساكين ، فهب طلعت حرب يهيب بمواطنيه ان ينشطوا لانشاء بنك وطني بمال مصري لاستثمار اموالهم ومدخراتهم الفائضة في مصلحة الاقتصاد الوطني والقومي ، قافتنع قليلون وولاه ظهورهم كثيرون . . لكنه لم يياس ، فهو صاحب رسالة فرض على نفسه ان يؤديها مهما لقي من اعراض وصعاب ، فنشر في عدد « الجريدة » الصادر في اول اكتوبر من تلك السنة مقالا قال فيه :

« نطلب الاستقلال التام ، ونطلب ان تكون مصر للمصريين ، وهذه أمنية كل مصري ، ولكن مالنا لا نعمل للوصول اليها ؟ وهل يمكننا ان نصل الى ذلك الا اذا زاحم طبيبنا الطبيب الأوربي ، ومهندسنا المهندس الأوربي ، والتاجر منا التاجر الأجنبي ، والصانع منا الصانع الأوربي ؟ وماذا يكون حالنا ، ولا كبريتة يمكننا صنعها نوقد بها نارنا ، ولا ابرة نخيط بها ملبسنا ، ولا فابريقة ننسج بها غزلنا ، ولا مركب أو سفينة نستحضر عليها ما يلزمنا من البلاد الأجنبية ؟ ما بالننا عن كل ذلك لاهون ، ولا نفكر فيما يجب علينا عمله تمهيدا لاستقلالنا ، ان كنا له حقيقة طالبين وفيه راغبين ؟ ارضينا ان يكون التعليم قاصرا على تخريج مستخدمين للحكومة وان نكون في بلادنا غرباء ؟ ولو غضب علينا الاجانب يوما ومنعونا الملبوس والماكول ، لاسميتنا جياعا عرايا . . .

« علينا ان نكون عاملين في بلادنا على احياء فكرة التجارة ومملكة الصناعة في ابنائنا . ان واحدا من المصريين لم يفكر في عمل قهوة او لوكاندة على ذلك النمط الأوربي ، وبنظامه وترتيبه ونظافته ، وان الكثيرين منا يشترون

ما يلزمهم من الاجنبى ، مفضلين اياه على مواطنيهم ، بجحة ان المصرى لا يتقن عمله ، اولى عندنا عند الأوربي من نظافة وتوفر شروط الاتجار . وارى البنوك ومحلات التجارة والشركات ملأى بالاجانب ، وشبابنا ان لم يستخدموا فى الحكومة ، لا يبرحون القهاوى والمحلات العامة . وارى المصرى منا ابعد ما يكون عن تلميس شركات زراعية وصناعية وغيرها ، حتى اذا اسس الاجنبى شركة ، اخذ المصرى يضارب فى أسهمها ، كانه مقدور عليه الا يكون له حظ فى الغنم الحقيقى ، وانه لا يأتى الا الأدنى من الامور . وارى المصرى يقترض المال بالربا ولا يرغب فى تأسيس بنك ، يفك ضيقه وضيق اخيه وقت الحاجة ، لأن البنك يشغل رأسماله بالربا ! واذا اودع فى بنك ودیعة لا يأخذ عليها فائدة لذلك السبب ، وهو الذى يدفع الربا أضعافا مضاعفة وقت اقتراضه

« فى اليوم الذى يصبح فيه المصرى عضوا عاملا فى الشركات التى تستنفد ينابيع ثروات البلاد ، وله فيها نصيب وافر فى ادارة بنوكها ورأسمالها ، وله رأى معدود فى جميع المشروعات المالية - والمال هو أس كل الأعمال فى هذا العصر وقوام كل ملك - فى ذلك اليوم ، يحق للامة ان تطالب الاستقلال بقوة المال وبقوة العلم الحقيقى »

واخذ الرجل يديع رسالته فى كل ناد تضمه جدرانه ، وطفق يبشر بها فى كل جمع يشهده ، فلما ظهرت فى الأفق فكرة عقد « المؤتمر المصرى الأول » لبحث حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية ، شرع فى اعداد بحث اقتصادى يلقيه فيه . وعقد المؤتمر فى ٢٩ أبريل سنة ١٩١١ ، فالتقى ببحثه وكان عن « الربا الفاحش الذى يعانى منه الفلاحون »

بينما طلعت حرب مؤمن بفكرته هذا الايمان الراسخ ، اذا بفريق من المصريين من أعضاء الحزب الوطنى ، يشكك فى الفكرة ، ولا يظن فى المصريين خيرا لتنفيذها ، فقد التقى المرحوم عمر لطفى بك - من أعضاء الحزب - محاضرة فى « الكلية الأهلية الحرة » بالاسكندرية فى يوم ٢١ يناير سنة ١٩٠٩ قال فيها :

« ذهب فريق الى انه يجب - للمحافظة على مستقبل البلاد الاقتصادية - انشاء بنك وطنى ، قائم على رؤوس اموال وطنية . وانى وان كنت احيد فكرة انشاء بنك وطنى كبير ، لكنى اظن ان هذا المشروع سابق لاوانه الآن ، وان الأفكار لم تنهيا بعد لقبوله ، واخشى ان المسلمين المصريين الذين هم أغلب سكان البلاد ، لا يقبلون من طيب خاطر على ان يشتركوا فى مشروع أساسه الاقتراض بالفائدة

« صحيح ان الاساتذة المستنيرين من خريجي دار العلوم ، قد بدلوا ما في وسعهم للترقية بين الفئادة والربا ، واثقوا في هذا الصدد عدة محاضرات بناديبهم بالقاهرة ، واقاموا فيها الادلة الشرعية على صحة ما يذهبون اليه ، ولكن المشايخ الذين لهم الصوت المسموع في هذه المسائل ، لم يصلوا للان الى حل مقبول لدى الجمهور » (١) .

ولم يياس طلت حرب ، فالف في نوفمبر سنة ١٩١١ كتابه المشهور « علاج مصر الاقتصادي ومشروع بنك المصريين أو بنك الامة » ، وقد جاء به :

« ما زالت الحاجة الى انشاء مصرف مصرى حقيقى يعمل بجانب المصارف الموجودة الآن في مصر ، يمد يد المساعدة للمصريين ، ويحتهم على الدخول في ابواب الصناعة والتجارة ، ويحرضهم على الاقتصاد والاستفادة من الاعمال المالية التى تزداد يوما بعد يوم - قائمة . وما زالت الفكرة في تحقيق هذا الغرض تتجسم آنا بعد آخر . . تظهر اياما على صفحات الجرائد ، ثم تختفى . . تكون موضع السمر في المجالس الخاصة ، ثم تنزوى ، حتى جاء المؤتمر المصرى الأول فرات لجنته ان هذه الفرصة سانحة يجب اغتنامها ، لانه لا ينتظر ان يشمل اجتماع اعيان البلاد وكبراءها ، مثل ما ضم ذلك الاجتماع ، فعرضت الفكرة في تقريرها

« ولا يظن أحد ان هذا البنك المراد انشاؤه باموال المصريين سيجعل نصب عينيه محاربة البنوك الأجنبية الموجودة في مصر ، لان هذا خطر في الراى لا يجوز ان تقع فيه ، فقد أدت هذه البنوك الى البلاد من الخدمات الجليلة ما لا يصح لنا نسيانه . على ان بقاءها في مصر طول هذا الزمن ، ووفرة ما اكتسبت من الفوائد والأرباح ، وثقة الناس بها ، كل ذلك يجعلها في مركز حصين ، لا يليق بنا معه ان نعمل على معاكستها ، فان نتيجة هذه المعاكسة ربما كانت وبالا علينا . وانما كل غرضنا هو ان يعمل البنك على شاكلة تلك البنوك ، فيستفيد من تجاربها وخبرة رجالها . كما يجب ان نعلم ان هذه البنوك الأجنبية لا ترمى منذ تأسست الا غرضاً واحداً ، هو مصلحة المساهمين ، غير ناظرة الى مصلحة البلاد ، الا فيما يوافق مصلحتها . هذا النقص هو الذى يرمى البنك الجديد الى سده »

: ماذا قالت لجنة المؤتمر التى أشار اليها طلعت حرب في كتابه ؟
قالت في تقريرها :

(١) « نقابات التعاون الزراعية » - عبد الرحمن الرافعى بك - ص ١٨٩

« . . ماذا نفعل من اليوم أيها السادة ؟ نشرع في انشاء بنك مصرى .
 أيها السادة : لسنا والحمد لله فقراء في المال ، فان للمصريين همودا وودانع
 لا حصر لها ، تكفى لرأس مال بنك مصرى عظيم . ولسنا والحمد لله فقراء
 في الرجال الماليين ، فان كثيرا من رجالنا قد جمعوا بأنفسهم ثروات عظيمة .
 ولسنا ضعفاء الثقة بعضا في بعض ، فقد أثبتنا في السنين الأخيرة ان لدينا
 مجاميع تقوم بالأعمال العامة ، ومثل هذه المجاميع يستحيل أن يبنى لها
 أساس الاعلى الثقة . . ان المال والرجال والثقة ، هي الأركان الثلاثة اللارمة
 لمشروع مالى عظيم مثل هذا المشروع ، فما الذى يعوقنا عن السير فيه ؟
 لا خوف من مزاحمة البنوك الأجنبية ، لاننا وان اعترفنا بأن البنك المصرى
 سيزاحمها ، ولكنه لا يبطل عمل واحد منها ، ولا يؤثر تأثيرا كبيرا على
 مقادير كسبه ، لان مصر لا تزال كالبلد البكر في الاستغلال ، وان البنوك
 الموجودة فيها الآن على كثرتها لا تفى بحاجاتها ، فان الكثير من الأراضى
 المصرية القابلة للزراعة ، لم يزرع بعد ، والفدان المزروع لم يات الى اليوم
 بكل ما يستطيع أن يأتيه من الفلة ، والأرض غير القابلة للزراعة ، لم يقنط
 أحد من احتوائها على معادن مختلفة ، كالرصاص والبتروول وغيرهما .
 وبالجملة فالبلاد لا تزال بكرا من حيث الاستغلال ، وتحتاج في استغلالها
 الى أموال طائلة ، لا تفى بها الأموال الأجنبية الموجودة في مصر الآن ، انما
 تكون فائدة البنك المصرى الا يتأثر بالإشاعات المكذوبة ، فلا يقفل بابه عن
 الناس ، فتحتدى حدوة البنوك الأخرى ، لأنه بنك البلد وهو أعلم بما
 يجرى فيه . وفائدته تشجيع المشروعات الاقتصادية المختلفة التى تعود
 عليه وعلى البلاد بالربح العظيم . فائدته الرحمة بالفلاحين عند الحاجة ،
 يعطيهم بفوائد معتدلة ومناسبة ، وهو مع ذلك يربح ولا يخسر . فائدته ان
 يجعل لمصر صوتا في سوقها المالية ويدافع عن مصالحها ، كما تدافع البنوك
 عن مصالح بلادها . فائدته هو ومشروع النقابات الزراعية ومشروع
 مستودعات التأمين ، ان تتحقق في الوجود الكفاءة المالية التى هي الأساس
 المتين للرقى المطلوب .

« على ذلك تقترح اللجنة على المؤتمر ، أن يقرر وجوب انشاء بنك مصر
 برؤوس أموال مصرية »

وفي الجلسة الأخيرة للمؤتمر وافق بالاجماع على هذا التقرير ، وقرر
 اختيار محمد طلعت حرب ، للسفر الى أوروبا ، لدراسة فكرة انشاء البنك ،
 بعد عمل دراسة مقارنة عن المصارف الوطنية واسلوب عملها في الدول
 الأوروبية

فلما صدر كتاب طلعت حرب بعد هذا ، آمن كل مصري بالفكرة التي يدعو لها والى تنفيذها ، وكان حديث الناس في منديياتهم ومجتمعاتهم ما جاء به عن البنك المصري المرتجى . . ولكن الحرب العالمية الاولى التي اعلنت في ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ وقفت بالفكرة حيث هي : كلمات في كتاب ، تقرا فتستحث الهمم ، وتحفز العائم . .

وانتهت الحرب قبيل نهاية سنة ١٩١٨ ، وشبت الثورة المصرية العظيمة في سنة ١٩١٩ ، فكان سببها الطلقة الاولى في وجوب انشاء البنك حتى يتحقق استقلال الوطن الاقتصادي ، ليكون عضدا وسندا للاستقلال السياسي ، الذي نهض سعد وصحبه المخلصون لانتزاعه من المحتل الغاشم .

وعاد طلعت حرب يدعو لمشروعه او لفكرته عند بعض المسؤولين ، فحاولت سلطات الاحتلال معه كل الأساليب للتشكيك في قيمة المشروع ، وفي عدم اهلية المصريين للقيام بمثل هذه المشروعات المالية ، ولكن هذه الأساليب لم تدخل القنوط الى قلب الرجل المؤمن بفكرته ، ايمانه بعقيدته

ففي مقابلة عاصفة بين المستشار المالي البريطاني ، وبينه ، في وزارة المالية في أغسطس من ذلك العام ، عام ١٩١٩ ، قال له المستشار بوقاحة وكبرياء وقحة :

— كنت أظنك رجلا عاقلا ، ولكنك كما يبدو أصبت بعدوى الجنون المنتشر في البلد في هذه الايام !! هل تتصور ان المصريين يستطيعون ان يديروا بنكا ؟ انكم لا تصلحون لأعمال المال ، انها صناعة الأجانب ، والدليل على ذلك انكم عندما توليتم شؤونكم قبل ان نجىء اليكم ، جعلتم مصر تفلس !!

« كنت استطيع ان أمنع قيام هذا البنك ، ولكنى وافقت على انشائه لاعطيكم درسا عمليا في الفشل . وكل ما أنصحك به هو ان تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطى المصريين شعورا بالثقة في هذا البنك . .

فرد عليه طلعت حرب بهدوء وبثقة :

— لقد قررت ان يكون هذا البنك مصريا مائة في المائة

فقال المستشار المالي البريطاني الحائق المتعجرف :

– انك تتكلم بلغة مظاهرات الشوارع ، والذي يصلح في الشارع ،
لا يصلح في أعمال التنوك ، وقد دعوتك لانصحك : فانت رجل طيب لا تشتغل
بالسياسة !! (١)

وذاع امر هذا اللقاء بين العامة والخاصة ، وكانت الثورة المباركة في
عز شجوبها وهبوبها ، فقرر الناس مقاطعة البنوك الأجنبية وسحبت ودائعها
منها ، كما قاطعت الشركات الانجليزية أيضا وتجارها وسفنها

كانت هذه الاساليب المنكرة من المستعمرين ومن الاجانب ، من اقوى
الجوافز والدوافع ، لان يسرع طلعت حرب في تنفيذ فكرته الوطنية ، فاقنع
مائة وستة وعشرين من المصريين الفيورين ، بالاكتتاب لانشاء البنك ، وبلغ
ما اكتتبوا به ثمانين ألف جنيه ، تمثل عشرين ألف سهم ، أى أنهم جعلوا
ثمن السهم أربعة جنيهات فقط . وكان أكبر مساهم هو عبد العظيم المصرى
بك من اعيان مفاغة ، فقد اشترى ألف سهم .

وفي يوم الثلاثاء ١٣ ابريل سنة ١٩٢٠ نشرت الوقائع المصرية – الجريدة
الرسمية للدولة – مرسوم تأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى « بنك
مصر » ، وكان وزير المالية اذ ذلك يوسف وهبة باشا ، وهو في الوقت نفسه
رئيس الوزراء

وكان قد تم قبل ذلك عقد تأسيس الشركة بين ثمانية من المائة والستة
والعشرين مساهما جميعهم مصريون ، وحرر بصفة عرفية في ٨ مارس سنة
١٩٢٠ – أى بعد سنة بالتمام والكمال على نشوب الثورة المصرية – ثم سجل
في ٣ ابريل – أى بعد أقل من شهر – وهؤلاء الثمانية هم :

أحمد مدحت يكن باشا ، يوسف اصلان قطاوى باشا ، محمد طلعت
حرب بك ، عبد العظيم المصرى بك ، الدكتور فؤاد سلطان ، عبد الحميد
السيوفى أفندى – اسكندر مسيحة أفندى – عباس بسيونى الخطيب
أفندى

ويلاحظ في اختيارهم ، أنهم يمثلون الأديان الثلاثة ، ففيهم المسلم ،
وفيهم المسيحي ، وفيهم اليهودى . وفي هذا البرهان الساطع على اصالة
الوحدة الوطنية التى شملت جميع أبناء الأمة ، ابان الثورة المباركة بحق

(١) « الاصول التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها » – الدكتور محمود متولى –

وقص عقد الشركة الابتدائي ، على أن الفرض من انشاء البنك ، هو القيام بجمع أعمال البنوك ، من خصم وتسليف على البضائع والسندات والأوراق المايه ، والكامبيو والعمولة ، وقبول الأمانات والودائع ، وفتح الحسابات والاعتمادات ، وبيع وشراء السندات والأوراق المالية ، والاشتراك في اصدار السندات ، وغير ذلك مما يدخل في أعمال البنوك ، بلا قيد أو تحديد .

ونص في العقد أيضا على أن رأس المال دفع كاملا ، وان مدة هذه الشركة ، خمسون عاما تبدأ من يوم تأسيسها هائيا ، وأنه يجوز زيادة رأس المال بقرار من الجمعية العمومية للمساهمين ، على أن يقوم بإدارة الشركة - أو البنك - مجلس إدارة مكون من تسعة أعضاء على الأقل ، ومن خمسة مشر مضوا على الأكثر ، تنتخبهم الجمعية العمومية .

واستثناء من هذه القاعدة عين أعضاء مجلس الإدارة الأول من :

أحمد مدحت يكن باشا ، ويوسف اصلان قطاوى باشا ، ومحمد طلعت حرب بك ، وعبد العظيم المصرى بك ، والدكتور فؤاد سلطان ، وعلى ماهر بك ، ويوسف شيكوريل بك ، وعبد الحميد السيوفى أفندى ، وعباس بسيوتى الخطيب أفندى

وانتخب المجلس أحمد مدحت يكن باشا رئيسا ، وظل يشغل كرسيه هذا الى سنة ١٩٤٠ ، ومحمد طلعت حرب بك نائبا للرئيس وعضوا منتدبا ، وظل شاغلا كرسيه كذلك الى سنة ١٩٣٩ .

واشترط العقد أن يملك عضو مجلس الإدارة مائتين وخمسين سهما على الأقل ، لا يجوز له التصرف فيها طول مدة عضويته ، وأن لا يكون عضوا بالجمعية العمومية من يملك أقل من خمسة أسهم

وفي مساء يوم الجمعة ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ، احتفل بتأسيس البنك في حفل فخم أقيم في دار الأوبرا « السلطانية » ، فوقف طلعت حرب مزهوا معلنا تأسيس البنك ، فقال :

« سادتى : باسم بنك مصر نشكر لكم تفضلكم بتلبية دعوتى ، وتشريف هذه الحفلة التى أقيمت احتفالا بتمام الإجراءات الشكلية التى يقتضها القانون المصرى لتأسيس البنك . ففى بعد ظهر اليوم اجتمعت جمعية المساهمين العمومية ، وقررت استيفاء جميع هذه الإجراءات ، ودونت شهادة الميلاد الذى نحتفل به الليلة . وأملنا فى وجه الله تعالى ، أن يرضى هذا المولود بعنايته ، ويتعهده بتوقيقه ، فيشب وترعرع ، حتى

يعرف خيرا وبركة على البلاد وإبنائها ، فيحتفلون في كل عام بذكرى هذا اليوم السعيد ، كما يحتفلون ان شاء الله تعالى ، بعيده الحديدى ، قالبرونزى ، فالفضى ، فالذهبى ، فالماسى ، فالثينى ، وهكذا . . وما ذلك يعزىز على الله تعالى الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا على صير الصابرين ، وعزم أولى العزم من المصريين ، وعندنا والحمد لله منهم كثيرين .

ثم قال :

« أحصى جناب المستشار المالى للحكومة المصرية ودائع الأفراد فهى يتكبن اثنين : البنك الاهلى وبنك الاجلو ، بما يربو على ٣٥ مليوناً من الجنيهات . . ولا يمكن تقدير ما يباقى البنوك ، لأن من بينها ما لا يفرز قروض حساباته بمصر على حدة ، ومنها البنوك الخصوصية التى لا تنشر حسابها ومع كل ، فلو قلنا ان مجموع ودائع الأفراد ٣٥ مليوناً من الجنيهات فقط وقلنا ان نصفها فقط للمصريين ، أليس فى استخدام نحو ١٨ مليوناً من الجنيهات فى مصلحة مصر وشؤونها الاقتصادية، خدمة كبرى للبلاد واهلها ؟

« مصر اليوم أحق باستخدام أموال بنيتها فى مصالحها وشؤونها

« تأسست فى مصر مدارس للتجارة : عليا ومتوسطة ووليية ، فماذا كان نصيب خريجها ؟ هل استخدمت البنوك أو الشركات الأجنبية أحدا منهم ؟ اللهم ، لا ، الا النادر الذى لا حكم له ، بينما نجد الباقين يشتغلون فى الغالب كتابا فى المصالح العمومية ، وما كان هذا هو الغرض من تأسيس هذه المدارس

« بجانب البنوك الأجنبية ، أراد المصريون أن يكون لهم بنك يعمل عمل هذه البنوك ، ويخدم مصر ، كما يخدم كل منها بلدا آخر . وها هو البنك قد وجد والحمد لله والشكر له . وهو فى أول يوم من أيام حياته ، يشهد الله جهارا على ملاء من حضراتكم ، انه لا يضمّر عداة لأحد ، ولا يريد الا أن يعيش كما يعيش غيره ، وأن يكون له نصيب فى خيرات بلاده ، ويجاهد فى معترك هذه الحياة لمصلحة مصر وبنيتها ، غير ناظر الا لهذه المصلحة ، يولى وجهه شطرها اينما كانت . وهو وإن بدأ صغيراً ، سيكبر ان شاء الله تعالى ، يا خلاص المخلصين من ابناء مصر ، الذين سيؤووه ، كما هو المأمول ،

« المكان المرموق »

وانتهزها طلعت حرب فرصة ثمينة غالية ، فتناول فى خطابه الاعتراضات التى وجهت الى البنك ومؤسسيه ، فرد عليها واحدا واحدا ، وقندها

جميعا بمنطق قوى ، ولسان صدق ، لا مرية فيه . اما هذه الاعتراضات ، فكانت كما قال :

« أولا : اننا أردنا لبنك مصر ورأس ماله صيغة مصرية ، فأثبتنا تمصينا وتأخرنا في المدنية ! »

« ثانيا : انه ليس في مصر من يصلح لأعمال البنوك »

« ثالثا : ان الأمة مع كل الطبل والزمر اللذين أحاطا بالمشروع ، لم يمكن أن يجمع منها سوى ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ، من كثيرين اكتتب كل منهم بمبلغ زهيد ، مما يدل على ان الأمة غير مستعدة للأعمال الاقتصادية ! »

فلندع رده على هذه الاعتراضات الى مكانها من هذا الفصل ، وان كان حاضر البنك يعنى القارئ عن قراءته ، لأننى أود ان أعود به الى تاريخ هذا الرجل الفذ ، والى ما قدمه لوطنه من جليل الأعمال . ولو لم يقدم غير « بنك مصر » لكفاه مجدا وخلودا .

ولقد أجاد الأمير شكيب ارسلان . وصف ذلك الحادث - حادث افتتاح بنك مصر - الذى هز الشرق ، خير وصف وأصدق فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون ؟ » ، فقال فى صحيفة ١٤٤ ، يعد نجاح البنك وانشائه عدة شركات :

« .. وكما ظن المسلمون انهم لا يحسنون شيئا من المشروعات العمرانية ، وانه لا بد لهم من الأوربي ، حتى يدخلوا على يده الإصلاح فى بلادهم ، وانهم من دون الافرنجى لا يقدرون على أية عمارة ولا مرفق ذى بال .. كذلك ذهبوا الى انهم لا حظ لهم فى الأعمال الاقتصادية أصلا ، وان كل مشروع اقتصادى إسلامى صائر الى الحبوط ، ان لم تكن له أركان افرنجية . وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة ، حتى لم يبق فى بلادهم شيء اسمه اقتصاد ، الا اذا كانت ادارته بأيدي الافرنج أو اليهود . الى أن نبغ فى مصر ، محمد طلعت حرب باشا ، فكان فى هذا الباب أمة وحده ، وادرك بواسع عقله وثاقب فكره ، ان ليس فى هذا الموضوع شيء يفوق طاقة المسلمين ، ولا مما يتعذر وجود ادواته عندهم ، وان قصورهم فيه عن مباراة الأجانب ، لم يكن الا من آثار ذلك التوهم القديم ، وهو انهم لا يحسنون الجرى فى أى ميدان من ميادين الاقتصاد . وقد وجدت عند هذا الرجل ، فى جانب رجاحة العقل وسداد الحكم ، همة بعيدة قعساء ، ونزعة وطنية صافية من الإقتداء ، سالمة من الأهواء ، فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يقدم فى الشرق نهضة اقتصادية تراحم بالناكب ، وثبات الأجانب . ومما يندرفى :

الرجال ، الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع ، وهما قد انتظما جنباً الى جنب ، في دماغ طلعت باشا حرب ، فكانت سعة خياله ، مساعدة له على الاقدام نحو المشروعات التي هي مظان الأرباح . وكانت دقة حسابه ، مساعدة له على نجاحها وضمن أرباحها . وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هي الأولى من نوعها في المجتمع الشرقى . وعند ما باشر جمع رأس المال الذي كان جده لانشاء بنك مصر ، وهو ثمانون ألف جنيه ، عانى في ذلك (هوالاً) ، ونحت جبالا ، وذلك لما ران على عقول المسلمين ، من أنهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصادى ، وان كل عمل منهم في هذا السبيل ، حابط من نفسه ، هايط على أم رأسه . فلما أخذ طلعت باشا حرب يتقاضى اغنياء مصر المشاطرة في هذا المشروع ، لبوا نداءه حياه مته . لا اعتقاداً بأنه سيأتى بشرة ، وبقيت ثقتهم بأجمعها في بنوك الأجانب ، وما زال معولهم عليها . . الى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذى كاد أن يكون معجزة في نظرهم ، وارتفع رأس مال بنك مصر من ثمانين ألف جنيه الى مليون جنيه ، واحتوت خزائنه من الودائع عدة ملايين من الجنيهات ، واشتمل على أملاك وشركات متعددة متنوعة ، تقدر بملايين أخرى من الجنيهات ، بحيث زادت الاموال التي تحت تصرف البنك ، على عشرين مليون جنيه ، وكل هذا في ثمانى عشرة سنة ، انشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقهما ، على حساب بنك مصر ، شركة مصر للغزل والنسيج التي معامها في المحلة هو من اكمل وأعظم معامل الغزل والنسيج في العالم ، يعمل فيه 18 ألف عامل ، يندر فيهم غير المصرى .

وبعد أن نوه الأمير شكيب ارسلان - وكان جميع ادباء عصره بطلقون عليه « أمير البيان » - ببعض شركات البنك ، قال : « وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب ، باعث النهضة الاقتصادية في الشرق ، لنخوض في هذا العباب ، ولا مقصدنا تمجيده والاشادة بمآثره ، وانما كان ايرادنا هذه القصة على سبيل المثال ، لما كان عليه المسلمون من الجبن في مواطن الاقتصادية ، الى ان هب هذا الرجل يدير بنك مصر ، فأيقظهم من سباتهم ، وأعلمهم أنهم رجال ، كما ان الأوربيين رجال ، وانهم آتاً شحطوا غرار عزائمهم ، وأعملوا أسنة قرائحهم ، قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة »

أعود الى طلعت حرب ، فأقول انه مولع منذ شبابه بحب وطنه ، قتيور على مصالحه ، لا يدع سانحة تعرض للضرر به أو بابنائته ، الا اتدفع

مساهما في دفع هذا الضرر ، مؤيدا دفاعة بالأرقام الناطقة الصادقة ، وهي خير شاهد ودليل

في ٢٧ يناير سنة ١٩١٠ ، عرض على مجلس النظار - وهو مثل مجلس الوزراء اليوم - طلب قدمته شركة قناة السويس ، الى حكومه مصر - وكان رئيسها بطرس غالى باشا - بمد امتيازها أربعين سنة أخرى ، بعد انتهائه في عام ١٩٦٨ ، مقابل أربعة ملايين جنيه تدفع على اربعة اقساط بعد ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، مع حصة من الأرباح قدرها ٤٪ في السنوات العشر التالية لسنة ١٩٢١ ، و ٦٪ في السنوات العشر الثانية ، و ٧٪ في السنوات العشر الثالثة ، و ٨٪ في السنوات العشر الرابعة ، و ١٢٪ في السنوات الخمس الأخيرة التي تنتهى بسنة ١٩٦٨ ، وهي سنة انتهاء أجل الامتياز ، وارفقت بطلبها مذكرة من المستشار المالى الأجنبى ، يؤيدها بها ، في استحياء !! وكان هذا الطلب يومئذ موضوع تعليقات الصحف والأندية والمجتمعات ، فقرر المجلس بشأنه قرارا ، هو الى القبول ، أقرب منه الى الرفض اذ قال انه لا يقبله الا اذا عدل بما يقضى بان تستحق مصر نصيب ارباح الشركة بعد عام ١٩٦٨ - أى في المدة المطلوب مدها - وبان الشركة تكون مسؤولة عن معاشات موظفى الشركة في نهاية سنوات الامتياز أى في عام ٢٠٠٨ . أحيل المشروع الى الجمعية العمومية ، فرفضته بالإجماع ، وراح ضحيته بطرس غالى باشا ، فقد صرع بيد شاب مصرى أطلق عليه الرصاص فجندله ، كما هو مشهور معلوم

لكن طلعت حرب ، كان قد أعد بحثا عن القناة وشركتها وارباحها ، بعد ما سرد تاريخ انشائها - قبل احالة الموضوع الى الجمعية العمومية - ومهد له بالمقدمة اللطيفة التالية ، فقال :

- « كتب الفيلسوف الألماني ليبنتز ، تقريرا للويس الرابع عشر ملك فرنسا ، قال فيه : « اذا أردت أن تضرب هولندا في مقتلها ، فأمامك مصر ! فانك تنال منها فيها ، ما لا تناله ببلادها نفسها ، لان هولندا أمة تجارية ، وحياتها في بقاء تجارتها ، فاذا زحفت على مصر وأخذتها ، وحفرت ترعة السويس ، احتكرت لبلادك جميع التجارة ، وأمت هولندا وغيرها ، واصبحت سبد الهند وبلاد الشرق ، وقطعت طريقها على من عداك . زد على ذلك أنك تنال أجرا كبيرا عند الله وعند الناس ، اذ تخلص هذه البقعة المباركة من أيدي المسلمين ، الذين لا يليق بالأمم المسيحية ، ان تسبكت على بقائتها في أيديهم ! »

وبعد أن مضى طلعت حرب في سرد تاريخ انشاء القناة ، تكلم عن « السياسة » في مشروع انشائها ، وكيف كانت انجلترا معارضة في هذا الانشاء ، ثم كيف اشترت أسهم مصر فيها : فقال :

« افتتحت القناة رسميا في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ . احتفل الخديوى اسماعيل بهذا الافتتاح احتفالا رسميا مقطوع النظير ، تكلفت له خزان مصر مليوناً ونصف مليون من الجنيهات . . افتتحت ، ولم تكن حال الشركة المالية في سنواتها الأولى ميسرة ، لكنها استطاعت ان تسير الى الامام ، بفعل القروض التي اقترضتها من هنا وهناك ، وسارت أمورها سيرا حسنا ، وزادت ارباحها سنة بعد اخرى ، بينما كانت مالية مصر تزداد سوءا بعد سوء ، سنة بعد اخرى ، حتى اضطرت الحكومة المصرية في عام ١٨٧٥ ، الى أن تطلب قرضا من الخارج ، واراد الفرنسيون في الشركة أن يعقدوا لها هذا القرض من بنوك فرنسا ، فلم يوفقوا . . هنا اندفع الانجليز ، وقدموا الى الخديوى مائة مليون فرنك أو يزيد ، وتسلموا منه أسهم مصر في الشركة . . عقدت الحكومة الانجليزية هذه الصفقة ، بقرض اخذته من بنك روتشيلد في لندن ، وقبل أن يعرض أمرها على البرلمان »

وشفع الشاب المحقق ، تحقيقه التاريخي والسياسي ، بتحقيق اقتصادي ، أوضح فيه انه لم يبق لمصر في الشركة ، الا ارباح حصتها التأسيسية . لكن ما كادت تحل سنة ١٨٨٠ ، حتى ساءت الحالة المالية مرة اخرى ، فباعت هذه الحصة للبنك العقارى الفرنسى بمبلغ ٢٢ مليون فرنك ، فأسس لاستغلال هذه الحصة ، شركة ربحت في عام ١٩٠٨ وحده ١٠٧٧٤٧٧٤ فرنكا

لم يبين كذلك انه « بعد أن كادت الشركة تقع في الافلاس في اول عهدها ، وهبطت اسهمها الى ١٦٠ فرنكا للسهم بدلا من ٥٠٠ فرنك ، أصبحت الآن تباع اسهمها بسعر مائتى جنيه للسهم الواحد ، وبعد ان كانت حصص التأسيس فيها لا قيمة لها ، أصبحت الحصة الواحدة تباع وتشتري بنحو مائة الف جنيه ، ولغلائها قسمت الواحدة الى ألف جزء ، وبعد ان كانت تصدر « بونات » بدل « الكوبونات » المتأخرة وتدفع عليها فائدة ٥٪ ، أصبحت توزع ارباحا بواقع ١٥١ فرنكا من كل سهم ، و ٧١٨٩ فرنكا من كل حصة تأسيس ، وبعد أن كان دخلها لا يفي بمصروفها ، أصبح يربو على مائة وعشرين مليوناً من الفرنكات . أما مصر فلم يبق لها فيها سهم ولا حصة ، واستفاد كل العالم من القناة ، الاها ، حتى ان الحكومة الفرنسية

تقبض كل سنة الملايين من الفرنكات ، رسوما على « الكوبونات » والأرباح التي تصرف في بلادها »

بعد هذا ، أخذ طلعت حرب يرد على مذكرة المستشار المالى التي أيد بها طلب الشركة ، وقال فيها ان مد الاجل فيه فائدة لمصر !!

وانتهى من الرد - وهو مدعهم بالأرقام والحجج الدامغة - الى قوله :
- « قد أوضحنا مقدار ما تغيب به مصر لو جارت الشركة على رايها ، وقلبت مد الاجل بالشروط المعروضة . ويرى القارىء اننا لم نبالغ في تقدير الدخل ، كما لم نتقصد في المصروفات ، بل زدنا مقدارها ، وفلسا حساب الشركة على صورته التي لا يرضاها الا المضطر الذى لا خيار له . والا فما الحامل للحكومة المصرية على ان تتنازل عن نصف دخل القنائة مدة اربعين سنة ، في نظير مبالغ تحسب عليها فوائد مركبة ، نحو مائة عام ، ولا يتبدى استهلاكها الا بعد ستين سنة ؟

« لسنا نظن ان الحكومة مضطرة للمال اضطرارا يسوغ لها ان تقترض بهذه الشروط ، بدليل ان الملايين الأربعة من الجنيهات ، لا تدفع الا فى اربع سنوات ، من ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، والحصة والأرباح لا يتبدىء الا من سنة ١٩٢١ . ولو سلمنا باضطرارها للمال ، فلا تعدم وسيلة لايجاده من الخارج ، وأمامها مصلحة الدومين ، يمكن للحكومة ان تقترض عليها أربعة ملايين وزيادة . ولو فرضنا أنها اقترضت هذا المبلغ بفائدة ٤٪ ، لا ٣ ١/٤٪ ولا ٣ ١/٢٪ ، وقسطت الدين على خمسين سنة ، لكان مقدار كل قسط من أصل وفائدة ١٨٦٢٠٠ جنيه ، ولو قسطته على خمس وسبعين سنة ، لكان القسط ١٦٨٩١٦ جنيه ، وكلاهما زهيد ، قد لا يؤثر فى ميزانيتها ، ولديها فى كل سنة من زيادة الإيرادات ، ما تسترد منه مثل هذا المبلغ وزيادة ، ولو أرادت ألا تقترض ، ففي مكنتها ان تعمل بالدومين ، ما عملت بالدائرة السنوية ، فياتيها المال بلا حساب (١) »

(١) الدومين نومان : عام وخاص . أما العام فهو « الاملاك العامة » المعدة للاستعمال العام كالطرق العامة والموانئ والشواطئ والقلاع وما إليها . أما الخاص فهو « املاك الدولة الخاصة » التي تملكها كأي فرد عادى يملك اموالا . ويسمى الدومين الخاص فى مصر باسم « الدومين المالى » كما اطلق عليه فيها بصفة خاصة اسم « املاك الميرى الحرة » . وتتميز املاك الدومين الخاص على املاك الأفراد العاديين ، ببعض الوجوه : أهمها عدم جواز التنفيذ الجبرى ضدها ، بل ان بعض النصوص (كما فى لقانون رقم ١٤٧ لسنة ١٩٥٧) تمنع تملك الناس لها ، أو كسب حق ميثى عليها بالتقادم . ويتمتع الدومين العام بشمانات خاصة يبيتها القانون الادارى فى كل بلد ، ويعتبر اقدم الموارد المالية للدولة من الناحية التاريخية خصوصا فى عهد الاقطاع ، ولكنه أصبح فيما بعد موردا ثانويا ، وان ظل على قدر من الأهمية.

على انه خالص الى نتيجة هي انه « اذا كان لا بد من التعاقد اليوم على مد الامتياز تعاقدًا مقبولًا ، يجب أن يكون هذا التعاقد مبنيا على القواعد التالية :

« أولا - ان ما تعطيه الشركة من مقدم ثمن الامتياز ، وما تعطيه في المستقبل من صافي الأرباح الى سنة ١٩٦٨ ، يكون متناسبا مع الأرباح التي تربحها الشركة من القناة في الأربعين سنة الجديدة ، مع مراعاة حساب ذلك ، بالقياس على الماضي والحاضر . او ان تعطى الشركة للحكومة المصرية من اليوم جزءا معلوما من الأرباح على تلك النسبة ، من غير حاجة الى اعطاء مبلغ ليعتبر ثمنا للامتياز ، كمبلغ الملايين الأربعة المروضة

« ثانيا - ان تقبل الشركة في مجلس ادارتها من يوم التعاقد مديرين مصريين ، بكل معنى الكلمة ، عددهم مناسب لمقدار الحصص التي تعطى للحكومة من الأيراد . وليس في ذلك شيء من التحكم ، فان الحكومة الانجليزية بعد ما استولت على أسهم الحكومة المصرية ، اضطرت الشركة الى قبول ثلاثة مديرين انجليز بها ، بعد أن لم يكن للحكومة المصرية ولا مدير واحد . ثم ان أصحاب السفن الانجليزية قد اضطروا الشركة أيضا الى قبول سبعة مديرين آخرين لمجلس الإدارة ، حتى صار عدد الأعضاء الانجليز في المجلس عشرة !! فليس من الغريب أن تشترط مصر - مالكة القناة - على الشركة أن تقبل منها مديرين للدفاع عن مصالحها ، خصوصا بعد أن أظهر المستشار المالي تخوفه من احتمال ان الشركة ، تخفض رسوم المرور تخفيضا فاحشا ، حين يأتي أجل تسليم القناة الى الحكومة . ولا نعلم بماذا تصف هذا العمل لو حصل ، أو ان تقبل شركة محترمة ، أن يداع عنها مثل هذه الفكرة

« ثالثا - ما دامت القناة ستؤول على كل حال للحكومة المصرية ، بعد انقضاء مدة الامتياز الجديد ، أى بعد سنة ٢٠٠٨ ، فمن الواجب أن تتعهد الشركة في العقد الجديد ، بالألتصق شيئا من رسوم المرور ، الا بعد أخذ رأى الحكومة المصرية

وتزداد أهميته عند ما تظهر في الدولة موارد معدنية او بترولية ، وما الى ذلك من عناصر الانتاج الطبيعية المختلفة . ويشمل اصطلاح « **العويم** » حسيما جرى به العرف كمورد للدولة ، ما تحصله مثلا من الأراضى الزراعية والعقارات المبنية ، وما قد تمتلكه من المناجم او المحاجر او الملاحات او الغابات . وتدخل في هذا الاصطلاح أيضا الشروعات التجارية التي تتولاهما الدولة كالمصانع والمطابع ، والشروعات المالية كالمشروعات المختلفة والشروعات المنوعة . ولهذا وجد ما يسمى بالعويم العقارى أو التجارى أو الصناعى أو المالى

« هذه هي الاعتبارات التي يلزم ملاحظتها ، متى أريد الاتفاق من الآن على مد الامتياز . ومع ذلك نحن لا نزال نكرر ان من الخطر تجديد امتياز لم يقرب أو ان تجديده ، من غير ضرورة ملجئة لذلك . فلكل زمان حكم ، ولكل جيل تصرف خاص به

« على ذلك نرى المشروع من كل وجهة قلبناه عليها ، مشروعاً ضاراً لا تصح الموافقة عليه »

لقد أسهبت في عرض بحث « تجديد مد امتياز قناة السويس » ، لتتقد منه الى هذا العقل الواعي الذي يناقش فيفحم ، ويقوى حقه على باطل غيره ، بما يقدم من أدلة وأسانيد ، ولتري كيف كونت هذه العقلية ، هنا التكوين الاقتصادي الفد ، وصاحبها لم يدرس الاقتصاد على يد معلم ، ولم يهتد في درسه اياه ، بهدى أستاذ أو ارشاد مرشد

هو نادر في العظماء حقا . .

ولم يكن الرجل معنيا بشؤون الاقتصاد وحده ، ولا شاغلا نفسه بفكرة انشاء بنك وطني فحسب ، انما كان يجول ويصول في كل ميدان اجتماعي فيه خدمه لمواطنيه ونفع لامته . . ولعل هذا كان طابع رجال مصر الذين شبوا في ظل الاحتلال والاستعباد اللذين ضربا على اهلها صنوفا من الفقر والبؤس والشدة لم يعهدوها . . فقد كان هم أولئك الرجال المخلصين ، الرقب بمصرهم في كل مجال ، حتى تقوى على مناهضة المستعمر الظالم القانى .

في شهر أغسطس من عام ١٩١٩ ، طالب عمال وموظفو شركة الترام - وكانت بلجيكية الجنسية - بانصافهم ورفع أجورهم ، فتقدمت الشركة الى الحكومة طالبة اقرارها على زيادة اجر الركوب مليما ليصبح سنة مليمات ، بدلا من الخمسة المنصوص عليها في العقد المبرم بين الحكومة المصرية وبين الشركة في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، ومدته خمسون عاما ، تنتهى في ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، وبموجبه تنشء سبعة خطوط ، على الا يزيد اجر الركوب على خمسة مليمات . . وذلك حتى تستطيع اجابة طلبات العمال والموظفين

فانبرى طلعت حرب يمطر الشركة سيلا من برأهينه الدالة على الأرباح الهائلة ، بل الخيالية ، التي تربحها ، وذلك في أربع مقالات نشرت لها « الاهرام » ، دفع أباطيلها في المقالات الثلاث الأولى ، وقال في الرابعة ، وقد نشرت في يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٩١٩ :

« يرى من يتتبع مقالاتنا السابقة ، ان المال الذي استعملته الشركة في اثناء اسر اسواى بمصر ، وايجاده والانفاق عليه ، اىما جاءها من طريق دراس المال ، وهذا لا يدعها سوى ربح 5 ٪ ، ومن طريق الاقتراض وهو لا يدعها سوى 2 ٪ ، وما زاد من الارباح على ذلك ، فهو غنيمه باردة لحضرات المؤسسين واعضاء مجلس الاداره ، ولو كانت الحكومة المصرية في ذلك العهد اشترطت في عقد الامتياز ، ان الشركة التى تؤسس ، تكون مصريه خاضعة لفوانين البلاد ، لما وجدنا مثل هذا الاستئثار بالربح . وديما كان هذا هو سر اشتراط الترخيص للشركة ، بالتنازل عن الامتياز لشركة بلجيكية ، لتفادى عرض قانون الشركة على مجلس النظارة ، لاستصدار المرسوم ، طبقا لقانون التجارة المصرى . ويرجع انه لو كان قد قدم لمجلس النظارة مثل هذا القانون الذى يحصر قسمه الارباح بين اصحاب الاموال الحقيقية التى اوجدت الشركة وعليها وحدها نتيجة الخسارة ان قدر الله الخسارة ، وبين المؤسسين الذين اسعدهم الحظ بعرض المشروع والحصول على الامتياز بدون اى مجهود آخر ، كتلك القسمة الضيزى بين السبع والذئب والثعلب .. »

« نقول لو قدم مثل هذا القانون لمجلس نظار الحكومة المصرية ، او لمجلس نظار اية دولة اخرى ، لما قبله بالمره ، بل كان من اقل واجباته ، استنكار مثل هذا الاستئثار بالارباح ، واشترط نصف تلك الارباح ، على الاقل ، لحكومته ، اى لحكومة تلك البلاد التى اعطت الامتياز ، وساعدت على تحقيق الفكرة ، واخراج المشروع الى حيز العمل ، والتى لولاها لما كان لحضرات المؤسسين تلك الارباح الطائلة ! ولكن قدر فكان ، وهذا امر مر وانتهى ، فلندعه ، ولنتكلم في غيره مما يهمنى الان . »

« ردد بعض الجرائد ان الشركة تطلب من الحكومة التصريح لها بزيادة ملزم على اجرة الركوب ، حتى يتسنى لها اجابة مطالب العمال ، كان هذه الاجرة كان يلزم ان تكون خمسة مليمات ، فيجب زيادتها »

« ان عقد الامتياز يشترط ان الاجرة لا يصح ان تزيد على نصف قرش ، وليس معنى ذلك ان الشركة تجعل الاجرة نصف قرش من اول يوم تاسيسها ، بل كان من الواجب ان تكون اقل من ذلك بشرط الا تتجاوزه ، ولكنها ارادت - ولا مرد لما ارادت او تريد - الا ان تقرر الحد الاقصى من اول يوم »

« لو كان في ذلك خسارة على المساهمين وتقليل لربحهم ، لعدونا واستهنا بالامر ، لكن المساهمين - وهم اصحاب الاموال - محدود ربحهم ، »

وكل زيادة نتيجتها الى جيوب المؤسسين ومجلس الادارة . فما ضرهم لو تنازلوا عن قليل من ربحهم سنة أو سنتين ، وهم الذين بقوا خمس سنوات بدون قبض سنتيم واحد ، حين كانت بلجيكا في قبضة الالمان ، والشركة البلجيكية لا اتصال لها ببلادها ، وسيقبضون كل المتجمد مرة واحدة ؟ بلى هم الذين ذاقوا الامرين من الاحتلال الالمانى . وكل ربح يأتيهم بعد ذلك الضيق الشديد ، كبير جدا بالنسبة لما قاسوه . ويفرضوا ان الشركة بلجيكية حقيقة وعملها في بلجيكا ، ولو كانوا كذلك لماقبضوا شيئا حالا من أرباحها ، بل لكان غاية ما يمكن عمله ، عملية ما خسروه على حساب القرانة الحربية ..

« كنا نظن أن تلك النفوس التي ذاقت شظف العيش ، وجميع صنوف الضنك في هذه السنوات ، قد رقت قلوبهم ، فهم يعطفون على أولئك المساكين مستخدميهم الذين جمعوا لهم الاموال الطائلة المحفوظة على ذمتهم ، فيتصدقون عليهم ببعضها ، ان الله يحب المتصدقين . ولكن ها قد ساء أقالنا ، ونراهم لا يريدون التنازل عن شيء - ان صح ما تقوله الجرائد - ويريدون أن يكون هذا العطف من جانب الجمهور المسكين هو أيضا ، فلا حول ولا قوة . وهذا تصرف ينفر قلب كل عادل غير ذى غرض »

تفريع وتأييب وتذكير بما لقيته بلادهم من ذل الاحتلال ، ذلا كان حقيقا بهم بعد ما ذاقوا مرارته ان يرحموا عمالهم . ثم قال :

« .. ولو فرضنا ان الأرباح لم تزد عما كانت عليه في سنة ١٩١٣ ، مع ان لجنة التوفيق قد قالت : ان إيراد الشركة يبلغ ١٠٠٠ جنيه يوميا ، أى ان الأيراد يبلغ ٣٦٥٠٠٠ جنيه سنويا ، أى نحو عشرة ملايين فرنك بالسعر الرسمى ، وحوالى ١٤ مليوناً بالسعر الحالى ، مع ان إيراد سنة ١٩١٣ بلغ سبعة ملايين وكسورا فقط .. نقول : لو فرضنا ان الأيراد لم يزد عما كان ، وكل ما حصل من الزيادة ، بسبب زيادة عدد الركاب وزيادة الجنود الى غير ذلك ، سد في زيادة النفقات ، الا يكتفى حضرات المؤسسين ومجلس الادارة بالأرباح الطائلة التي كانوا يتقاضونها ، ويحسدون أنفسهم عليها ، ويتبرعون بشيء مما كسبته وتكسبه الشركة من فرق سعر الكاميو الآن ، أى من المائتين والعشرين الف جنيه التي تربحها من هذا الباب وحده ؟

« ومذا عليها لو خصصت كل هذا المبلغ ، وما يأتى من هذا الربح ، للصرف منه في تحسين حال المستخدمين والعمال ، فهو ربح جاءها ويجبها من الهواء ، بدون أدنى خسارة على احد ، لأنها لما تصرف للمؤسسين

والمساهمين وأرباب الديون أرباحهم ، باعتبار الفرنكات في بلادهم (وهى لا تصرف للمساهمين ازيد من ٢٥ فرنكا عن كل سهم ، ولأرباب الديون ازيد من ٢٠ فرنكا عن كل سند قيمة ٥٠٠ فرنك) ، وهى لا تحاسبهم على فرق الكامبيو ، لأنها تدفع فرنكات بلجيكية ، وحسابها في بلادها بها ، وهذا الربح ناتج من عملية تحويل هذه الاموال من مصر الى بلجيكا ، ونتيجة زيادة قيمة العملة المصرية عن عملة بلجيكا في هذه الايام ؟ ومأملنا ان حكومتنا السنية تعبر هذه المسألة جانباً من عنايتها ، فتناقش الشركة هذا الحساب ، وتحل هذه الازمة التى طالت بلا مقتضى »

سند الرجل الأرقام وحدها ، يقذف بها في وجه الظالم المكابر ، لترده الى الحق والعدل

طلبت اليه لجنة التجارة والصناعة والى يوسف قطاوى باشا في ابريل سنة ١٩١٦ ، تقريراً عن الصناعة والتجارة الألمانية ، وعن الاساليب التى اتخذتها التجارة الألمانية والنموية لتثبيت أقدامها في السوق المصرية ، كان من خير التقارير في شموله ودقته . قال في أوله :

« ان الذى نلاحظه انه ليس لمانيا طريقة خاصة بالنسبة لمصر ، بل فن لها طريقة عامة ، هى عبارة عن برنامج اقتصادى عام لنمو صناعاتها وارتقاء تجارتها ، وهذا البرنامج الاقتصادى العام ، هو وليد تطورها للتأويض والسياسى .

« فالمانيا تقدر تجارتها الخارجية في الوقت الحاضر بخمسة وعشرين ملياراً ، بحيث انها تأتى في الصف الأول مباشرة عقب انجلترا . واسطولها التجارى الذى كان يأتى في الترتيب خلف فرنسا قبل سنة ١٨٧٠ ، أصبح لا يسبقه في سنة ١٩١٣ ، الا الاسطول التجارى البريطانى واسطول الولايات المتحدة التجارى . وهى من حيث انتاج الحديد المشفول والصلب ، لا يسبقها فيه سابق .

« ومثل هذه النتائج لا يمكن تفسيرها بغير قوة من العمل فعالة ، تقودها لقيادة من حديد . وفي الواقع فان أبحاثنا أوصلتنا الى العثور على طريقة من النظام ، مدبرة باحكام ، ترمى الى توحيد جميع قوى الامة وتوجيهها ، في سبيل غاية واحدة ، هى السعى الى تفوق المانيا .

« وشعار المانيا في هذا الباب ، هو انها تنتج كثيراً وباسعار رخيصة ، وتعمل بترتيب ونظام ، فتدرس حالة العملاء ، وتعمل على ادراك حاجتهم ،

وهذا هو سرها في العمل والنجاح . ولم نجدتاجرا مصريا أو أجنبيا واحدا ممن حادثناهم ، الا أقرنا على ما قدمنا هنا من البيان »

وكان لسان طلعت حرب وزميله يقول : اننا نرجو ان يكون عندنا مثل هذه الارادة الحديدية ، وهذا التدبير المحكم ، وهذه القوة الفعالة من العمل ، حتى تنهض مصر وتأخذ مكانها الجديرة به بين الأمم

ولهذا قالوا في ختام تقريرهما الذي شغل أربعاً وأربعين صفحة من القطع الكبير :

« ليس علينا الا ان ننظر في اى التدابير نستطيع ان نستمد منها الوحي ، لتحقيق تنظيم حياتنا المالية والتجارية التى ينقصنا فيها شيء كثير ، لاحظته لجنة التجارة والصناعة في عدة مناسبات من أبحاثها »

وددت لو عدت بك الى الوراء ، لأقص عليك طرفا من انباء هذا النابغة الاقتصادية ، في ميدانين آخرين : الدينى والاجتماعى ، وكيف انه وقف على رسالة بالفرنسية ، كان قد قدمها عثمان كامل بك سكرتير السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، الى مؤتمر المستشرقين الذى عقد في باريس سنة ١٨٩٤ ، فترجمها ، وأجاب فى ترجمتها عن سؤال وجهه صاحبها الى قارئها ، وجعل عنوانها « كلمة حق عن الاسلام والدولة العثمانية » . اما السؤال الذى ختم به سكرتير الخليفة رسالته ، فهو : « هل كان فى وسع الاسلام ان يعطى كلمته أو يرفع رايته بحد الحسام ، ولم يكن القائمون به الا بضعة آلاف من العرب ؟ »

بماذا أجب طلعت حرب عن هذا السؤال ؟

قال : « كلا ، فان البطل « أتيللا » - وهو أحد ملوك آسيا الصغرى فى القرن الخامس - دوح العالم بحروبه ومعه ملايين من اقوام « الهون » ، لم يتيسر له أن يتغلب على البلاد المتاخمة لمملكة الرومان ، وغاية ما وصل اليه بعد الجهد والعناء ، أنه تمكن من العبور بها مع جيوشه الجرارة ، من غير أن يتم له اخضاع أهلها .

« اما الاسلام فلم تكن لديه تلك الملايين من النفوس ، ولا تلك العدد الحربية التى كانت عمادا للفرس والروم فى حروبهم ، بل أنه كان لا يذكر بجانب خصومه من حيث العدد والقوة والنظام . فما هى اذن تلك القوة التى تيسر بها للاسلام ، ان يخضع العالم المتمدين فى اقل من خمسين عاما ؟

« لعمرى انها حرية الأديان ، والمساواة في الحقوق ، والاخاء بين المسلمين ،
مهما كان جنسهم ، من غير تمييز . ولم تك هذه المبادئ الشريفة اللازمة
للكمال الانساني والتمدين الحقيقي معلومة قبل الاسلام ، فظهرت بظهوره .
وفضلا عن ذلك فان صلح الحديبية يشهد بان محمدا عليه الصلاة والسلام ،
هو الذى امضى أول معاهدة دولية في العالم

« ولما حاصر المسلمون بيت المقدس في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، خاف النصارى المحصورون ان تكون حرية الأديان والعدالة
التي وعدهم بها المسلمون خدعة وحبالة ، فاشترطوا لتسليم البلد حضور
ال خليفة بنفسه اليهم ، ليوقع امامهم على معاهدة الصلح والتسليم ، فلم
يلبث ان بارح عمر المدينة ، وجاء بيت المقدس ، ووقع على المعاهدة الشهيرة
التي تم بها دخول هذه المدينة في حوزة الاسلام . فاستبشر المسيحيون من
الريين ونسپوريين بهذا الفتح ، واستقبلوا الاسلام استقبال الأسير من جاء
ينزع عنه قيوده ، وفتحوا امامه ابواب المدائن ، ودخل اكثرهم في الدين
الاسلامى الحنيف . أما النصارى واليهود الذين حافظوا على دينهم ، فقد
عاشوا في ظل دولة الاسلام في هناة ورغد عيش ، لم يروا شيئا منهما في عهد
الدولة الرومانية ، فلم يأسفوا على زوال حكمها وذهاب أيامها

« أرونى مدينة واحدة خربها الاسلام ، أو مذبحه واحدة أمر وقام بها
الاسلام ، ذلك ليس في الامكان ، اللهم الا في مخيلة فولنى ورينان (كاتبان
فرنسيان اشتهرا بشدة عداوتهما للاسلام)

« ان كان الاسلام يقضى بعدم التساهل مع الأديان الأخرى ، أو بآبادة
معالمها ، كما يدعون ، فلم لم يخرب طليطلة وقرطاجنة حينما كان حاكما
على أوروبا ستة قرون ؟ »

دفاع حار يعجز عن مثله بعض رجال الدين ..

ومع دفاعه الحار هذا عن الاسلام ، يدعو الى ترقية المرأة المسلمة .
فحينما وضع قاسم أمين في عام ١٨٩٨ كتابه المشهور « تحرير المرأة » ،
بدأ فيه عدوله عن رأيه في الحجاب الذى رد به على كاتب فرنسى اسمه
الدون دراكور ، مر بمصر وكتب عنها كتابا حشاه طعنا في الاسلام وأهله ،
وزرابة المرأة المسلمة وتحقيرا لها . فقد دافع يومها قاسم أمين - وكان
هذا في عام ١٨٩٤ - عن تحجب النساء . أما في كتابه الجديد ، فهو يدعو الى
رفع الحجاب .. مما افار هياجا شديدا في الراى العام ، وتصدى له طلعت

حرب . فرد عليه في كتاب سماه « تربية المرأة والحجاب » ، قال في مقدمته :

– « أخذنا نسال ونتساءل ، ونبحث ونتناظر ، حتى علمنا ان معظم هياج الراى العام على حضرة المؤلف ، ناتج مما رسخ في اذهانهم ، من ان رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها اوربا من قديم الزمان لغاية في النفس ، يدركها كل من وقف على مقاصد اوربا بالعالم الاسلامى .

« انى اجل حضرة الفاضل قاسم بك أمين ، من ان يكون له غاية من وضع كتابه ، خلاف حب الخير والارتقاء بالامة ، كما هو ظاهر من كلامه على تربية المرأة . فانه وصف حالتها اليوم احسن وصف ، وقال بوجوب تربيتها تربية تهذب اخلاقها وتقوم نفسها ، فلحضرتة جزيل الشكر على ذلك ، وسيرانا في هذا الكتاب داعين الى مثل دعوته ، رافعين صوتنا مع صوته ، عل دعوتنا تخرق تلك الاذن الصماء ، فيهتم القوم بأمر هذه التربية ، وننال ضالتنا التى ننشدها ، وهى تحسين حالنا ، وما ذلك على الله بعزيز . واننا مع موافقتنا لحضرتة على هذا المبدأ ، نخالفه في غيره ، فنستبيحه العفو عمدا يجده خلال بحثنا من المخالفة والمباينة في الراى والفكر ، فحضرتة حر ، ولا نخاله الا أنه يحب كل فكر حر »

ثم تمضى صفحات الكتاب ، يتحدث فيها طلعت حرب عن وسائل تربية المرأة ، التى يراها خليفة بها ، ثم يقول أ

– « قال قاسم أمين : « أرى هم الناس موجهة الى التعليم ، ولا أرى احدا يلتفت الى تربية النفوس ، وأرى ان الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور ، مع ان تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم ، وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور » . فهذا كلام كله حكيم ، ونوافق عليه حضرة المؤلف جهلنا . ولكن لا يؤخذنا اذا كنا نخالفه فى امر واحد ، وهو اننا نعتقد ان التهذيب واجب للذكور والبنات معا ، لا تقديم للبعض على الآخر . . يقول حضرة محرر المرأة : ان البرقع والنقاب غير معروفين فى الاسلام ، وهذا قول يدمنه ما جاء فى نفس كتاب « تحرير المرأة » من ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى المحرمة – بضم الميم وسكون الحاء وكسر الراء – عن لبس القفاز والنقاب . وهل لذلك معنى سوى ان النقاب كان موجودا ومعروفا ، وانه كان معمولا به وواجبا ، وكان النساء يستعملنه حتى فى وقت الاحرام ، فهاهن النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فى هذه الحالة فقط . . . قال محرر المرأة فى مبدا كلامه عن الحجاب ما يأتى بالحرف الواحد : « ربما يتوهم ناظر ، اننى أرى رفع

«الحجاب بلمرة» ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فأنى لا أزال أذافع عن الحجاب ، واعتبره أصلا من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها ، غير أننى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء في الشريعة الإسلامية . ولسنا هنا نطلب إلا تنفيذ ما جاء في هذه العبارة»

ولم تهذا الزوبعة التي أثارها قاسم أمين بكتابه « تحرير المرأة » ، واحتدم الجدل والنقاش فيما حواه ، واشترك فيه كتاب كثيرون ، ولم تتخلف عنه صحيفة واحدة ، ففسحت جميعها أعمدتها لهذه المناقشة العاصفة . . وإذا بقاسم يطلع على الناس بكتاب جديد هو « المرأة الجديدة » ، دعا فيه دموع شاملة صريحة الى حرية المرأة ، وكانما رأى فكرته التي بثها في كتابه الأول الذي رد به على الكاتب الفرنسي « الدون دراكور » قصة غامضة ، فأراد أن يكملها ويجلوها بهذا الوليد الجديد . فهل سكت عنه طلعت حرب ؟

لا ، فالرجل مجاهد لا يضع سلاحه حتى يهزم خصمه ، فألف كتابه « فصل الخطاب ، في المرأة والحجاب » ، كشف فيه عن تناقض قاسم أمين في رده على دراكور ، وفي كتابه الثاني ، وضمنه رأيه في تعليم الفتاة وثقيفها ، فقال :

— « التعليم الذي لا بأس به أن يشترك البنات بالاشتغال فيه والانتفاع به ، متى آتس الأنسان منهن رشدا واستعدادا له ، هو عبارة عن تعليم القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن الشريف وأمور الدين ، لتعرف البنات ما يجب عليها وما يجب لها من الحقوق والواجبات ، ومبادئ الحساب والهندسة والجغرافيا ومختصر تاريخ بلادهن ، فان هذا يزيدهن أدبا وعقلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأى ، فيعظمن في قلوبهم ، ويعظم مقامهن لديهم .

فلنودع هذا المجاهد الدينى والمصلح الاجتماعى ، بعد أن بسطنا لك بعضا من ملامح جهاده وأصلحه ، ولنعد الى نابغة الاقتصاد ، ذلك الرجل الذى ولد في ٢٥ نوفمبر من عام ١٨٦٧ ، في حي « قصر الشوق » بالجمالية ، من أبوين شرقاويين ، والذى كان والده موظفا صغيرا في مصلحة سكة الحديد ، اسمه حسن أفندى حرب ، ولنصحبه بعد انشائه بنك مصر ، في جولة قصيرة تقف فيها على جديد من آرائه ، وجديد من كفاحه ، وجديد من حكمه ونصائحه لابنائه . . ساورد لك فقرات من خطبه في مناسبات متعددة متباينة ، ففيها كل ما تريد الوقوف عليه :

وتقف في يوم الاحتفال بتأسيس البنك في يوم ٧ مايو سنة ١٩٢٠ في دار الأوبرا السلطانية - كما سبق القول - يرد الاعتراضات التي أثارها الشاتون الحاقدون من الأجانب، وقد مر بك سردها ، فرد على الاعتراض بأن إنشاء بنك مصر ، أثبت تعصب المصريين ، فقال ما موجه :

- « ها نحن أولاء نقرا تقريراً لمدير أحد المحال التجارية الفرنسية بالاسكندرية ينصح فيه تجار بلادنا بالآلا يوكلوا عنهم في مصر غير فرنسيين ، وها هي أميركا تشتترط في سفن ملاحظتها كي تكون أهلية ، أن يكون جميع أصحابها اميركيين ، وأركان حربها اميركيين وأن تكون مصنوعة في دار صناعة أميركية . ان سويسرا تشتترط لحياسة أسهم بنك سويسرا الأهلى ، أن يكون المساهم سويسريا . وهاهي أسوج تفعل مثل ذلك . وليرنا المعترض صاحب حصة في رأس مال بنك انجلترا ، غير انجليزى . فلماذا لا يعاب مثل هذا على الأمم الراقية ، ويعاب علينا ان تشبهنا بهم ، واردنا ان نحفظ لفسنا ولببلادنا بنكا واحداً يخدم مصالحنا ؟ وأى ضرر في هذا على غيرنا ؟ »

ورد على الاعتراض الثانى ، وهو ان « ليس في مصر من يصلح لأعمال البنوك » بقوله :

- « قيل لنا بليون حينما وضع نظام بنك فرنسا الحالى ، انه ليس في فرنسا رجال ماليون خيرون بأعمال البنوك . فقال لهم : هذه طائفة يجب خلقها . وقد خلقت واصبحت فرنسا بعد قرن ، يضرب المثل بخبرة رجالها الماليين وعلمهم

» فلماذا لا يصدق على مصر ، ما صدق على غيرها ؟

« اذا استعانت مصر في بادىء امرها بغير أبنائها في بعض شؤونها ، فما ذلك بالعار عليها ، خصوصا اذا علمنا أن ٤٠٪ من موظفى ومستخدمى البيوت التجارية بانجلترا الى سنة ١٨٩٨ ، كانوا من الأجانب ، وأغلبهم آلمان ، مما هال غرفة لوندرة التجارية ونقابات بقية الغرف ، وصاحت من اجله ، طالبة تحقيقا دقيقا عن السبب في ذلك ، والعمل على تغيير مناهج التعليم ، لجعلها واقية بتخريخ الاكفاء لتولى هذه الوظائف ، فيستثنى عن الأجانب . وكثيرون من موظفى بنوك فرنسا ذاتها كانوا لوقت قريب ، بل الى الآن ، اجانب

» أمانا عقبات لا ننكر صعوبتها ، سندلها بفضل الله وحسن تقة مواطنينا ، ولنسال التاريخ عما أصاب البنوك في كل بلد في أول عهدها »

وانظر الى اخلاص الرجل وانكاره ذاته حين يقول : « واني هنا
بالإصاصة عن نفسي وبالنيابة عن جميع زملائي أعضاء مجلس الإدارة ،
تقرر باننا مستعدون للتخلي عن كرسى العضوية بالمجلس ، لكل كفة
يتعدم ، ما دامت ضالتنا المنشودة واحدة ، وهى الأخذ بيد هذا المولود
السعيد الى الامام ، لخير البلاد ومصالحها ، وهى تتفق مع مصلحة
المساهمين أنفسهم ، لأنهم مصريون »

ورد على الاعتراض الثالث ، وهو « عدم استعداد الأمة للاعمال
الاقتصادية ، وعدم اكتتاب الكبار فى أسهم البنك بمبالغ وافرة » .
فقل :

« لا ننكر ان الأمة طفلة فى المشروعات الاقتصادية ، ولكن أين الأمة
اتى ولدت عائلة مستعدة بفطرتها لمثل هذه الاعمال ؟

« سلوا التاريخ ينبئكم عما قاست كل أمة فى بداية نهضتها

« فكر بعض المصريين فى تأسيس بنك مصر ، فعملوا ما يعمله غيرهم .
فمن جمع بعض أشخاص يكتتبون فى أى راس مال أولى يطلب به المرسوم
السلطانى ، ولم يكن يوسع القائلين بهذا المشروع أن يفتحوا - قبل
صدور المرسوم - اكتتابا عاما لتظهر قدره الأمة واستعدادها . فلماذا
هذه المغالطة ؟ والمبلغ الذى جمع ودفعه المؤسسون بأكمله عن طيب خاطر ،
لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يصح اتخاذه دليلا على شيء ، سوى جمع كلمة
بعض أشخاص على استصدار مرسوم سلطانى بتأسيس بنك ، ليدعى
المصريون للاكتتاب العام فيه ، وهذا ما دعيت الجمعية العمومية غير
العادية ، لتقريره هذا اليوم

« تراجع عدد المساهمين فى بنك فرنسا ، ورأس ماله ١٨٢ مليون
فرنك ، مقسم الى ١٨٢ ألف سهم ، ومجموع عملياته فى السنة تقدر
بالمليارات لا بالملايين ، نجد أن سبعة وعشرين ألف مساهم من واحد
وثلاثين ألف مساهم ، لا يملك كل منهم أزيد من عشرة أسهم ، وليس
بين الأربعة الآلاف الباقية سوى ٣٦٥ مساهما يملك كل منهم أزيد من
خمسين سهما ، ومنهم ١١٣ فقط يملكون أكثر من مائة سهم

« فإين أغنياء فرنسا ؟ هل هم أيضا غير مستعدين للاعمال الاقتصادية-
حتى انهم لم يساهموا فى بنك فرنسا بنسبة ثرواتهم ؟ »

ردود مفحمة ، ومنطق سليم مقنع ..

عم تحدث عن برنامج البنك فقال :

« انه يعمل كل ما يعمل به بنك تجارى مثله ، لا فرق فيمن يعامله بين أن يكون مصريا أو غير مصرى ، فالمصرية لم تشترط الا فى راس المال ، أما فيما عداه فأبوابه مفتوحة لكل عميل

» يشجع المشروعات الصناعية المختلفة التى تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم

» يساعد على إيجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية وشركات النقل بالبر والبحر ، وشركات التأمين بأنواعها

» يشدد فى التدقيق قبل توظيف أى مبلغ ، ولا يستثمره الا فى وجوه سليمة مأمونة

» لن يشتغل بنك مصر على الاطلاق فى المضاربة لنفسه ، ولن يساعد الغير عليها ، ولن يقرض الأموال المودعة لديه لأجال طويلة

» نريد أن يفهم الكل ان بنك مصر ليس جمعية خيرية ، ولا ملجأ للعاطلين ، ولكنه محل تجارة ، يعمل عملا تجاريا على مبادئ وأصول قديمة ، لن يحيد عنها ان شاء الله تعالى

» سيؤدى بنك مصر لجميع عملائه كل الخدمات المالية التى يحتاجونها بأجر مناسب ، وسيعمل بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحانة التجارية وانشاء الغرف التجارية والنقابات والشركات التعاونية وغيرها للدفاع عن مصالح أعضائها . كما يعمل بالاتحاد مع أصحاب المزارع والمصانع على تأسيس النقابات وشركات التعاون اللازمة لهم للدفاع عن مصالحهم ومحاصيلهم ومصنوعاتهم

» سيعمل على بث روح العمل والتعاون والتضامن والنظام فى الشبيبة ، واثراء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم ، والبحث على وضع أساس التربية الاقتصادية العملية فى البلاد ، وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابى ، أساسا فى مناهج التعليم

ولقد بدأ البنك رسالته فى التوعية القومية الاقتصادية منذ اليوم الأول من انشائه ، وبعد اعلانه برنامجه ، ليقضى الوطنيون على الشركات الأجنبية المسيطرة على اقتصاديات البلاد . فقد جاء فى أول تقرير لمجلس إدارته الى أول جمعية عمومية عادية للمساهمين فى نهاية عام ١٩٢٠ ، وكانت أزمة هبوط أسعار القطن شديدة عاتية :

« أملنا أن يخرج مواطنونا من هذه الأزمة بالعظات والعبر ، وأن يستفيدوا من دروسها ، فينظموا صفوفهم ، ويلجوا باب الاستقلال الاقتصادي ، ويستثمروا أموالهم في مرافق بلادهم الحيوية على مختلف أنواعها ، ويتكاتفوا فيما بينهم لترقية شؤونهم الاقتصادية ، فيؤلفوا النقابات والشركات والغرف التجارية والصناعية ويكونوا يدا واحدة ، شعارهم الاتحاد والإخلاص ، وتبادل الثقة وحسن المعاملة ، ويمصروا الشركات الأجنبية التي يشكون في تصرفاتها بشراء أسهمها ، حتى تكون لهم الكلمة العليا في جميعياتها العمومية »

ولم ير البنك عيبا أن يستعين ببعض الأجانب في أول نشأته ، فقال في تقريره هذا :

« ولقد استقدم مجلس ادارة البنك في أكتوبر الماضي (أى أكتوبر سنة ١٩٢٠) جناب المسيو ريتشارد ادلر كمستشار للبنك . ولا نزوم لأن نطمئن حضراتكم بأن مجلس ادارتكم مائر على مبدأ الاحتفاظ بشعاره . وهو ان اليد العليا لادارة البنك وسياسته ، بقيت وستبقى مصرية »

ولا يقف جهد الرجل وتفكيره عند الاقتصاد وحده ، وعند انشاء الشركات والمصانع يفخر بها الوطن ويعتز ، فهو يشارك بنى وطنه في الحفاوة ببناء مصر المجاهدين عند عودتهم من رحلة جهادهم في الخارج ، ويهتبلها فرصة ليندد بالمستعمر ، وليهتف للوطن ولاستقلاله ولحرية ، وليشيد بقوة عزيمة مصر وأهلها

كان ذلك في الحفلة التي اقامها التجار في فندق سميراميس في ٢٣ أبريل سنة ١٩٢١ ، لتكريم « صاحب المعالي » سعد زغلول باشا وزملائه . أهضاء الوفد المصرى . . « بعد غيبة طويلة جاهدوا فيها جهاد الأبطال ، مدافعين عن القضية المصرية خير دفاع ، حتى وصلت بفضلهم وبفضل اتحاد الأمة والتشجيع الذى لا قوه منها في كل خطوة من خطواتها ، الى النقطة الدقيقة التي هي فيها الآن . فعليكم ايها الأبطال من جميع تجار مصر ، سلام الله وتحيته . . ان تلك الأعصاب التي كانت تهتز حماسة يوم استقبالكم ، وتلك القلوب التي رايتموها تخفق بالوطنية الصادقة ، لهم أعصاب وقلوب أمة باكملها ، قامت كتلة واحدة تشهد العالم اجمع على انها مجمعة على طلب واحد ، لا ترضى عنه بديلا ، فتسقط تلك الحجة التي كاوا يمدفوننا بها ، بأن الأمة غير مجمعة على الطلب ، بماذا يساهم يقولون اليوم ، واجماع الأمة أشهر من أن يستر ، وأظهر من أن يمارى فيه ؟

« انه لمن الخطأ أن يظن بأن الضغط يلفت مصر عن نهضتها ، وينسيها حب الحرية ، فان هذا الضغط هو نفسه داؤها الذي تتألم منه . ومن الجهل أن يداوى الداء بالداء

« لئن كنا غير اكفاء لحكومة بلادنا ، فان المهيمين على أمورنا وشؤوننا ، اظهروا يتصرفاتهم أنهم أقل كفاءة منا بكثير ، لا بهم لم ينجحوا في أن يذهبوا عنا تهمة عدم الكفاءة التي هم أول رمتنا بها . أمامكم أمم العالم ، فهل رأيتم من بينها واحدة تترك للصدفة حبلها على غاربها في شؤونها الاقتصادية ، لا رأى لها في اللب عن مصالحها ، وتترك طعمة للاكئين ومضفة لكل ماضغ ؟ اين الغرف التجارية التي أسسوها او ساعدوها ؟ اين النقابات الزراعية والصناعية التي نظموها ؟ اين البنوك والشركات المصرية التي عملوا على ايجادها ؟ اين التشريع الذي يقى المصريين ويحمى مصنوعاتهم ومحاصيلهم ؟ تركوا المصريين عزلا من كل سلاح ، بين منافسين ومزاحمين مدججين بأحسن طراز من الأسلحة الحديثة ، وبعد ذلك يعتبروننا لا نصلح لشيء ، لاننا لم نعمل شيئا ، وهم هم الذين لم يؤهلونا للعمل ، بل افسدت السياسة ما كان صالحا لدينا ، لم يشجعوا شيئا من الصناعة الوطنية ، بل لاهم وقفوا في طريقها وقفة المدافع عن مصنوعات الخارج

« تبا للسياسة ، ما تدخلت في شيء الا افسدته »

وبعد ما عدد طلعت حرب ، خطيب الحفلة كيف افسد المستعمر التعليم ، وضحوا بمراقق البلاد الحيوية ، وأضاعوا احتياطي البلاد ، قال :

— « .. لهذا فكر بعضنا في اثناء جهادكم للقضية العامة ، في وضع حجر الأساس لاستقلال البلاد الاقتصادي ، فأسسوا « بنك مصر » نواة ذلك الاستقلال ، واول مدرسة عملية يتأهل فيها شبابنا الحي ، للدخول في ميدان الحياة العملية التي كان مبعدا عنها . كما أسس التجار الغرفة التجارية لمدينة القاهرة ومثلها لمدينة طنطا وثالثة لمدينة المنصورة . وتأسست أخيرا النقابة العامة للدفاع عن مصالح المزارعين ، وسيتلو ذلك ان شاء الله تعالى كثير من المشاريع النافعة للبلاد ، تبنى على أسس ثابتة ، ويقوم بها رجال ذوو همم عالية ونفوس كبيرة . والفرصة تخلق الرجال ، كما تخلق الوظيفة العضو ، على قول الفرنسيين

« ان كل سياسة خطها الانجليز في مصر فشلت ، لأن قاعدتها لم تكن الاتفاق مع الأمة المصرية والعمل على كسب ثقتها . ان هذه السياسة هى التى جعلت المصريين يشفقون على مصالحتهم الحاضرة من البوار ، وعلى مستقبل ابنائهم من المدلة ونكد العيش ، وليس لديهم علاج نافع للإبقاء الأضرار الحاضرة ، والتدريج لصيانة المستقبل ، الا الاستقلال التام ، فالاستقلال التام أمنية كل مصرى . فعليكم يا رجال الوفد ، بريا رجال الحكومة التى أولتها الأمة ثقتها ، وعلى كل واحد منا ، اى من الأمة كلها ، الاتحاد والتضافر ، لأن مصلحة البلاد تقتضى ذلك .

« انتم يا رجال الوفد رمز امانى الأمة وعنوان مبادئها ، فكل ما وجهته أو توجهه اليكم الأمة ، انما هو موجه فى الحقيقة لهذا الرمز وهذا العنوان ، وهى تولى ثقتها وكرامتها لكل من يخدمها باخلاص وصدق ، ولكل من يجيئها بالاستقلال التام الذى تنشده . فانتم حيث تعملون ، تنزلون على ارادة الأمة ، وارادة الأمة هى ان يتضافر جميع ابنائها ويكونوا يدا واحدة ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا »

لقد حرص طلعت حرب منذ شيد هذا الصرح الوطنى ، على أن يبتعد عن السياسة ومزلقها ، وعن الاحزاب وأهوائها ، ليكون البنك لجميع أبناء الوطن ، لا فرق بين سعدى وعدلى ، أو بين وطنى واتحادى ، فمن عد خطبته هذه اشتغالا بالسياسة ، كان متجنبا غاية التجنى ، انما هى مشاركة من الرجل ورفاقه وزملائه من التجار ، للملايين المصريين فى استقبال نفر من أبناء مصر المجاهدين . وكان موفقا كل التوفيق حينما ضمن خطبته السخط على المستعمر والتنديد بسياسته فى قهر البلد والعمل على اذلال أهله ، وحث المصريين - حتى يتخلصوا من هذا المستعمر المستبد الفاشم - على الاقدام على المشروعات الاقتصادية المثمرة ، والاتحاد والعمل على انشاء النقابات المهنية لتدفع عن أمضائها ما يحقق بهم من ظلم . . فهى خطبة سياسة اقتصادية ، جمعت فأوعت

فاذا اجتمع بممثلة مصر فى الخارج ، وجه انظارهم الى بلبل نشاطهم البخير اقتصاد وطنهم الذى اختارهم عنوانا له فى أوروبا وأمريكا ، فيقول نقي وليمة أولها البنك فى ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ، لأول دفعة من القناصل المصريين ، عينتها وزارة الشعب ، وزارة سعد زغلول :

« اذا كنا نأسف لأن حوادث التساير قد حرمتنا حق التمثيل الخارجى فى مدى عدة قرون ، فاننا نفرح اليوم لأن العصر الحاضر قد اتصل بالعصر الغابر ، فى استعادة هذا الحق الذى لم يضع بالتقدم . . نفرح اليوم بالذات لاننا نرى فيكم وفيمن سبقوكم منذ اسابيع من رجال التمثيل السياسى ، حلقة اتصال بين هذا الحاضر وذاك الغابر

« اننا نطلب من القناصل أن يعملوا كما كان يعمل أسلافهم من الاجداد الغابرين . نطلب اليهم ان يردادوا معرفة باحوال بلادنا الاقتصادية بحيث لا يكون اعتمادهم عن مصر ، سببا فى عدم تعرف شؤونها الاقتصادية ثم نطلب اليهم ان يدرس كل منهم فى جهته احوالها الاقتصادية من جميع الوجوه ، وأن يتفهم ما تنتج وما يصلح من انتاجها لبلادنا ، وما تحتاج اليه من منتجاتنا ، ويرشد عن طرق الانتفاع من التبادل التجارى بين البلدين ، وان يتفهم طرائق كل قوم يعيش بين ظهرانيهم فى الانتاج والتوزيع ، ويرشدنا عن الجديد من هذه الاساليب ارشادا يصح ان يكون محل التجربة للانتفاع به فى بلادنا . فهذا العمل الذى يجمع بين تفهم الحالة الاقتصادية فى مصر والارشاد عنها فى الخارج ، وتفهم الحالة الاقتصادية فى الخارج وارشاد مصر عنها ، وتسهيل الانتقال والاتصال بين مصر والخارج . بهذا العمل تقومون ايها السادة القناصل - نوق ما هو مفروض عليكم بصفتم مصريين - بواجب الوظيفة الجليلة »

فاذا عين فى اول مجلس للشيوخ فى عهد البلاد الجديد ، بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، اقام له نادى التجارة العليا حفلا ضخما فى اواخر مارس سنة ١٩٢٤ ، تحدث فيه عن هذا المجلس بصراحة ، فقال :

« عم احذتكم ؟ احذتكم عن مجلس الشيوخ الذى من اجل تعيينى عضوا فيه اجتمعتم اليوم ؟ وماذا عساي ان أقول عن مجلس الشيوخ ؟ انه لم يجتمع حتى الآن الا جلسات معدودة ، لا يسع الانسان أن يعتمد على ما دار فيها ، ليتخذها أساسا للحكم على اتجاه هذا المجلس ، وتقدير روحه ، وتعيين النفع الذى يعود من وجوده على البلاد ، باعتباره أداة توازن دستورية . والتوازن كما هو مفروض فى المال لحسن سيره الاعمال ، وكما هو مفروض فى الميزانية العمومية . . هذا التوازن محتم ايضا فى الحياة الدستورية . وحتى اذا وقع خطأ لا يعصم منه الانسان ، وكان هذا الخطأ ناشئا عن عنصر من عناصر السيادة ، أصلحه العنصر الاخر

يرواح من الوفاق يجب أن يسود دائما لصالح البلاد . وفي هذا الاشراف المتبادل ، وفي هذه الهيمنة المشتركة على شؤون الدولة ، يتحقق التوازن الدستوري ، كما يتحقق ميزان المراجعة بين صفحتي السلب والايجاب »

وسافر الرجل الى مدينة المحلة الكبرى ليُفتتح فيها فرما للبنك في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، فنوه في كلمة له في حفل الافتتاح بمراقبة هذه المدينة في صناعة النسيج . وقد اختارها بعد ذلك ليقم على ارضها اكبر مصانع للغزل والنسيج في الشرق الاوسط ، كما سيجمع ، فقال مخاطبا اهلهما :

« لستم « احدانا » في صناعة النسيج ، فقد ورثتموها من ابناء ورتوها عن اجداد . ولدنا على هذا بعض شواهد نسوقها دليلا على اشتغالكم بها منذ مائة عام على اقل تقدير . منها ان كلوت بك في كتابه الشهير عن مصر سنة ١٨٤٠ ، انه كان في مصر وقتئذ ١٥ « وسطا » للغزل والنسيج ، تنتج مليوني قطعة قماش ، وان المحلة الكبرى كانت وسطا كبيرا من هذه الاوساط المعدودة . ومن الشواهد ايضا انه لما اقامت فرنسا معرضا عاما في سنة ١٨٦٧ واراد الخديوي اسماعيل ان تمثل مصر فيه - وقد مثلت تمثيلا استقلاليا اغضب الدولة العثمانية وقتئذ - وقع الخيار على احسن ما يعرض من منتوجات البلاد ومصنوعاتها ، فكان مما وقع عليه الاختيار ، منسوجات من المحلة الكبرى : قطنية عرضت في مجموعة رقم ٢٧ من هذا المعرض ، وصوفية عرضت في مجموعة رقم ٢٨ منه ، وفوط من الصوف والحريز عرضت في مجموعة ٢٩ منه . وقد اثبت هذه الحقيقة التاريخية المستيو شارل ادمون المكلف من قبل الحكومة المصرية وقتئذ ، بتنظيم القسم المصري في هذا المعرض ، والذي كتب مؤلفا خاصا بهذا القسم وطبعه في سنة ١٨٦٧ نفسها »

وهو لا ينئ كلما سنحت له الفرصة ، ان يحض الشبان خالص النصح ، وان يوجههم خير التوجيه ، حتى يعودوا مواطنين صالحين ، ينفعون وطنهم ومواطنيهم

لقد اجتمع بالطلبة المصريين الذين يدرسون في الخارج ، في حفلة اقامتها له الجمعية المصرية في باريس في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ، في فندق « لوتسنيا » وجثم فيها - بعد الحث على الاقبال على التعليم -

عليه ان يعودوا بعقلية مصرية ، متشابهة في سموها مع اسمي الامم بعاقه
فقال لهم :

« اننى مسرور بلقائكم ، مصطفىين ، وطلبه علم ، ومقيمين في عاصمة
النور والسورور ، في عاصمة العواصم ، باريس . »

« وباريس مركز اللهو والسروور ، بينما المسارح يرجع تمهدها التي
ما قبل «موليير» ، وفيها بجوار المسارح الناطقه ، ستائر بيضاء صامدة
لعرض الصور المتحركة . وفي باريس ملاء عبر المسارح . فيها انهوات
والنوداى تسر الناظرين وتشرح الخاطر . وفيها امثلة المداهبة والمخالعة ،
قد يفشاها بعض المصريين ، كما يفشاها كثير من الاجانب والفرنسيين .
ولما كنت غير واعظ ، ولا احب ان اكون واعظيا ، لاني اعلم ان وعظي
سيذهب صرخة في واد ، فان كل ما ارجوه ، هو ان يدخلها من يدخلها
من مواطنينا بحذر ، وادعو الله ان يخرجهم منها سالين . وفي باريس
« كاباريهات » او « غرز » ، كما نقول في بلادنا ، يقبى فيها المصون غناء
خاصا بالباريسيين

« هذه هي باريس اللهو والسورور

« اما باريس الجد ، فهي باريس العلم وباريس العمل

« هي باريس « السوربون » ، والسوربون من اقدم الجامعات في انغرب ،
منزلته منه ، منزلة الازهر من الشرق ، من حيث القدم في كليهما ،
« والسوربون » كما تعلمون تطلق على كلية الآداب وكلية العلوم ، وقد تطلق
ايضا على معهدين ملاصقين لهما ، روحا وجسدا ، هما كويج دى فرانس ،
ومدرسة الوثائق القديمة . وهذه المعاهد العلمية تعتبر بمثابة القلب من
جامعة باريس ، فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها ، يمتد النور الى كلية
الحدوق . ومن علومها الوصفية الطبيعية والكيميائية وتاريخها الطبيعي ،
يمتد ضياء آخر الى كلية الطب . ومنها جميعا يشرق نور انجامة
الكبرى على بقية الجامعات في الاقاليم ، وينعكس على قباب الاكاديميات
الشهيرة في سرايها فوق نهر السين

« ولقد كان لهذه الجامعة فضل عظيم في تكوين فئات من المصريين ،
مند بعثات محمد على العلمية ، التي اخرجت على مبارك والفلكي مخلوق
واسماعيل بهجت ومحمد على الحكيم وغيرهم من الادباء والمهندسين
والاطباء والمشرعين ، وبعثات الجامعة والحكومة اخيرا . »

« نعم قد يكون من الشاق على الطالب الاجنبي في هذه المدينة المأهجة المملوءة بدواعي اللهو والمسرات ، ان يضغط على شبابه ، ويلقاهم في هذا للوسط الجذاب اسباب الخلاعة واللهو المحيطة به ، ولكن هناك لهو مصحوب باحترام النفس والقدرة على ضبطها والحذر من ابتذال الكرامة ، والحرص من الوقوع في اى سبب من اسباب المكروه : الادبية او الخلقية او الصحية . وهناك لهو آخر ينحدر به الانسان الى بخس النفس قدرها ، بالضعف عن كبح جماحها ، والى تضييع الكرامة والتخبط في ظلمات كل مكروه .

« ان تعدد الجهات والامم والدول الاجنبية التى يقصد اليها الطلبة المصريون ، مرغوب فيه اكثر من توجيه ابنائنا المصريين الى جهة او امة واحدة ، لان توحيد الجهة التى يقصدون اليها ، من شأنه ان يجعل للعقلية المصرية المتعلمة فى الخارج ، تتاثر بطابع الدولة التى تم التعليم فيها ، الا لمن استطاع ان يخرج بعقلية مستقلة ، وهو ما لا يكون الا عند جياورة الدكاء . ولا يخفى ما يترتب على التاثر بطابع التهذيبات فى دولة واحدة ، من الاثر الذى قد يكون غير محمود فى حياتنا القومية ، بخلاف تنوع البلدان والدول التى يقصد اليها الطلبة المصريون ، فان من شأنه ان يجعل عدة جماعات من المصريين المتعلمين تعليما عاليا ، موسومين بسمة التهذيبات المختلفة التى اثمرت فى تكوينهم العقلى ، فيحدث من احتكاكهم فى العمل ، بعد عودتهم الى مصر ، اتصال فكري وعقلى يجعلهم يتقربون بعضهم الى بعض ، تقريبا يساعد على ايجاد عقلية مصرية ممتازة يقاتها ، مستقلة فى مجموعها ، عن اثر الدولة التى استكمل فيها المصرى علومه العالية

« وهذه العقلية المترجمة المتشابهة ، هذه العقلية المستمدة من تهذيبات الشعوب المختلفة ، هذه العقلية القائمة على الملكة العلمية المشتركة بين البلاد ، دون ان تكون متأثرة بالبلدة التى تم تكوينه فيها ، هذه العقلية التى يجب ان تكون مشتركة فى طرق العلم القائمة لدى اسمى الامم القريبة دون ان تصبغ بمميزات هذه الامم وخواصها ، هذه العقلية هى التى نريدها فى شباننا المتعلمين ومتخرجى الجامعات ، سامية عالية تناطح العقليات فى سمو ادراكها . . هذه العقلية ينبغى ان تكون بجهود المتعلمين انفسهم حتى تكون مصرية ، لا عقلية المانية ، ولا عقلية انجليزية ، ولا عقلية فرنسية ، ولا عقلية اجنبية اخرى . . وهذه العقلية يجب ان تكون

مصبوغة بخواص الدكاء المصرى ، ومرآة صادقة للحسن من الطابع
المصرى

« نريد اذن عقلية مصرية متشابهة في سموها مع اسمى الامم ثقافة ،
ونريدها عقلية مصرية مستقلة ، عقلية هي وليدة ماضينا الذى لا مفر
من الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرنا نسعى الى أن نربطه بماضينا ،
كما نسعى أن نقوده ونسيزه الى مستقبل حسن »

اى معلم هذا الرجل ؟ انه يلحق طلاب العلم المصريين فى جامعات
الغرب ، هذه الدروس الوطنية الغالية ، حتى لا يفتنهم بريق الغرب ،
فيعودوا وقد فقدوا مصريتهم ..

* * *

الوف من الصفحات لا تكفى لتسجيل التاريخ المفصل لهذا العبقري
المصرى ، ولكنى - وأنا أترجم له فى صفحات مقدودات - سأقتصر على
اسطر من هذا التاريخ الحافل ، حتى انتهى الى بعض حوادث ذات
مغزى ، ومعنى ..

فى يوم السبت ٩ مايو سنة ١٩٢٥ ، احتفل بوضع حجر الاساس
للبنك فى داره الشامخة والقائمة اليوم - وكانت أرضها غاصة بالمشش
والبيوت القديمة والآيلة الى السقوط - بحضور الوزراء والكبراء وأعيان
البلاد

وفى أوائل يوليو ، سافر الى بيروت فأكرمه أهلها فى مأدبة حافلة ،
قال فيها بعد ما تغنى بجمال الجبل والأرز :

- « نحن المصريين بالذات ، نعلن انه كما تهتمكم شؤوننا ، تهتمنا
شؤونكم ، وانه يهمننا ويهمكم على السواء أن تكون الثقافة العربية التى
تربطنا بكم ، أقصى ما تكون من الرقى ، وانه يهمننا ويهمكم على السواء أن يكون
الاستقلال الاقتصادى أمرا واقعا فى بلادنا ، كما يكون الرخاء ميسورا قائما
على قواعد ثابتة فى بلادكم ، وانه يهمننا ويهمكم على السواء أن تكون حركة
المبادلة التجارية بيننا وبينكم على أشد ما تكون » .

ثم سافر الى سوريا ، فأقام له تجارها حفلة تكريم فى دار المجمع العلمى
العربى ، فكان خير ما قال فيها ، بعد ما تغنى أيضا بدمشق الفيحاء :-
- « ها انتم انشأتم حديثا فى مدينتكم كلية للطب وكلية للحقوق ،
وجعلتم عمدة التعليم فيها باللغة العربية .. قالوا - من حيث يجهلون في

يتجاهلون منزلة لغتنا - ان اللغة العربية لا تصلح للتعليم في مدارسنا ، لانها تقصر عن استيعاب العلوم العصرية ، فصرنا على مضض . . نرى التعليم يجرى بلغة غير لغة البلاد ، حتى عاد الينا بعض الامر من شؤونا ، فجعلنا التعليم بالعربية اساسا في الدراسة الابتدائية والمتوسطة والعالية . وفي اثناء هذا النضال كانت اللغة العربية قد تمشت في مجارى التشريع المصرى الماخوذ عن التشريع الفرنسى ، وانقادت بسهولة في لغة المحاكم وأوراق قضاياها ومختلف اجراءاتها ، وفصاحة خطب رجالها في الاتهام والدفاع . أصبحت اللغة العربية عصرية مرنة ، قابلة لخوض المعلومات العصرية بسهولة تامة ، سواء اكانت هذه المعلومات أدبية أو سياسية . ثم نهضت البلاد لتأسيس « بنك مصر » الذى هو أول بنك قومى مصرى تأسس بأموال عصرية بحتة ، وبإدارة مصرية محضة ، وقررنا ان تكون المراسلات فيه ، وبينه وبين عملائه باللغة العربية ، وان تكون حساباته باللغة العربية . . فهزأ بنا الهازئون ، وقالوا : ان المحاسبة من واردات الغرب ، وأنها فن من فنونه غير قابل للانتقال الى الشرق بغير لغة من لغات الغرب . ولكننا احملتنا استهزاءهم ، وأجرينا مراسلاتنا وكتبنا وتقاريرنا باللغة العربية . وانى تؤكد لحضراتكم اننا ما وجدنا اية صعوبة في تقريب معنى من معانى هذا الفن ، أو في تعريب اصطلاح من اصطلاحاته .

أرايت دفاعا عن العربية من رجل اقتصاد كهذا الدفاع الجار المخلص ؟

ثم اقرأ رايه في السينما شارحا فوائدها ، باسطا أضرارها ، في سهولة ويسر ، لا يستطيعها غيره ، في ميدانه ومجاله

لقد دعا أحمد مدحت يكن باشا رئيس مجلس ادارة البنك ، أعضاء البرلمان بمجلسيه - الشيوخ والنواب - والوزراء والعظماء والأعيان والصحافيين والأدباء والنقاد ، الى حفلتين في مساء يومى ٢٩ و ٣٠ مارس سنة ١٩٢٧ ، عرضت فيهما نماذج من الصور السينمائية التى صورتها « شركة مصر للتمثيل والسينما » ، فور انشاء البنك لها . فالتقى طلعت خربه خطبة طويلة ، قال فيها :

- « اذا كان اختراع السينما قد أدى حاجة نفسية من حاجات البشر ، فانه ككل اختراع ، له مجاسنه ، وله عيوبه . مجاسنه في خلق صناعات جديدة ، وفي خلق ميادين للدكاء الإنسانى ، أو الذوق الفنى ، يعمل فيها نشاط غريب ، وفى تسلية الناس والتفريج عن صدورهم بالضحك الساذج ، وفى تلقيتهم معلومات مفيدة كانوا يجهلونها قبل ان يروها على اللوحة البيضاء ،

وفى وقوفهم على مناظر بديعة للطبيعة والبلدان كان من المتعذر الوقوف عليها
بغير عرض. الاشرطة المحترقة، وفى اثاره الحماسة فى نفوسهم فى مواقف
الحماسة ، وتحبيل الشجاعة والهمة والمروءة فى مواقف الاخلاق الفاضلة .

« وللاختراع من الجانب الآخر عيوبه ، فان الفضائل لا تعرف الا
بمقابلتها بالذائل : فالشجاعة بالجبن ، والمروءة باللؤم ، والبراعة بالاجرام ،
والاحسان بالاساءة . . ومن هنا ظهر على اللوحة البيضاء المحاسن والاضرار .
فظهرت صور منحطة من الناس ، وأعمال منطوية على خبث نياتهم . وظهرت
الجرائم كيف تدبر ، والجنايات كيف ترتكب ، والخيانات كيف يحيك شبكها
الخائنون . فكان لعرض هذه المساوىء تأثيرها السوء فى بعض النفوس
السادجة او المستعدة للشر ، لى سبب طبيعى او خلقى او اجتماعى ، حتى
اثارت فى بعض الاحيان عاطفة الشر منهم ، فاندفعوا يعامل التقليد الى ارتكاب
الجرائم بجرأة مأخوذة تماما مما شاهدت العيون على اللوحة البيضاء ، بل
وقد ترتكب معاييب لا تذهب الى احد الاجرام المقابله عليه ، ولكنها تذهب
فقط الى الحط من الاخلاق دون التعرض للقانون »

فلنخط الى الامام خطوات فسيحة ، لنرى الخطل العظيم المرتقب
من سنوات :

ففى يوم الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٢٧ ، احتفل بافتتاح الدار الجديدة
للبنك فى شارع عماد الدين ، اى بعد سنتين من وضع حجر الأساس كما
مر بك . افتتح الاحتفال أحمد مدحت يكن باشا بكلمة بالفرنسية ، وقف
على اثر انتهائه منها « رجل بنك مصر » ، ليقول والدنيا لا تسعه من الفرح
والبهجة :

« لولا حسن ادراك المصريين ، وصدق الهامهم ، وقبولهم على تقدير
النافع من الاعمال ، ما كنا وصلنا الى ما وصلنا اليه اليوم . فقد بدأنا فى
سنة ١٩٢٠ صفارا يهزأ بنا الهازئون ، ويتساءلون : بشماين الفيا تقام البنوك ؟
وقد نسوا أن العمل الصالح يولد صغيرا ، ونمو حتى يصير كبيرا . ونحن
بحمد الله ما لبثنا طويلا ، حتى تضاعف رأس المال والولغ . . . ٧٢ نجنيه ،
وقد يزيد الى ضعفه بعد حين . وسخروا من أعمالنا فى السنة الاولى ،
لانهم رأوا أرقاما ضئيلة ، كان الشجرة المثمرة ، الشجرة المظرة للشاطئ
السنين ، يورف ظلالتها وتوتى أكلها فى خلال عام . ولكنهم ما سخروا حتى
لقدلوا من سخريتهم ، واقرؤا بالحقائق : وهى حيوية البنك وقطعة مسافات
الرقمى الى الامام ، بخطى لا يعرف لها مثيل فى حياة المضارب المالية كاطبة ،
بدل على ذلك عدد الموظفين ، وكانوا يعدون على الاصابع ، بلطفوا الآن فوق

الخمسمائة تدربوا جميعا في البنك على تجارة الاموال ، بعد ان كانت الابواب مغلقة في وجوه الشباب لمثل هذا التدريب . وبفضل تدربهم تيسر التوسع في افتتاح الفروع والمكاتب في الداخل ، والشروع في تأسيس أول فرع جديد في الخارج ، هو « بنك مصر - فرنسا » الذي سيحتفل بافتتاحه في صيف هذا العام « (١) .

وكذلك انتقلت ادارة البنك من مبناها المتواضع المستأجر في شارع الشيخ أبي السباع ، شارع جواد حسنى الآن ، الى داره الفخمة التي تكلف انشاؤها مائة ألف جنيه ، والتي يمز وجود مثل لها من بنوك الشرق .

ومما أذكره هنا ولا أنساه ، أن زعيم مصر الاقصادى ، دما زعيم مصر السياسى سعد زقلول باشا الى زيارة هذه الدار قبل الاحتفال رسميا باحتفالها ، تجنبنا للزحام الذى قد يرهقه ، مراعاة لصحته ، فقد كان هذا قبل امتلال صحته ، الامتلال الذى لقي فيه وجه ربه بعد ذلك بثلاثة أشهر او تزيد قليلا (٢) .

وعين صباح يوم السبت ٣ يونيو ، لهذه الزيارة الخاصة ، فذهب سعد ، وكان في استقباله جميع أعضاء مجلس الادارة فقط ، واتوا له بمركبة تدفع باليد ، ليركبها في اثناء طوافه حتى لا يمسه تعب ، لكنه ما لبث بعد أن تأثر مبتهجا بفخامة البناء ، ومعجبا بالطراز العربى الجميل الذى ساد جميع اركانه واقسامه ، حتى نهض واقفا ممتلئا شباها وهو يقول لطلب حرب ولنملائه :

— هذا عمل عظيم يقمر بالسعادة كل من يشاهده ، بل ويعيد اليه الشباب يا طلعت بك .

وهنا قدم اليه طلعت حرب ، المهندس الذى صمم الدار وأشرف على بنائها ، وهو انطون لاشاك بك ، فهناه سعد تهنئة حارة .

وظل سعد يطوف بالبنك في جميع ادواره على قدميه ، لمدة طالت الى ساعتين ، غادر الدار بعدها مكررا تهنئته واعجابه ، متمنيا للقائمين بأمر البنك وفي طليعتهم طلعت حرب اطراد التقدم والنجاح .

(١) بدأ البنك عمله في سنة ١٩٢٠ بمشرين موظفا ، ودمد مشرين عاما اى في عام ١٩٢١ ، كان مقدم ٢٥٠٠٠ موظف وعامل فيه ولى شركائه ، يتقاضون مرتبات تزيد على مليون جنيه

(٢) توفى سعد في ٢٢ اغسطس سنة ١٩٢٧

وفي هذه المناسبة ، اذكر كذلك ، انه من نحو خمس عشرة سنة ، زار دار البنك وفد من الهنود ، فرأيتهم يقفون أمام نقوشه ورسومه وهندسته وأمام صورة طلعب حرب ، وقفة المتعبد الخاشع ، في محراب صلته .

وسافر الى الاسكندرية ليفتح عمارة البنك في الاسكندرية في يوم ١٤ يونيو سنة ١٠٢٩ ، ولم يهدأ بعد ذلك طوال السنوات التالية ، فقد زار دمشق ولبنان وليفربول ومانشستر وقينا وغيرها ، فكان خير سفير لمصر ، ولبنك مصر .

ووصل الطيار محمد صدقى - وهو من موظفى البنك - بطائرته الصغيرة من المانيا الى مصر ، فكان سنتلدا جليلا شغل المصريين والشرقيين ، فأقام له نادى التجارة العليا حفلة تكريم في مسرح ترقية التمثيل العربى - مسرح حديقة الازبكية فيما بعد ، ومسرح جورج أبيض اليوم - في يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٠ ، فوقف طلعت حرب الرئيس الفخرى للنادى ، ليقول :

« كنا قبل وصوله - أى صدقى - نشعر بنقص فى استكمال ادواتنا القومية ، لا لعجز عن استكمالها ، ولكن لأسباب قهرية . وكنا نشعر بأن الأمم الأخرى أسبق منا فى ميادين الطيران ، ونحن أحق بأن نجاريها فى استعمال الفضاء ، كما تستعمله هى سواء بسواء . وكان يزيد فى المنا بهذا النقص ، ان الطيران واسطة سريعة للنقل التجارى يتقدم بسرعة هائلة ، ونحن مع هذا محرومون من حق الانتفاع بهذه الوسطة فى جونا الصافى ، حتى ومحرومون من تحضير ابنائنا فى مطارات خاصة بنا .

« أما وقد وصل الينا صدقى ، فان وصوله يعتبر فوزا للمصريين ، ودليلا ناهضا على امكان تكوين أمثاله من الطيارين المصريين ، وباعثا منشطا على تدليل الصعاب لانشاء اسراب من الطائرات المصرية ، لتسهيل النقل الجوى ، أسوة بما تقوم به الأمم الأخرى » .

لم قدم اليه الف جنيه هدية من النادى ، وهو يقول له :

- هذه هدية كرمز مادى صغير لاعترااف الامة المصرية بما نلت من سبق الفضل ، فى ميدان من ميادين الحياة الجديدة .

وظل الرجل وراء الصعاب يدللها الواحدة تلو الأخرى ، حتى صدر الرسوم الملكى بانشاء شركة مصر للطيران فى ٧ مايو سنة ١٩٣٢ ، فكانت أول شركة من نوعها فى الشرق الأوسط .

ومع هذا الجهد الشاق الذى يبذله ، والذى يرهق الشاب القوى ،
تراه يلبى دعوة الى حفلة تكريم فى مدينة الزقازيق فى يوم ٨ يونيو سنة ١٩٣٠
تكريما للرجل اشتهر باسرافه فى البر والاحسان ، هو عبد اللطيف حسنين
وهبه بك ، ولهذا كرمه اهله ، ودعوا طلعت حرب باعتباره شرقاويا مثله ،
فلبى الدعوة وهو لا يعرف الرجل ، ولكنه محب للخير ولفاعليه ، فوجب
عليه - فى رأيه - أن يسهم فى تكريمهم . قال فى تلك الحفلة :

« ليس أحب الى نفسى من ان أتكلم فى هذا المقام ، لان حضرة
عبد اللطيف بك حسنين وهبه ، الذى لم أتشرف بمعرفته الى اليوم ،
شخصية من شخصيات البر والاحسان ، النادرة المثال فى هذا الزمان .
فهو يعمل بغير إعلان عما يفعل ، اى انه يفعل للخير فى ذاته ، لا ليزهى
ياخاديت الناس فى أعماله ، ثم هو يعمل فى دائرة متنوعة من أعمال البر :
فهو قد أنشأ مدرستين ، وأنشأ دارا للطفل والامومة ، ودارا للاسعاف ،
وملجأ لليتامى ، وملجأ لليتيمات . ووقف شيئا من اطيائه وعماراته للانفاق
منها بصفة دائمة على مؤسساته الخيرية هذه ، مما يدل على انه رجل حكيم
رقيق الشعور . فهو حكيم بما أنشأ من مدارس للتعليم مقدرا نفعها فى هذه
الحياة ، وبما وقف لها من اعيان تأمينا لمستقبلها . وهو رقيق الشعور لانه
راعى أولى الضعف بالرعاية ، من الطفل الى الام الى اليتيم واليتيمة .
فبارك الله فى رجل يجمع بين حصافة العقل ورقة الشعور . . ولقد كان اعجابنا
به بناء على نبذة كتبت عنه فى صحيفة من صحفنا السيارة منذ ثلاث أو أربع
سنين ، فساقنى اعجابى به الى ارسال كتاب اليه اثنى فيه على عمله
ومجهوده ، فردودا جميلا ، وبذلك تعارفنا عن بعد » .

وهكذا يقدر الرجال الرجال

وفى افتتاح شركة مصر لفول ونسج القطن بالمحلة الكبرى - اعظم
شركات البنك واكبرها من نوعها فى الشرق الاوسط - فى ٢٣ مارس سنة
١٩٣١ ، فى حفل لم تشهد المؤسسات الصناعية ، بل والبلاد ، له مثيلا ،
بمحضور الملك فؤاد - رحمه الله - خطب بين يديه فقال :

« قديما كان لجدكم الاعلى ، القدح المعلى فى احياء الصناعات
الاهلية ، ومن ضمنها الصناعات النسيجية ، حتى كانت وسط النسج
موزعة فى بلاد مديدة ، وكانت المحلة الكبرى من اهم هذه الأوساط ، ثم
استمر المغفور له والدكم حريصا على احياء ما اندرس من صناعات ،

وتأييد ما يقى منها ، بدليل اشتراك مصر في عهده في المعارض الدولية .
وعرضها فيها المنسوجات المصرية ، ومنها منسوجات المحلة الكبرى
بالمئات

« ومما يزيد سرورنا أن جلالتم تفتتحون اليوم مصنعا دار للنجزيه
محلته بضعة أسابيع ، فدلتم تجارب العمل فيه على نجاح الفزل في الجوز
المصرى ، وإن لا خوف مطلقا من فشله ، وعلى نجاح النسيج كما تدل عليه
منسوجات التزركة ، وأقبال الناس وتهافتهم عليها في الحل لجودة صنعها ،
كما جعل الشركة تفكر في تكبير المصنع لمضاعفة الإنتاج

« . . . والآن نتقدم الى جلالتم ، راجين باسم الله الرحمن الرحيم ،
وباسم جلالة ملكنا المعظم ، أن تتنازوا بافتتاح المصنع رسميا ، وأن
تفضلوا فتشرفونا بزيارته ، وزيارة شقيقه الصغير ، مصنع القطن الطبى »

وافتح الملك المصنع وشقيقه الصغير ، وطاف بأقسام كل منهما . فلما
انتهت الزيارة أعرب عن اعجابه بما رأى وشاهد ، وهنا طلعت حرب بك
ببجاحه المطرد في خدمة الأمة ، بإنشاء المصانع ، وتنفيذ المشروعات
القيدة للوطن ، ثم قال له وهو يصفحه :

— « أنا ممتن يا طلعت باشا »

ثم صافحه مرة أخرى وقال له : « أنا متشكر كثير . مبروك يا طلعت
باشا »

فكان هذا النطق الملكي ، بمثابة انعام عليه برتبة الباشوية .

كان طلعت حرب أول من نبه الحكومة الى انشاء بنك صناعى يكون
هو لأصحاب الصناعات ، فيقرضهم حتى لا يتوقف دولا ب أعمالهم

كانت الحكومة تودع مليونا أو يزيد قليلا من الجنيهات ، بنك
مصر (١) ، ينفق منها على هذه القروض التي يتقدم بطلباتها اليه أرباب
الصناعات ، فيقدمها اليهم بعد دراسة طلباتهم وتمحيصها ، على أن
لا يتجاوز الحد الأقصى للسلفة الف جنيه بسندد على خمس سنوات بفائدة
قدرها ٦٪ . ولكن طلعت رأى أن هذه طريقة عرجاء ، وأولى بالصناعات

(١) كان أول مبلغ قررت وزارة المالية ايداعه بنك مصر ليقترض منه للصناعات المصرية
مائة الف جنيه في منتصف عام ١٩٢٢

ودعمها وترقيتها والّاخذ بيدها ، أن يكون لها بنك مستقل . ففى تقريره
منه الى وزير المالية فى عام ١٩٢٩ ، قال :

« اذا كانت رؤوس الاموال التى تحتاج اليها الصناعات من أهم
أسباب وجودها وحياتها ، فان تدبير الاموال اللازمة لها ، اول عمل من
أعمال التنظيم القومى لإحياء الصناعات الأهلية ، وإسنادها للبقاء
والنجاح . . لهذا فان مصر حين تضع لها برنامجا اقتصاديا قوميا ، وحين
تحدد البرنامج الصناعى داخل هذا البرنامج ، وحين تعمل على تنفيذ
برنامجها الصناعى ، أو برنامجها الاقتصادى العام ، ينبغى الا تعتمد الا
على قواها الذاتية ، اى على إبنائها المصريين

» ولهذا فان وجود البنك الصناعى المصرى ، امر واجب لتحقيق اى
برنامج قومى صناعى . والبنك الصناعى المصرى شريان يجب أن تجرى
فيه الاموال ، حتى يوزعها باقتداره الفنى على الحاجات الصناعية بقدر
وحساب

ومما أذكره فى هذا الصدد ، ان المرحوم محمد السيد يسن ، منشئ
صناعة الزجاج فى مصر وفى الشرق الأوسط كله ، ومنشى صناعة
الأوتوبيسات وغيرها من الصناعات القومية - وكنت اثرا عنده وبخصتى
بقدر كبير من تقديره واعزازه - قال لى فى معرض حديثه عن طلعت حرب
ونفاذ بصيرته وشجاعته وقوته : انه لما ذهب الى البنك يطلب قرضا قدره
ثمانون الف جنيه لانشاء مصنع للزجاج ، وأى قلم قضايا البنك أن الطالب
- اى محمد السيد يسن - لم يقدم الضمانات الكافية لهذا القرض الكبير
الضخم ، ولهذا رفض الطلب . وعلم طلعت بالأمر ، فاشبع المسؤولين عن
الرفض لوما وتقريبا ، وأبان لهم عما صنع محمد السيد يسن من خدمات
جلى لامته ، وأمر باعطائه القرض بلا ضمان . . قال محمد يسن : وكان
طلعت باشا يزورنى فى المصنع كل كام يوم ليطمئن الى سير العمل ، والى ائنى
كنت عند حسن ظنه . .

وفى مادبة العشاء التى اقيمت على البساخترة « النيل » فى يوم ١٥
يونيو سنة ١٩٣٤ ، وقد جمعت بين مصريين وأجانب ، بمناسبة ابحارها
فى اول رحلة لها الى أوروبا ، قال يخاطب المصريين :

« هذا اليوم يوم عيد ، ابيح فيه لعلم مصر الخفاق ، أن يرفرف
لاول مرة على « النيل » فوق البحار

« بالأمس ، سيرت الشركة - شركة مصر للملاحة البحرية وقد انشأها «البنك - الباخرة « زمزم » لنقل الحجاج الى بيت الله الحرام ، وتسهيل الراحة لهم ، فأرضت الدين . واليوم تسير « النيل » لنقل حضراتكم الى ربوع أوروبا ، فتصيبون من دينها ما ترجون من عافية ونصرة النعيم ، وترضى الشركة بذلك الدنيا ، كما أرضت الدين

« وانا لترجوكم اذا وقعت امينكم على اى قصور او تقصير فى الخدمة ، ان تذكرنا انها اول رحلة ، وانا حديثون فى الصنعة ، ولكل بداية صعوبتها . كما نرجوكم ان تدلونا على كل ما تلاحظون ، حتى نصلح الخطأ ونقوم بالمعوج »

وفى يوم ٧ فبراير سنة ١٩٣٥ ، احتفل بتسيير الباخرة « كوثر » شقيقة « زمزم » الى جدة لنقل الحجاج ، وحضر الاحتفال الأمير عمر طوسون رحمه الله ، وتحدث طلعت باشا فقال :

- « كنا قد جهزنا « زمزم » بمسجد للصلاة ، واخترنا لها عالما يحاضر الحجاج فى أمور الدين وخاصة مناسك الحج ، كذلك فعلنا فى هذه الباخرة « كوثر » وفردناها بما اتسع له الجهد من أسباب الراحة والأمان . . . مسجد الحجاج على كلتا الباخرتين مكتبا لبنك مصر لتبديل العملة المصرية ، بالذهب أو بالريالات السعودية ، بما هو أرجح دائما لمصلحتهم . كما سيوجدون أيضا فى كل باخرة محلا لبيع الاحرامات والبشاكير من صنع شركة مصر للفضة والنسيج بأثمان معتدلة . كذلك وفقنا الله الى أعمال أخرى فى جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، قصدنا بها مصلحة الحجاج وأمانهم واطمئنانهم ورضاهم »

حتى اذا حل يوم ٧ مايو سنة ١٩٣٥ ، احتفل البنك بانقضاء خمسة عشر عاما على تأسيسه ، احتفالا كبيرا فى فندق الكونتيننتال ، وشماركه احتفاله جميع الهيئات والمؤسسات . وكان خطيب الحفل رجل البنك - وهل هناك غيره ؟ - فقدم حسابا مفصلا عن أعمال البنك فى هذه الامة مبينا ما أنشأ من شركات ، وما أقام من مصانع ، وكيف نفذ البرنامج الذى اختطه لنفسه منذ انشائه ولم يحد عنه . وقال :

- « ان امتنا التى عملت قديما للخلود ، وكتب لها البقاء فى سجل الأبد ، وتاريخ الإنسانية طفل وليد . . . امتنا هذه ، ليس كثيرا عليها أن تحفظ على مر الدهور وتعاقب العصور ، هذا البنك الذى ولد ودوج

وشب ، في حجر نهضتها المباركة ، لتحتفل بأعياده المختلفة عيداً بعد عيد .
 ويكون إبد الحياة مثابة للناس وأمناء ، يوالونه بالعطف والرعاية والأقبال .
 والتأييد ، ويواليهم دائماً بالخدمة الصادقة ، والنصيحة الخالصة ،
 ما استطاع الى ذلك سبيلاً . . ان بنك مصر يحتل المكان الأول بين البنوك
 التي ترد باسمها الاقطنان في الاسكندرية . كما أصبح ، بعد البنك الاهلى
 المصرى ، بالنسبة لمقدار الودائع والامانات . . لقد بلغ عدد مساهميه في
 ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ، ٩٣٥٦ مساهماً بعد أن كان ١٣٦ مساهماً في
 السنة الأولى . وبلغت قيمة الأرباح التي وزعت للمساهمين في مدى
 الخمسة عشر عاماً ، ٨١٤٩١٦ جنيهاً . خص السهم الواحد أربعة
 جنيهات و ٤٣٠ مليماً ، أى بنسبة ١١٠٪ من قيمة السهم الاسمية ، وهى
 أربعة جنيهات . . لقد بدأ بنك مصر بعشرين موظفاً في سنة ١٩٢٠ ،
 وأصبحوا ٦١٦ في نهاية سنة ١٩٣٤ . وبلغ عدد الموظفين والعاملين لشركات
 مصر في نهاية سنة ١٩٣٤ ، ١١٥٠ موظفاً و ١٦٠٠٠ عامل

« لكم ان تسموا بنك مصر « اعجوبة مصر » . .

وخطب في الاحتفال احمد عبد الوهاب باشا وزير المالية ، فقال :
 - « لو ان بنك مصر كان معهداً مالياً كسائر المعاهد التي تجعل المصلحة
 للمساهمين المادية الاعتبار الأول . في كل تصرفاتها ، وتعنى قبل كل شيء بما
 يدخل جيوب أولئك المساهمين من أرباح سنوية ، لما وجد وزير المالية
 دافعاً كافياً لمشاطرة المتبهجين بهذا العيد أفراحهم . أما وبنك مصر
 مؤسسة قومية لم تقف جهودها عند حد كسب الربح للمشاركين ، بل
 جمعت بين المصلحة الخاصة للمساهمين - وهم عدد وفير من مختلف
 طبقات الشعب - وبين المصلحة العامة ممثلة في متشعب نواحي النشاط
 الإقتصادى ، فانى أشعر بارتياح خاص اذ اشترك معكم في تقدير النتائج
 الإقتصادية الجلى التي أسفرت عنها جهود بنك مصر ومؤسسات بنك
 مصر ، مما كان له أفضل الأثر في نهضتنا الحديثة »

ومضى عبد الوهاب باشا - وكان من رجال الإقتصاد المصرى المعدودين ،
 وشغل منصب أول مراقب لحسابات البنك عقب انشائه - فيوه بقومية
 البنك : « فهو لا يفرق بين حزب وحزب ، ولا بين طائفة وطائفة . . وكان
 له فضل بقاء كثير من الأسر الكريمة محتفظة بأرضها وعقارها إبان الأومة
 الطاحنة التي تعرضت لها البلاد ، فلولاها لقيت كثيراً من اللد والحاجة ،
 دون ان يطلب منا من الحكومة ، ولو طلبه لاجيب لوقته »

لم نوه بما أسداه إلى الوطن من مساهمة في حل مشكلة المتعلمين
العاطلين ، فقد استوعب منهم الوفا كثيرة في عديد من مشروعاته

وختم عبد الوهاب باشا كلمته بقوله : « . . ولكن عندي أن أعظم هذه
الأعمال بركة وابعدها على الزمان أترا ، إنما هو فيما ضربه البنك للناس
من مثل ، وما نصبه أمام أعينهم من قدوة : أن مجرد قيام هذا البنك ،
ومضيه في طريق النجاح خمسة عشر عاما ، حجة ملموسة تعزز إيمان
المصري بقدرته ، وتبدد ما كان يساوره من الشك في كفايته . فلو لم يكن
لجماعة بنك مصر من الفضل على مواطنيهم غير هذا ، فحسبهم به وكفى »

ووقف المنافس الأكبر لبنك مصر ، السر ادوارد كوك - الانجليزي
الجنسية - محافظ البنك الأهلى ، فشهد شهادة حق وصدق ، لم يستع
الإعلانها أمام ذلك الحشد الذى ضم خيرة رجال مصر وأعلامها . قال :

« أنتم تعلمون خيرا منى ما كانت عليه الأحوال هنا منذ خمسة عشر
عاما ، فيما يتعلق باشتراك المصريين في أعمال البنوك وأعمال الصناعة »
وما هى عليه اليوم . فالفرق بين الاثنين ، هو العمل الذى اجتمعنا اليوم
للاشادة بتمجيده . ولكن ليس هذا كل شيء . ففي بعض الأحيان يقسم
الرجال الى فريقين : أحدهما من أصحاب الاحلام والمهمين والأتبياء ،
والثانى من الرجال العمليين . ويندر جدا أن تتألف مجموعة من هذين
الصنفين معا . ولكن لدينا مثل هذه المجموعة هنا ، في شخص طلعت حرب
باشا الذى بث في عقول الشباب المصرى روح احترام النفس

« لقد شق طلعت حر باشا طريقا جديدا ، وبهذا تسنى له القيام
بإلاده بخدمات عديدة لم يوفق إليها كثيرون . ان المؤسسة التى أمثلها
عليها واجبات وتبعات ، من نوع يختلف بعض الاختلاف ، ولكن في وسعى
انؤكد لولاة الامور في بنك مصر وشركاته ، حسن نيتنا ، بل وصدق
رغبتنا القلبية في التعاون معه ، كل في دائرته ، للعمل في زيادة تقدم البلاد
ورفاهيتها » .

وسيجيء في صفحات قادمة ما يثبت سوء نيته ، وصدق رغبتنا القلبية
في القضاء على بنك مصر ، وعلى طلعت حرب منشئه

نعود الى الاحتفال العظيم

بعد السر ادوارد كوك ، وقف هنرى نوس بك رئيس اتحاد الصناعات
فقال : « ان بنك مصر جدير بالتكريم والثناء اللذين نوجههما اليه اليوم .
فقد وسع الطريق لهذه النهضة ، وحقق الآمال المعلقة عليه ، فكان غلما

مكلا بالنجاح . . فنحن اذن نتنى من صميم القلوب مستقبلا حسنا . وانى باسم اتحاد الصناعات المصرى ، اشرب نخب الممثل العظيم لهذه النهضة ، حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا » .

واقترح عبد المجيد الرمالى - رحمه الله - صعيد التجار المصريين ، أن تقوم الامة بواجبها ، « وما واجبها الا اقامة تمثال لزعيم النهضة الاقتصادية ، يشهد بفضلها ، وينطق بعمله . » ويبعث فى نفوس الامة ، جيلا بعد جيل ، حب العمل لخير الوطن واسعاده » .

واقترح كذلك أن يكون فى كل متجر تاجر ، صورة لهذا الزعيم العظيم « الذى جعله الله هدى للمصريين ، ونورا وطنيا ملأ البلاد ثقة و يقينا ، ورسولا اتخذ له الوطنية العملية ديننا ، وداعيا مصلحا توأصى بالحق وتوأصى بالصبر ، فنصره الله نصرا مبينا » .

انما أتيت بهذه الفقرات من كلمات هؤلاء الخطباء ، الذين كان لكل منهم وزنه بين قبيله وعشيرته ، لذلك : كيف كان كبار القوم ينظرون الى هذا الرجل الفريد فى نوعه ، النادر بين الرجال المخلصين .

فلما طلبت اليه مجلة « المصور » فى عددها الصادر فى ١٧ مايو سنة ١٩٣٥ ، ان يعبر لها عن تأثير هذه الحفلات فى القاهرة وفى الاسكندرية وفى غيرهما من المدن ، بانقضاء الخمسة عشر عاما على تأسيس البنك ، قال لندوبهنا :

« لقد قلنا كثيرا ، بل تكاد أن نكون قد قلنا كل شيء . واذا بقى لذيينا ما نقوله ، فهو الشكر . . شكر الامة كلها حكومة وشعبا ، أفرادا وجماعات ، وضيؤفا كراما على مصر الخالدة . نشكر هؤلاء جميعا على ما أبدؤه من مظاهر الفرح العميق ، ومباهج البشر العظيم ، بمناسبة مرور خمسة عشر عاما على تأسيس بنك مصر .

« وانه لشكر صادق تهتز به أعماق قلوبنا فى تأثر عميق . وانا نسأل الله العلى القدير ، أن يولى بنك مصر السداد والتوفيق ، ليحقق مع شركائه كل ما يستطيعه من آمال المواطنين . . ونرجو فوق هذا أن يرضى الله بتوفيقه جميع المصريين » .

ذهب اليه المرحوم الأستاذ محمود أبو الفتح مندوب جريدة «الاهرام» فى ذلك الأوان ، وصاحب جريدة «المصرى» من عام ١٩٣٦ ، عام انشائها ،

الى عام ١٩٥٤ ، عام مصادرتها وقتلها ، ليحدثه في خير الوسائل لتنمية
الصناعات المصرية ، فكان أهم ما قاله :

« من أساليب ترويج المصنوعات المصرية ، وضع تعريفية جمركية
بكيفية حامية لجميع الصناعات الأهلية ، وبكيفية مانعة استيراد أى
صنف من الأصناف ، عندما تكون صناعة معينة من الصناعات قادرة على
انتاج جميع مقطوعية البلاد من مصنوعاتنا » الأهرام في مارس سنة ١٩٣١ .

وهذا ما لجأ اليه طلعت حرب عندما غزت اليابان السوق المصرية
بمنسوجاتها ، بأسعار رخيصة قللت من رواج منسوجات شركة مصر للنزول
والنسيج ، مع أنها أجود من اليابانية . فإرسل الى وزير المالية - وكان
المرحوم اسماعيل صدقى باشا الى جانب رياسته الوراثة - الاستاذ احمد
نجيب سكرتير بنك التسليف الزراعى ومن أصدقاء البنك ومن خلصاء
صدقى باشا ايضا ، ليبلغه رسالة منه تتضمن استنجداد الحكومة ، فان
انتاج مصانع المحلة في حاجة الى انقاذ ، بعدما غمر الانتاج اليابانى السوق
بأسعار رخيصة .

فسأله صدقى باشا : وماذا تريدون ؟

قال أحمد نجيب : حماية جمركية .

كانت زيارة رسول البنك لوزير المالية في المساء ، ففى الليلة نفسها
دعا الوزير خبراء وزارته المختصين ، ودرسوا الموضوع ، واتفقوا على رفع
الرسوم الجمركية على المنسوجات اليابانية . وبقي الاتفاق سرا ، الى
الصباح ، فأصدر به الوزير قراره وأبلغه في الحال الى مصلحة الجمارك ،
وذلك حتى لا يفيد منه مستغل .

فأرسل اليه طلعت حرب يشكره ، ويعرض عليه - كرد للجميل - أن
يكون عضواً في مجلس ادارة الشركة ، فاعتذر لانه عضو في مجلس ادارة شركة
منافسة هي شركة الغزل الأهلية . فعرض عليه أن يكون عضواً في مجلس
ادارة البنك ، فاعتذر لانه عضو في مجلس ادارة البنك الأهلى ، فألح عليه
طلعت في طلب أى خدمة يؤديها له ، فقال صدقى :

- اذا كان لا بد منها ، فوظف لى ، ابراهيم سيد أحمد ، من أقرباء
صدقى باشا ، في الوظيفة التى تراها مناسبة له .

فعينه طلعت ، مديرا لشركة مصر للسياحة ، فلم ينجح ، فعزله ،
وأرسل الى صدقى باشا ليرشح له غيره ، فرشح له زوج ابنته ابراهيم
رشيد ، وكان شابا ذكيا طموحا ، رحمه الله .

ومع رفع الرسوم الجمركية المصرية على المنسوجات اليابانية ، ظلت تتدفق على الأسواق ، غير مبالية بهذا الاجراء الحاسم الجديد ، وأفضى المسيو « يواتيه » رئيس المعهد التجارى اليابانى بالقاهرة بحديث الى مندوب مجلة « روز اليوسف » فى ١٥ مارس سنة ١٩٣٥ ، قال فيه : « ان اليابان لا تنافس المصنوعات المصرية ولا الانجليزية ، بل تعطى الفقراء حاجاتهم بأثمان رخيصة »

فذهب المندوب الى طلعت باشا يساله رايه فى هذا . قال المندوب :
- « فقطب الباشا وجهه ، ولملت مقلته ببريق الذكاء الخارق الذى لا يبرح محدثه يلمحه فى عينيه ، وفى وجهه المهيب ، وقال وهو يتميز من الغيظ :

- « ان فقراء المصريين الذين يتمسح بهم كل من لا يمت اليهم بسبب ، او تربطهم به صلة نسب ، يستجيرون بالانسانية من هذا الادعاء

« ان الفقير المصرى ، هو عمود الأمة الفقرى ، وعنصرها الأهم . وقد حفزتنا الانسانية الصادقة والوطنية الصحيحة ، لحمايته والدود عنه ، لأن المصرى اولى برعاية أخيه المصرى . فاذا قال غير المصريين : نحن نعطي الفقراء حاجاتهم بأثمان رخيصة ، كان جوابنا على دعواهم : أرونا ماذا تقدمون للفقير ؟

« انتم تقدمون له القماش المصنوع من الخامات الواطئة الرديئة المنخفضة الثمن ، وتنسجونها بأيدى عمال مكودودين لا يتقاضون شيئا يمكن ان يعتبر اجرا ، حتى لقد قيل فى صدد وفرة اليد العاملة فى اليابان ورخصها ، ان الآباء يبيعون لأصحاب المصانع فلذات أكبادهم ، ليستخدموهم لئزنا معلوما ، لقاء جبات من الارز لا تقيم الأود ولا تحفظ الرمق ، لهذا تخرج المصنوعات من غير ان تتكلف شيئا يذكر ، يستحق ان يحسب له حساب

« هذا فضلا عن ان حكومة اليابان ، لا تبرح تتعهد مصانع بلادها بمختلف أساليب المعونة ، كخفضها العملة الى ما دون ربع قيمتها الأصلية ، ومدتها بالمساعدات المالية العظيمة ، التى لا تقتصر الغاية المقصودة من بدلها على مجرد تشجيع الصناعات الأهلية ، بل ترمى الى قتل الصناعات فى البلدان الأخرى

« أما مصانع الشركات المصرية ، فهى لسوء الحظ ، أو قل لحسنه ، محظور عليها استعباد الأولاد فى مصانعها ، وهى لا ترضى ان تستخدم غير

القطن المصرى فى منتجاتها . أما مساعدة الحكومة اياها ، فمقبوضة على مجرد التشجيع ، وفى حدود ضيقة . ومع ذلك فان ثمن « المقطع » من البفتة اليابانية يبلغ فى السوق نحو ٤٥ قرشا ، بينما يزيد ثمن « المقطع » المصرى على ذلك قروشا معدودة ، وليست هذه الزيادة فى الثمن زيادة حقيقية ، اذا لاحظنا ان « المقطع » المصرى يتحمل ستة اضعاف ما يتحمله « المقطع » اليابانى ، بحيث يوفر « المقطع » الواحد على المستهلك ، شراء « مقاطع » اخرى من الصنف اليابانى

« وآية ذلك ما شاهده وزراء الدولة وعظماؤها بأعينهم يوم زيارتهم القريبة لمصانع شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، من ان القماش اليابانى يبدأ بالتمزق اذا وصل احتماله الى درجة ٧٠ رطلا ، بينما لا يتمزق قماشنا المصرى الا بعد ان اتصل درجة احتماله ٤٢٠ رطلا . آى أن اليابان اذا قصدت حقا ان ترعى مصلحة الفقير المصرى ، كان لزاما عليها أن تعطيه ستة « مقاطع » من بفتتها ، بثمان ثوب واحد من بفتة المحلة ، ولكنها تتقاضى منه ٢٧٠ قرشا ثمنا لبضاعة نبيعها نحن له بخمسين قرشا أو بخمسة وخمسين قرشا . فآينا يرعى الفقير ويحرص على راحته واسعاده ؟

« ومن العجيب ان جناب مدير المعهد التجارى اليابانى ، يدفع بمفالمته هذه تحت ستار الوعظ والارشاد ، فيقول : على المصريين أن يعملوا على خفض ائمان بضائهم بتقليل تكاليف انتاجها ، قبل ان يحاربوا المصنوعات اليابانية الرخيصة ، ويكلفوا الفلاح والعامل والطبقات الفقيرة ، ما لا طاقة لهم بانفاقه ، فى سبيل شراء ضرورات حياتهم ، مما قد يؤدى الى هبوط مستوى المعيشة بينهم

« فهذا الوعظ للمصريين ، والعطف على الطبقات الفقيرة ، كلام له خبىء ودهان على وبر ، لا يستحق أن يلتفت اليه .

« ان الضريبة الآن هى ١٢ قرشا على « المقطع » اليابانى ، وينبغى أن ترفع الى ٢٥ قرشا على الأقل . فاذا رفعت الى هذا الحد ، أمكننا أن نبيع « مقطعا » بخمسة وخمسين قرشا أو بستين قرشا ، ويكون الفرق بين ما سيباع به « المقطع » المصرى ، بعد رفع الرسوم الجمركية ، وما يباع به « المقطع » اليابانى الآن ، نحو ١٥ قرشا ، « يفرق » على الفلاح قرشين فى الجلاية ، وهو فرق لا يذكر ، يوفره عن طريق عدم احتياجه لشراء جلاية كل شهر ، ويقتصد بذلك مبلغا يذكر ، فتزيد قدرته الشرائية ، ويعوض الحكومة الفرق البسيط الذى ستخسره من نقص الوارد

من اليابان ، عن طريق اقباله على ركوب سكة الحديد ، وارساله
الخطابات ، وغير ذلك من وسائل الايراد

« وليس يخيف مصر وعيد اليابان بالامتناع عن شراء قطنها العجيب
المنقطع النظير . ونحن نرد على اندار مدير المعهد الياباني ، بنفس العبارة
التي قالها في معرض الكلام عن تهديد الانجليز ايانا باستخدام قطن غير
مصرى وهى : ان الانجليز لا يستطيعون بحال الاستغناء عن القطن المصرى ،
الا اذا غيروا ادوات مصانعهم ، وهذا غير مستطاع . وليس للانجليز فضل في
استيراد قطنكم ، بدليل انهم اذا وجدوا قطنا يحل محله ، ما تأخروا لحظة
في استخدامه

« ونحن نسأل جنابه : هل لليابان فضل في استيراد قطننا ؟ وهل
تستمر على شرائه اذا وجدت قطنا في مثل جودته بثمن أرخص من ثمنه ؟
« انما يشتري اليابانيون قطننا ، لأنه بثمن القطن الاميركى الرديء »
قال مندوب « ورزاليوسف » : وهنا اعتدل الباشا في جلسته ، وقال
جادا غاية الجد :

- « ان في عنق المصريين جميعا لفرضا حتما يدومهم دعوة الحق :
ان هلموا افتحوا الطريق واسعا ممهدا معبدا لازدهار الصناعات المصرية ،
بالاقبال على منتجات بلادكم ، لكى تصونوا ثروتكم . ان ابناءكم لن يجدوا
دواء للعطلة الا في دور الصناعة . ومصالحتنا الذاتية قبل عاطفتنا الوطنية ،
تحتم علينا تشجيع الصناعات المصرية ، اذا كان لنا كيان نخشى عليه التلف ،
ووطن ندود عنه صادقين ، ونجاهد في سبيل مستقبله صادقين . ان علينا
جميعا ، شبانا وشيبا ، ورجالا ونساء ، ان نرفع علم الوطن ، ونجعل
مصلحة مصر أولا وقبل كل شيء ، وفوق كل اعتبار ، كما تفعل اليابان »
ارابت الى الرجل كيف يدفع بحرارة عن مصنوعات وطنه ؟

لقد استجابت الحكومة الى ما رأى ، فرفعت الرسوم الجمركية على
المنسوجات اليابانية ، وتألقت جمعيات وجماعات نادى الى نبد كل ما هو
غير مصرى من المنسوجات انجليزية كان او يابانيا ، ونجحت الدعوة ، وبارت
هذه البضاعة الدخيلة الرديئة في الأسواق

في اواخر ابريل سنة ١٩٣١ ، ذهب اليه محرر مجلة « الهلال »
ليساله عن سبب نجاحه ، ثم نشر في عدد المجلة ، الذى صدر في اول مايو ،
ما دار بينهما ، فقال :

طلعت باشا : خير ان شاء الله

انا : جئت استطلع رأيكم في اهم العوامل التي يعزى اليها نجاحكم في الحياة ..

فلم يجب بكلمة ، وتناول قلما من الرصاص ، وكتب شيئا في مذكرة امامه ، فأخرجت من جيبى ورقة وقلما ، وتهيأت لتدوين ما عساه ان يدلى به الى

فقال : ماذا تهتم ان تكتبه ؟

قلت : ما تفضلون به على ..

فقال : اترك لى وقتنا افكر فيه . وانى اعدك بان اكتب جوابى بنفسى فاستعجلته وقت تسلم رده ، فانظرنى الى اجل قريب وها هو ما اوصانى ان انشره على الملا بحروفه :

- « هذا سؤال تصعب الاجابة عنه لرجل من رجال الاعمال ، منصرفه جميع قواه الى انجاح الأعمال التي يقوم بها ، فهو يعمل ليصل الى النجاح ، دون ان يفكر في سر النجاح . ويقوم بالواجب عليه صباح مساء ، ويتصرف في الأمور التي تعرض عليه ، بما يعتقد انه في صالح العمل الذي ينصرف اليه ، ومع هذا فاني احاول ان انتزع نفسى من وسط مشاغلي ، واخرج الى التفكير في الاجابة عن سؤالكم :

« اول ما يتبادر الى الذهن هو انكم تقصدون بسؤالكم نجاح بنك مصر

» وجوابا عنه اقول : ان معظم السر في نجاح بنك مصر ، يرجع الى ان الدعوة الى تأسيسه ، لم تقم على فكرة المصلحة لشخص أو اشخاص معينين ، بل قامت على فكرة عامة ، تقضى بتأسيس بنك مصر ، بمساهمين مصريين ، وبرؤوس اموال مصرية ، وبادارة مصرية محضة

« فلو ان الدعوة الى تأسيس بنك مصر قامت لمصلحة أفراد معينين ، لاحتل ان يقوم البنك ، ولكنه كان يقوم باعتبار انه بنك « شخصى » لهؤلاء الأفراد ، وكان يعيش ما عاش هؤلاء الأفراد متفقين . أما وبنك مصر قد تأسس على أن يساهم فيه المصريون بدون تمييز ، فقد عاش ويعيش بمشيئة الله تعالى وحراسته الصمدانية ، بنكا للجميع ، وبنكا قوميا بمعنى الكلمة ، بصرف النظر عن اشخاص القائمين بادارته أو المشتركين في أسهمه ، فان القائمين بلدارته أفراد أعمارهم محدودة بأعمار الفرد ، والمساهمون

مصريون ، قد يكونون مساهمين اليوم ، ثم يكون غيرهم مساهمين بدلهم ، في حياتهم أو بعدا طول عمرهم ، ويبقى مع هذا بنك مصر عملا قوميا قائما لمصلحة البلد ، ولصحة المصريين أجمعين

« فالصفة القومية التي بنى عليها البنك ، لا الصفة الشخصية ، هي سر النجاح المطرد في أعماله ، وسر تعلق المصريين ، وحرصهم عليه ، واقبالهم على معاملته وتأييده تمام التأييد

« ولهذا ، فاني أحب أن يفهم المصريون دائما ، ان بنك مصر عمل قومي صالح في ذاته ، بصرف النظر عن أشخاص القئمين به ، وأن نجاح هذا العمل هو المقصود بالذات أيضا . فالأشخاص زائلون ، والعمل الصالح باقيا ما بقي في الامة شعور بالحياة وستلزماتها الانشائية والدفاعية .

« والله الذي وفق الجميع الى النجاح الذي بلغه البنك حتى الآن ، يزيدهم توفيقا لابلأغ هذا العمل القومي النافع أقصى درجات النجاح »

لقد دعى طلعت حرب الى الحجاز ، دماه المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود ، ليقترح ما يرى في الاقتصاد السعودي . ويومها أدخل النور في مدينة « منى » بدينامو ، عندما رآها غارقة في الظلام ، وكانت لم تعرف الكهرباء بعد ، وأرسل بعثة من الخبراء - بعد عودته الى القاهرة - اقترحت انشاء مذبضة لجلود الدبائح التي تذهب هدرا يوم النحر . . . وهذا ما يفكرون فيه الآن في المملكة العربية السعودية .

ودعاه يسن الهاشمي باشا رئيس وزراء العراق لزيارة بغداد ، لدرس مشروع انشاء بنك وطني عراقي ، فلم يجد الوقت مناسباً يومذاك لهذا الانشاء .

وقبل أن أن أمضى في الحديث عن شخصه وما اشتهر به ، اسجل هنا بيانا بأسماء الشركات التي أنشأها ، قبل رحيله الى لقاء ربه :

● في سنة ١٩٢٢ أسس شركة مطبعة مصر برأس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، وزيد فأصبح خمسين ألفا ، بعد اثنين وعشرين شهرا من تأسيس البنك .

● في سنة ١٩٢٤ أسس شركة مصر لحلج الأقطان برأس مال قدره ثلاثون ألف جنيه ، زيد فأصبح ٢٥٠ ألفا .

● في سنة ١٩٢٥ أسس شركة مصر للنقل والملاحة برأس مال قدره أربعون ألف جنيه ، زيد فأصبح ١٥٠ ألفا .

- في سنة ١٩٢٥ أسس شركة مصر للتمثيل والسينما برأس مال قدره خمسة عشر ألف جنيه ، زيد فأصبح ٧٥ ألفا .
- في سنة ١٩٢٦ عمل على تمصير الشركة العقارية المصرية لتنمية زراعة قصب السكر بصفة خاصة ، واقتضى هذا التمصير تعديلا في الأغراض التي تؤديها .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر لنسج الحرير برأس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٢٥ ألفا .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر للفول والنسج بالمحلة الكبرى برأس مال قدره ثلثمائة ألف جنيه ، زيد فأصبح مليوناً ، عدا سندات أصلتها الشركة على ثلاث دفعات تبلغ قيمتها مليوناً آخر من الجنيهات تستهلك في كل عام .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر لمصايد الأسماك برأس مال قدره عشرون ألف جنيه ، زيد فأصبح ٧٥ ألفا .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر للكتان برأس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، زيد الى ٤٥ ألفا .
- في سنة ١٩٣٠ أسس شركة مصر لتصدير الاقطان برأس مال قدره مائة وعشرون ألف جنيه ، زيد فأصبح ١٦٠ ألفا .
- في سنة ١٩٣٢ أسس شركة مصر للطيران برأس مال قدره عشرون ألف جنيه زيد الى ٨٠ ألفا .
- في سنة ١٩٣٢ أسس شركة بيع المصنوعات المصرية برأس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٨٠ ألفا .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للتأمين برأس مال قدره مائتا ألف جنيه .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للملاحة البحرية برأس مال قدره مائة ألف جنيه ، زيد فأصبح ٢٠٠ ألف .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للسياحة برأس مال قدره سبعة آلاف جنيه .
- في سنة ١٩٣٤ أسس الشركة المصرية لدباغة وصناعة الجلود برأس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٥٠ ألفا .

● في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر للفلز والنسج الرفيع بكفر الدوار برأس مال قدره مائتان وخمسون ألف جنيه ، زيد فأصبح نصف مليون .

● في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر للمناجم والمحاجر برأس مال قدره أربعون ألف جنيه .

● في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت برأس مال قدره ثلاثون ألف جنيه .

وقد كانت وسيلته في انشاء هذه الشركات العديدة التي أسسها في هذه المدة القصيرة - من ١٩٢٠ الى ١٩٣٨ - أن يقتطع من أرباح البنك السنوية جزءا محدودا يظهر في ميزانية كل عام تحت باب « مال مخصص لتأسيس أو تنمية شركات مصرية صناعية وتجارية » يساهم به في رأس مال الشركة بمقدار يكفل له الاشراف على سياستها ، ويسهم المواطنون في الباقي . وقد ذكر هذا في تقريره السنوي الى الجمعية العمومية العادية للبنك في ديسمبر من عام ١٩٢٣ ، قال : « ان البنك رأى درس ما يفكر فيه أو يقدم اليه من المشروعات النافعة ، وتأسيس شركات بما يستطيع القيام به منها ، بالاشتراك مع الفيورين من مواطنيه الذين يرضون أن يقرضوا بلادهم قرضا حسنا ، ولا يتعجلوا الثمرة ، وما يكتب به البنك يؤخذ من أرباحه بتخصيص مال خاص لذلك يستقطع سنويا من أرباح كل سنة حسب نيتها . وهذا هو أحسن خدمة تقدم للبلاد ، حتى اذا نجحت هذه المشروعات - وهي بعون الله ناجحة - تقدم بها الى الجمهور لبيئاع سهامها » ولعله من المعين ان أسجل هنا انه ، رحمة الله ، حينما تحدث في خطبته في يوم الاحتفال بانقضاء خمسة عشر عاما على انشاء البنك ، أوضح لمستمعيه « الحلقات » التي ربطت هذه الشركات ببعضها بعضا فقال :

- « لعلكم لاحظتم ونحن نسردهم لكم شركات مصر ، ان هذه الشركات تكون « حلقات » متصلا بعضها ببعض ، دون أن يكون تأسيسها اعتبارا » فالمطبعة والمكتبة والشركة المصرية المساهمة لصناعة الورق - وفي النية انشاؤها - حلقة .

« وللقطن حلقة تتمثل في الحلج والنقل والتصدير والتأمين والفلز والنسيج .

« ويتصل بحلقة القطن أيضا حلقات الحرير والكتان .

« ومن النقل تكونت حلقة بين النقل في النهر ، والنقل في البحر ، والنقل في الجو ، كما اتصل بهذه الحلقة ، مسألة السياحة

» ومن اتصّلنا بالبحر ، نشأت حلقة أخرى ، هي « حلقة السمك » ، وما خرج منها من صناعة أزرار الصدف

» ثم الحلقة التي تربط جميع الحلقات ، وتدفع عنها كل ما تم اذاعته ، ونعنى بها حلقة السينما والدعاية بها .

» ثم ان لهذه الشركات التي مر ذكرها ، منتجات طيبة ، يصح ، بل يجب ان تكون في متناول جميع المصريين وغيرهم ، ففكر بعض كبار المصريين في ذلك ، وانفقت كلمتهم على تأسيس شركة بيع المصنوعات المصرية .

» وقد نجحت هذه الشركة بفضلها تعالى ، وتوالى انشاء فروعها بالأقاليم مما دل على أن منتجات مصر ، قد حظيت في السوق بالاقبال الشديد .

نعم ، ان بعض هذه الشركات قد تعثر وسقط في الطريق ، ولكن الباقي منها ، مما تفخر به مصر وتباهى ، وفي مقدمتها شركة عصر للفزل والنسيج بالملحة الكبرى ، وشركة مصر لنسيج الحرير بكفر الدوار ، فان انتاجهما ينافس كثيرا من الانتاج الغربي ، كالسويسرى والفرنسى والىطالى واليابانى .

لقد كان بنك مصر هو الرائد الاول في مصر في مجال التصنيع بما انشده . من مصانع وشركات لصناعات شتى . وما أتمه في خلال العشرين عاما الاولى من حياته ، يعد من المنجزات الاقتصادية القريبة من الخيال ، بل كان انشاء البنك نفسه خطوة عملية في تمصير الجهاز المصرفى الذى لم يتم الا بالقانون رقم ٢٢ الصادر في ١٤ يناير سنة ١٩٥٧ ، وقد بدأ بتمصير البنك الاهلى .

ولقد أخذ بعضهم على طلعت حرب ، هذا الاكثار من الشركات ، فرد عليهم بقوله :

« قد يكون هناك بعض الذين يخشون هذه السرعة التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته . ولكن أمثال هؤلاء لا يلبثون أن يقتنعوا بان استمرار تطفل الأمة على موائد غيرها ، يعرض كرامتها للتجريح » .

فالرجل ، كان همه الأول ، أمته وعزها ومجدها ، حتى تصبح دولة راقية تأخذ مكانها في صف الدول الراقية الاخـرى ، غير ناظر الى مجد شخصى ، او ان يتحدث عنه الناس في مجالسهم وعن مشروعاته . . . ابدأ ، لقد ظل السنوات الخمس الاولى يعمل لوجه الله ، لم يقبض راتبا ، وكان

معتزما السير في طريقه القريب هذا ، لولا أن المساهمين في اجتماع جمعيتهم العمومية العادي لسنتهم السادسة ، أرغموه على أن يحدد لنفسه راتبا ، فنزل على رغبتهم ، وترك لمجلس الإدارة تحديد هذا الراتب .

الرجل الذي ينزل لفلاحيه عن أرضه ، فيبيعها لهم بأقساط يسيرة حتى يشعروا بالأمان والطمأنينة ، وحتى يخلصوا في فلاحه الأرض لخيرهم ولخير أولادهم ، لا ينظر الى مجد شخصي ، إنما هو ينظر الى الخير ، ذكرا الله في كل ما يعمل ويقدم عليه .

هذا الرجل الذي قرأت سيرته الحافلة هذه في الصفحات السابقة ، أجهاته الوزارة في عام ١٩٣٩ التي تنازل عن عرش هذه المملكة التي أسسها وتعب في تشييدها . . ففي ٢ سبتمبر من ذلك العام أعلنت الحرب العالمية الثانية، فتولى الناس الفزع والهلع ، وهرعوا الى البنوك ، ومنها بنك مصر ، يسحبون ودائعهم ومدخراتهم ، وهم في حالة من الخوف لم يعودوا يذكرن معها الا أموالهم التي أودعوها هذه البنوك .

ولم يستطع بنك مصر أن يعيد الى بعضهم مدخراته ، لسبب هام ، كان حلقة من سلسلة مؤامرة ، استهدفت القضاء على طلعت حرب ، وعلى البنك معا ، ومع الأسف كانت وزارة المالية في الحكومة القائمة يوفداك شريكة في هذه المؤامرة الاستعمارية . ذلك أنها أوعزت الى صندوق توفير البريد الحكومي بسحب أمواله من البنك ، وأن يركز سحبه على هذا البنك وحده ، دون البنوك الأخرى ، وله فيها أموال وودائع تزيد اضعافا مضاعفة على ما لدى بنك مصر . ثم سحبت الحكومة أيضا جميع وداائعها من البنك ، فوقف عاجزا أمام هذا الحصار الذي ضيق عليه ، فشدد عليه الخناق . فلم يجد بدا من طلب الاقتراض من البنك الأهلي « المصري » ، مقدما ضمانات للقرض تعد من أقوى ما يمكن تقديمه في مثل هذه الحالة ، وفي مثل ذلك الأوان، وهو محفظته التي تضم سندات من الدين الموحد والممتاز ، وأوراقا مالية أخرى هامة، منها أوراق شركات البنك . . فرفض محافظ البنك الأهلي « المصري » الانجليزي الجنسية ، طلب القرض بشدة وكبرياء ، وكان رفضه هذا ، عملا سلبيا غير مشرف ، مخالفا لاسط قواعد ومبادئ العرف المصرفي . ولم يستغرب هذا الرفض من الرجل ، فهو ينفذ سياسة استعمارية مهيمنة على سياسته المالية ، وهي سياسة سداها ولحمتها القضاء على كل عمل مصري ناهض وناجح .

لما الذى يستغرب حقا ، فهو ان تقف الحكومة القائمة يومها ووزير ماليتها موقفاً أنكى وأشد من موقف الرجل الانجليزى . فقد رفض الوزير وقف سحب ودائع وأموال صندوق توفير البريد ، أو ضمان الحكومة لودائع الاهلين وادخراتهم لدى البنك .

لقد حمل الرجل العظيم نفسه وذهب الى وزير المالية حسين سرى باشا (١) فقال له ا

— « اننا لا نرجو من الحكومة الا واحدا من ثلاثة امور : اما ان تصدر بياناً ينشر فى الصحف ب ضمانها لودائع الناس لدى البنك ، أو ان تحمل البنك الاهلى على ان يقرضنا مقابل « المحفظة » كضمان للقرض ، أو ان تأمر بوقف سحب ودائع صندوق توفير البريد .

قال سرى باشا : بشرط واحد . .

فسأله طلعت باشا بلهفة : وما هو ؟

قال سرى باشا : ان تترك البنك . . .

قال طلعت باشا على الفور : من الآن ، ما دام فى تركى حياة للبنك ، فلاذهب أنا ، وليعيش البنك .

ثم قال سرى باشا بلهجة التقريع : مصانع المحلة الكبرى ، اى ضرورة حلجة العجات الى اقامتها ، وتنفق على تشييدها هذا المال الطائل ؟

فقال طلعت باشا متهمكاً وساخراً ومؤدباً : تندد الآن بمصاع المحلة ، وقد كنت تعمل مستشاراً هندسياً لها بستمائة جنيه فى السنة ؟ لماذا قبلت العمل بها ما دامت فى نظرك قد قامت فى غير ضرورة ؟

ثم وقف وتنهياً للانصراف ، بعد أن زاد فى تقرير الوزير سرى باشا ،
قائلاً :

(١) ذكر الدكتور محمود متولى فى كتابه « الاصول التاريخية للراسمالية المعربة وتطورها ، وفى الصفحة ٤٠ منه ان طلعت حرب ذهب الى وزير المالية عبد الحميد سليمان باشا . والصحيح ان وزيرها كان حسين سرى باشا ، لان وزارة على ماهر باشا التى كان سرى باشا وزيراً للمالية ليها ، الفت فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ واستقلت فى ٢٣ يونيو سنة ١٩٤٠ ، فخلقتها وزارة حسين صبرى باشا من ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٠ الى ١٤ نوفمبر من السنة نفسها ، وفيها كان عبد الحميد سليمان باشا وزيراً للمالية .

ومقابلة طلعت حرب باشا لوزير المالية ، كانت فى سبتمبر سنة ١٩٢٩ ، اى حينما كان سرى باشا وزيراً لها فى وزارة على ماهر باشا

— يا حسين باشا ، أنت ما تزال صغيرا ، وعندما تتقدم بك السن ،
وتكبر ، وتكبر مصانع المحلة ، ستعرف قيمتها .

وأدار ظهره لمحدثه السقيم ، وانصرف دون أن يجيبه .

« فلأذهب أنا وليعيش البنك » ، كلام لا يقوله الا طلعت حرب ، فالبنك
هو حياته ، وبحياته يحيا . هو قلبه الذى يعيش به ، ما دام ينبض ويسمع
دقاته منتظمة لا اضطراب فيها ولا اختلال . . انه كل شيء فى دنياه ، هذا
الصرح الذى شيده ، عز عليه أن يتهدم ، فقدم نفه قربانا ليعيش . .

فما أعظم الرجل ! وما أعظم ما صنع !

كان هذا الحوار المؤسف ، قبل ظهر يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، أى
بعد أقل من اسبوعين من نشوب الحرب ، ذهب الرجل بعده الى مكتبه فى
البنك ، ودعا أعضاء مجلس الإدارة الى اجتماع « عاجل وهام » ، فهرع
الاعضاء وهم لا يعلمون من الامر شيئا . . واذا بهم يفتاجون به يقدم اليهم
استقالته ، بعد ما روى لهم ما جرى للبنك منذ بدء أزمة سحب المدخرات ،
ثم محاولته انقاذ الموقف مع وزير المالية ، فذهبت المحاولة فى الهواء . .
فحاولوا ان يشنوه عن عزمه ، فأبى . . وغادر قاعة الاجتماع ، وفى اعينهم
دموع ناطقة بالحسرة والأسى ، على تنازل الملك عن عرشه هكذا ببساطة تامة ،
مؤثرا حياة البنك على حياته . . ووصل الرجل الى داره ، راضيا عن نفسه
وعما صنع .

كانت هناك فئة حاقدة على طلعت حرب لأسباب خاصة لم تندها
الا بعد رحيله ، اهمها انه كان يعمل دائما على كشف تلاعبها بأسواق
الشعب ، ومبادؤه فى جوهرها تتعارض — وبشدة — مع مبادئ السيطرة
والاستغلال التى كانت هذه الفئة تسعى الى دعمها . هذا من ناحية ،
ومن ناحية اخرى كان الاستعمار يحس بخطورة اتجاه بنك مصر نحو
تصنيع البلاد ، وما يترتب على هذا من تحرير مصر اقتصاديا ، وازدياد
قوتها فى الوقوف امام رغباته وأهوائه ، ومن ناحية ثالثة كان هناك عملاء
الانجليز من الحكومات التابعة للدين يستمدون وجودهم ولساطنتهم من
اتطوائهم تحت جناح الاستعمار ، وقد كان هؤلاء يقومون بتنفيذ رغبات
سادتهم الانجليز دون وازع من ضمير ، أو صحوة تدعوهم الى النظر بعين
الاعتبار الى صالح الاقتصاد القومى (١)

(١) « التطور الاقتصادى فى مصر » للاستاذ محمد رشدى رئيس مجلس ادارة بنك مصر

السابق رحمه الله - ج - ٢ - ص ٤٦ .

ولا انسى هنا ان اذكر ان المرحوم الأستاذ محمد رشدي حينما كان
مديرا للبنك ، وقبل ان يرأس مجلس ادارته ، في سنة ١٩٤٩ ، ألقى محاضرة
في عاىه ايوارت التذكارية بدار الجامعة الأميركية بالقاهرة ، عن بنك مصر ،
كشفت فيها عن السر الرهيب في هذه الازمة المفتعلة التي دبرت للبنك ولمنشئه ،
فاذا به عمل وطنى جليل اراد طلعت حرب أن يقوم البنك به ، فتصدى
له البنك الاهلى ومحافظه الانجليزى ، بعون - مع الأسف الشديد - من
الحاكم المصرى . اما ذلك العمل الوطنى الجليل الذى اراده ، فهو ان
يتولى بنك مصر طبع اوراق النقد المصرى ، بدلا من البنك الاهلى المصرى
اسما الانجليزى فعلا .

اعود الى رجلنا العظيم لاقول انه بعد استقالته ، بدأت التحقيقات في
سير اعمال البنك في اثناء تولية ادارته ، فاذا به سجل مشرف له . وظلت
التحقيقات الى اوائل عام ١٩٤١ ، اذ عرض موضوع دعم البنك على البرلمان
بمجلسيه - الشيوخ والنواب - في هيئة مؤتمر ، فعقد خمس جلسات
سرية في ٢٨ مايو و٢ و٣ و٤ و ٩ يونيو من العام نفسه . وبعد مناقشات
عقيمة ، صدر قانون الدعم ، وهو المعروف بقانون رقم ٤ لسنة ١٩٤١
ووضع مشروعه وزير المالية اذ ذاك المرحوم الدكتور عبد الحميد بدرى .
ياشا ، وقد جاء في مستهله :

« نحن فاروق الاول ملك مصر

» قرر مجلس الشيوخ ومجلس النواب القانون الاينى نصه ، وقد
صدقنا عليه واصدرناه :

« المادة الاولى : عملا على اداء كفالة الحكومة لاصحاب الودائع بينك
مصر ، تنفيذا لقرار البرلمان في ٢٨ مارس سنة ١٩٤٠ ، وعلى تحقيق
الافراض التى رسمها القرار المذكور ، يؤذن للحكومة أن تاخذ من الاحتياطى
العام :

(١) مبلغ ١٠١٦٦٤٠١٠٠ جنيها ، وواردا في الاحتياطى المحبوس باسم
« اموال مخصصة للسلف الصناعية وسلف الجمعيات التعاونية ، ويخصص
لالغاء البند الوارد بنفس الاسم وببنفس المبلغ في خصوم بنك مصر ، وذلك
في حسابه الختامى عن السنة التى انتهت في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ .

(ب) سندات من دين مصر الموحد والممتاز قيمتها الحقيقية ٧٧٩ر٥٥٠١٠٠
جنيها ، تحول لحساب توفير البريد ، لالغاء مبلغ معادل من بند وارد في

خصوم بنك مصر باسم « صندوق توفير البريد » ، وذلك في حسابه الختامى .
عن السنة التى انتهت فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ .

« ويتولى البنك لحساب الحكومة ادارة بنود الرصيد التى كانت سببا
فى الغاء ديونها ، وتقسيم بين الحكومة والبنك ، المبالغ التى يتم تحصيلها
من البنود المذكورة ، زادة على التقدير الذى قدرت به فى الميزانية التى
أهتمت اساسا لهذه التسوية ، بقدر ثلاثة الارباع للحكومة ، والرابع
للبنك .

« المادة الثانية » علاوة على اعادة تنظيم بنك مصر وفقا لقرار ٢٨
مارس سنة ١٩٤٠ المتقدم ذكره ، تتخذ الاجراءات الاتى بيانها ، ويعدل
طبقا لذلك نظام شركات بنك مصر ، وشركات مصر التابعة له :

١ - يظل رأس مال البنك بقيمته الأصلية ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ر.ا. جنيه .
٢ - تنشأ ألف حصة تأسيس لا تحدد لها قيمة ، وتسلم الى الحكومة ،
على أن تكون ملكا خاصا لها ، مقابل تدخلها المالى لتعزيد البنك ، ويجوز
بالاتفاق بين الحكومة والبنك ، أن تقسم الحصة الى عشرة اجزاء ، على
الا تباع هذه الحصص الا للمصريين .

٣ - يعين مندوب للحكومة لدى البنك ، تكون اختصاصاته بوجه عام ،
مراقبة تنفيذ أحكام هذا القانون ، والقرارات والترتيبات التى تتخذ
تنفيذا له ولنظام البنك .

٤ - يعرض انتداب مجلس ادارة البنك لعضو أو اكثر من أعضائه ،
طلبت فى المسائل التى يعينها ، على مجلس الوزراء للتصديق عليه .
ومن الشروط التى فرضتها الحكومة على البنك لعلاج أزمة ما كانت
تحدث لو أنها لم تشترك مع الاستعمار فى احداثها :

١ - تصفية ما تجمع لدى البنك من اراض وعقارات .
٢ - عدم قيام البنك بمنشآت جديدة فى المستقبل ، وعدم التوسع
فى المنشآت القائمة ، والعمل على ضم المتجانس منها بعضنه الى بعض ،
أو الى شركات اخرى من نوعها ، وتصفية مالا أمل فى نجاحه منها .
٣ - انتخاب خبراء محاسبين معروفين مصرح لهم بالاستغلال بالمحاسبة
لرأجة حسابات البنك وشركائه .

ومن العجيب والغريب معا ، أن يكون هؤلاء المحاسبون ، من الإنجليز ، من موظفي البنك الاهلى ، وبرئاسة محافظه السر ادوارد كوك ، عدو بنك مصر وعدو طلعت حرب من قبل . لقد وضعوا تقريرهم زاعمين فيه أن هناك ٦٢٥٠٢٨ ر٢٥٠ جنيها خسائر محققة في ميزانية البنك حتى نهاية سنة ١٩٤٠ . واقترحت تكوين احتياطي يشمل هذه الخسارة ، وخسارة اخرى محتملة ، مقدارها ٣٥٠٦٥٠٩٥٦ ر٢٥٠ جنيها ، هو المبلغ الباقى من الاحتياطي الذى اقترحوه وقدره ٤٨٤ ر١٩١١ ر٢٥٠ جنيها .

انا لست بصدد نفي هذا الزعم المفترى على البنك ، وعلى ادارته في عهد طلعت حرب ، لتشويهه وتلطيف سمعته بالسوء ، ولا بصدد تسجيل ان البنك وزع ارباحا على المساهمين بعد سنتين من هذا الدعم ، ولا بصدد تقرير ان بنك مصر كان هو البنك الوحيد في العالم الذى بلغ احتياطيه في عام ١٩٥٠ سنة أمثال رأس ماله ، كما جاء في نشرة البنوك الرسمية العالمية الصادرة في تلك السنة ، أى ستة ملايين جنيه ، فقد كان رأس ماله مليون جنيه ، فرفع البنك رأس ماله الى مليونين ، حتى لا يكون المفرد العلم في هذه الزرية الفريدة التى حققها وحده ، بفضل القواعد التى ارساها في ادارته طلعت حرب ، لكنى مثبت هنا فقرات من محاضرة القاها الدكتور حافظ عفيفى باشا ، خليفة طلعت حرب في ادارة البنك عقب صدور قانون الدعم ، في ٢٤ يوليو سنة ١٩٤١ ، قال :

... لست أريد أن أطيل القول في مدى الأثر الذى أحدثه انشاء بنك مصر ومؤسساته في البلاد ، فيكفى ان اشير باختصار الى الحقائق التالية:

١ - ان هذه المؤسسة قامت منذ انشائها بمهمة تعليمية كان لها شأن كبير في حياة البلاد التجارية والمالية والاقتصادية ، اذ قد اتاحت الفرصة لآلاف الشبان المتعلمين ، وعشرات الألوف من العمال ، للتدريب بطريقة عملية ، على أعمال جديدة لم يألّفوها من قبل

٢ - ان عدد موظفي البنك وشركائه يبلغ نحو ثلاثة آلاف موظف مصرى ، وأن عدد العمال في هذه الشركات يبلغ اثنين وثلاثين ألفا عامل . وعلى ذلك تعمل هذه المؤسسات أكثر من ٣٥ ألفا يتناولون مرتبات سنوية تزيد على المليون من الجنيهات .

٣ - ان البنك قد ساعد مساعدا قيمة على تحسين ميزان مصر التجارى ، بما أسسه من منشآت صناعية ، تنتج مصنوعات كانت تستورد كلها من الخارج

٤ - ان مقدار ما يدفعه بنك مصر وشركائه الى الحكومة من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، ومن الرسوم الجمركية وغيرها ، لا تقل قيمته عن ٤٠٠ ل ف جنيه سنويا (١) .

هل كان حسين سرى باشا حينما نفع أوداجه ، وطلب الى طلعت حرب ان يتنحى عن البنك كشرط لدعمه ، على صواب فيما دبر وفيما صنع لا

الرد على هذا كامن في خطاب القاه الدكتور حافظ عفيفى باشا أيضا في ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٤ ، في مناسبة الاحتفال بذكرى مؤسس البنك ، فقد قال :

- « ان أشد الاسباب فيما أصاب البنك ، راجع الى اضطراب الحالة الدولية وقتئذ اضطرابا شديدا استمر مدة طويلة من الزمن ، وكان يندرج بوقوع حرب كبرى ، فتهاوت الناس على سحب ودائعهم .. حتى قبل حصول الكارثة - بصورة هيئة في اول الأمر ، ولكنها انتهت بعنف شديد ، بسبب ما استولى على الناس من الهلع والجزع ، وتوقعهم وصول الحرب الى بلادهم - ولم يكن في استطاعة طلعت حرب ولا غيره ان يدرا مثل هذا الشر . على ان ما أصاب بنك مصر ، قد أصاب من قبل شركات كثيرة غيره ، بل ان ما أصابه في الواقع أقل بكثير مما حدث لمنشآت عديدة أخرى في أوروبا وأمريكا ، نتيجة لمثل هذه الأزمات أو لأخف منها . ومن الخير ان يعرف الجميع ان هذه الأزمة التي عاناها بنك مصر ، لم يكن مرجعها عيوبها الأساسية تتصل بتكوينه أو نظامه أو بعدم خبرة القائمين بأمره أو بسير العمل فيه ، وانما ترجع الى ما قدمنا من أزمة سياسية عالمية خطيرة ، والى عمليات كثيرة قام بها البنك لأصحاب الاملاك الزراعية تكبد فيها خسائر كبيرة ، نتيجة لقوانين التسويات العقارية المختلفة » .

فاذا عددنا الآثار السيئة والضرارة التي أصابت اقتصاد مصر في الصميم ، من جراء هذه الأزمة أو المؤامرة ، وجدناها بالغة الخطورة والأهمية ، فقد هدفت أولا الى زعزعة الثقة في شخص طلعت حرب ، ثم في الصرح الاقتصادي الكبير الذي أنشأه ، باعتباره مركز الثقل في الاقتصاد القومى . . . هذا الى اثر خطير جدا ، هو عرقلة أى نمو صناعى ، والقضاء على أهداف البنك في المشاركة في تصنيع مصر ، فان البنك لم يقم بأى مشروع صناعى حتى عام ١٩٥٢ ، باستثناء شركة مصر للحريز الصناعى التى

(١) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٤٢

انشأها في سنة ١٩٤٦ ، في حين اننا نجد البنك قد أسس خمس شركات في عام ١٩٢٨ وحده ، بل أسس في أقل من عشرين عاما ، من الشركات ، ما كان يمكن أن يؤسس في أقل من نصف قرن من الزمان كما قلت من قبل .

اثر خطير أيضا ، هو تشتيت الأموال الطائلة التي تجمعت لديه بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من سنوات ، وقد كان ممكنا استغلالها في التصنيع ، لو أن البنك كان حرا وماضيا في سياسته التي كان ينتهجها في استثمار مثل هذه الأموال . ولكنه كان ممنوعا - بأمر الحكومة كما قرأت في صفحة سابقة - من القيام بمشروعات من أي نوع كان . . أخيرا ، ذلك الفراغ الكبير الذي خلقتة قيود الحكومة على استثمارات بنك مصر ، فاستطاع حفنة من الانتهازيين والمتصرين ، الدخول في ميدان الأعمال الاقتصادية ، غير ناظرين الى المصالحهم الخاصة ، دون اهتمام بمصالح البلاد (١)

هذا الى أن ما ساهمت به الحكومة لدعم البنك وهو مبلغ ٢٤٠٧٤٤٣ جنيها ، لا يزيد على كونه ودائع لها في ذمته ، أو لصندوق توفير البريد الموجودة فعلا بجانب الخصوم . ومعنى هذا ان مساهمة الحكومة في «الدعم» كانت عبارة عن « قيود حسابية » - في عرف خبراء البنوك - أي أن البنك نتيجة لقانون الدعم ، لم يتلق أية أموال سائلة جديدة أضيفت الى موارده

اما وقد عرفت الحكومة التي ائتمرت مع البنك الأهلى على طلعت حرب وعلى بنك مصر ، فوجب على أن أذكر لك لمحة في أسطر عن هذا البنك الذى ظل مسيطرا على اقتصاد البلاد نحو ستين عاما .

انه انشئء بأمر عال في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٨ ، وبالرغم من انه اعتبر « شركة مساهمة مصرية » ، الا أنه كان ذا صبغة انجليزية ، فنظامه الأساسى منقول عن نظم البنوك الانجليزية ، ومجلس ادارته كله من الأجانب ومعظمهم من الانجليز ، والمحافظ ونائبه انجليزيان ، واللجنة التى تديره كان مقرها في لندن !! حتى العقد الابتدائى للشركة ليس فيه اسم عربى واحد ا وقد حول لنفسه عملية اصدار البنكنوت ، اذ أرسل مجلس ادارته الى «نظارة» المالية في ٢٠ مارس سنة ١٨٩٩ كتابا طلب فيه منها اذاعة منشور دورى على عواصم المديریات - المحافظات الآن - « يصرح فيه لصيارفة الحكومة بقبول

(١) المصدر السابق - ص ٤٦ - ج ٢

اوراق البنك الاهلى المصرى لاداء الاموال الاميرييه « ووافقت النظارة على الطلب ، ونفدت المنشور ، وبهذا أصبح فعلا هو « بنك الاصدار » فى مصر

وكانت مهمته توجيه الاقتصاد القومى وفق مشيئة بريطانيا . وفى يقينى ان هذا التوجيه الاستعمارى ، كان الحافز الاول الى التفكير فى انشاء بنك وطنى ، يصلح ما أفسده البنك الاهلى ، وغيره من البنوك من اقتصاديات البلاد

وفد كان للحكومة فى مجلس الادارة مندوبان ، رايهما استشارى ، لا قيمة له ، ولا يؤخذ به ، مهما كان نافعا صالحا

وعندما عين الدكتور عبد المنعم القيسونى مديرا مساعدا للبنك فى سنة ١٩٥٠ ، هو الآن نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية - رأى ان التقليد الذى جرت عليه ادارة البنك فى اتصاله بالحكومة ، هو ان يححر خطباته الى وزارة المالية بالانجليزية ، ويرفق مع الخطاب المرسل ترجمته بالعربية ، وهو تقليد غير كريم من بنك المفروض فيه أنه مصرى ، فيجب ان تكون اللغة التى يححر بها خطباته الى الحكومة لغة البلاد الرسمية ، فأصدر قرارا - رغم ادارة محافظ البنك الانجليزى السير ادوارد كوك - بأن تكون رسائل البنك الى الحكومة بالعربية ، وأن يكون توقيع المحافظ عليها بالعربية. ايضا ، على أن ترفق ترجمة انجليزية لكل رسالة

لم يقنع الدكتور القيسونى بهذا الصواب الذى صنع ، بل اذن لوظفئى البنك من المسلمين فى أن يتركوا أعمالهم ظهر أيام الجمع مدة يستطيعون معها اداء فريضة الجمعة ، فاذا اذوها عادوا الى أعمالهم فاستأنفوها الى موعد انصرافهم العادى

ولعل كثيرين لا يعلمون ان البنوك كانت فى الماضى تعطل عطلتها الاسبوعية ، كل يوم أحد

وظل القيسونى حريصا على تنفيذ هذين التقليدين طيلة عمله مديرا لهذا البنك، من عام ١٩٥٠ الى ابريل من عام ١٩٥٤، اذ اختير وزيرا للمالية، اما التقليد الاول ، وهو ان تكون خطابات البنك الى الحكومة باللغة العربية ، فقد استمر . أما التقليد الثانى ، فقد وقف تنفيذه لان عطلة البنوك الاسبوعية البوم ، فى يوم الجمعة

اننى ما زلت أذكر منظر الرجل العظيم محمد طلعت حرب باشا - وكنت في زيارته بداره بالعباسية في أخريات أيامه - وهو « متربع » في جلسته ، على « شلثة » ملتفا بعباءته ، وقد اصفرت عيناه من أثر مرض اليرقان الذى هذه ونال منه ، وقد أخذ يشرح لى ولآخرين من الزائرين ، موضوع توقف البنك عن الدفع في أزمة تلك السنة المشؤومة ، سنة ١٩٣٩ ، ثم انحدرت دمعتان على خديه ، وقال بصوت يفيض الما وأسى وأسفا وحسرة :

- ما كنت أظن أن انسانا في مصر يتناولنى بكلام غير طيب ، بعد الذى سمعته لمصر وللشرق العربى كله

واغرورقت أعيننا بالدموع تائرا بالرجل الذى أصبح مهيب الجناح ، وقد كان نسرا جباراً محققا في جميع الأجواء ، بل كانت تضيق به أجواز الفضاء

فما هو الكلام « غير الطيب » الذى نوه به ولم يفصح عنه ؟

علمت فيما بعد ، انه في بعض الجلسات السرية التى عقدها البرلمان لبحث حالة البنك وإدارته تمهيدا لإصدار قانون الدعم ، تناوب المتحدثون على المنبر ، وكان منهم ابراهيم عبد الهادى باشا - كان وزيرا فرئيسا للديوان الملكى فرئيسا للوزراء - فقال عنه انه « ستافسكى مصر » (١)

ولو أن أحدا غير ابراهيم عبد الهادى قالها لعذرته ، فانه ربيب البنك كما أعلم ويعلم جميع عارفيه ، فقد عين محاميا فيه اثر تخرجه في « مدرسة الحقوق » وظل في حضان البنك ، حتى آثر الاشتغال بالسياسة فتركه ، بعد أن أشرفت الدنيا في وجهه ، فهل هو العقوق ؟

ما أظن ، فما عرفنا عن ابراهيم عبد الهادى عقوقا ، لكن وقاء ورعاية للذمة ، لهذا اعتبرها زلة لسان ، وهفوة مقال ، صدرت عنه في نشوة خطابه الحماسى في أعضاء البرلمان ، وهو يعد من خطباء مصر المعدودين . .

(١) ستافسكى هذا كان من رجال الاعمال الكبار المرموقين في فرنسا ، اختلس عدة ملايين من الجنيهات من بنك بلدية مدينة « بايون » ، فلما انكشف امره ، انتحر في شهر يناير سنة ١٩٣٤ . قد شغلت قضيته - قضية نصبه واحتياله - الرأى العام في فرنسا في ذلك العام ، وكاد الاختلاف بسببها يؤدي الى حرب أهلية بين احزاب اليمين واحزاب اليسار ، ونشبت معارك بينها في يومى ٦ و ١٢ من الشهر نفسه قتل فيها كثيرون من الفريقين

وستافسكى من مواليد سنة ١٨٨٦ في مدينة « سوبودكا » في روسيا ، اى انه من أصل

روسى !!

وفي ٢١ أغسطس من عام ١٩٤١ ، أتي بعد صدور قانون الدعم بأقل من شهر واحد ، قضى الرجل محسورا ، فلبى نداء ربه ، في بلدة النعناعية القريبة من دمياط ، وحمل جثمانه الى القاهرة فدفن في مقبرة بنيت له خاصة ، بعد ما بنى لصر وأهلها هرما من الاقتصاد ، يفخر به ويباهى أحفاد الاحفاد ، كما فخر به وباهى الآباء والأجداد

* * *

كان رحمه الله يكره الكذب ويمقت الكذابين كما اشرت في بداية هذا الفصل ، وكان معاونوه من الكبار في البنك يعلمون عنه هذا ، ويخشون أن يقف على كذبة تورط فيها أحدهم ، فيلقى منه ما يسوؤه

في مساء يوم سبت كان على موعد مع أحمد مدحت يكن باشا رئيس مجلس ادارة البنك ، في مكتبه . وحل الموعد ولم يصل مدحت ، أخيرا وصل بعد نصف ساعة ، معتدرا بأنه مر في طريقه بصديق قديم مريض ، فعاده

أن طلعت يعلم ان مدحت يهوى سباق الخيل - وهو يكره جميع أنواع الميسر والمراهنة ويكره من يهواها - ولا تفوته حلبة من حلباته ، فلم يهضم الكذبة ، وغادر مكتبه الى مكتب مجاور له ، ودعا اليه سائق سيارة مدحت ، وسأله : أين كنتم ؟

قال السائق : كنا في السباق يا سعادة الباشا ..

وعاد الى مكتبه ، حيث كان مدحت جالسا مطمئنا ، فعاد يسأله :

- يا باشا ، أين كنتم ؟

قال مدحت بثقة : كما قلت لسعادتك ، زرت صديقا مريضا ، وسرقتني الوقت، فتأخرت عن الموعد

قال طلعت : ألم تذهب الى السباق ؟

قال مدحت مؤكدا : أبدا أبدا ..

قال طلعت : وما رأيك اذا كان سائق سيارتك قال لى انكم كنتم في السباق ! -

قال مدحت بغيظ : انه كاذب ..

قال طلعت : اذن نفضله ..

ووافقته مدحت ، وفصل الرجل المظلوم . وبعد يومين عاد مدحت فاعترف لطلعت بأنه كان في السباق ، في خلال حديث بينهما دون أن يدري ، فقال طلعت :

— اذن لقد فصل السائق ظلما . أعده الى عمله ، وليكن قرار أعادته بامضائك انت ، تكفيرا عن ظلمك له ، وامنحه مكافأة تعويضا من فصله . .
هذه واحدة . .

وهناك حادثة أخرى كان لها ضجيج ودوى في البنك وشركاته ، فقد اختار لادارة مطبعة مصر ، ثم لاستديو مصر ، الطيار احمد سالم — والممثل بعد ذلك — وكان أثيرا جدا عنده ، بل كان الأمر الناهى في هذه الدولة التي أسسها طلعت حرب ، لا معقب لحكمه ورأيه ، في أى مؤسسة من مؤسساتها رغب يوما في أن يأكل « الطعمية » من مطعم رجل مشهور من زمان قديم في حي الحسين اسمه ، « الحلوجى » — وكان يعشق الأكل « البلدى » ويؤثره على ما عداه — فأوصى احمد بأن يجيء له غذا ببعض من هذه « الطعمية » ليأكلها مع الغداء في فندق مينا هاوس بشارع الأهرام

وفي اليوم التالى ، وصل طلعت باشا وصفيه احمد ، فسأله :

— هل أتيت بالطعمية من الحلوجى ؟

فرد احمد بالإيجاب ، وكان قد نسى شراءها ، ونهض فأسرع الى سائق سيارته المنتظر في حديقة الفندق ، وأخرج له عشرة جنيهات ، وقال له :

— بسرعة جدا ، اذهب الى ميدان الجيزة ، فاشتر طعمية بعشرة قروش وخذ الباقي لك ، اذا استطعت أن تقطع المسافة في ربع ساعة ، ذهابا وإيابا

في هذه الأثناء ، دعا طلعت باشا كبير الخدم ، وأمره بأن « يسخن » الطعمية ، استعدادا للغداء ، فدهش الخادم وقال ان احمد لم يسلمه شيئا ، فلما عاد احمد من الحديقة ، سأله :

— هل جئت بالطعمية معك ؟

قال جادا : نعم يا باشا

قال طلعت باشا : ولكن كبير الخدم قال انه لم يتسلم منك شيئا قال احمد : انه غبى لا يفهم . وناداه بفطرسة وكبرياء وقال له :

— الطعمية سلمتها لغيرك . قل انك لا تعلم وبس !!

وسكت الباشا . وبعد قليل عاد السائق ، ومعه الطعمية ، وهى اقراص كبيرة كالفتير ، سلمها أحمد بعيدا عن رقابة الباشا الى أحد الخدم وقاما الى المائدة للغداء

وجاء الخادم بالطعمية فى « صحن » كبير . .

وسأل الباشا ، أحمد مرة أخرى :

– هل هذه من مطعم الحلوجى ؟

ذلك لان طعمية الحلوجى اشتهرت بأنها حبات صغيرة فى حجم البندق . .
قال احمد بثقة : نعم يا باشا

عاد فسأله : اتقسم بحياتى

فأقسم أحمد . . وكان قسما مشؤوما عليه

اقد كانت هذه الكذبة ، هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، كما يقولون ، فان الباشا نهض غاضبا دون أن يتناول غداءه ، وركب سيارته وحده . وفى اليوم التالى دعا سكرتير البنك المرحوم الأستاذ لطفى محمود ، وقال له :

– خلصنا يا لطفى يا خويا الآن من أحمد سالم

فدهش لطفى ، وهو يعرف كما يعرف الجميع مكانته من قلبه ، فروى له ما حدث . .

فقال لطفى ا

– ولكنها يا باشا كذبة صغيرة لا تستاهل الفصل

قال طلعت : ان الذى يكذب الكذبة الصغيرة وهو يعمل فى بنك كبير وفى مؤسسات عدة ، من السهل عليه أن يكذب كذبة كبيرة ، نفرق بسببها جميعا

ولمك تجب حين أروى لك أنه فى يوم ما آثر هذا الفنى على محمد محمود باشا من رؤساء الوزارات السابقين ، وكان بيته من أكبر البيوتات فى مصر ، جاها وغنى ، ورثهما عن أبيه محمود سليمان باشا الذى كان رئيسا للجنة الوفد المركزية فى اثناء غياب سعد زغلول فى منفاه ، ثم فى أوربا للدعاية لقضية استقلال مصر ، وقبلها كان عضوا فى مجلس الشورى . . هذا الى أن محمد محمود ، كان من المصريين القلائل الذين اكملوا دراستهم العالية فى جامعة أوكسفورد ، وكان معتزا بنفسه اعتزازا يبلغ الى درجة الغرور ، ورأس الوزارة أكثر من مرة ، وله فى تاريخ مصر دور مشهور غير منكور

دخل يوما على طلعت حرب لأمر ما ، فوجد عنده أحمد سالم ، فسأل
طلعت زائره الكبير بعد ما رحب به :

— خير يا دولة الباشا . أى خدمة أستطيع أن أؤديها ؟

فقال محمد محمود بكبرياء عرف بها : لما يخرج الجدع ده !!

قال طلعت : انه من موظفى البنك ..

قال محمد باشا 1 معلش ، بس لما يخرج ..

قال طلعت : ماهواش خارج !!!

فانتفض محمد محمود باشا واقفا كاللدوغ ، وانصرف غاضبا محنقا ،
واقطع ما بين الرجلين الكبيرين من ود وصداقة ، الى أن رحلا الى الدار
الآخرة

حادثة ثالثة ..

كان سكرتيره أحمد يحيى نجل المرحوم يحيى ابراهيم باشا — أول رئيس
للوزراء عقب وضع الدستور فى سنة ١٩٢٣ — مغرما بفتاة يونانية ، ثم
عزم على الزواج وهجرها ، ولكنه خاف أن تجيء الى البنك وتقابل طلعت
باشا وتشكوه اليه ، مدعية ما شاءت لاجراجه امامه ، فرأى انه من
الأفضل له أن يصارحه ، وحسنا فعل ، فقد سر من صراحته ، ومنحه
مبلغا من المال هدية منه اليه بمناسبة هذا الزواج

* * *

● كان لا يحب السياسة كما مر بك ، ولا يحب لأحد من العاملين معه
الاشتغال بها ، حتى انه لم يصبر على عضوية مجلس الشيوخ ، فاستقال منه
بعد أشهر من تعيينه ، فذهب اليه فى مكتبه بالبنك رئيس المجلس المرحوم
الأستاذ محمود بسيونى محاولا عدوله عنها ، قائلا له : انه من العار على
البلاد أن لا تكون فى مجلس شيوخها ، وقد بنيت اقتصادها

ولكنه أصر عليها ، ولم يدخل المجلس بعدها أبدا

● كان لا يحب الوشاية والسعاية ، فاذا سمع من موظف قالة سوء فى
زميل له ، استبقاه ، وأمر بدعوة صاحب هذه القالة ، وواجههما ، والويل
للواشى اذا ظهر كدبه وأفترأؤه

● كان يتمتع بذاكرة قوية واعية ، تحفظ كل ما تسمع ، وما يجرى له ولن حوله ، فهي سجل دقيق يدون فيه كل ما عرف وما تلقتة أذناه عن موظفى البنك وشركاته ، بل وعن كبار عملائه ، مما اتاح له الوقوف على سيرتهم فى حياتهم ، ونهجهم فى العمل معه

● كان يأنف من تلقيبه « زعيم مصر الاقتصادى »

● كان يعصر الليمون فى عينيه ، حاثا خالصاه على أن يحدوا حدوده ، فان عصير الليمون يجلو العين ويقوى البصر . . !!

● لعل كثيرين لا يعرفون أن هذا الرجل الذى قضى حياته عاملا فى كل ميدان ، وفى كل حقل ، وفى كل مجال . . فى الاقتصاد وفى الاجتماع وفى الدفاع عن الدين . . هذا الرجل كان ميالا الى نصره الآداب والفنون ، فقد رعى مسرح حديقة الأزبكية ، وسمى يومذاك مسرح ترقية التمثيل العربى ، لتمثل عليه المسرحيات المصرية والعربية والغنائية ، فبلغ المسرح المصرى فى ظل رعايته تلك ، شأوا ما أحوجه اليه اليوم ، ورفع من قيمة الأدباء والكتابه الى قدر ما كانوا يحلمون به ، حتى لقد كان المسرح يدفع فى الرواية الواحدة ثلثمائة جنيه لؤلؤها ، وهى تعادل فى هذا العصر عدة الوف من الجنيهات

قال لى صديقى القديم الأستاذ زكى طليمات شيخ المخرجين المسرحيين، انه قابل طلعت حرب باشا مرتين : الأولى سألها فيها رايه عن فرقة عكاشة التى كانت تعمل باستمرار على هذا المسرح . فقال له زكى :

— ان اخوان عكاشة — وكانوا ثلاثة أخوة هم عبد الله وعبد الحميد وزكى. أسفرهم وأجملهم — أبعد عن التمثيل ، بعد الأرض عن السماء

وأفاض فى هذا الرأى ، مما حمل طلعت باشا على أن يقول له فى نهاية اللقاء :

— انت مغرور جدا يا خويا يا زكى !!

اما المرة الثانية ، فكانت عندما أراد زكى أن يكون مدير فرقة الكوميدي فرانسيز حينما زارت مصر فى سنة ١٩٣١ ، وكان أستاذا لزكى فى انشاء دراسته فى باريس ، ولكن يديه خاليتان من المال ، فذهب الى طلعت باشا يسأله قرضا من البنك قدره لاثون جنيها ، يقيم بها حفلة كبيرة لاستاذة مدير الكوميدي فرانسيز

فسأله طلعت باشا : أتدخن الحشيش ؟

قال زكى : لا ، ولم أذقه فى حياتى

قال طلعت باشا : أتمدن الخمر ؟

قال زكى : لا

قال طلعت باشا : أتحب غانية تكلفك ما لا تطيق ؟

قال زكى : لا

قال طلعت باشا : اذن لماذا تريد هذا المبلغ الكبير ؟

فذكر له زكى السبب . فما كان من طلعت باشا الا ان اخرج حافظة نقوده واعطاه منها ثلاثين جنيها ، تقديرا منه لوفاء زكى لاستاذه ، ولم يقبل ردها اليه ، فجعلها هدية منه اليه . .

وقال لى المرحوم الأستاذ فؤاد فهيم (وكان من أشهر ممثلى الاوبريت ، ومثل مع مطربة عصرها منيرة المهديّة ، ومع فرقة اخوان عكاشة) :

— فى الليلة التى توفى فيها أبى فى عام ١٩٢٢ (وكان هو الآخر ممثلا عظيما فى فرقة اخوان عكاشة) جاء الى منزلى طلعت باشا ومعه زكى عكاشة الممثل الأول للفرقة — وكان ذا مكانة خاصة لدى طلعت حرب — لتعزيتى . ثم همس زكى فى اذنى على مسمع من الباشا : لا تؤاخذنى فيما سأقوله لك فانه بالرغم من ضرورة بقائك فى مأتم أبىك ، الا اننى اطلب منك انقاذ الفرقة ، حتى لا تضطر الى التوقف فى هذا المساء ، بسبب انقطاع بشاره واكيم عن تمثيل دوره فجأة ، وهو دور كوميدى مهم ، وليس أمامنا من يمثله غيرك بدلا منه

فكدت اثور عليه ، لانه يطلب منى ان اذهب لاضحاك الناس فى ليلة ماتم أبى الذى ما زلت أبكىه ، لكن أدهشنى ووقف فى سبيل ثورتى على زكى ، ان طلعت باشا وقف فى صفه ، فقال لى :

— وافقه يا فؤاد ، ولا تظن انك ستفضض أباك بترك ماتمه ، فقد كان يقدر التمثيل ويعشق فنه ، ولهذا يجب الا تتخلى عن أداء الواجب عليك بانقاذ الفرقة فى هذا المساء

قال فؤاد :

— فلم يسعنى الا موافقتهما ، وذهبت معهما الى المسرح ، ووقفت على خشبته اضحك الناس ، وقلبى يتمزق حزنا وأسى على أبى

● زرتة يوما في مكتبه في اواخر عام ١٩٢٩ ، فدخل علينا سكرتيره الخاص وأنبأه بقدوم نوري السعيد باشا - من رؤساء الوزارات العراقيين السابقين ومن كبار الدين اشتغلوا بالقضايا العربية - فهممت بالاستئذان للانصراف ، فضحك رحمه الله ، وقال : لا يا خويا خليك ، ما فيش سرى بينى وبين نوري باشا ..

وكلمة « يا خويا » كانت لازمة من لازماته .. ودخل نوري السعيد ، وقد وضع الفيضلية - لباس الراس عند العراقيين قبل انقلاب ١٤ تموز (يوليو) - على صدره بين يديه ، واستقبله صاحب المكتب حفيا به ، ونادى سكرتيره ، فأسر اليه بكلمات ، وأمر بالقهوة ، وأنا متشاغل عما يجري ، بمطالعة صحيفة كانت في يدي ، ولكنى متابعه بطرف من عيني . ثم عاد السكرتير بمظروف منتفخ ، وضعه في الدرج الايمن من مكتب طلعت باشا وخرج ، وبعد حديث قصير خلال تناول القهوة انقضى في السؤال عن الصحة والاحوال والانجال ، فتح طلعت الدرج وأخرج منه المظروف ووضعه في جيبه ، ثم نهض ومشى بنوري باشا الى جوار النافذة ، وأخرج المظروف من جيبه ودسه في يده ، خلال حديث قصير آخر عن نجل نوري باشا الأكبر « صاح » وكان متزوجا من مائلة مصرية كبيرة .

ورأيت أن « مهمتى » قد انتهت ، فاستأذنت لانصرف ، فاذن وهو يقول لى :

- أنت ماشفتش حاجة يا خويا ..

قلت : نعم ، ماشفتش حاجة يا باشا !!

واستضحكتنا ، ومضيت الى حال سبيلي ..

وفي هذه المناسبة ، يطيب لى أن اذكر أن طلعت باشا كان قد اقترض السيد محمد على زينل .. رجل الأعمال السعودى الكبير ، والوزير السعودى للتجارة ، والسفير السعودى السابق فى القاهرة ، ثلاثة آلاف جنيه من حسابه الخاص ، ولم يأخذ منه ايصالا ولا سندا بها ، ولا يعلم بأمرها الا السكرتير الخاص لطلعت باشا الاستاذ أمين احمد . فلما صعدت روح الرجل العظيم الى بارئها ، وبعد ذبوع خبر وفاته بايام ، فوجيء أمين بالسيد زينل يدخل مكتبه ويسلمه الآلاف الثلاثة من الجنيهات ، فتسلمها منه وهو غير مصدق ، أن يكون هناك انسان فى هذا العصر ، فى مثل هذه الامانة والنزاهة والشرف .

وسلم أمين المبلغ الى الأستاذ محمد رشدى ، وكان مديرا لقلم قضايا البنك ، وهو متزوج فى الوقت نفسه من ابنة طلعت باشا ، وظل يرقى فى

وظائف البنك حتى اختير رئيسا لمجلس ادارته ، وظل في منصبه الكبير هذا حتى توفي الى رحمة الله في لندن في أول يوليو سنة ١٩٦٩ اثر حادث حدث له في الكويت وكان في زيارتها لعمل اقتصادى يخص البنك ، ويخص بعض الدول العربية

هذا هو الرجل الذى يجتاز الشباب اليوم ، الشارع الذى سمي باسمه مؤخرا ، ثم يمرون بتمثاله (١) في الميدان الذى يتوسط الشارع ، والمسمى باسمه أيضا . وهم لا يعرفون عنه الا أقل من القليل أردت ان أبسط تاريخه بعض البسط ، حتى يتخذوا منه قدوة ومثلا . فان مصر المنكوبة اليوم باحتلال بعض ارضها الغالية ، من حثالة البشر اليهود الصهانية ، ترجو النهوض على أيديهم ، وتتمنى ان يأخذوا بيدها الى سبيل المجد والعزة والكرامة السلبية ، ولن يتسنى لهم هذا الا بالعمل الدائب لخيرها والاخلاص فيه ، وحبها حبا جما .

سئل عنه صديقه المرحوم الدكتور محجوب ثابت ، وكان من المشهورين في ميدان السياسة ، وصديقا لجميع عظماء مصر ورجال احزابها وأعيان العرب فقال :

« كان صديقى طلعت حرب باشا طرازا في مصر معدوم النظر ، وهو واضع الحجر الاساسى للاستقلال الحقيقى بانشائه بنك مصر وشركاته وفروعه ، وبهذا أقام بالعمل الجدى الجدى ، وادى لوطنه ، ما لم يستطع الزعماء ان يؤدوا مجتمعين في صعيد واحد ، جانبها مما آذاه وحده . انك لن تستطيع ان تعبر أو تصور ، كيف ان طلعت حرب قاوم وانتصر على محاربة اصحاب الشركات والبيوتات المالية الاجنبية في مصر ، وكيف تغلب على مثبطين الهمم من بعض المصريين .

(١) في ابريل من عام ١٩٣٠ بدت فكرة لتخليد طلعت حرب ، فلم يشجعها ، فكتب الاستاذ البرث فاضل المحامى امام محكمة الاستئناف المختلطة بقرح ان تسمى الشوارع المحيطة بالبنك باسماء مؤسسه ومساعديه مدحت يكن باشا والدكتور فؤاد سلطان بك ، فيسمى شارع عماد الدين باسم « شارع بنك مصر » ويسمى شارع ابن السباع - جواد حسنى الان - باسم طلعت حرب ، ويسمى شارعان آخران باسمى الاخرين . وقد قرأت فيما مر بك ان السيد عبد الحميد الرمالى ، وكان عميدا لتجار القاهرة ، اقترح هو الاخر اقامة تمثال لرجل بنك مصر .

« وطلعت حرب - كما قال صديقي الاستاذ الكبير محمد كرد على بك
« الباقعة (١) في معرفة الرجال » . انكم لا تستطيعون ايفاء طلعت حرب
ما هو جدير به من التقدير و عرفان الجميل ، حتى لو اقمتم له تمثالا من
العسجد . فلتقيموا له بمثالا من التقدير في كل قلب . ليس طلعت حرب
بطل الاستقلال الاقتصادي فحسب ، بل هو بطل الاستقلال السياسى
ايضا . لو كان تجانبه آخر من طرازه ، لوصلت مصر الى الاستقلال
الحقيقى ، واتف الزمان في الرغام » (٢)

وكتب عنه الكاتب المبدع فريد عصره المرحوم الشيخ عبيد العزيز
البشرى ، فصلا في كتابه المسمى « في المرأة » تناول فيه عظماء مصر
بالتحليل والنقد ، فقال في صفحة ٥٧ وما بعدها :

- « لو ان رجلا حدثك من عشر سنين بان سيكون في مصر « بنك »
يقوم على اموال مصرية ، وتقوم عليه ايد مصرية ، لرددت حديثه من فورك ،
الى التزيد في التمنى والمبالغة في التخيل ! ذلك اننا ، ولا اکتتمك اشد
ما الح علينا من العلل ، اننا كنا نتكىء في كل مهمنا على محض التمنى وعقد
الآمال بما عسى ان يصنع الغير لنا ! اما ان نضطلع بعيننا ونعالج شأننا
بايدينا ، فذلك ما لم تكن تطبيقه اذهاننا ! ولقد طال علينا هذه الحال حتى
دبت الينا الظنون باننا لا نصلح لمعالجة عمل قومى ، لا من عجز عن العمل ،
ولكن من توهم العجز عن العمل ، حتى توهنت نفوسنا ، وخارت عزائمنا ،
وانخذلت هممنا ، وشاع فينا ضعف الثقة ، والثقة وحدها متكا كل
ما ترى من عظيماات الامور . واذا كنا قد عالجت كثيرا من المشروعات القومية
ففشلتنا فيها ، فذلك لاننا كنا نقدر هذا الفشل ، بحكم ما ملك علينا
انفسنا من ضعف الثقة . وذلك شأننا في كل ما نتطلع اليه من مطالب
الحياة !

« واذن الله تعالى لنا بالعافية ، واحسسنا ، بعد ياس ، دبيبها في
انفسنا في سنة ١٩١٩ ، وهبينا امة تطلب ما تطلب الامم ، وتهىء كتفيها
لتنهض بما تنهض به في سبيل مجدها الامم .

« ولست اليوم بسبيل ما قام به ابطال النهضة الوطنية جملة ، ولكننى
انما اطوف بالحديث اليوم حول قطعة منه وهى النهضة المالية ، وحول بطل

(١) اى الدامية الحذر

(٢) « الاسرار السياسية لابطل الثورة المصرية وآراء الدكتور محجوب ثابت » -
صالح طلى السودان - ص ٢٥٨

من أولئك الأبطال ، وهو طلعت حرب . وهيئات أن أصف قدر هذا الرجل الفاتح ، بأبلغ ولا أصدق من انه أقام لمصر « بنكا » عظيما يقوم على أموال كلها مصرية ، وتقوم عليه أيد كلها مصرية ، وما شاء الله كان . . .

« واذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعد اذ تخاذل الناس ، وأصبحنا ولا تظن نفس بنفس خيرا ، فقد رأيت مبلغ ما تسلح به هذا الرجل من عزم وثقة ، حسبهما ان ملأ كل هذه النفوس عزما وثقة .

« واذا كان طلعت حرب قد أفاد في سبيله نهضة سنة ١٩١٩ ، واستغل اشتعال النفوس بالوطنية ، وتنادى الناس بالعمل على أسباب القومية ، فقد أضاف الى العزم حزما ، وجمع الى الثقة والاقدام بصيرة وعلما ، ذلك انه عرف كيف يتخير اسعد الساعات واكفأها لنجاح مشروعه العظيم .

« لم يكن نجاح بنك مصر مقصورا على ذلك المدى الذى تدور فيه منافع البنوك ، ولكن كان له نجاح أوفى وأبلغ ، هو انه بث فينا الثقة ، وردنا في جليلات الاعمال الى أنفسنا ، وأقنعنا بالحس الصادق أننا في مجال العمل ، غير أهل للخلدان ولا للفشل .

« وبعد : فطلعت حرب ، وان لحقته السن ، ما يرح له عزم الشباب : حضور ذهن ، وقوة تصور ، ومثانة ذاكرة ، وجودة رأى ، وصبر وجلد على معاناة كل ما يليه من أعمال جسام .

« واذا كان في بعض طلعت حرب مالا يعجب بعض الناس ، فلأنهم لم يفهموه . واذا كان فيه مالا يجمل بالرجل العظيم ، فذلك أيضا من خلال الرجل العظيم . .

« وان تعجب لشيء في شأنه ، فالمعجب كله انه عضو في مجلس الشيوخ ، تعرض عليه ميزانية الدولة ، وتعرض عليه كل المرافق المالية والاقتصادية في الدولة ، فيجول فيها لويس فانوس ، ويصول فيها الشيخ حسن عبد القادر ، ويضرب فيها شيخ العرب يسن أبو جليل بجرانه ، وطلعت حرب مدير بنك مصر وأبو المشروعات المالية والاقتصادية في مصر ، لا تؤثر عنه فيها طول « الدورة البرلمانية » كلمة واحدة !!

« ولعل هذا انه يريد أن يربأ بنفسه ، أو بعبارة أخرى ، يريد أن يربأ بينك مصر وملحقاته ، عن أى نزاع سياسي على العموم ، أو حزبي على الخصوص ، طلبا للسلامة ، واينارا للعافية »

وخير ما اختتم به هذا الفصل عن الرجل العظيم ، مقال يدل على وفاته ، نشرته له جريدة « ايجبت » بالفرنسية ، في ١٣ يوليو من عام ١٩٠٥ اثر وفاة المغفور له الأستاذ الامام محمد عبده ، يرثيه به ، فقال :

« لقد خسرت مصر والعالم الاسلامى خسارة كبرى بموت الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وسيبكي خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومداهيبهم ، فانه كان من اكبر رجال الاسلام الذين كانوا يتمنون ارجاعه الى مجده السابق .

« نشأ الشيخ محمد عبده نشأة رجل عادى ، فانه ولد من نحو ستين سنة في محطة نصر بمديرية البحيرة ، وتلقى دروسه الأولى بالجامع الاحمدى بطنطا واتمها في الجامع الأزهر المشهور ، ثم صار أستاذا لنفسه . وبما كان فيه من النهم في العرفان ، انكب على الدروس والمطالعة بقوة يندر وجودها في غيره ، وأمكته بما أوتيته من ثبات العزيمة وقوة الإدراك التى لا يمتري أحد في سموها ، ان يصير الى ما رآه الناس فيه وهو فوه منه ، اعنى محيط علم حى ، فكان برهانا محسوسا على ما يكون لعزيمة الانسان من سعة الامكان ، ولا سيما اذا عززتها قوة الجنان . وجملة القول ان الشيخ محمد عبده كان هو المربى لعقله والمنشئ لادراكه . وكان يخيل للعارف باحوال هذا الشيخ في جهاده المستمر ان ام المسائل التى كانت تشغله وادعائها الى اهتمامه ، هى الدين الاسلامى الذى كان يريد اصلاحه ، لا بادخال مذاهب جديدة أو عبادات أخرى فيه ، ولكن بتنقيته وتجريده من الاوهام والآراء الفاسدة التى أدخلها عليه الجهل أو مقتضيات السياسة ، وجعله بالجملة ، كما كان قبل تشويه الجهل اياه ، الدين الحنيفى الذى كان يعلمه لآمنته النبى صلى الله عليه وسلم .

« وقد كان للشيخ محمد عبده حساد ينقصونه ، كما كان لغيره من كبار المصلحين وارباب العقول السامية ، فلم يلدروا تهمة الا الصقوها به بلا سبب ، ولا دسياسة ولا وشاية ولا قذفا الا رموه به من غير ما ذنب ، ولكن ذلك لم يعقه عن المداومة على سلوك نهجه غير كال ولا وان ، حتى انتهى امره بان ألزم حساده والجاهلين به ، كما ألزم خصومه واعدائه ، احترام آرائه وافكاره .

« وهو وان كان قد صرعه الموت قبل ان يدوق لذة اتمام عمله الشاق الذى فرضه على نفسه ،، قد أوضح السبيل الى اتمامه ، وخلف عملا نافعا باقيا .

« وقد كان لمعاشره الشيخ محمد عبده للشيخ جمال الدين الافغانى الذى هو اكبر فيلسوف شرقى معروف ، تأثير ظاهر فى عقله ، فكانت معاشرته لهذا الفيلسوف الذى كان هو نفسه الثانية ، مبدأ طموح نفس الشيخ محمد عبده الى الافكار التى صارت من ذلك العهد غرضه الذى يعيش من أجل بلوغه ، ألا وهى اصلاح الدين الاسلامى ، واحياء وطن الاسلام البعيد الاطراف ، وتجديد وحدته وعظمته .

« وكان يستعين ويستهدى فى هذا العمل الشاق بقوة يقينه .

« ومن غريب الاتفاق أن نفس العلة التى أودت بالمرحوم الشيخ جمال الدين وهى السرطان ، هى التى اختطفت منا الشيخ محمد عبده .

« ولما قامت حوادث الفتنة العرابية ، كان الشيخ محمد عبده متقلدا فى نظارة الداخلية عمل محرر الجريدة الرسمية ، فظن ان الوقت قد حان للبدء فى تنفيذ خطته الواسعة فى الاصلاح ، فسلك سبيل الفتنة بقلب سليم ، لما كان يلوح له من خلوها من الاغراض الشخصية فى بدايتها ، ثم اضطر آخر الامر الى أن يجاهد فيها بعض الرؤساء ويقاوم طرقهم اللتوية الدالة على اطماعهم ، لان افكارهم لم تكن مطابقة لامنيته المجردة من كل شوب ، وهى مصلحة الوطن والدين .

« وكان جزاؤه على مخالطته لرؤساء الفتنة ان حكم عليه بالنفى ، ولما رأى خيبة آماله اذ ذاك لجأ الى سوريا . غير انه لم يكن ممن يسهل عليهم الاستكانة للغلب ، فلم يلبث أن استأنف جهاده السلمى لبلوغ أمنيته . ولما عين استاذاً فى المدرسة السلطانية ، كان يعلم فيها آداب اللغة والبيان وغيرها من الدروس العربية ، وهذا غير دروس تفسير القرآن التى كان يلقيها فى المساجد .

« ثم دعاه السيد جمال الدين الى باريس ، فكان يعينه على تحرير « العروة الوثقى » ، ولما عاد الى سوريا استأنف دروسه التى لا يزال السوريون يحفظون لها أجل ذكر .

« ما حل الشيخ محمد عبده فى مكان الا ترك له فيه معجبين بعلمه وفضله ، وأينما نزل صار كل من دانوه أحبابه وأصدقائه .

« ولما عفا عنه الخديوى توفيق باشا عاد الى مصر ، فرجعت اليه جميع المحبات القديمة مع احترام كافة الناس وتبجيلهم ، ثم لم يلبث أن نوه به فضله وولعه الشديد بخير بلاده ، للقائمين بالامر ، فعين بعد قليل قاضياً فى المحاكم الابتدائية ، ثم مستشاراً فى محكمة الاستئناف . وكان مع

وجوده في هذا الميدان ، ميدان العدالة الفسيح ، ولا يزال يحس بأنه مخرج ،
وانه لا بد له من ميدان أوسع وأجل منه ، أى لا بد له من الطرف الذى يستعين
بها على بلوغ الغرض الذى يعيش من أجله ، بإذلا في ذلك جهده ، وذلك
الغرض هو اصلاح الدين . وكان يعتمد حينئذ في الوصول اليه على
وسيلة كان يلوح له انها هي القادرة على رفع ذلك البناء ، وتلك الوسيلة
هي الازهر . تولدت في ذهنه فكرة توجيه الاصلاح في هذا السبيل الجديد ،
فكان يريد أن يجعل الازهر واسطة في هداية العالم الاسلامى وتبصيره بدينه ،
وان يجرد هذا الدين مما يحول دون معرفته من الصعوبات ومن الآراء
الفاسدة التى حشاه بها الجهل . وللوصول الى هذه الغاية ، فكر في أن
ينشئ له مجلسا أى محكمة عليا دينية - ان صح تسميتها كذلك - لادارة
شؤونه وبث نور العرفان في عقول الأمة لمصلحة الاسلام الكبرى ، وهى
غاية نبيلة جليلة ، ويفضل عنايته شكل المجلس ، وكان هو من اعضائه
وكذلك الشيخ عبد الكريم سلمان صديقه من الصغر الذى كان موافقا له في
آرائه وافكاره .

« وقد حصل له بتشكيل هذا المجلس ، الأمل ببلوغ غايته بلا عائق ،
فأنشأ يحدد ما رث من أصول الدين ، وينفخ في المسلمين روح العرفان ،
ويرشداهم الى العلوم والفنون وجميع الامور الجليلة والافكار العظيمة
التي كانت في سالف الأيام زينة الخلفاء .

« وانه ليسوؤنا أن نقول انه مع مساعدات المخلصين التى تيسر له
الحصول عليها ، لم تأت النتيجة مطابقة لما كان يرجوه تمام المطابقة ، فقد
قام روح معاكس له ، فعوق العمل الكبير الذى كان يباشره بكثير من النزاهة
والاخلاص والافدام ، نوعا من التعويق .

« وهو على بلد جل همته في تحصيل القبضة والسعادة للعقول ، لم
يفغل السعى في تحصيل الراحة والرفاهية للابدان ، فلم ينس الفقراء
والبائسين ، لعلمه حق العلم ان البؤس في الأمم مدعاة الى اضمحلال
العقول ، فأسس الجمعية الخيرية التى كان هو روحها الذى به تقوم .
والفضل في بقاء هذه الجمعية ونجاحها راجع الى همته التى لا تغفل ،
واخلاصه الذى لا يتغير .

« ولما عينته الحكومة مفتيا للديار المصرية ، اثبت في هذا المنصب أيضا
كفاءته للقيام به . وكان من مقتضيات توليه ان صار له حق الجلوس فى
مجلس الشورى ، فكان عضوا في كل لجنة من لجانه ، وكان هو المرشد
الثقة لرفقائه في بحث جميع القوانين واللوائح أو اعدادها .

« وكان في مجلس الأوقاف الأعلى هو المدافع عن الحقوق والأصول المقدسة التي بنيت عليها .

« وقد كان فوق ما تقدم كما قلنا ، شديد الحب لوطنه ، مخلصا في اسلامه . واذا كان قد وجد له عيابون قادحون ، ربما كان عيبيهم مبنيا على الحكم بالظواهر ، فان مادحيه والمعجبين به أوفر منهم عددا وهم ينصفواه ويعرفون له قدره .

« وسيلذكر من عاشروه أو دأونه فقط ، جيل محاضرنه ، وحسن تطفه، وجاذب ابتسامه الدال على سلامة طويته . بل أنه كان يعظ اصداقاه ويوصيهم بلين الجانب والتلطف ، وكان له في ذلك كلمة تؤيد هذه الوصية وهو قوله : انك لتصطاد من الدباب بملقعة من العسل ، أكثر مما تصطاده ببرميل من الخل »

« وكان الشيخ محمد عبده نهما في الاطلاع والتعلم ليكون أصوب حكما واسد رأيا ، ولذلك ساح كثيرا في بلاد أوربا وبلاد المشرق ، باحثا ابنما حل عما عساه ينفع للعمل الجليل الذي ابتدأه . وكان يدرس غير متشيع الى مذهب ، أخذنا بضروب الحضارة والاخلاق عند جميع الامم ، بحرية الفكر وجولان في الرأي يندر وجودهما في هذه الايام . وجوابه البليغ على مقالات المسيو هانوتو في الاسلام ، دليل على أننا سائرون في سبيل التقدم ، فقد كشف هذا الجواب النقاب عن سعة علمه واطلامه وتسامحه الذي استطاع أن يدهش الناس به لوقوعه في جانب التهجم الذي حصل من المسيو هانوتو .

« وقد ترك كتابات كثيرة تيسر للمطلع عليها أن يجد في جميعها ، المبادئ التي كان يسير عليها في حياته ، وهي الآن مبادئ تلامذته الذين تتبعوا طريقته ، وسيتنافسون في حفظ ذكراه .

« اني كنت اعرف الرجل معرفة ذاتية ، فأنا اشد تأثرا لفقده ممن لم يعرفوه ، ومثل غيري من معارفه الكثيرين في هذا التأثر ، فقد كان شديد الحب لوطنه ووطننا . وفي هذا المقام أرفع له واجب المدح مع مزيد الحزن والأسف على فراقه ، وأرجو أن يوجد في هذه البلاد التي بث فيها كثيرا من الافكار الصالحة الشريفة ، عقول وهمم أخرى تستأنف السير على النهج الواضح الذي اختطه لها .

« بينما كنت أخط هذه الأسطر ، اذ تلقيت رسالة برقية من بلدة « اسيا » ببلاد بلجيكا ، تنعى لى الدكتور سدنى سميث ، وهو موسر أمريكى واسع الإدراك والفكر ، محب للإسلام ، ومعجب بالشيخ محمد عبده الذى كان من أصدقائه .

« لا تقع مصيبة وحدها ، فقد انظفا نبراسا هذين العقلين فى يوم واحد ، وهما على تباعدهما فى المنشأ ، قد تقاربا بالاشتراك فى الأفكار والآراء .

« وسيدنى سميث هذا الذى جمعتنى وإياه الألفة الأكيدة ، كان هو الاستقامة المجسمة ، وكان له عندى فوق ذلك الخصيصة الكبرى ، وهى محبته لبلادى ودينى وذوده عنهما ، فانه كان تعلم كيف يعرف الدين الإسلامى ، ولهذا ترانى أجد وقع مصابه مضاعفا ، وليس فى وسعى أن امدحه بأكثر من اشراكه فى السلام الذى اهديه من قلبى الحزين الى فقيدنا الذى هو نفسه كان يطريه ويعجب به كثيرا »

وبعد :

الا فليرحم الله طلعت حرب ، ولينبت من بنى مصر نبئا من طرازه ، فى رجاخة عقله ، وأصالة وطنيته ، وقوة عزمته ، وإخلاصه لعمله ، وإيثاره مصلحة الوطن العليا ، على كل مصلحة سواها ، ولو كانت مصلحته هو نفسه ، كما صنع وافتدى البنك بشخصه ، ليبقى .

وسيزل طلعت حرب أيضا - وليس البنك وحده - باقيا فى ضمير هذه الأمة قمة شامخة ، ونبراسا لأجيالها ، جيلا بعد جيل .

المراجع

- التطور الاقتصادي في مصر
للاستاذ محمد رشدي
- الاصول التاريخية للراسمالية المصرية
وتطورها
للدكتور محمود متولى
- نقابات التعاون الزراعى في مصر وأوروبا
للاستاذ عبد الرحمن الرفعى
- بنك مصر بين الراسمالية الوطنية
والتحوال الاشتراكى
للاهراام الاقتصادي
- تذكار طلعت حرب
رجال المال والأعمال
تقديم الاستاذ أحمد فؤاد
- مجموعة خطب طلعت حرب
في المرأة
للدكتور ابراهيم عبده
- مذكرات شخصية للمؤلف
للمقتطف
- أصدرتها مطبعة مصر
الشيخ عبد العزيز البشرى



الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الإسكندرية

منجبه في التبريد: الحوار المرندب

كان مرتبه في الشهر ١٠٠٠ مليم

أعاد إلى الإسكندرية مصرتها
في جميع المجالات

قدوة حسنة في الوطنية
والشجاعة والمراحة

اعتقلت السلطات العسكرية البريطانية المحتلة ، سعد زغلول وصحبه ، محمد محمود باشا واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا ، عصر يوم السبت ٨ مارس من عام ١٩١٩ ، بسبب اصرارهم على السفر الى باريس - حيث يعقد مؤتمر الصلح بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى - للمطالبة بحق مصر في الاستقلال التام ، وباتوا ليلتهم في الشكنات الانجليزية

بقصر النيل - مكانها اليوم مقر الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل - وفي اليوم التالي سيقوا الى بور سعيد بقطار خاص برح القاهرة قبل الظهر، ومنها حملتهم باخرة انجليزية الى جزيرة ماطة ، وقد اختارتها السلطات الفاشية المحتلة معتقلا لهم ومنفى .

في صباح اليوم التالي ٩ مارس ، اعتقلت هذه السلطات وطنيا آخر في العاصمة الثانية ، الاسكندرية ، هو الشيخ عبد المجيد اللبان المدرس بمعهد الاسكندرية الدينى ، لانه عقد اجتماعا سياسيا في داره في مساء اليوم السابق ندد فيه بما اقدمت عليه السلطات البريطانية من اعتقال سعد وصحبه ، فأعد له في الطابق العلوى من قسم بوليس « باب شرقى » معتقل ، زود بماء للوضوء وبسجادة للصلاة ، وبمجموعة نفيسة من كتب العلم والدين . .

لقد كانت السلطات البريطانية تعرف بواسطة جواسيسها وعيونها ، الصلة بين الشيخ اللبان وبين زعيم الثورة سعد زغلول - وسيجىء في صفحات مقبلة ، انهما كانا صديقين قبل الثورة بسنوات طوال - وتحفظ له بملف ضخيم يحوى اثناء نشاطه السياسى ، ومواقفه الجريئة في مناهضة السياسة الانجليزية خلال الحرب العالمية .

وفي صباح يوم ٧ ابريل ، اى بعد شهر ، افرجت هذه السلطات عن الشيخ ، وفي عصر ذلك اليوم - اى بعد ساعات من الافراج عنه - اصدر

اللورد اللبني نائب ملك إنجلترا في مصر ، وحاكمها المطلق ، المتصرف في أمرها ، لا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته . . أصدر منشورا وزع في أرجاء القاهرة ، وفي جميع أنحاء البلاد ، جاء فيه :

« بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان ، أعلن أنه لم يبق حجر على السفر ، وإن جميع المصريين الذين يريدون مباحرة البلاد ، تكون لهم هذه الحرية . وقد قررت علاوة على هذا ، أن كلامي : سعد زغول باشا واسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا ، يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر » .

فمن هو الشيخ عبد المجيد اللبان ؟

إن لمصر أبناء برة ، خدموها أجل الخدمات ، في صمت وسكون ، دون إعلان عن أنفسهم ، أو توجيه الأنظار إلى ذواتهم ، أو ضجيج حول أسمائهم ، لأنهم إنما يبذلون ما يبذلون من جهد وصحة ومال ، وكل عزيز وغال ، في سبيل الله والوطن ، خالصا من المباهاة والفخر والزهو .

خدموا وطنهم ، ومضوا إلى ربهم ، فلم يعرف كثير من مواطنيهم في مصر ، أو إخوانهم في الوطن الأكبر ، الوطن العربي ، عنهم شيئا .

من هؤلاء المخلصين الصامتين ، هذا الذي أتحدث عنه . وأروى للناس سيرته ، وما أعطرها من سيرة ، بين سير المجاهدين الاتقياء الشرفاء .

في مدينة جرجا بالصعيد ، كانت تقيم أسرة « اللبان » . ومنذ أكثر من قرن من الزمان ، كانت الأسرة تعمل في التجارة بين الوجهين : البحري والقبلي . لكن فريقا منها سافر إلى الوجه البحري ، واستقر في قرية « سنديون » التابعة لمركز فوه بمديرية الغربية — هي الآن تابعة لمحافظة كفر الشيخ — ومن هذا الفريق كان الحاج إبراهيم اللبان ، يحيا حياة هادئة رغدة ، فقد حباه الله الغنى والجاه والمنزلة الحسنة بين أهلها ، عاملا في التجارة وفي الزراعة معا .

وفي يوم ١٤ يوليو من عام ١٨٧١ ، رزق الرجل الطيب ، وليسا سماه « عبد المجيد » حتى إذا اكتمل نموه ونضج عقله ، الحقه ب « كتاب » الشيخ عبد ، فحفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ، وأخذ يعاون والده في أعماله — تجارية كانت أم زراعية — راضيا بهذه الحياة الوادعة الهادئة ، قائما بما يقضى الله عليه وعلى أبيه من رزق وفير ، وخير كثير ، فإذا أشرف على السابعة عشرة من عمره ، مزف عن هذه الحياة ، طامحا إلى حياة أرقى وانفع — في نظره — متأثرا في هذا بحادثين صغيرين رأهما ، فوفا من نفسه وقما عظيما .

لقد رأى والده ينحنى على يد شيخ شاب فيقبلها ، محتفلا به مرحبا ،
لأنه نال شهادة « العالمية » من الأزهر الشريف . .

ففكر وقدر ، أ يكون لهذه الشهادة من النفاسة والقداسة ، ما يدفع والده
المسن الوقور ، الى تقبيل يد هذا الشاب ؟

ثم . . .

بعد أيام رأى الاهالى وقد تركوا أعمالهم ، وهجروا منازلهم ، وخلفوا
وراءهم حقوبهم ، وهرولوا جماعات وافرادا الى مسجد القرية ، ليستمعوا
الى موعظة دينية يلقيها شيخ من شيوخ الأزهر ، اسمه الشيخ الحداد ،
فتحلقوا من حوله ، ملقين اليه آذانهم وافتسدتهم ، فى خشوع وسكون
واعجاب . فاذا انتهى من موعظته ، تسابقوا الى تقبيل يده ، وفى اطراء وعظه
والثناء عليه والدعاء الى الله أن يزيدہ علما وتشريفا .

فما لعبد المجيد وهذه الحياة الريفية التى يحيها فى القرية ؟ ولم لا يسمى
الى الأزهر ينهل من نهر علمه ، حتى يفقدو شيخا عالما مبعجلا ، كهذين
الشيخين ؟

لكن فتانا ، كان من عمد الأسرة ، يحمل من مسؤولياتها العبء الأكبر ،
فهل يرضى والده اذا فاتحه فى هذا الذى جاش بصدرة ، أن يدعه يسلك
هذا الطريق الكى اختار ؟

نعم . لقد كان الوالد سعيدا عندما حدثه ابنه برغبته فى الالتحاق
بالأزهر ، وأمدته بالنصح والرشاد ، وزوده بالدعوات الصالحات . . وأصبح
عبد المجيد طالبا أزهريا - فى عام ١٨٨٨ - يجلس فى حلقة هذا الشيخ ،
وينتقل الى درس ذلك العالم . وكلما تقدمت به السنون فى طلب العلم ، زاد
نجمه اشراقا ، وزادت مكانته لدى أساتذته وزملائه من الطلاب ، فقد تفوق
فى العلوم التى يدرسها جميعا ، وعكف على الأدب يدرسه كذلك ، فاتقن
الكتابة والخطابة ، وشارك فى الحياة الاجتماعية ، فكان دائم الاتصال
بميادينها ، وكذلك برز بين أقرانه . .

حتى اذا حل عام ١٣١٨ هـ - أى بعد ثلاثة عشر عاما فضلها طالبا -
رأى فى نفسه - وكان قد بلغ الثلاثين - القدرة على التدريس بالأزهر ، وعلى
النجاح فى « العالمية » ، وكانت يومذاك من ثلاث درجات : أولى ، وثانية ،
وثالثة ، طبقا لقانون صدر فى عهد الخديوى اسماعيل فى عام ١٨٧٢ ، لتنظيم
الأزهر .

فلأدع شيخ الأزهر ، الشيخ سليم البشرى ، يتحدث عن امتحان عبد
المجيد ، في « إعلان من مشيخة الجامع الأزهر » ، إلى حضرة الشيخ عبد
المجيد اللبان بن إبراهيم بن محمد الشافعى مذهبا ، من ناحية سنديون
بمديرية الغربية .

« انه بناء على المكاتبه المقدمة من حضرتكم الى مشيخة الأزهر بطلب
امتحانكم واذن لكم بالتدريس بعد ذلك ، قد استعلم ممن يوتق به في مثل
ذلك ، من حضرات افاضل العلماء المدرسين بالأزهر ، فشهدوا بتلقيكم
العلوم ، واهليتكم واستعدادكم لتدريسها بالأزهر ، وبحسن سيرتكم وسيركم ،
ثم عقد لكم مجلس من حضرات الاساتذة الافاضل : الشيخ حسن داود
والشيخ محمد طوموم المالكيين ، والشيخ محمد بخيت والشيخ محمد راضى
البحراوى الحنفيين ، والشيخ محمد حسن الأبربرى والشيخ سليمان العبد
الشافعيين ، وامتحنتم بحضورنا في يوم الأربعاء ٧ ربيع الأول سنة ١٣١٨ ،
في الأحد عشر علما المعينة بقانون الامتحان ، الصادر عليه الأمر العالى بتاريخ
٢١ رجب سنة ١٣١١ نمرة ٢ ، وأديت من حضراتهم الشهادة الانتهاية
باستحقاقكم للدرجة (الثالثة) ، طبقا للمنصوص في المادة الثامنة من ذلك
القانون . فلهذا كله قد اذناكم بالتدريس في الجامع الأزهر وفوضنا لكم
تدريس الكتب من علم النحو على التدرج لغاية شرح ابن عقيل ، ومن بقية
العلوم ما يضاهاى تلك الكتب حسب ما يناسب درجتكم ، وبذلك صرتم من
مدرسى الأزهر الشريف . ولما كتب لنظارة الداخلية بتاريخ ١٢ ربيع الأول
سنة ١٣١٨ نمرة ٥٠٢ للعرض عن ذلك منها على الحضرة الخديوية ليصدر
« البيورلدى » العالى - هو ما يعبر عنه اليوم بالرسوم - بالدرجة التى
تحصلتم عليها من لدن المرحم السنينة ، وردت افادتها بتاريخ ٣ جمادى
الثانية سنة ١٣١٨ نمرة ٦١٥ ، ومعها « بيورلدى » عال باسم حضرتكم مؤرخ
٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣١٨ ، مؤذنا بانكم من ارباب الدرجة (الثالثة) ،
وما هو مرفق مع هذا لحفظه عنكم . وقد نهنا بقيد ذلك في دفاتر الجامع
الأزهر ، حفظا لما صار . ونسأله تعالى التوفيق لاقوم طريق ، وحسن الختام
بجاء المصطفى عليه الصلاة والسلام » .

تحريرا في ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣١٨

الفقير سليم البشرى المالكى
خادم العلم بالأزهر
(ثم ختم الشيخ)

فماذا جاء في « البيورلدى » :

هو مؤلف من ستة أسطر كتبت بخط الرقعة - مائلة من الشمال الى
أعلا ، وبين كل سطر وآخر بياض نحو خمسة سنتيمترات ، وفي أعلاها الى
اليمين ختم بالحبر الأزرق للخديوى « عباس حلمى » ، واليك نصه :

« المدرس الفاضل والعالم الكامل حضرة الشيخ عبد المجيد اللبسان
الشافعى بن ابراهيم بن محمد ، من سندیون غربية ، زيد فضله وكماله .

« ورد لدينا شهادة من حضرة شيخ الجامع الأزهر ، ذروة الأعلام ، بأنه
صار امتحانكم بمجلس مشكل من حضرات السادة الافاضل القادة : الشيخ
محمد بخيت والشيخ محمد راضى البحرأوى الحنفیین ، والشيخ سليمان
العبد والشيخ محمد حسين الابریرى الشافعیین ، والشیخ حسن داود
العدوى والشيخ محمد طوموم المالکیین ، وانهم شهدوا لكم بما تلقیتموه من
العلوم والفنون ، بالبراعة والاتیقان ، واستحقاقكم الدرجة الثالثة بین العلماء
ذوى الفضل والعرفان . ولما كان السعى فى كسب المعارف من شرف الهمة ،
سيما علم الشريعة الذى يعظم به قدر الأمة ، ومن موجبات النجاح فى تزكية
الاخلاق وكمال الصلاح ، وكان مرضيا لدينا تجملکم بأوصاف الوقار ،
واستعدادکم بموجب من التشکر والفقار ، أصدرنا هذا المرسوم ، معلنا
بالدرجة الثالثة ، معنونا بالافضال ، باعنا بکم على الاجتهاد فى الترقى الى
٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣١٨

وتعتبر المدة التى قضاهما الشيخ طالبا ازهريا حتى فاز بالعالمية ، وهى
ثلاث عشرة سنة ، مدة قصيرة قياسية ، اذا قيست بما كان يقضيه الطلبة
فى تلك الأيام ، فان بعضهم كان يظل طالبا ربع قرن أو يزيد . .

وكان من أساتذته : الشيخ محمد البحرى فى فقه الامام الشافعى ،
والشيخ سليم البشرى فى التفسير والحديث ، والاستاذ الامام الشيخ محمد
عبده فى البلاغة والتفسير أيضا .

اما العلوم الحديثة ، فقد تلقاها عن محمد ادريس بك مدرس الرياضة
بدار العلوم العليا ، واسماعيل على بك صاحب كتاب « الجغرافيا الازهرية »
والشباب حسن صبرى الذى وصل بعد ذلك الى منصب رياسة الوزارة فى
٢٧ يونيو من عام ١٩٤٠ ، وظل شاقله الى ان توفى فى يوم ١٤ نوفمبر من
العام نفسه ، وهو يلقي خطبة العرش فى مجلس النواب .

ولعله من المفيد أن أذكر أنه في عام ١٢٨٢ هـ أرسلت رئاسة الحكومة الى مشيخة الأزهر تسألها عن العلوم التي تدرس فيه ، لتبعت بيانا بها الى لجنة معرض باريس . فقللت المشيخة : ان ما يدرس من العلوم هو « الفقه والاصول والتفسير والحديث (رواية ودراية) والتوحيد والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ومتن اللغة والعروض والقافية والحكمة الفلسفية والتصوف والمنطق والحساب والجبر والفلك والهيئة » .

ثم قالت المشيخة : « هذه هي العلوم المتداولة في الأزهر ، يقرأها العلماء لطلبتهم بحسب مراتبهم ، وما عداها كالهندسة والطبقة والموسيقى والتاريخ وغيرها ، يقرأونها لمن لهم اقتدار على تداولها ، الا أن المشتغل بها قليل لعدم رغبة الطلبة فيها » .

وكان كثير من العلماء يجيدون العلوم العقلية والطبية وغيرها ، زيادة على العلوم الدينية واللغوية . أذكر منهم على سبيل المثال الشيخ احمد عبد المنعم الدمهورى المتوفى سنة ١١٩٢ هـ . فقد جا في سند أجازته ما ملخصه : أنه تلقى في الأزهر العلوم الآتية ، وله تأليف في كثير منها ، وهي : الحساب والبيانات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والنزج والهندسة والهيئة وعلم الارتماطيقى وعلم المزاويل وعلم الاعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والمعجم . . . !

كان النظام الذي يسير عليه الأزهر ، منذ أصبح مدرسة جامعة ، نظاما سهلا ، يكاد يكون فطريا ، أساسه التقوى ، وقوامه احترام الدين وأهله .

وكان شيخ الجامع الأزهر هو المرجع الأعلى لمن فيه ، من اصغر طالب ، الى اكبر عالم . كلمته هي العليا ، وإشارته حكم ، وقوله الفصل في كل ما يختلف عليه . يوزع الاحباس والهبات ، ويجيز العلماء والمدرسين . وكان اذا أشكل عليه أمر استشار فيه أكابر العلماء .

وكان الطالب يدخل الأزهر مختارا بلا قيد ولا شرط ، ويختلف الى من أراد من العلماء لتلقى العلم عنه ، ويبقى بين جذرائه ما شاء ان يقيم . فاذا آتس من نفسه علما كافيا ، وملكة يتمكن بها من افادة غسيره ، استأذن اساتذته ، وجلس للتدريس في المكان الذي يجده خاليا ، ويعرض نفسه على الطلبة ، فاذا لم يجدوا فيه الكفاية انفضوا من حوله ، واذا وجدوه على علم استمروا في تلقيه عنه . . . سندئذ يجيزه شيخ الأزهر نهائيا .

فلم يكن للزهر قانون ينظم الدراسة بنظام معين ، فلما كثر الطلاب وتقدمت الدراسة وتنوعت العلوم كما رأيت ، واتسع نطاق الأزهر ، مست الحاجة الى سن قوانين وأنظمة لضبط كل هذا ، فصدر أول قانون للأزهر في عهد الخديوى اسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٢ء ، وقد اشترت اليه فى صفحة سابقة ، وكان شيخ الأزهر وقتذاك ، الشيخ محمد العباسى المهدي .

* * *

ما كاد نبأ نجاح الشيخ عبد المجيد وفوزه بالعالية يديع ، حتى اقبل عليه الطلبة راجين منه ان يقرأ لهم دروسهم ويلقنهم علومهم ، فنهج فى القائها نهجا جديدا لم يألفه الازهريون ، من دقة فى العرض ، وسهولة فى الشرح ، محللا معضلات الكتب الازهرية فى يسر مقبول . وسلك فى الوقت نفسه مسلكا تربويا عماده الحوار المهدب ، سعيا وراء الحقيقة ، مما لم يكن للأزهر به عهد ، فاتسعت حلقة درسه ، وأصبحت فى صف حلقات دروس كبار الشيوخ من أساتذته ومعلميه ، اذ كانت تضم المئات من الطلبة المصريين والعرب من جميع اقطار الاسلام .

ولعل حادثة عرضت له فى اثناء طلبه العلم ، هى التى مالت به الى سلوك هذا المسلك التربوى الذى حجب فيه الطلبة وقربه الى قلوبهم . ذلك أن جدلا ثار بينه وبين استاذه الامام الشيخ محمد عبده ، فى درس التفسير حول « القضاء والقدر » ، غضب بسببه الامام فأقصاه عن حلقة درسه . . لكنه لم يلبث أن دعاه الى منزله بالطرية ، وأعرب له عن رضاه عنه وعن تقديره له ، بعد أن تبين له ان هذا الجدل البريء ، لم يكن بتحريض من خصومه ، وكان خصوم الامام يومذاك لا يحصى لهم عدد .

ظل الشيخ اللبان فى القاء دروسه عامين ، لم يقبض عنهما راتبا ! ! بعدها قررت له المشيخة مائة مليم فى الشهر ، أى والله عشرة قروش لم تزد ! ثم أخذ هذا الراتب - ان كان يستحق ان يوصف بهذا - يزيد ويزيد ، حتى أصبح خمسة وسبعين قرشا ، مع أنه كان يدفع اجرا لسكنى منزله ، مائة وعشرين قرشا ! ! ولقد سمعته وهو يتحدث عن أيامه تلك ، انها كانت أسعد أيام حياته . .

بعد أربع سنوات آخر ، درس فيها - وفى العامين السابقين ، أى فى ست سنوات - لطلبته كتاب « الاشمونى فى النحو » ، وكتاب « العقائد النفسية » فى التوحيد ، وكتابا فى الفقه .

وكان من تلاميذه في تلك المرحلة ، الشيخ عبد المجيد سليم الذي شغل منصبى الافتاء ومشيخة الأزهر ، والشيخ فتح الله سليمان الذى كان رئيسا للمحكمة الشرعية العليا ، وغيرهما من أعلام الشيوخ .

في ذلك الأوان كان الاسكندريون يطالبون الحكومة بانشاء معهد دينى في مدينتهم ، فانها ، كما يرون ، أحق به من مدن طنطا ودسوق وأسيوط ، التى كان في كل منها معهد يسير على النظام القديم للأزهر ، فلبت الحكومة طلبهم وانشأت معهدا في مدينتهم في سنة ١٩٠٦ ، أرادت ان تجعل منه نموذجا لاصلاح التعليم الأزهرى على نحو جديد، يجمع بين خصائص القديم والحديث معا ، فاختارت له مشيخة الأزهر صفوة ممتازة من العلماء الشبان النابهين ليطبقوا النظام الجديد ، فكان شيخنا في طليعة من اختيروا لهذه المهمة الخطيرة الجليلة ، واختاره اخوانه ليكون قاضيا يفصل بين الطلاب اذا تخاصموا ..

كانت الاسكندرية تعاني نقصا نسبيا في الثقافة الدينية والعربية ، وفي حاجة ملحة الى قبس من هذه الثقافة يضىء مجتمعا ، فلم يكن بها من مصادر الثقافة العامة غير ثلاث مدارس أميرية ، وبعض المدارس الأهلية المتواضعة ، ومن مصادر الثقافة الدينية والعربية لم يكن بها سوى معهد دينى صغير هو « جامع الشيخ » يتعلم فيه عدد محدود من الطلبة ، كانوا يعملون بعد مغادرتهم له اثر انتهاء حلقات دروسهم ، أئمة بمساجدها ، او مدرسين للعربية في مدارس بعض الجاليات الأجنبية ، التى لم يكن يعنىها اشتراط ثقافة معينة في مدرس العربية بها .

ولهذا اثلج صدور الاسكندريين ظهور الشيوخ والطلبة في شوارع المدينة بزيمهم الدينى ، وبدأ المجتمع السكندرى يتفاعل معهم ويمتدح بهم .

في ذلك الحين نهض مصطفى كامل بدعوته الوطنية الى آفاق شتى ، وانعدت للشيخ معه ومع زملائه من رجال الحزب الوطنى ، صلات وثيقة نمت وترعرعت فيما بعد ، لا سيما صلته بكل من الشيخ عبد العزيز جاويش وعبد اللطيف الصوفانى بك .

فماذا كان عليه المجتمع السكندرى في مطلع هذا القرن ؟

او بعبارة اكثر شمولا : كيف كان حال الاسكندرية عاصمة القطر الثانية في ذلك الأوان ؟

في ظل السيطرة البريطانية والامتيازات الأجنبية - التي سمى الوفد المصرى الى الغائها في مؤتمر دولى عقد في مدينة « مونتره » بفرنسا في عام ١٩٣٧ وكان رئيس الوزارة مصطفى النحاس باشا - استطاع الاجانب الاستيلاء على ثروات البلاد وخيراتها ، واختار معظمهم ميناء الاسكندرية ميدانا لنشاطهم ، فهى ميناء الاستيراد والتصدير ، وهى مقر بنوك النجارة والاستثمار والتسليف ، وهى الى جانب هذا ، موطن الاكثريّة العظمى من أبناء جنسهم .

وفي نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، أصبحت مصائر الامور في الثغر المصرى ، في يد الجاليات الأجنبية ذات النفوذ المالى والتجارى والصناعى . وكان الاجانب يهيمنون على الهيئات النيابية المحلية التى تملك سلطة التشريع فى الشئون البلدية والمحلية ، اذ كان لهم معظم المقاعد فى « القومسيون البلدى » - المجلس البلدى بعد ذلك - وكان الاختصاص القضائى السائد فى المعاملات التجارية والعقارية للمحاكم المختلطة ، واكثر قضاتها من الاجانب ، وكانت سلطات الامن والبوليس بيد الحكمدار الانجليزى ، وكذلك الشأن فى مصالح البريد والجمارك و « الكورنتينات » - ومقرها جميعا فى الاسكندرية يومذاك - فان جميع مديريها وكبار موظفيها من الاجانب او من المتصرين . . حتى الوظائف الدنيا ، مثل محضرى المحاكم المختلطة وكتابها ومفتشى الترام ومحصلى ضرائب البلدية واجور الماء والكهرباء ، كان مرتزقة الاجانب ينافسون المصريين عليها !!

وكانوا يستغلون بورصتى العقود والاوراق المالية لصالحهم ، دون المصريين !!

كان لتلك الجاليات انديتها الخاصة بها ، وجمعياتها الخيرية والثقافية ، ومدارسها ومعاهدها لتثقيف ابناءها ، وزادت بعض جمعياتهم الخيرية ، فانشأت مدارس داخلية مجانية ، وملاجىء لليتامى والمحرومين ، وقبلت ابناء فقرائها فى مدارسها بالمجان .

ولم يكن للوطنيين من المدارس الاميرية غير مدرسة ابتدائية واحدة ، واخرى ثانوية بحى راس التين ، ثم انشئت المدرسة العباسية الثانوية فيما بعد ، فكانوا يضطرون الى ارسال ابناءهم الى تلك المدارس الأجنبية المتعددة ، رغم ما كان يسود منهاجها الدراسيه من انحراف دينى وقومى معا .

كان لأولئك الأجانب معظم المباني العالية والعمارات الشاهقة ، ولهم قصورهم التي يعيشون فيها عيشة الأثرياء المترفين ، بل الأمراء الناعمين ، وهي قصور ما يزال بعضها قائما الى اليوم ، تميزت بها الاسكندرية على غيرها من المدن . أما استغلال المرافق العامة كالنور والماء والمواصلات، وتجارة الصادر والوارد ، فقد كانت : اما ملكا لأفراد منهم ، أو احتكارا لشركاتهم . وكان المساهمون في هذه الشركات واعضاؤها ومدبريها وكبار موظفيها منهم ، ولهم النفوذ المطلق في البورصتين ، الأوراق المالية والعقود ، يحركون الاسعار فيهما صعودا او هبوطا لمصلحة أسهمهم وتجارتهم .

كانت مكاتبهم التجارية تملأ أهم شوارع المدينة ، وهي تعمل في تصدير محصولات البلاد ، وأهمها القطن عماد الثروة الأهلية ، وتستورد كل ما يحتاج اليه القطر من مواد ضرورية استهلاكية أو كمالية ، وتنقلها الى داخل البلاد . . . كانت مخازنهم مليئة بالسلع العادية وبالسلع الفاخرة . . . كان تجار التجزئة منهم يزحمون الشوارع والحارات والأزقة ، يبيعون للمواطنين أكثر ما يأكلون ويشربون ويلبسون . . كان بعض هذه الجاليات يتجر فيما هو محرم شرعا ، أو ممنوع قانونا ، فمنهم عصابات تحترف الاتجار بالمخدرات وبالرقيق الأبيض . . كانت لهم أساليبهم الخاصة في التهريب ، يمارسونها بعون من قناصلهم المشتركين معهم ، وبمساعدة جهاز البوليس الذي يشرف عليه الإنجليز .

ومع أن الاسكندرية لم تكن بلدا سياحيا من الدرجة الأولى بومذاك ، فقد فست بمجموعة من فنادق الدرجة الممتازة ، في مقدمتها فنادق « كلاريدج » و « ماجستيك » و « وسافواي » . . هذه الفنادق الفخمة كانت مرتعا للهوهم ولعبتهم ، ومجالا فسحيا لحياتهم المترفة الناعمة ، لا تضارعا حياة الساكنين من الأثنياء على شواطئ فرنسا وإيطاليا .

كانت لهم صحافة عالية الصوت تخدم مصالحهم ، وتدافع عن امتيازاتهم . من هذه الجرائد اليومية : « البورص اجبسيان » و « الريفورم » و « البروجريه » و « الاجبسيان جازيت » و « الفاردي الكسندري » و « المساجيرى » و « تاخودروموس » و « جورنال دى كير » ، وغيرها من الصحف الأسبوعية والشهرية عدا جريدة عربية لأسرة متمصرة هي أسرة رشيد شميل ، احتكرت بنفوذهم نشر اعلانات المحاكم المختلطة ذات الأجر المرتفع ، نحو أربعين عاما . فاقنتى أصحابها العمارات ، وأسهموا مع الأجانب في الشركات !! .

أرأيت ؟

كان للاجانب في الاسكندرية ، دولة داخل الدولة ، ونادرا ما كنت تسمع اللغة العربية واللجة المصرية في شوارعها وطرقاتها ومنتدياتها ، المزدحمة باولئك الضيوف الثقلاء ، والذين لا يتحدثون الا بلغاتهم وبلهجاتهم ، وبرطانتهم .. !!

أما اصحاب المدينة ، فكانوا مبعدين عن كل نشاط مالى أو اقتصادى أو صناعى يجرى على أرضهم .. يعيش الفنى منهم على ايراد ثابت محدود من ريع بعض العقارات القديمة ، أو من ادارة واستغلال الاملاك الموقوفة على أسرهم ، أو من مزاولة بعض النشاط التجارى الثانوى . أما غيرهم من أبناء الطبقة الوسطى ، فيعملون فى الوظائف الصغيرة جدا فى مصالح البريد والجمارك « والكورنتينات » و « القومسيون البلدى » وكانت ممارسة الاعمال التى تشبه أعمال السخره فى الميناء وفى المرافق الاخرى ، فى ايدى « معلمين » يستخدمون فيها عددا كبيرا من الكادحين النازحين من الصعيد الى الاسكندرية ، فى طلب القوت .

وكانت اقامة الوطنيين مركزة فى الاحياء الوطنية القديمة ، فالاعيان والتجار والموظفون يقيمون بقسم الجمرك ، واصحاب الحرف وعمال النقل والشحن فى ميناء البصل وميناء الاسكندرية يسكنون فى قسم كرموز ، الى ان تيسر للقادرين من الاهالى الانتقال الى قسم محرم بك أو ضاحية الرمل ، عند ما بدأ العمران يمتد اليها .

هذه هى الحال المؤلمة المحزنة التى كانت عليها الاسكندرية ، عندما وصل اليها الشيخ عبد المجيد اللبان ، للتدريس فى معهدىها الدينى الجديد فى عام ١٩٠٦ ، ورأى الاهالى يطوون جوانحهم على المل والمسكنة مكرهين ، يحاولون تحطيم هذا الحصار الذى فرضه عليهم الاستغلال الاجنبى الجشع الشره ، ليأخذوا مكانهم الطبيعى فى مدينتهم ، فلا يقوون . وحاولوا عبثا أن يحققوا لأنفسهم حياة كريمة ، تقوم - فى القليل - على المساواة بينهم وبين هؤلاء الوافدين الطامعين .

تسمر الشيخ عن ساعده ، وأقبل على معاونتهم لتحقيق هذه الآمال ، بايمان وعزم صادقين . فعمل أولا على هدم ما يقوم بين السياسة ورجال الدين من حواجز ، وشرع يشاطر الاهلين كفاحهم فى سبيل اصلاح مدينتهم ، ثم كفاحهم فى تحرير الوطن من المحتل ، مع كفاحهم لاسترداد المدينة من ايدى هؤلاء الفاصيين من الاجانب . وكان للشيوخ من ثقافته

العلمية الواسعة ، ومن اتصالاته العديدة بكثير من المواطنين المخلصين ، ومن شجاعته الأدبية النادرة ، ما أهله ليحتل مقام الصدارة والتوجيه ، في كل نضال نهض به شعب العاصمة النائية في جميع الميادين والمجالات ، فأصبح فيما بعد ، زعيم الاسكندرية ، أو شيخ السكندريين .

كانت أول خطوة خطاها في هذا السبيل ، ان جعل من داره الكبيرة التي اشتراها في صميم الاحياء الوطنية ، مقرا لندوات سياسية وثقافية ودينية ، تضم كبار العلماء والعيان المدينة وموظفيها ومثقفها من ذوي المهن الحرة كالاطباء والمحامين والتجار وغيرهم ، هادفا بهذا الى ايجاد رابطة وثيقة بينهم جميعا ، بالتعرف على بعضهم بعضا ، ثم بالتعاون على خير المدينة وأهلها . وكان يحضر بعض هذه الندوات من يفد على الاسكندرية من رجال العلم والسياسة والادب من القاهرة . في هذه الندوات كانت تعرض المشكلات المحلية أو العامة للمناقشة ، فاذا انتهى النقاش الى رأى معين في مشكلة ما محلية ، كلف كل فريق من الحاضرين بحل ما يتصل به من جوانبها . ثم خطا الشيخ خطوة ثانية ، فأسس « جمعية ارشاد الخلق الى الحق » لدعوة الناس الى التمسك بالدين والعمل باحكامه في أمور دنياهم وآخرتهم ، وكانت أمور الدنيا تشمل الواجبات الوطنية المفروضة على كل مصرى ، وما هو مطلوب منهم بدله في سبيل استقلال الوطن .

لقد ضمت هذه الجمعية مع اعضائها من العلماء ، اعضاء من جميع الطوائف - وكان من وعازها ودعاتها تلميذه الشيخ عبد المجيد سليم - وكانت توضع لها في كل اسبوع برامج مفصلة تشمل اسماء المحاضرين وموضوعات المحاضرات ومكان القاها ، كان بعضها يلقي في المساجد الكبيرة في مساء بعض الايام وعقب صلاة كل جمعة ، والبعض الآخر كان يلقي في سرادقات فسيحة يدعى اليها أبناء المدينة دعوة عامة ، ولم يكن المحاضرون أو الخطباء من العلماء وحدهم ، بل كان منهم المحامون والمثقفون لقافة عالية من الموظفين والادباء .

ثم خطا الشيخ خطوته الثالثة ، فالتجه الى ميدان البر والاحسان المنظم ، بعد ما هاله نشاط الأجانب في جمعياتهم الخيرية وبرهم بطوائفهم ، فأسس « الجمعية الخيرية لسكان قسم الجمرك » ، كمثال لما يجب أن تقوم عليه جمعيات البر في كل قسم من اقسام المدينة ، وعلى غرارها تأسس في معظم الاقسام جمعيات مماثلة ، فكانت أول جمعية من نوعها في مصر .

ولم يكن الغرض من تأسيسها جمع المال - ولا سيما في شهر رمضان -
وتوزيعه على المحتاجين ، أو المساعدة في تعليم أبناء المدينة الفقراء ، أو
توزيع الكسي عليهم في المناسبات والاعياد فحسب ، بل كان همه الأول من
تأسيسها ، هو تدريب الشعب على أعمال البر المنظم ، وإشاعة حبه في
النفوس .

ولا يزال بعض هذه الجمعيات قائما يؤدي رسالته بنجاح إلى اليوم
ماذا كانت نتيجة هذه الخطوات الثلاث ، لا سيما الخطوتان الأوليان ،
اللتان كان لهما دور كبير في ثورة سنة ١٩١٩ الخالدة ؟
اسمع ياسيدى . .

الف محمد سعيد بك رئيس نيابة الاسكندرية - وكان من رواد
ندوات الشيخ ومن الأعضاء جمعيته ، ثم كان رئيسا للوزارة مرتين الأولى
في عهد الخديوى عباس حلمى فى ١٣ فبراير سنة ١٩١٠ الى ٥ ابريل
سنة ١٩١٤ والثانية فى عهد السلطان أحمد قواد فى ٢٠ مايو سنة ١٩١٩
الى ٢٠ نوفمبر من السنة نفسها - رابطة من الأهالى للقيام بالاضلاع
الداخلى الذى يتطلع اليه السكندريون ، والسعى للفوز بحقوقهم المشروعة
. . فأسسوا أولا ناديا لهم سموه « النادى الخديوى » ليكون مقرا
لاجتماعهم ، بعد ما احتل الأجانب فرع نادى محمد على بالمدينة . ثم
أسسوا « جمعية العروة الوثقى » لنشر التعليم بين أهل الثغر ، فأنشأت
بعض المدارس الابتدائية والثانوية ، ثم مدرسة محمد على الصناعية ،
وملجأ الايتام الصناعى فى حى الشاطبى .

وهكذا شعر المواطنون للمرة الأولى ، بأنه قد أصبحت لهم مؤسسات
خيرية وتربوية مصرية تضارع مثيلاتها من المؤسسات الاجنبية .

واذ جنى المواطنون ثمر تضافرهم ، نظموا صفوفهم لخوض غمار
انتخابات « القومسيون البلدى » ، لشغل كراسى الملاك ودافعى الضرائب ،
لينضموا الى زملائهم الوطنيين المعينين بحكم وظائفهم ، ففاز بمثلوهم فى
الانتخابات ، ولهذا قوى الرأى الوطنى فى « القومسيون » ، واستطاع
الأعضاء الوطنيون أن يحدوا من تجاهل الأجانب ، حق الأحياء الوطنية فى
مشروعات الاصلاح والتعمير .

ثم خطوا خطوة اخرى ، لكنها واسعة ، فتعاونوا على اصدار جريدة
يومية تكون صوت الاسكندرية الناطق عن أهلها ، أمام طغيان الامتيازات
الاجنبية ، سموها « الأهالى » .

وكان هناك فريق من شباب الموظفين ، نجحوا في أسلوب انتهجوهم ، هو الالتحاق بالوظائف مهما كانت صغيرة ، ثم متابعة الدراسة الليلية للفوز بالشهادات العالية ، تم السعى الحثيث الدؤوب لشغل المناصب اللائقة بمؤهلاتهم الجديدة ، وقد وفعوا كل التوفيق في أسلوبهم هذا ، ووصل بعضهم الى مناصب المديرين في الجمارك وفي البريد ، منهم المرحومون : محمد فهمى عبد المجيد بك - والد الاستاذ عصمت عبد المجيد مندوب مصر في الامم المتحدة - وحسين فهمى بك وفد ولى وزارة المالية في ١٥ يناير سنة ١٩٤٩ في وزارة ابراهيم عبد الهادى باشا ، وعبد الرازق أبو الخير بك ، وعبد الرحمن زهدى بك .

ثم فكر محمد سعيد بك في انشاء ناد للموظفين ، فانشأ « نادى موظفى الحكومة » ، ولم يلبث اعضاءه ان انضموا الى القائمين بحركة الاصلاح الداخلى لمدينتهم ، ومن هذا النادى ، انبثقت « جمعية الواساة الاسلامية » المشهورة بمسنشفاها العظيم .

اما التجار المصريون ، فانشأوا اول غرفة تجارية لهم ، فكانت نواة اصلاح وتجديد في الميدان التجارى ، ثم صدرت جريدتا « التجارة » و« الجريدة التجارية المصرية » ، لخدمة التجارة الوطنية .

ارأيت ماذا فعلت ندوات دار الشيخ اللبان وجمعيته « ارشاد الخلق الى الحق » ، في شباب الاسكندرية واهلها ؟

لقد اعاد الرجل الى المدينة مصريتها ، بعد أن عراها منها الاجانب ، في كل مجال ، وفي كل ميدان .

نعم ، لقد مصرها من جديد ، وبث في اهلها روح الثقة بالنفس ، والاعتداد بالحق ، والشجاعة والاصرار في طلبه .

ولم يصرف السكندريين اهتمامهم بالاصلاح الداخلى لمدينتهم ، عن القيام بدورهم في معركة الاستقلال ومحاربة المستعمر ، بل ان هذا الاهتمام زادهم خبرة في نضالهم ، جعلت دورهم في المعركة الكبرى حاسما وف

ومنذ قيام حركة مصطفى كامل الى شوبوب ثورة سنة ١٩١٩ التى قاده الزعيم العظيم سعد زغلول ، ادت الاسكندرية الواجب عليها في ميدان الجهاد الوطنى بصدق واخلاص ، قدرهما فيها مصطفى كامل ، فحصل منها منبرا أعلن من فوقه مبادئ حزبه الوطنى من خلال خطاب سياسى ضاف ألقاه فيها في يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ .

في تلك الحقبة ، صدرت بالاسكندرية ، الى جانب جريدة « الأهالي »
التي كان يحررها الاستاذ عبد القادر حمزة - وهو من اعلام الصحافة في
ثورة ١٩١٩ الذين تفخر بهم مصر وتعتز ، فقد انتقل الى القاهرة وأنشأ
بها جريدة « البلاغ » ناطقة باسم الوفد المصري - جرائد « الامة » ورأس
تحريرها الاستاذ محمد الهياوى من فحول الكتاب الدين انجبهم الأزهر
الشريف ، و « الشعب المصري » ورأس تحريرها الاستاذ سعد اللبان النجل
الأكبر للشيخ ، و « وادى النيل » ورأس تحريرها الاستاذ محمد الكلز .
ومع انها كانت تصدر كلها في وقت واحد ، هو الصباح ، الا انها كانت
واسعة الانتشار .



ميدان آخر جليل الخطر ، اسهم فيه الشيخ بجهوده ، وناضل فيه
ماوسعه النضال الكريم الشريف ، دفاعا عن الدين وعن شريعة المسلمين
ففى الربع الأول من هذا القرن ، بدت في المجتمع المصري ظاهران
خطيرتان :

الأولى : موجة الالحاد التي حمل ميكروبيها بعض العائدين من الخارج
بعد ما اتموا دراساتهم ، متأثرين بآراء فجة استهواهم بريقها ، ودعايات
مسمومة لبعض المستشرقين انطلى عليهم زيفها ، فأخذوا ينشرون هذه
الدعايات في الصحف ، ويذيعونها في الأندية المشبوهة في محاضرات معبأة
بالشك في الاسلام وفي نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام ، فتصدى لهم
المؤمنون بدينهم ، الواعون حقيقته ، داعين هؤلاء الشبان المفتونين الى
العودة الى دينهم القويم ، خير دين أنزل على خير نبي . . كانت مقالات
الشيخ اللبان تحتل صدر صحيفة « الأهالي » ، مكان مقالها الافتتاحي ،
في كل صباح ، والمفتونون يردون على ما يكتب ، فيأخذ بتلابيبهم ، حتى
الزمهم الحججة ، فصلح حالهم ، وعادوا مسلمين ، بل من أفضل المسلمين
تقى وورعا وإيمانا .

وهنا لابد لي من أنوه بما كان من عمل مشكور للانبا يونس - بطريرك
القبط الارثوذكسى فيما بعد - فقد أزر الشيخ ووقف الى جانبه ، حينما
انتهزها بعض القبط فرصة ، فحاولوا النيل من الاسلام ، حتى خبفت
الفتنة ان تشيع بين المسلمين وبين اخوانهم الاقباط ، لكنهما بتضافرهما ،
حفظا وحدة الامة من التصدع والانهياد .

الثانية : تمثلت في ذلك النشاط الجريء الذى كان يديه المبررون الأجانب ، بما يصدرونه من مؤلفات تتناول بالنقد والتجريح كثيرا من المسائل الدينية الحساسة عند المسلمين ، كمسائل الميراث وتعدد الزوجات ، وتجاوز بعضهم الى الطعن الصريح فى الاسلام والمسلمين ، فى عظائمهم الاسيوية فى كنائسهم ، وتجرا آخرون فاستهوا بختلهم وخذاعهم شبانا وشابات من ذوى الفهم السقيم والعقل المريض ، فحولوهم من الاسلام الى المسيحية .

لم يقف الشيخ وزملاؤه العلماء متفرجين ، بل هبوا لمقاومة هذه الظاهرة الخبيثة ، بالرد على ترهات المبررين والوعاظ الخادعين ، لانقاذ ضحايا الجهل والفقر من ايديهم ، بعد أن اشتروا منهم أنفسهم ودينهم يدرهم معدودات .

وكان العلماء ينتظرون مؤازرة من الحكومة لاختتام هذه الفتنة الجامحة ، فلما لم تفعل ، أعلنوها صراحة فى بيان صريح شديد ، كان أول من وقعه شيخنا اللبان : « انه اذا لم يكف المبررون عن التغرير بالضحايا من ضعف العقيدة ، فان علماء الاسلام ، وقد التزموا حتى هذا الوقت الصمت ، احتراماً لمبادئ الاسلام التى تقرر حرية العقيدة لاهل الكتاب .. سينزلون الى الميدان ، وحينئذ يعلم المبررون ان ستكون الغلبة ، وسيهزم حقنا باطلهم ، وسيناصرنا الله عليهم ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » .

وكان لجماعة « ارشاد الخلق الى الحق » دور فعال فى هذه المحنة التى وقى الله الاسكندرية ، ومصر كلها ، شرها ، فكان اعضاؤها من العلماء يفتشون مجتمعات المبررين ويناظرونهم ويفسدون مواضعهم ، ويكشفون زيف تخرصاتهم امام الجميع ، حتى أخذت الفتنة ، وسكنت حركة المبررين ، وعادوا الى صوامعهم ، مؤثرين المسألة على ما تورطوا فيه من شر بعد كفاح مرير ، لكنهم فى الوقت نفسه ، أرسلوا الى الخديوى والى حسين رشدى باشا « رئيس النظار » شاكين باكين ، فدعا رشدى باشا الى مقابلته ، شيخ معهد الاسكندرية ، الشيخ أبو الفضل الجيزاوى - شيخ الأزهر فيما بعد - وحديثه فى الأمر بلهجة عنيفة ، مؤنبا العلماء فى شخصه ، على تكدير صفو الضيوف الأجانب !

فأجابه الشيخ الجيزاوى بصوت عال صارخ بالاحتجاج ، قائلا له :
- ان أمركم لعجيب يا باشا ! تتركون المبشرين يعيشون فى أرضنا
فسادا. ضد ديننا الحنيف ، ثم تحظرون على العلماء أن يهبوا لنصرة دينهم ،
هذا ما لا ينبغى أن يكون ..

وغادر مكتب رئيس النظار غاضبا .

ورفع الأمر الى الخديوى ، فطلب مقابلة رئيس هذه الجماعة التى
تصدت للمبشرين ، جماعة « ارشاد الخلق الى الحق » ، فذهب اليه
الشيخ اللبان ومعه اربعة عشر كتابا مما نشره المبشرون طعنا فى الاسلام
وأهله ، مما كان له تأثير قوى وحسن فى نفس الخديوى ، فقال لرشدى
باشا :

- لا تتعرض للعلماء ، دعهم يؤدوا الواجب عليهم نحو ديننا ، ما دام
هذا الاداء فى حدود القانون .

وذاع أمر هاتين المقابلتين فى الناس جميعا ، فارتفع شأن الجماعة ،
وشد من ساعدها ، وشجعها على العمل بداب ونشاط فى تثقيف الأهالى
وتعليمهم ، وأكد السكندريون زعامة الشيخ لمدينتهم ، بوفود احتشدت
بها داره ، معترفين بفضله ، شاكرين جهوده فى سبيلهم ، وكلما زادوه
اقبالا ، زادهم عملا وجهدا ، وبدل لهم من وقته وصحته ، ماخلد له فى
الاسكندرية ذكرا عطرا لن تمحوه الأيام .

وتقديرًا من اولى الأمر لجهوده ، صدر قرار بتعيينه عضوا بمجلس
ادارة المعهد فى ٥ أكتوبر ١٩١٣ .

وفى اغسطس سنة ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الاولى ، واعلنت
الإحكام العرفية بمصر ، وفرضت بريطانيا حمايتها عليها كما هو معروف ،
وتخرجت الأمور ، وساور القلق النفوس ، وازداد السخط على البريطانيين
لعسفهم وطفيانهم ، فقد اشتطوا فى تسخير موارد البلاد لخدمة مجهودهم
الحربى ، وازدادوا عسفا فجنّدوا العمال والفلاحين واستخدموهم فى
اعمالهم المدنية ، بعدما غصبوا خيولهم وحميرهم ، واستولوا على
محصولات البلاد الزراعية وأقوات الشعب لتموين جيوشهم .

وكما يعلم القارىء ، انضمت تركيا الى المانيا ضد انجلترا وحلفائها ، فكان من الطبيعي ان يؤيد المصريون تركيا وناصروها ، لما كان يربطهم بها من صلات مشهورة ، غير منكورة ، ولانهم كانوا يريدون الخلاص من الاحتلال الانجليزى ، على يد المانيا وحليفها تركيا .

وقدر الترك : انه اذا لم يستطيع المصريون ان يقدموا لهم في هذه الحرب العالمية المساعدات التى الفوها منهم ، في حروبهم ، وكانت تتمثل في مساعداً مادية تجمع من تبرعات سخية ، وخدمات صحية يؤديها الهلال الاحمر المصرى ، كما حدث في حروبهم مع ايطاليا في ليبيا ، وعن قبل في حروبهم مع اليونان والصرب والبلغار ، وهى الحرب المعروفة بـ « حرب البلقان » . . فان في استطاعتهم ان يقدموا لدولة الخلافة الاسلامية من المساعدات ما هو اكثر تأثيراً في الحرب ، من المعونة المادية . . . ان حركة شعبية مضادة يقوم بها المصريون ، سوف تضر بالجهود الحربى البريطانى وتلحق به اقدح الضرر ، ومن شأن حركة كهذه ان تنفيذ تركيا اعظم فائدة . .

فاعلم سلطان تركيا وخليفة المسلمين الجهاد ، واذاغ بياناً حضهم فيه عليه ، لانه جهاد في سبيل الله ، وناييد لدولة الخلافة الاسلامية في حروبها المقدسة ، وطلب منهم التطوع في جيشها ، او مدها بالمساعدات ، او الثورة على اعدائها في بلادهم . ووزع هذا البيان في جميع اقطار العالم الاسلامى ، ووصلت منه الى مصر الوف من النسخ ، رغم الرقابة المفروضة على المطبوعات ، الداخلى منها او الخارج . .

وخافت بريطانيا ان تلبى مصر النداء ، فترفع علم الجهاد وتثور عليها ، فتفسد عليها امرها ، وهى في حرب ضروس ، ولم يكن باستطاعتها ان تصنع في مصر شيئاً تفتت به تأثير هذا البيان ، فكلفت قاضى قضاة السودان ، العالم المصرى المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى - شيخ الازهر فيما بعد - ان يرد على البيان بفتوى دينية تقعد بالمسلمين عن تلبية نداء خليفتهم ، فنهض الشيخ بالتكليف ، فافتى بان زمن الجهاد الدينى - في رايه - قد انتهى ، وزاد فقال « ان ياب الجهاد في الفقه الاسلامى ليس من ابوابه الاصيله ، وان احكام الجهاد وضعت استجابة لنزوات الملوك والخلفاء لافراض سياسية وحربية ، وليس لها اصل في الدين ، ولولا خوف الائمة من بطش الخلفاء بهم ، ماكتبوا حرقاً في باب الجهاد » .

ونشرت جريدة « السودان » في الخرطوم ، هذه الفتوى ، وطبعت السلطات البريطانية الوفا منها وزعتها في البلاد الاسلامية التي يحكمها الانجليز وحلفاؤهم ، ونشرتها يومذاك في مصر جريدة « المقطم » وحدها .

عندئذ نزل الرأي العام ، وغضب العلماء وهاجوا ، لما في الفتوى من افتراء على الأئمة ، وتشكيك صريح في حكم من احكام الدين ، وكتب الشيخ اللبان مقالا مسهبا فند فيه هذه الفتوى « السياسية » ، بل حطمها ، ودفع عن الأئمة والعلماء الضعف والاستخداء في امور دينهم ، وابان كيف تعرض بعضهم للسجن والتعذيب على يد بعض الخلفاء ، لينزلوا على رايهم الباطل في محنة القول بخلق القرآن ، وأوضح حقيقة الجهاد في التشريع الاسلامي وما تستند اليه احكامه من الأدلة . . وارسل المقال كصادته الى جريدة « العلم » التي كان يصدرها الحزب الوطني بعد تعطيل « اللواء » ، فأعاده اليه صديقه الاستاذ أمين الرافعي رئيس التحرير ومعه كتاب رقيق قال له فيه : ان نشر هذا المقال معناه تعطيل الجريدة ، واعتقال الكاتب والناشر ، ومحاكمتها عسكريا .

ولكن أحد تلاميذ الشيخ ، هو المرحوم الشيخ عبيد الحميد النحاس ، وكان من الأدباء والشعراء البارزين في ثورة ١٩١٩ ، تحمس لنشر المقال ، فنسخ بخطه صورة منه وذيله بامضائه وبعث به الى « الجريدة » ، فضبطت رقابة البريد المقال ، واعتقل مرسله ، وحاول المحققون العسكريون الانجليز ان يعرفوا منه الكاتب الحقيقي للمقال ، لأنه غير معقول أن يستطيع شاب في مثل سنه كتابته ، فأصر على أنه هو كاتبه ، فقرروا نفيه الى مالطة ، فسيق اليها وبقي بها أربع سنوات ، حتى انتهت الحرب فاطلق سراحه .

وما لبثت السلطات البريطانية أن عرفت من عملائها ، صلة الشاب بالشيخ ، وتردده على داره ، فوقفوا على السر الذي عنه يبحثون ، فوضعوا الشيخ تحت الرقابة العسكرية الخفية طوال مدة الحرب

ومن الطريف أن الشيخ كشف بالصدفة أمر هذه الرقابة ، وعرف اشخاص المكلفين بها . ففي صباح ياكرو وهو في طريقه الى مسجد أبي العباس ليلقي فيه درسه اليومي ، اقترب منه شاب - كان يلحظه دائما قريبا منه - وقبل يده ورجا منه الصفح والمغفرة ! فسأله عن أمره ، فقال انه « المخبر السياسي » الجديد المكلف بمراقبته ، وكان له زميل قام بالمراقبة قبله ، فقد طفليه واحدا بعد الآخر ، في خلال ثلاثة أشهر ، « فاعتقد أن هذا انتقام من الله لقيامه بهذا العمل ضد فضيلتكم ، فاستقال من البوليس

السياسى ، وعينت بدلا منه مند اسبوعين . واليوم أصبح طفلى الوحيد مريضا ، وأخاف أن أفقده ، فقررت أن اطلعكم على امرى ، راجيا منكم الصفح والمغفرة !!

فطيب الشيخ خاطره ، ونصحته بأن يكون أمينا فيما ينقله من اخباره، وله بعد ذلك أن يطمئن الى رضاه عنه وعطفه عليه . وشفى الطفل باذن الله ، وبقي هذا « المخبر » ألزم للشيخ من ظله ، بل كان يحمل عنه ما قد يشتريه فى طريقه من سلع ، أو حافظة كتبه وأوراقه ، وكثيرا ما دعاه الى الغداء على مائدته

لقد أرادت هذه السلطات البريطانية أن تنفى الشيخ الى مالطة ، فأوعزت الى القائمقام أحمد فؤاد بك من كبار رجال ضباط القلم السياسى، بتعقبه وكتابة تقرير ضده ، على أساسه ينفذ النفى . وكتب التقرير وعاد الى بيته مهموما ، فسأله صهره والد زوجته ابراهيم رفعت باشا عن سر همه ، فأنبأه بما حدث وزاد فقال له انه غير مطمئن الى ما كتبه ، فنهزه وقال له : الا تعلم اننا - الشيخ وأنا - كشقيقين يحب كلانا صاحبه الحب كله ويرجو له كل خير ؟ ذلك لأن زوجتى - حمائك - ابنة الشيخ طموح - تعتبر نفسها من أبناء الشيخ للصلة القوية التى كانت تربطه بوالدها . فذهب واكتب تقريرا آخر ، سد فيه كل المسالك والشغرات التى يمكن ان ينفذوا منها الى سبب لنفى الشيخ . وصنع احمد فؤاد ما أرشده اليه صهره ، ومزق التقرير الاول ، وقدم التقرير الثانى ، فلم يجد الانجليز فيه من الأسباب ما يبرر النفى ، فعدلوا عنه

ولقد حدث فى سنة ١٩١٠ حادث كان الاول من نوعه ، اذ أصدر الشيخ سالم السحراوى قاضى المدينة الشرعى ، حكما بفرض نفقة على زوج لزوجتين له ، فأطلق الرصاص من مسدس ، كان يخفيه فى جيبه ، على القاضى ليقتله وهو فى مجلس القضاء ، ونشرت الصحف الحادث ، فكان مثار تعليقات وآراء حول دوافعه وأسبابه ، وألح بعضهم على « ناظر الحقانية » - وكان سعد زغلول باشا - أن يصدر تشريعا يحرم به تعدد الزوجات ، أو وضع قيود تحد من هذا التعدد ، حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث ، ولز بعضهم الشريعة الاسلامية فى بعض ما كتب . فانبرى الشيخ اللبان مدافعا عن الشريعة السمحة ، ونشر مقالا فى جريدة « المؤيد » عنوانه « لا تستظهروا على الاسلام » فند فيه آراء اولئك

الكتاب ، مظهرا زيفها وباطلها ، ثم أوضح وجهة نظر الاسلام في اباحة التعدد .. كل هذا في بيان شاف رصين ، وحجة ساطعة وأسلوب مقنع ، وطلب الى الوزارة الا تصفى الى هؤلاء الصالحين بالفساد والعبث ، فلا تقدم على تقييد الاحكام الشرعية ، لان فيها سعادة الناس جميعا لو كانوا يعقلون

كانت هذه المقالة اول اتصال للشيخ بالصحافة ، .. قراها سعد فأعجب بها . ودعا صاحبها اليه ليتعرف عليه ، فكان هذا اول لقاء بين الرجلين ، اعجب فيه كل منهما بأخيه

ولما قام سعد قومته الكبرى في سنة ١٩١٩ ، كان الشيخ في مقدمة الذين وقفوا الى جانبه ينصرونه ويؤيدونه ، فكان بيته في الاسكندرية « بيت الامة » ، فيه عقدت الاجتماعات الوطنية ، وفيه الفت اول لجنة مركزية للوفد مثلت فيها طبقات الشعب جميعا . ولهذا حينما خلى الانجليز سبيله ، في اليوم الذي خلوا فيه سبيل سعد وصحبه من مالطة ، غادر المعتقل الى بيته في موكب شعبي كبير ، وتألقت في انحاء الشجر مظاهرات ضمت الالوف تهتف بالاستقلال وبحياة مصر وبحياة سعد وبحياة الشيخ ، كانت بداية العمل الثوري الكبير الذي نهض به الشعب السكندري فيما بعد

وفي العام الأول من الثورة - عام ١٩١٩ - وبعد هبوبها بأشهر قلائل ، وسعد يجاهد في أوروبا ويناضل ويرفع صوت مصر مطالبا باستقلالها التام ، حدثت في الاسكندرية فتنة عمياء بين الأرمن والوطنيين ، سقط فيها عشرات القتلى من الفريقين ، كالفتنة التي حدثت في القاهرة في الوقت نفسه

فاستغل أعداء الوطن هذه الفتنة اشنع استغلال ، والقوا في روح الاقليات والأجانب أنهم معرضون للانتقام والأذى من المصريين ، وخشى الأرمن على أنفسهم ، فجمعوا جموعهم في كنيستهم ، واحتموا بها في حراسة جند من الانجليز ، ومد الشيطان رأسه وقودا للفتنة .. وهنا ظهر الشيخ اللبان في الميدان ، ليقدر رأس الشيطان ، وليطفئ نيران الفتنة ، فدعا سواسة الأرمن وبطارقتهم وكبراءهم الى الاجتماع في داره ، فلبوا الدعوة والفرع يأكل أفتدتم ، فأمنهم الشيخ على أنفسهم وعلى طائفتهم ، قالوا لهم : ان الوطنية المصرية أجل وأكبر من أن تحقد على مصري مهما كان

أصله أو ملته . ثم غادر الدار وهو يتوسطهم ، فطاف بهم المدينة ، وزار معهم كبراءها وأهل الثقة فيها ، فزادوا من اطمئنان الأرمن . وبهذا اجتثت جذور الفتنة ، وهذات المدينة تماما . ثم صورت صورتان : صورة للعلماء مع زعماء الأمن ، وصورة لهم مع قساوستهم ، كرمز لاتحاد عناصر الأمة

وكان عبد الخالق مذكور باشا - كبير تجار العاصمة يومها - في طريقه الى أوروبا سنتئد ، فأودعه الشيخ اللبسان هاتين الصورتين ليسلمهما الى الزعيم سعد زغلول في باريس . . واجتمع سعد بأعضاء لجنة ملنر في لندن قبل مجيئها الى مصر ، وعلى لسان أعضائها ألح الانجليز في طلب حماية الاقليات ، واحتجوا بفتنة الأرمن في الاسكندرية ، فأراهم سعد الصورتين ، فأفحهم ولزمتهم الحجة

لهذا لم يفت سعدا ان يذكر هذا الصنيع للشيخ ، فيشكره عليه في اول خطبة له بالاسكندرية فور عودته من الخارج

ووصلت لجنة ملنر الى القاهرة بعد ظهر يوم الأحد ٩ ديسمبر سنة ١٩١٩م ونزلت في فندق سميراميس ، فأثار وصولها هياجا واضطرابا ، وتآلفت المظاهرات ضدها في جميع أنحاء البلاد ، سقط فيها مئات من المصريين ، صرعى وجرحى ، واحتجت جميع الطوائف على قدميها ، حتى السيدات المصريات اجتمعن في دار البطريركية المرقسية وأصدرن بيانا شساوكن فيه طوائف الأمة الاحتجاج ، والفن مظاهرة كبيرة سارت من دار البطريركية الى شارع كامل (الجمهورية الآن) فميدان الأوبرا فشارع عابدين ، حيث اعترض طريقهن الجنود البريطانيون ، طالبين منهن التفرق ، فصوبوا البنادق الى سدورهن ، فازددن اصرارا على المضي بمظاهرتهن حيث يردن . فخنجل الانجليز ، ودعوهن ، فسنر في بعض الشوارع والجمهور يحييهن وينضم اليهن ، ثم تفرقن بارادتهن

وبعد ثلاثة اسابيع من وصول اللجنة ، أصدرت بيانا بمهمتها ، قالت فيه ان اللجنة اوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطاني ، للتوفيق بين آماني الأمة المصرية ، والمصالح الخاصة التي لبريطانيا العظمى في مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة لجميع الأجانب القاطنين في البلاد

ثم قالت اللجنة : « ونحن على يقين من انه يمكن الوصول الى هذا الغرض مع توافر حسن النية من الجانبين . واللجنة ترغب رغبة صادقة في أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر ، قائمة على اتفاق ودى يزيل أسباب الاحتكاك ، ويمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شؤون البلاد في ظل انظمة حكم ذاتى »

لقد لقي هذا البيان استياء من جميع الهيئات وطوائف الأمة بلا استثناء ، فرد عليه الوفد المصرى ، ورد عليه الحزب الوطنى ، ورد عليه امراء البيت المالك فى يوم ٣ يناير سنة ١٩٢٠ ببيان اختلفت فيه الآراء ، وقد قالوا فيه ،

— « أبناء مصر ، مواطنينا الأعماء

» يوم اقتضت الإرادة الصمدانية ايداع مصير مصر ، بين يدى من كان خالق مصر الحديثة وخادمها ، منقذ المصرى ومرشده ، الا وهو جدنا الأكبر وسيدنا الأعظم المرحوم محمد على الأول ، وجمعت القدرة الالهية فى شخص هذا البطل العظيم الحكمة والشجاعة فى أعماله ، مع الصدق والولاء نحو مصر ، فجعلت المشيئة الربانية أن يعقب هذا الشخص الجليل، ذرية تقطن هذه الأرض الطاهرة ، مغمورة بنعمها . . فرض الله علينا بهذا خدمة مصر واخواننا المصريين ، والسير على اثر جدنا الأكبر لتحقيق آماله الشريفة ، ولتتميم أعماله النافعة لبلادنا ، والمطالبة بحقوق مصر والمصريين . وحيث ان الأمة المصرية الشريفة ، التى هى سبب عظمتنا ، وشوكتنا وفخارنا ، قد قامت بالواجب عليها قيما يجعل لها ولنا أعظم منزلة نتفاخر بها فى العالم بأسره ، وبما انه لم يبق من جميع طبقات امتنا العزيزة ، طبقة الا نادى بأعظم صراحة وأجلى بيان ، مطالبة بحقوقها الشرعية المقدسة والحقة ، فقد جئنا نحن أولاد محمد على ، لا لنشارك امتنا فى أمانيتها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا الى صدر أفرادها ، ونجعل أيدينا فى أيديهم ، حيث أننا لسنا الا روحا واحدة ، حتى تكون اجسما لا يتر ، وقوة لا تقهر ، فنطالب بحقوق وطننا ، نطالب بحقوق امتنا ، نطالب بحقوقها الشرعية ، نطالب باستقلال مصرنا استقلالا تاما مطلقا ، بلا قيد ولا شرط »

ووقع على هذا البيان الأمراء : عمر طوسون وكمال الدين حسين
ومحمد على ابراهيم ويوسف كمال واسماعيل داود ومنصور داود

وأرسلوا في اليوم نفسه مذكرة الى اللورد ملتر رئيس اللجنة ،
تضمنت ما جاء في البيان

وبعد اربعة ايام ، وبعد ما نار لفظ وجدل وتقاش حول هذا البيان
مع صراحته ، نشرت « الاهرام » حديثا دار بين الامير طوسون وبين الشيخ
اللبان ، قال فيه :

« لما كانت الأمة المصرية تحفظ لسمو الامير الجليل عمر طوسون
باشا ، آثاره النافعة في خدمة البلاد ، وتقدير جهاده الصادق في سبيل
تحقيق امانى الوطن ، وتعترف له بالسبق في سبيل المكرامات وتعضيد
المشروعات النافعة ، وكانت كل دعوة تصدر من سموه تقابل من الأمة
بالاهتمام اللائق بمقامه الكريم ، كان لبلاغ حضرات أصحاب سمو الامراء
الآخرين ، حركة فكرية ظهر أثرها على صفحات الجرائد ، وعلى السنة
الخطباء ، وتناول بعض الكتاب البلاغ للنظر في أسلوبه ومعناه ، وفي
الظروف التي صدر فيها ، بعناية كبير كادت تبعد بهم عن النظر في مشروع
الاتفاق ، وتحول بعض الجهود المهمة عن الاتجاه النافع

« ولما كنت اعتقد ما يعتقده كل مصرى ، من أن وفرة اخلاص سمو
الامير وشغفه الزائد بان تنال البلاد حقوقها كاملة ، هما اللذان حملاه على
التقدم بهذا البلاغ الى الأمة ، ورأيت بعض الناس قد بعدوا عن فهم المراد
من هذا البلاغ ، انتهزت فرصة عودتى الى الاسكندرية ، والتشرف بزيارة
سمو الامير ، فحدثت سموه فيما يقصده حضرات أصحاب سمو الامراء
من هذا البلاغ ، الذي فهم منه بعض الناس انه قصد به التأثير في الراى
العام لحمله على خطة معينة . فأجابنى حفظه الله بأنه يقدر جهاد العاملين
حق قدره ، وتسره نهضة الأمة واحتفاظها بحقوقها . وأنه وان كان رأيه
الخاص الذي يتمسك به كل التمسك ، هو وجوب حصول البلاد على
حقوقها كاملة غير منقوصة ، فهو يحترم راى الأمة ، لانه راى الجماعة
التي يثبتم احترام رأيا ، وان بلاغ الامراء انما هو مجرد ابداء لرأيه
كأفراد مصريين يودون لامتهم نهاية الكمال ، وأنه لا يقصد به التأثير
في الراى العام أو تحويل اتجاهه ، وان كل راى تراه الأمة فهو يحترمه
ويجله ، وان شعاره سيظل دائما النهوض بمصر والعمل لإبلاغها السعادة
التي يجب أن يتمتع بها الشعب المصرى العريق ، وان هذا المعنى هو الذى
تشير اليه خاتمة بلاغنا ، حيث أسندنا الأمر فى النهاية الى الأمة ، وجعلنا
لها الكلمة العليا فى مشروع الاتفاق

« فشكرت لسموه هذا الاخلاص السامى ، وتلك الغيرة المحموده ،
واستأذنته في اذاعة هذا ، حتى يدرك جمهور الأمة المرمى الحقيقى الذى
قصد مرر هذا البلاغ ، فاذن سموه بذلك وأقره

« تلك هى العاطفة الجليلة التى دعت حضرات أصحاب السمو الامراء
الى التقدم بابداء رأيهم الذى هو غاية الاخلاص ونهاية الرغبة الاكيدة في
خدمة البلاد ، مع احترام رأى الجماعة والنزول على حكمها . وذلك مظهر
من أجل مظاهر الديمقراطية الصحيحة ، نضيفه مآثره أخرى الى مآثرهم
الخالدة

« فالى الشعب المصرى الناهض الذى يقدر اخلاص العاملين وجهاد
المجاهدين قدره ، والى الأمة المصرية الكريمة الراقبة في الحياة الحرة ،
أعلن هذه الحقيقة الناصعة ، احقاقا للحق وازهاقا للباطل ، سائلا المولى
عز وجل أن تنجح مقاصدنا ، وان يديم هذا التساند والتعاقد بين الأمة
وامرائها العاملين الأحرار ، وان يوفق الساعين لخلاص البلاد الى أقوم
سبيل انه سميع مجيب »

* * *

ولقد ساهم الشيخ في معارضته لمشروع لجنة ملنر ، في اجتماع كبير
نقد في دار البلدية وخطب فيه كثيرون ، كان آخرهم شيخنا الجليل ،
فنهض معارضا المشروع ، مبديا عليه « تحفظات » ، كان أول من نادى
بها ، وتبناها المفاوضات فيما بعد

ان خواطر المصريين لم تهج لقدوم اللجنة الى القاهرة ، بل لقد فرغت
يوم أعلنت لندن نبأ تأليفها في يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٩ ، فعمت
مظاهرات الاحتجاج القطر كله ، من الاسكندرية الى اسوان ، وفقد الإنجليز
وعبيهم ، فأطلقوا رصاصهم على المتظاهرين ، فقتلوا مئات من الشباب
والفتيات والشيوخ ، راحوا ضحية جنون المستعمر وفقدانه عقله ووعيه

وفي يوم الجمعة ٢٤ أكتوبر تزعم الشيخ اللبان مظاهرة كبرى خرجت
من مسجد أبى العباس المرسى عقب صلاة الجمعة - وقد أم فيها المصلين -
وانضم اليها الأهالى حتى بلغ عدد السائرين فيها نحو عشرين ألف متظاهر ،
ساروا في شوارع المدينة ، هاتفين بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ،
صائحين بسقوط لجنة ملنر ، فتصدى لهم رجال البوليس المصرى ، ثم

الانجليز بفصيلة من جيشهم ، اعملت رصاصها في الوطنيين العزل ، فسقط خمسة قتلى ونحو عشرين جريحا ، عدا بعض ضباط البوليس الذين اصابتهم جروح ايضا

كان لهذه الفعلة صدى قوى في أنحاء البلاد ، فاستقال محافظ الاسكندرية حسن عبد الرزاق باشا ، ودعا الشيخ اللبان اعيان المدينة وكبراءها الى اجتماع في داره ، حيث وقعوا مذكرة شديدة باحتجاجهم على استعانة رجال البوليس المصرى برجال الجيش الانجليزى ، وذهب بها وفد منهم الى محمد سعيد باشا في داره ، وكان في الاسكندرية يومذاك ، فاعتذر عن عدم مقابلتهم ، فأرسلوا اليه برقية احتجاج صارخ على هذا الاعتذار

وكان الوفد مؤلفا من الشيخ اللبان والاستاذ محمد صادق ابو هيف والاستاذ محمد حسين العراجى والدكتور أحمد عبد السلام والشيخ عبد الحميد احمد باشا واليوزباشى أحمد نبيه قيودان

وتضمنت المذكرة هذه الطلبات :

- ١ - سحب الجنود البريطانيين من المدينة
- ٢ - الافراج عن جميع المعتقلين في الحوادث التى حدثت
- ٣ - التحقيق لمعرفة من المسؤول عن دعوة فصيلة الجيش البريطانى
- ٤ - اباحة حرية الاجتماعات
- ٥ - اعانة عائلات القتلى
- ٦ - نقل مأمور قسم الجمرك واحالته الى مجلس تأديب

فلنكمل الشوط مع الشيخ في مراحل حياته الحافلة
لامر ما لى القسم العالى بمعهد الاسكندرية في عام ١٩٢٣ ، فنقل مدرسا بالقسم العالى بالأزهر ، فمفتشا عاما للمعاهد ، فرييسا لقسم الوعظ ، فشيخا للقسم الثانوى ، ثم شيخا للقسم العالى

في تلك السنة ، صدر الدستور المصرى ، وأجريت الانتخابات لأول برلمان مصرى ، فرشح نفسه لعضوية مجلس النواب عن دائرة « عرب ابو مندور » بمديرية الغربية ، ففاز بها ، واشترك في النادى السعدى - نادى الوفديين انصار سعد زغلول - ودفع خمسين جنيها هي قيمة الاشتراك السنوى في النادى ، كما يرى في الصورة الزنكوغرافية التالية لاىصال المبلغ

٢٧٣.

م ١٨ - « رجال ومواقف »

الإذاعة الشامية

شركة مدينته رأسمالها المدفوع

مقتمة الـ

حصة قيمة كل حصة جنيه واحد

تأسس بموجب قانون النادي الصدوق عليه من الجمعية العمومية

بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٩٢٢

مستند يبلغ جنيه قيمة حصة واحدة

باسم مرة ما سلفه يد بفتح شريفه

نمرة

تحريراً في ٢٩ من شهر ١٩٢١

شبرا النصارى



وفي ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ صدر أمر ملكي بتعيينه عضواً في مجلس إدارة الأزهر

وفي ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٩ صدر أمر ملكي بتعيينه شيخاً لمعهد الإسكندرية ، وكان شيخه شيخاً لعلمائها

وفي ٣ أغسطس سنة ١٩٣٠ صدر أمر ملكي ثالث بتعيينه عضواً في هيئة كبار العلماء ، مع الانعام عليه بكسوة التشرية العلمية من الدرجة الأولى

وفي هذا العام بدأ لبعض المثقفين من اخواننا القبط أن يحاولوا التصغير من شأن الاسلام ، وتحقير تعاليمه ومبادئه ، في محاضرات ألقوها في بعض الأندية ، وكادت أن تكون فتنة طاغية جارفة ، وإذا بالشيخ اللبان يرسل الى غبطة بطريرك الأقباط الأرثوذكس ، الكتاب التالي ، أنقله بحروفه أ « حضرة صاحب الغبطة الحبر الجليل ، الأنبا يوانس بطريرك الأقباط بمصر

» أهديك التحية اللائقة بمقامك ، وأرجو لك ما تحب من الصحة والعافية ، وبعد : فاني أكتب اليك في موضوع خطير يهمنا جميعاً . وأنا

ممن يقدرّون فيك صفات الرجال ، ويعتقدون أنك ممن يزنون الحوادث
بميزان الحكمة والتبصر

« لقد عملنا سويا أيام كنا بالاسكندرية على اتحاد عنصرى الأمة
العزيرة ، وكان لعملنا أثره فى مصلحة الطائفتين : الاسلامية والقبطية »
فجنت البلاد من وراء هذا الاتحاد ، ما حفظ كرامتها وأبقى على نهضتها .
وانه لمن دواعى الاسف الشديد لدى ، ان أرى اليوم فريقا متهوسا ممن
ترعاه الكنيسة المرقسية ، يعمل على هدم ما بناه العقلاء ، ويدبر الحملات
الطائشة ضد الاسلام ، دين الدولة الرسمى ، معرضا بذلك قضية الوطن
لأعظم الاخطار ، فان أكبر ما أخشاه أن يقابل المسلمون عمل هؤلاء المفترين
بمثله ، بل لا أنكر عليك أن من بينهم من حدثته نفسه فعلا بذلك ، وهم
برد كيد المعتدين ، رغم ما يأمر به ديننا فى مثل هذا الشأن ، إذ يقول الله
فى نهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون
الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم »

« وثق انه لولا ما تعلمه من شدة معارضتى ، لنزل الى ميدان العمل
كثير ممن جاشت نفوسهم وثاروا عواطفهم ، غير مكثرئين بالعواقب

« والرأى عندى أن خير الطرق لاطفاء الفتنة واعادة الصفاء الى
النفوس ، أن تقوموا من جهتكم بما يفهم هؤلاء المعتدين وغيرهم ، أن فى
عملهم خروجا عن حدود اللياقة ، وتعاليم المسيح عليه السلام ، فانها تخرم
الافتراء والكلب خصوصا على الأديان المقدسة

« يا صاحب الغبطة : هذا كتاب صاحبك القديم ، بدموك به الى أن
تقوم بقسطك من العمل على دوام الصفاء بين الفريقين ، فان الأمة فى حاجة
اليه ، فى هذا الوقت الذى تجتاز فيه أشد مراحل حياتها خطورة . وانى
لاود ان أعلم منك برجوع البريد ، ما اعتزمت عليه ، والسلام على من اتبع
الهدى

« وختاما تقبلوا احتراماتنا »

١٨ العقدة سنة ١٣٤٨

١٧ ابريل سنة ١٩٣٠

عبد المجيد اللبان
بالاسكندرية

هذه هي الوطنية في اسمي معانيها ، وهذا هو حب الوطن في أروع
صوره .

لم يطلب احد من الشيخ أن يصنع شيئا ، ولكنه يدافع من غيرته على
بلاده وعلى دينه ، كتب الى البطريرك هذا الكتاب العظيم
لقد طلب منه الشيخ أن يرد عليه برجوع البريد . . فهل لبي البطريرك
طلبه ؟

نعم . فلقد أرسل رده عليه في ١١ برمودة سنة ١٦٤٦ : الموافق ١٩
ابريل سنة ١٩٣٠ ، وقد قال له فيه : ما أنقله هنا بحروفه أيضا :

« حضره صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان

« أهديك تحياتي وسلامي ، وأتمنى لك كل صحة وقوة ، ويعد :
فقد جاءني كتاب فضيلتك ، وأشكر لك صادق ودك وحسن ظنك . والواقع
ان هذا الموضوع الذي كتبت لى عنه ، يهمنى كما يهمنك ، فأنا أحرص
الناس على وحدتنا الوطنية ، التي تعيننا معا ، في الاسكندرية ، في توثيق
عراها ، وبذل كثير من أبناء العنصرين جهودا شريفة في سبيل توطيد
دعائهم ، فاذا وجد فرد أو أفراد يعملون لهدم هذه الوحدة المقدسة
بالظن في الدين الاسلامى الذى هو دين اخواننا ومواطنينا الكرام ، وتقوم
الأدلة على اثبات جرمهم . فانهم يكونون من شر الجناة على الوطن ، وأنا
أول من يستنكر عملهم ، ويستفزع جريمتهم بلا جدال ، فان الدين
المسيحى لا يجيز هذا الاعتداء على الاطلاق ، بل هو بالعكس يحض على
محبة الاعداء ، فكيف بالمسلمين وهم اخواننا في الوطن ، وشركاؤنا في سراء
الحياة وضرائها ، وتجب علينا محبتهم واحترامهم واجلال دينهم ؟

« على انه قد يهمن فضيلتك ان تعرف ان الشخصيين اللذين اتهمنا
أخيرا بالظن في الدين الاسلامى ، وباتا رهن المحاكمة ، وفضيلتك تشير
اليهما بالطبع في كتابك ، ليسا من الأقباط الأرثوذكس كما ظننت ، وليس
معنى ذلك ان أى طائفة أخرى من الطوائف المسيحية تبيح الظن في
الاسلام ، فان الدين اللذين ندين به ، هو بعينه الذى تدين به تلك الطوائف
وهو يأمرها كما يأمرنا بالمحبة والسلام ، وينهاها عن كل ما يخالفهما ،
ولا سيما اذا كان جارحا لاقدس العواطف ، وأعنى بها العاطفة الدينية

« وكن على ثقة يا فضيلة الأستاذ ، انه لا يجرؤ على الظن في الاسلام
وهدم الوحدة الوطنية من الأقباط الأرثوذكس اللذين هم تحت رئاستنا ،

ومن غيرهم من الطوائف الأخرى ، إلا أحد اثنين : أما مدخول في عقله لا يقدر عاقبة فعله ، أو مدسوس على المسيحيين محرض من فئة مفرضة لاثارة فتنة ، والقانون لكليهما بالمرصاد

« وانما كتبت لك هذا لتكون على يقين لا يخالطه ريب ، من انى استهجن كل الاستهجان ، الاقدام على الطعن فى الدين الاسلامى الكريم ، وانا عالم ان جميع ابنائى الاقباط الارثوذكس يقرون كل كلمة مما فى كتابى هذا

« وتقبل شكرى واحترامى »

يوانس

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

وكما قال البطريرك فى كتابه ، فان المتهمين بالطعن فى الدين الاسلامى ، دعيا للتحقيق معهما واحيلا الى المحاكمة ، والحمد لله فقد خيب الله املهما ، ولم تقم الفتنة التى كانا يبغيانها

اعود الى الشيخ فاقول انه صدر امر ملكى رابع فى ١٢ يونيو سنة ١٩٣١ بتعيينه شيخا لكلية اصول الدين ، وكان قبله صدر القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ بانشائها ، وبدأت الدراسة بها فى ٣ اكتوبر سنة ١٩٣١ ، وافتتحها الملك فؤاد رسميا فى يوم الثلاثاء ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣ - ١٢ ذو الحجة سنة ١٣٥١ هـ

فى صباح ذلك اليوم ، ازدحمت ساحة الكلية - وقد اتخذت دارا لها مدرسة الخازندارة بشبرا التى شيدها خديجة هانم بنت محمد راعب اغا معتوق الخديوى عباس الاول ، وأوقفتها فى سنة ١٩١٢ - سنة ١٣٣٣هـ على دراسة الدين والقرآن - بالعلماء والوزراء والشيوخ والنواب والكبراء ، فى انتظار الملك لافتتاحها رسميا فى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر

ووصل الملك ، واستقر به المقام بعد مراسم الاستقبال فى السرادق المعد للاحتفال ، ووقف بين يديه شيخ الأزهر فضيلة الشيخ محمد الاحمدى القلواهرى ، فخطب خطبة ضافية قال فيها :

- « ... العناية يا مولاي بالأزهر الشريف ، هى العناية بالدين الاسلامى وبالمسلمين اينما كانوا وحيثما وجدوا ، فهو قلب الاسلام النابض ،

وعلمه الحماق ، ومصباحه الوهاج ، الذى تعاقت عليه الأجيال والقرون ، وهو يرسل أشعة الايمان والتقى ومكارم الاخلاق الى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو كعبة العلوم الدينية والعربية التى تحج إليها الوفود الاسلامية من جميع القارات ، ليتفقهوا فى الدين ولغة القرآن الكريم ، وينشروا ذلك فى قومهم اذا رجعوا اليهم

« ولقد كان من اجل مظاهر هذه العناية الملكية ، ان اشترتم باعادة تنظيم الأزهر على وجه يحقق آمال المسلمين فيه ويتناسب مع تاريخه المجيد ، ويعد خريجه للقيام بالواجب الملقى على عاتقهم فى هذا العصر ، على احسن وجه ويجعلهم رجالا عاملين فى أسرة العلم ، ذوى عقلية راجحة ، ملمين بما ينبغى أن يعلم من المعارف وشئون الحياة ، كى يستعينوا بما وصلت اليه العلوم والفنون فى تقدمها ، على كشف ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، من حقائق تكلم عنها الاسلام ، قبل أن تعرض فى الناس بأكثر من ثلاثة عشر قرنا .

« ولقد عودكم الله التوفيق فى جميع اعمالكم ، فاصدرتم جلالتم القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ، وافيا بهذه الاغراض السامية ، مع المحافظة على صبغة الأزهر الدينية والعربية .

« وكان من أكبر مزايا هذا القانون ان انشأ كليات : أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية ، وجعلت ابوابها مفتحة لجميع الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم ، واستدرك ما كان فى القوانين السابقة من نقص فى مواد التعليم على اختلاف مراحلها ، فجعل من مواد الدراسة فى الكليات : تاريخ التشريع الاسلامى ، ومقارنة المذاهب ، وفن الحديث دراية ورواية ، وآداب اللغة العربية وتاريخها ، وفقه اللغة ، وتاريخ الامم الاسلامية ، وعلم النفس ، والفلسفة مع الرد على ما يكون منافيا منها للدين ، وما الى ذلك من مواد لم تكن تدرس فى القسم العالى من قبل . »

الى أن قال :

« . . . وهذه يا مولاي كلية أصول الدين التى غايتها تخريج الوعاظ والمرشدين ، وتحقيق قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

« وقد اجتمع فى هذه الكلية ، الى أساتذة التوحيد والتفسير والحديث ، أساتذة علم النفس والاخلاق والفلسفة والتاريخ وسنن الله الكونية ، يتعاونون

على تزويد الطلاب بما يعدمهم للقيام بواجب الوعظ والارشاد على اتم وجه يليق بهذا العصر .

ثم بدأ الملك زيارة بعض فصول الدراسة ، واستمع الى ما يلقي فيها من محاضرات ، وانتهى الى مكتب شيخ الكلية ، الشيخ اللبان ، فكتب في دفتر الزيارات كلمة أعرب فيها عن اعجابه بما رأى وبما سمع . ثملقى الشيخ كلمة بين يديه ، قال فيها :

— « أحمده الله تعالى اليكم ، وأسأله جل شأنه دوام النعمة عليكم ، وارفع الى مقام جلالكم اسمى آيات الحمد والاجلال : وأخلص معاني الشكر والاعتراف بالجميل ، على تفضلكم بافتتاح كلية أصول الدين ، احدى مظاهر النظام الحديث للازهر الشريف .

» وان الأزهر المعمور الذي ظل منار العالم الاسلامى عشرة قرون كاملة ، يبعث النور فى جوانبه ، ونشر الهداية والارشاد فى أقطاره ، والذي يسر بفضل رعايتكم اسباب العلم لأبنائه ، ومهد سبيل الثقافة الاسلامية للوافدين منهم على مصر ، ليعتز اليوم بهذه الزيارة المباركة ، ويعتبرها تكريما للرسالة العظمى التى يؤدبها للمسلمين .

» فاذا وقف اليوم بين يدي جلالكم شيخ كلية أصول الدين واساتذتها وموظفوها وطلابها ، يرفعون الى جلالكم آيات الشكر على ما اوليتموهم من الشرف الرفيع بهذا العطف السامى ، فانما يقفون ومن ورائهم كافة الامم الاسلامية التى نصرت دينها ، وعمرت مساجدها ، ونشرت كتابها ، وقمت حارسا عليه ، يرددون جميعا آيات الشكر لجلالكم على ما تبدلون فى خدمة الاسلام وتثبيت قواعده ، واعلاء كلمته ، ويبتهلون الى الله تعالى ان يحفظ لمصر مليكها المؤمن ، ملاذ المسلمين وقبلة آمالهم ومعقل رجائهم .

» وها هى كلية أصول الدين التى ارجو ان تؤدى مهمتها بما يرضى الله تعالى وينال عطفكم ، بنتهز رجالها فرصة هذا اليوم السعيد ، ليعاهدوا جلالكم على أنهم لا يدخرون جهدا فى سبيل القيام بواجبهم الذى اضطلعوا به لخدمة دين الله ونشر تعاليمه .

وكان من عادة الشيخ ان يلقي خطابا فى اليوم الاول من كل عام دراسى ، يتخذة الاساتذة والطلبة نبراسا ينير لهم السبيل الى ما ينفعهم ويعود عليهم وعلى الدين وعلى المسلمين بالخير والنفع .

ولبت الشيخ عميدا للكلية التي جمعت طلبة من شتى الاقطار الاسلامية، الى ان احيل الى التقاعد ، لكنه ظل هاديا ومرشدا الى الحق والى الطريق القويم . الى ان دعاه الله الى جواره الكريم في ١٣ نوفمبر من عام ١٩٤٢ ، فلبى الدعوة راضيا مرضيا ، مخلفا رسالتين في الأخلاق الدينية ، ورسالة في السيرة النبوية ، وكان قد شرع في وضع كتابين في التفسير والاصول ، ولم يتمهما لصعود روحه الى ياربها الأعلى .

ولعله من المصادفات الغريبة ، انه وهو المجاهد الوطنى كما رأيت ، ان يلقى ربه في يوم تاريخى في حياة مصر ، بل هو مفتاح ثورتها الكبرى ، ثورة ١٩١٩ : هو اليوم الذى ذهب فيه سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فمى الى المعتمد البريطانى مطالبين بالاستقلال ، وكان يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ : وكان يطلق عليه « عيد الجهاد الوطنى »

وارى واجبا على قبل ان أضع القلم ، أن اذكر له حادنين هامين يدلان على شجاعته في ابداء رأيه ، وهى خصلة ما أحوج علماءنا اليها في هذا العصر .

الأول : بعد مانجح الانجليز في اثاره الشريف حسين على الحكم التركى، وانسحبت الجيوش التركية من البلاد العربية الخاضعة له ، نصبوه ملكا على الحجاز ليكون أداة طيعة لتنفيذ سياستهم في المنطقة العربية ، ثم فكروا في دعم مركزه فجعلوا منه خليفة للمسلمين ، واقترحوا على حلفائهم وعلى الحكومات الخاضعة لسلطانهم ، مبايعته بارسال وفود من علمائها الى مكة في موسم الحج تعلن في اثنائه هذه المبايعه في حفل دينى كبير يقام في المدينة المقدسة ، فطلبوا الى السلطان حسين كامل - الذى نصبوه سلطانا على مصر تحت حمايتهم في أولى أيام الحرب العالمية الأولى - تأليف وفد دينى لهذا الغرض . فطلب السلطان الى المرحوم الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية لذلك العهد ، أن يختار له عالما يجمع الى علمه ورعا و « ديبلوماسيه » ولباقة ، ليرأس الوفد المصرى ، فرشح له الشيخ اللبان قائلًا للسلطان : انه خير العلماء صلاحية لهذا الامر .

ودعى الشيخ لمقابلة السلطان في قصر رأس التين بالاسكندرية - وكان قد عرف بأمر هذا الوفد ومهمته من صديقه الصحافى الكبير المرحوم الاستاذ أمين الرافعى - فلبى الدعوة - فدار بينهما الحوار القصير التالى أدونه كما سمعته من الشيخ نفسه :

السلطان : أنا طول عمرى أتوقع ان تقوم لى بخدمة كبيرة ، وقد آن الاوان لتقوم بهذه الخدمة . أريد منك ان تذهب على رأس وفد الى مكة لمبايعه الحسين خليفة .

الشيخ اللبان : وانا كذلك كنت اتطلع الى فرصة تسنح لى لأخدم فيها عظمه مولانا السلطان ، ولكن يؤسفنى أن صحتى فى الوقت الحاضر لا تساعدنى على السفر ، وقد قرر لى الأطباء ذلك . الى هذا فان دينى يمنعنى من مبايعة خليفة نصبه غير مسلمين ، هم الانجليز . ان الخليفة يجب أن يكون مستقلا وقادرا على حماية نفسه والدفاع عن رعيته ، والحسين غير مستقل ، فهو محمى من الانجليز ، ولا يستطيع الحماية ولا الدفاع .

السلطان : طاوعنى ، وخليك تحت « البنديرة » (أى العلم) .
الشيخ : لا استطيع .

السلطان : قم ، يظهر ان دماغك ناشفة !!

وانصرف الشيخ راضيا عما صنع . وبعد اشهر قليلة ذهب السلطان ليصلى الجمعة فى جامع أبى العباس المرسى ، وكان الشيخ من الحضور ، واتفق ان جلسته جاءت خلف السلطان مباشرة ، فالتفت اليه وقال له :

— يا شيخ عبد المجيد ، وجدت لك بلد توافق صحتك ، وهى اسيوط!
فقال الشيخ : اى بلد اؤدى فيها عملى . .

فلماذا اختارت الحاشية الدساسة ، مدينة اسيوط لينقل اليها الشيخ؟
لان معهد اسيوط لم يكن به سوى السنة الاولى الابتدائية ، والشيخ كان يدرس لطبة السنة النهائية أو السنة الثانية عشرة كما يسميها الازهريون ، ومعنى هذا الانتقاص من قدر الشيخ الجليل .

لكن الله لم يرد به الا خيرا ، فظل كما هو بمعهد الاسكندرية ، لان السلطان بعد هذا الحديث فى المسجد ، مرض اياما انتقل بعدها الى رحمة الله .

اما الحادث الثانى ، فتمثل فى ذلك الحفل العظيم الذى دعا الشيخ الى حضوره فى مستهل عام ١٩٣٠ فى أرض الجمعية الزراعية الملكية — المعارض اليوم — بالجزيرة « للاستماع الى خطاب هام » ولبى الدعوة اليه الوف من الازهريين والمثقفين من جميع المعاهد والطبقات والطوائف ، فخطب فيهم خطبا شديدا محتجا فيه على ابعاد الشيخ المرازى — رحمه الله — عن مشيخة الأزهر باذ سبب — وكان اللبان مرشحا ليخلفه — وأعلن انه كمصرى وكرجل دين يعتز بكرامته ، لا يقبل أن يعامل شيخ الأزهر وشيخ الاسلام هذه المعاملة التى ياباها الحر الكريم ، واقترح على الحاضرين ، وكانوا عدة الوف ، ارسال برقية احتجاج الى ولاة الامر ، فوافقوا على اقتراحه ، وارسلت البرقية ، وتلقاها المسئولون ، فعدلوا طبعاً عن ترشيحه ، وعينوا بدلا منه المرحوم الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى .

ومع هذا كان دعاة الفرقة والسعى بالعداوة والبغضاء بين المتحابين ،
يذيعون ان كلا من التسيخين : اللبان والمراغى خصم لصاحبه ، بسبب تلك
القوى السى ورد ذكرها . ولكنى اشهد الله انى ما سمعت من كليهما الا كل
خير وحسن فى اخيه ، بل لقد كان المراغى يتلقى العزاء فى وفاة الشيخ اللبان
مع انجاله . وهو مكلوم ، موزع القلب حسرات ، على صديقه الذى رحل
وخلفه وحيدا .

فادا اردت أن أزيدك حديثا عن الشيخ قلت : لقد شملته عناية الله فزادته
بسطة فى العلم والجسم ، وسعة الرزق والجاه ، لا يمارى ولا يداجى ، يقول
الحق فى جلاء ووضوح وصراحة ، متواضع ، يحترم الصغير ويوقر الكبير ،
عاشى للناس أكثر مما عاشى لنفسه ، لم يضق صدره بصاحب حاجة ، بل
يبدو سعيدا اذا قضاها له وانصرف سعيدا مسرورا ، وكان مع تقدم سنه
يحمل قلبا فنيا ، وعزما قويا ، تحلى برجولة كاملة عاملة ، كان دأبا على
عمله منصرفا اليه ، فلم يغب عن مكتبه فى الكلية طوال سنوات عمله بها ،
الا اياما تعد على اصابع اليدين .

انعم الله عليه بذرية سالحة ، فأنبتها نباتا حسنا ، ونشأها تنشئة
كريمة ، وجهد فى تعليمهم وتثقيفهم ، حتى كان منهم الوزير والسفير والقاضى
والمربى الكامل الفاضل .

لقد انجب طيب الله ثراه ، الأستاذ سعد اللبان - رحمه الله - من وزراء
المعارف والأوقاف السابقين ، والدكتور ابراهيم اللبان - مد الله فى عمره -
عميد دار العلوم العليا الأسبق ، ومحمد الشافعى اللبان - رحمه الله -
القاضى السابق وأول رئيس لمجلس ادارة بنك الائتمان العقارى بعد أن رأس
مجالس ادارات بنوك أخرى ، ومحىى الدين اللبان - رحمه الله - وكبل قلم
قضايا الاوقاف السابق ، وكمال اللبان - رحمه الله - مستشار السفارة
المصرية فى لندن السابق ، ومحمد عبد الشافى اللبان - مد الله فى عمره - وكيل
وزارة الخارجية وسفير مصر فى سويسرا السابق .

وبعد : فانى لأرجو أن أكون قد جلوت صفحة رجل كريم ، عاش لوطنه
ولدينه ، عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، لم يسع الى شهرة ، ولم يبيخ الا
رضى الله ورسوله . . راجيا أن يتأسى بسيرته شيوخنا وعلماؤنا الأجلاء .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

الشمع ٢٥٠ قرشا